معالم إرشادية

لصناعة طالب العلم

بقلم

محمد عوامة



دار اليسر

دار المنهاج

معالم إرشادية

لصناعة طالب العلم

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

دار المنهاج للنشر والتوزيع

جدة ـ هاتف رئيسي 6326666 ـ فاكس 6320392

الإدارة 6300655 ـ المكتبة 6322471

ص. ب 22943 ـ جدة 21416

الموزعون المعتمدون

- السعودية : مكتبة الشنقيطي ـ جدة ـ هاتف : ٦٨٩٣٦٣٨
  مكتبة الزمان ـ المدينة المنورة ـ هاتف : ٨٣٦٦٦٦٦
  دار التدمرية ـ الرياض ـ هاتف : ٤٩٢٤٧٠٦
  مكتبة العبيكان ـ الرياض ـ هاتف : ٤٦٥٠٠٧١ـ٤٦٥٤٤٢٤
  مكتبة المتنبي ـ الدمام ـ هاتف : ٨٤١٣٠٠٠
- الإمارات العربية المتحدة: مكتبة دبي للتوزيع ـ دبي
  هاتف : ٢٢١١٩٤٩ـ٢٢٢٤٠٠٥ ـ فاكس : ٢٢٢٥١٣٧
  دار الفقيه ـ أبو ظبي ـ هاتف ٦٦٧٨٩٢٠ ـ فاكس ٦٦٧٨٩٢١
- الكويت : دار البيان ـ الكويت ـ هاتف : ٢٦١٦٤٩٠
- مملكة البحرين : مكتبة الفاروق ـ المنامة ـ هاتف : ١٧٢٧٢٢٠٤
- مصر : دار السلام ـ القاهرة ـ هاتف : ٢٧٤١٥٧٨
- سوريا : دار السنابل ـ دمشق ـ هاتف : ٢٢٤٢٧٥٣
- جمهورية اليمن : مكتبة تريم الحديثة ـ تريم ـ هاتف : ٤١٧١٣٠
- أندونيسيا : دار العلوم الإسلامية ـ سورابايا ـ هاتف : ٦٠٣٠٤٦٦٠
- تركيا : مكتبة الإرشاد ـ اسطنبول ـ هاتف : ٠٢١٢ ٦٣٨١٦٣٣
- لبنان : الدار العربية للعلوم ـ بيروت ـ هاتف : ٧٨٥١٠٨

www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com

دار اليسر للنشر

المدينة المنورة ـ المملكة العربية السعودية

الموقع الإلكتروني: www.dar-alyusr.com - للمراسلة على البريد الإلكتروني: info@dar-alyusr.com

قامت بطباعته وإخراجه دار قرطبة للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت ـ لبنان ص ب : ٥٠١٣ ـ ١٤ ـ فاكس : ٠٠٩٦١١/٦٥٩٠٧٣

مَعَالِمُ إِرْشَادِيَّة

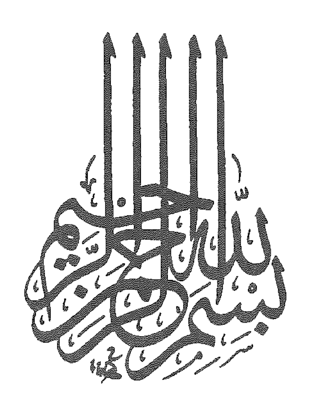
لِصِنَاعَةِ طَالِبِ العِلْمِ

بقلم

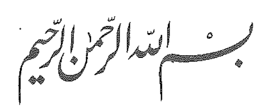
محمّد عوّامة

دار اليسر





المقـدّمَة



الحمد لله رب العالمين، الفتاح العليم، والصلاة والسلام على أنبياء الله ورسله أجمعين، وأفضلُها وأعظُمها على أفضلهم وأعظمهم سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله، المبعوث رحمة للعالمين، ومن مظاهر رحمته للعالمين: أنه صلى الله عليه وسلم بُعث معلِّماً ميسِّراً[1]، صلوات الله وسلاماته عليه، وعلى آله وأصحابه، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن العلم ـ من حيث هو ـ أشرف مطلوب، وكلُّ علم يَشرُف بشرف المعلوم، والعلمُ الشرعي بوسائله وغاياته أشرفُ ما يُطلب ويُسعى إليه، لأن المؤمن العامل به يزداد إيماناً، وعملاً صالحاً، وخُلُقاً حسناً، وبالعلم يمكن أن تتحقَّق للعالَم كلّه السعاداتُ والكمالات بوجوهها كلِّها، في دينهم ودنياهم.

ولا بد للوصول إلى العلم بالشيء من طلبه، فالطلب له: وسيلة للظفر به، وهذه الوسيلة (الطلب) جزء أساسي منه، فلا يمكن الحصول على

---

(١) روىٰ مسلم ٢: ١١٠٤ (٢٩) من حديث طويل، عن جابر مرفوعاً، وفي آخره: «إن الله لم يبعثني معنِّتاً ولا متعنِّتاً، ولكن بعثني معلِّماً ميسِّراً». معنِّتاً: مشدِّداً. متعنِّتاً: طالباً زلَّتهم. وعلى هذا الهَدْي النبوي ينبغي أن يكون حال كلّ معلِّم.

الشيء إلا بالطلب، ولا بدّ للظفر به من تحقُّق وسائل السير في طريقه على هُدى وبصيرة، لنيل المآرب على الوجه الذي يرومه الطالب المجدّ.

والذي يحقِّق النجاح والظفر للطالب: أن يترسَّم خُطى الناجحين الظافرين في أمورهم الحسيّة أو المعنوية، ليصل كما وصلوا.

كما أنه حقٌّ على كل متقدِّم سابق، أن ينير الدرب لكل متأخر لاحق، فيُفيدَه من خِبراته، ويرشده في مسيرته، فلا تتكرر الأخطاء، ولا تتجدَّد العَثَرات، فـ «الدين النصيحة».

وكنت أشعر ـ يوماً بعد يوم ـ بالحاجة الماسَّة إلى هذا (الإرشاد)، في خاصة نفسي، وفي غيري من إخواني طلاب العلم، وما كنت أجد كتاباً بلسان العصر، يُسعف ويُروي الغُلّة، مع علمي بأن الكتابة في هذا الصدد تحتاج إلى كاتب وقلم تتوفَّر فيه مواهبُ ومواهبُ، منها: أن يكون صاحبهما جمع بين التعليم القديم العريق، والتعليم الجديد (الرقيق) «وبضدِّها تتميَّز الأشياء».

فلهذا كنت أكرِّر رجائي، من فضيلة سيدي العلامة البصير الأريب الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله، أن يتحف طلاب العلم بكتابٍ فيه مقوِّماتُ النبوغ في العلم، كما أتحفهم بكتابيه: «صفحات من صبر العلماء»، و«قيمة الزمن عند العلماء»، ووافق أخيراً، لكن لم يكتب شيئاً، تغمده الله برحمته.

ولما كان: ما لا يدرك كلُّه لا يترك جُلُّه (بل: لا يترك قُلُّه)، كنت أنتهز الفرصة المناسبة لأكتب كلمات أو صفحات، خلال ما كتبتُه وأسميته بـ «أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين»، كما كتبت أقلَّ منه في البحث

الذي كتبتُه قبله، وأسميته «أثر الحديث الشريف في اختلاف الأئمة الفقهاء رضي الله عنهم».

ثم رأيت أن أكتب ما أصل إليه بـ «جُهد الْمُقِلّ»، وأستغفر الله من تجاوز الحدود، فـ (إن الله لا يحب المعتدين)، فكتبت هذا الذي يراه إخواني طلبة العلم، وأكثرت من النقل عن ذَيْنك الكتابين، راجياً من الله عز وجل النفعَ به، والتوفيق إلى ما قصدتُ إليه: أن يكون كالأخذ باليد إلى «صناعة طالب العلم»، ثم: دعوةً صالحة من قارئ كريم.

وجاء هذا البحث في أربعة أبواب رئيسية، تحت كل باب منها عدة فصول، أو معالم.

* * * * *

الباب الأول

بيان العلم المقصود هنا، وأهميته، وفضله

الفصل الأول

بيان العلم المقصود بهذا البحث

إن العلم المقصود فيما أكتبه: هو العلم الشرعي النافع.

وإن أول معلِّم للإنسان الذي خلقه الله من عَلَق: هو الله جل جلاله، علَّمه الله بالقلم، وعلَّمه ما لم يعلم.

ثم أقام سبحانه سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم معلِّما للأميين ـ ثم لغيرهم ـ، فعلَّمهم الكتاب الكريم، والحكمة ـ وهي السنة المطهرة ـ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ الجمعة: ٢.

وإنما كان تعليمُه صلى الله عليه وسلم أمتَه للكتاب والحكمة فقط: لأنهما الوحي الإلهي ـ الذي به تكون سعادة الأمم ـ وهما الغاية، وما سواهما فوسائل مؤدِّية إليهما.

ولما كان القوم معاصرين للتنزيل وأسبابه، لم يكونوا بحاجة إلى ما

يسمَّى بالفقه وأصوله، فهُم بفهمهم وفقههم للغة القرآن، ومعايشتهم لأحداث التشريع، في غُنية عن ذلك، مع أنهم كانوا يفزعون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أيٍّ مشكلة.

وأما علم السيرة والسِّيَر ـ أي: أحكام المغازي ـ: فهم رجاله، وبهم قامت أحداثه.

وأيضا: لم يكونوا بحاجة إلى علوم اللغة العربية، فهم أهل اللسان والبلاغة.

كما لم يكونوا بحاجة إلى تلك العلوم العقلية كالمنطق وآداب البحث والمناظرة، ونحوها من العلوم التي اضطُّر إليها علماؤنا السابقون لظروف وملابسات زمنية.

وعلى هذا: لم تكن ثَمة حاجةٌ إلى غير علم الكتاب والسنة، وهذه كانت مهمةَ النبي صلى الله عليه وسلم التي ناطها الله تعالى به: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ النحل: ٤٤، فما ثَمَّ إلا المنزَّل، وتبيينه.

و(عملية العلم) قائمة على هذه الأركان الأربعة: العلمُ بالكتاب والسنة، والمتعلمُ، والمعلِّم، وعمليةُ التعليم القائمةُ بينهما، وبين هذه الأركان ارتباطٌ جدٌّ وثيق، ولهذا كان لا بدّ من حصول تداخلٍ بعضَ الشيء في بعض المنارات والمعالم التي سأتحدث عنها، مع حرصي على التمييز بين ما يتوجب على الطالب نفسه من الاهتداء بهذه المنارات، والسير وراء هذه المعالم، وبين ما على أستاذه من تربيته له وتسليكه، في منارات ومعالم أخرىٰ، ليتم لنا ما نريده من تكوين (طالبِ علمٍ) في

بدايته، و(عالمٍ عاملٍ) في مستقبله، إن شاء الله تعالىٰ.

وجعلت المعالم الأولىٰ هي الباب الثاني، والمعالم الثانية هي الباب الثالث والرابع، مع اعتذاري عن بعض ما حصل من تداخل.

وشرف العلم: تابع ونابع من شرف المعلوم، والمعلوم هنا: كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ولا أعظمَ منهما.

والمتعلم: شرفه بشرف مطلوبه. وشرف المعلِّم بشرف ما يعلِّم.

والتعليم: يشرفُ بشرف ما يُنتج ويورِّث.

ولولا هذه الأركان الأربعة: لما بقي دين الإسلام إلى اليوم وإلى ما شاء الله.

فهل رأيتَ عاقلاً يتخلَّف عن الانتساب إلى هذه المكارم!.

روى البزار، والطبراني في «الصغير»[1] من حديث أبي بكرة بسند ضعيف: «اُغْدُ عالماً، أو متعلماً، أو مستمعاً، أو محباً، ولا تكن الخامسة فتهلِكَ». أي: مبغضاً. وأزيد على هذه الأربعة من خلال ما جدَّ للناس: أو خادماً لأهله، أو ناشراً لعلومه بالطباعة، أو بافتتاح المدارس، أو باذلاً للمال كافلاً لطلابه، وما إلى ذلك.

أركان هذا العلم:

تقدم أن العلم المرادَ به هنا: هو العلم بالأحكام الشرعية.

---

(١) البزار في «مسنده» (١٣٤)، و«المعجم الصغير» (٧٨٦).

وعمدته ركنان:

الركن الأول: استمداده من مصادره الأصيلة: الكتاب الكريم، والسنة المطهرة، وإجماع العلماء، وما شابه الإجماعَ (ندرة المخالف)، والقياس الصحيح على واحد من المصادر الثلاثة المذكورة.

قال الإمام ابن عبد البر[1]: «قال الشافعي رحمه الله: ليس لأحد أن يقول في شيء حلالٌ ولا حرام إلا من جهة العلم، وجهةُ العلم: ما نُصَّ في الكتاب، أو في السنة، أو في الإجماع، فإنْ لم يوجد في ذلك: فالقياس على هذه الأصول ما كان في معناها».

ثم قال: «قال محمد بن الحسن ـ هو الشيباني صاحب أبي حنيفة رحمهما الله تعالى ـ: العلم أربعة أوجه:

١ ـ ما كان في كتاب الله الناطق، وما أشبهه.

٢ ـ وما كان في سنة رسول الله المأثورة، وما أشبهها.

٣ ـ وما كان فيما أَجمع عليه الصحابة، وما أشبهه، وكذلك ما اختلفوا فيه لا يُخْرَج عن جميعه.

٤ ـ وما استحسنه عامة فقهاء المسلمين، وما أشبهه وكان نظيراً له، قال: ولا يخرج العلم عن هذه الوجوه الأربعة».

ثم فسَّر ابنُ عبد البر مرادَ الشافعي في قوله «ما كان في معناها»، ومرادَ محمد بن الحسن بقوله «وما أشبهه»: بأنه القياس.

(١) في «جامع بيان العلم» (١٤٠٣، ١٤٠٥).

والركن الثاني: ما يحصل للمشتغل بهذه المصادر الأربعة للشريعة الإسلامية من نور في القلب، يُورِث خشيةً لله تعالى راسخةً فيه، نابعةً ظاهرةً على جوارحه، متمثّلة في سلوكه العام.

قال الإمام مالك رحمه الله تعالى[١]: «العلم والحكمة نور يهدي الله به من يشاء، وليس بكثرة المسائل»، وروى الرامهرمزي[٢] عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: «ليس العلم عن كثرة الحديث، إنما العلم خشية الله».

أقسام العلم وأنواعه:

وهذا العلم المُثمِر لهذه الثمرة: هو العلم الذي أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب الازدياد منه، بقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ طه: ١١٤، وهو الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل اللهَ تعالى إياه، وعلَّمنا أن نسأل اللهَ جل جلاله إياه، ووصفه بأنه علم نافع، واستعاذ بالله من علم لا ينفع.

روى ابن أبي شيبة[٣] وغيرُه، عن أم سلمة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو إذا صلى الصبح حين يسلِّم: «اللهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً طيباً، وعملاً متقبَّلاً»، وفي رواية: «ورزقاً واسعاً...».

---

(١) كما في «المحدث الفاصل» (٧٥٥) و«جامع» ابن عبد البر (١٣٩٥، ١٣٩٨، ١٣٩٩).

(٢) «المحدث الفاصل» (١٤٠٠، ١٤٠١).

(٣) في «مصنفه» (٢٩٨٧٥)، وغيره كثير، ينظر تخريجه هناك.

وهذا الدعاء النبوي الكريم يحتاجه كلُّ مسلم، فإن كان طالب علم ودراسة: سأل الله علماً نافعاً، وإن كان طالب عمل حرّ مسترزِق: سأل الله رزقاً طيباً حلالاً، وهو في خلال يومه وليلته لا بدّ له من القيام بأعمالٍ دينية واجبة عليه، كالصلوات الخمس، فهو يسأل الله تعالى: عملاً متقبَّلاً، فالعمل غير المقبول ـ أيضاً ـ مردود على صاحبه، ووبال عليه.

وروى ابن أبي شيبة[1] عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه كان يدعو في سجوده: «اللهم لك سجد سوادي[2]، وبك آمن فؤادي، اللهم ارزقني علماً ينفعني، وعملاً يرفعني»، والعمل المقبول هو الذي يرفع صاحبه عند سيده ومولاه جل جلاله.

التحذير من العلم غير النافع:

وينبغي لطالب العلم أن يكون شديد الحذر من الوقوع في شِبَاك هذا العلم ـ غير النافع ـ، فإن الواقعين فيه كثير، وما أحوج طالبَ العلم إلى أن يُوقِظ نفسَه من دخائل العلم وأمراضه، فيحاسبَ نفسه، ويفتّش نواياه، قبل فوات الأوان. وإن مما يُوقظه من هذه الغَفَلات قراءةَ رسالة الإمام الذهبي رحمه الله «بيان زَغَل العلم والطلب»، ولو أن رجلاً من أهل العلم والعمل والنصح في زماننا، كتب كما كتب الذهبي في أيامه، لأسْدى إلى طلاب العلم ومَن وراءهم خيراً كبيراً، فإن بين مَن يزعم الاشتغال بالفقه

---

(١) في «مصنفه» (٤٤٠٦) أيضاً.

(٢) في «مفردات الراغب»، و«النهاية» لابن الأثير ـ مادة س و د ـ: أن السواد يعبَّر به عن المرئي من بعيد، سواء أكان إنساناً، أم متاعاً، أم غير ذلك.

الإسلامي، وبالحديث الشريف، مَنْ يُحْذَر جانبه أكثر مِن الحذر من الجهل والجهال.

وقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم: أن أول من يُقضَى عليه يوم القيامة مجاهد شهيد، وعالم معلِّم، وغني متصدِّق[١].

وهذا هو الحديث الرابع في كتابي «من صحاح الأحاديث القدسية»، وهذا محل الشاهد من الحديث، ثم شرحه.

يقول صلى الله عليه وسلم: «إن الله تبارك وتعالى ينزل إلى العباد ليقضيَ بينهم، وكلٌّ أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل يُقتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارىء: ألم أعلِّمكَ ما أنزلتُ على رسولي؟ قال: بلى يارب، قال: فماذا عملتَ فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل، وآناء النهار، فيقول الله له: كذبتَ، وتقول الملائكة: كذبتَ، ويقول الله: بل أردت أن يقال: إن فلاناً قارىء، فقد قيل ذاك».

وقلت في شرحه هناك ـ غفر الله لي ـ مع شيء من الاختصار:

فأول الثلاثة: رجل جَمَع القرآن فحفظه وعَلِمه، يقول الله تعالى له يوم القيامة ـ وهو أعلم بحاله ـ: «ألم أُعَلِّمْك ما أنزلتُ على رسولي؟»، قال له ذلك تمهيداً لإقامة الحجة عليه، فيقول: «بلى، يا رب»، وهذا إقرارٌ بنعمة عظيمة تَستَوجبُ منه شكراً عظيماً، هي نعمة العلم: العلم

---

(١) عند مسلم ٣: ١٥١٣ (١٥٢)، والترمذي (٢٣٨٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

بالقرآن الكريم، كلام رب العالمين، الذي جمع الله فيه الخير من أطرافه، فما من خير في الدنيا والآخرة إلا ودلَّنا عليه القرآن الكريم.

إلا أن هذا الرجل لم يكن من الموفَّقين، ولم يَصْدُقِ الله في دنياه، ولا في آخرته، فلما قال الله له: «ماذا عَمِلتَ فيما عَلِمتَ؟ قال: كنت أقوم به آناءَ الليل وآناءَ النهار»، زعم أنه شَغَل نفسَه بالقرآن الكريم ساعاتِ الليل وساعات النهار كلَّها، وغفل هذا المسكينُ عن روح الاشتغال بالقرآن وتفسيره وفقهه، وعن المقصود الأكبر من ذلك! غَفَل عن أن الله سبحانه يحبُّ من عبده أن يُطَهِّر قلبَه وقَصْدَه من كل ما سواه، وأن واجب العبد إفرادُ الله تعالى بالإرادة والتوجُّه.

ومَن قرأ القرآن الكريم لا يَجهلُ هذه المعاني عِلْماً، لكنه قد يجهلُها عَملاً وسلوكاً، كهذا الصنف من القُرَّاء. نسأل الله علماً نافعاً.

ولذلك «يقول الله تعالى له: كذبتَ، وتقول له الملائكة: كذبتَ»، ثم يبيِّن الله له حقيقةَ دَخيلته فيقول له: «بل أردتَ أن يقال: إن فلاناً قارىء، فقد قيل ذاك»، أي: قد وصلتَ إلى ما سعيتَ إليه، وحصلتَ على ما ابتغيتَه، فلم يبقَ لك مطلوب آخر.

ثم يُؤمَر به فيُسحبُ على وجهه ويُلقى في النار، كما جاء في رواية مسلم.

فإن قيل: فما ينبغي أن يكون قصد طالب العلم بعلمه؟

قلت: ينبغي أن يكون قصدُه: اللهَ، ومرضاته.

أن يكون قصدُه الله: في تعلُّمه ودراسته وكلِّ وسائل العلم، حتى في

ذهابه وإيابه وشرائه الكتب.. واختياره الشيوخ الذين يَصحَبُهم، فيصحبُ من يدلُّه على الله حاله ومقالُه أكثرَ من غيره.. حتى في زِيِّه وملبسه العلمي، يصحِّح نيته ويُحسِن قصده.

وأما ابتغاؤه مرضاةَ الله: ففي عمله بعلمه، وتطبيقه كلَّ خير يتعلَّمه، فما يمرُّ به أمرٌ إلهيٌّ أو نبويٌّ إلا بادر إلى تطبيقه، وما يمرُّ به نهي منهما إلا انتهى عنه.

فما تمضي عليه أيام إلا عُرف الخير في هديه وسلوكه، وما تمضي عليه سنواتٌ قلائلُ إلا وهو عالم عامل.

ومما يُحَذَّر منه طالب العلم في أيامنا هذه: انهماكُه في القيل والقال، وكثرة السؤال، والفضولِ في الكلام، والأخذِ في الجدال والمراء، وإغرابُه في المسائل والمحفوظات، والنقول عن غير المتداوَل من الكتب لدى العلماء، وأخذُه للعلم عن الكتب لا بالتلقِّي من أفواه العلماء عن طريق مصاحبتهم ومزاحمتهم عليه بالرُّكب.

وكذلك انصرافُه عن أدب العلماء وأخلاقهم مع سلفهم وشيوخهم، بل الازدراءُ بمن يتأدَّب بأدب العلماء، ووصفُه بأوصاف مُزْرية تنفِّر الناس منه، وظنٌّ بعض الناس أن العلم ما هو إلا معلوماتٌ تُحفظ ـ أو تُحفظ أسماءُ المصادر التي تبحثُ في مسألة كذا وكذا ـ ويتشدَّق بها في المجالس، أو تُملأ حواشي الكتب وتعليقاتُها بأسماء هذه المصادر، وحينئذ يُدْعَى صاحبها: بالعلامة المحقق، وعالم الوقت، ومحدث العصر..

أو باللجوء إلى الوسائل المعاصرة (برامج الحاسوب) التي فَتَنت

الناس، وجعلتهم يظنون أنهم صاروا بها علماء حفاظاً مجتهدين، استغنوا بها عن سؤال الشيوخ والعلماء عن كل صغيرة وكبيرة، وما دَرَوْا أن هذه البرامج ـ إن استعملها غير المختصين المتمكنين ـ سوف تكون من أعظم الوسائل التي ستحقِّق فيهم قول رسول الله ﷺ: «.. اتّخذ الناسُ رؤساءً جهالاً، فسُئلوا فأفتوا الناس بغير علم، فَضَلُّوا وأضلّوا».

وأبعدُ من هذا وذاك مَنْ لا يشتغل بشيء من العلم إلا بمعرفة ما طُبع وما صَدَرَ حديثاً، ومَنْ حقَّقه، وأين مخطوطاتُه.. وهو يَظنُّ أنه صار مَرْجعَ العلماء، ومَحَطَّ الفضلاء.. .

والعلم فوق هذا، وغيرُ هذا، العلم: هو الحفظ والفهم، والعمل والتطبيق، والتخلُّق والتعبدُ، والتصوُّن والتحقُّق، والمحاسبةُ للنفس والمراقبة لله، والاهتداء بهدي سيد الأنبياء عليه أفضل الصلاة السلام، والاقتداء بسيرة أصحابه وتابعيه بإحسان.

ولْيقرأ ـ بشكل عام ـ سيرةَ السلف وتراجِمهم وحياةَ الأئمة العلمية والعملية، وليقرأ ـ بشكل خاص ـ: «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي، و «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جَمَاعة، ومقدِّمة «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي، و«شرح حديث أبي الدرداء: من سلك طريقاً يَلتمسُ فيه علماً» و «فضل علم السلف على الخلف» كلاهما لابن رجب الحنبلي.

فإنه إنْ قرأ هذا وأُشْرب قلبُه حبَّ ما يَقرأ: كان من المُفلحين إن شاء الله.

على أنه لا يُغنيه شيء عن صحبة العلماء العاملين، فإنهم هم الكتب الناطقة.

فإنْ سأل سائل: فماذا تسمِّي من يحفظ ويحقق ويُوصَف بالعالم والحافظ والفقيه.. وهو على غير ما رسمتَ ووصفتَ؟.

فأقول في الجواب: أسميه بما سمَّاه به الإمام الوَرِع أبو محمد ابن أبي جَمْرة الأندلسي، صاحبُ «بهجة النفوس»، المتوفَّى سنة ٦٩٩ رحمه الله تعالى، وذلك فيما حكاه عنه تلميذه ابن الحاجِّ في كتابه الشهير «المدخل».

قال ابن الحاج رحمه الله تعالى[1]: «وكان سيدي أبو محمد ـ ابن أبي جمرة ـ رحمه الله إذا ذُكر له واحد من علماء وقته ممن يُنْسَب إلى طَرَف مما ذُكِر ـ أي: العلم، وقليلٍ من العمل، بالنسبة إلى ذاك الزمان: أواخر القرن السابع ـ ويُثْنى عليه إذ ذاك بفضيلة العلم، يقول: ناقل، ناقل، خوفاً منه ـ رحمه الله ـ على منصب العلم أن يُنْسبَ إلى غير أهله، وخوفاً منه أن يكون ذلك كذباً، لأن الناقل ليس بعالم في الحقيقة، وإنما هو صانع من الصنَّاع»!! انتهى النقل عن «صحاح الأحاديث القدسية».

وفي القضاة والمحامين العاملين في المحاكم المدنية أو المحاكم الشرعية، من يُتْقِن فقه المعاملات، أو فقه الأحوال الشخصية، أكثرَ من كثير من طلاب العلم أو أساتذتهم من الشيوخ، لكن هؤلاء الشيوخ على هدى ونور، وجُلُّ أولئك القضاة والمحامين على غير ذلك، فلم يدوَّن العلمُ الشرعيُّ، والموروثُ المحمدي، ليُحفظ في الأدمغة، أو يُلقى في

---

(١) في أوائل «المدخل» ١ : ١٧

المحاضرات والندوات فقط، بل لإحقاق الحق، وإبطال الباطل، وللعمل به، ونشره وتوريثه للأجيال اللاحقة على وجه صحيح صافٍ لم يتلوَّث ولم يتعكّر بشهوات ونَزَاوت شخصية.

روى ابن أبي شيبة[1] عن زيد بن أرقم، وأبي هريرة، وابن مسعود، وأنس، وحبيب بن أبي ثابت مرسلاً، وابن عَمْرو: التعوُّذَ بالله «من علم لا ينفع»، وروى قبلُ عن جابر - رضي الله عنهم أجمعين - الجمع بين الأمرين: «سلوا الله علماً نافعاً، وتعوَّذوا بالله من علم لا ينفع»، وينظر تخريجها كلِّها هناك من كتب السنة الأخرى.

التنبيه إلى القسم الثالث من أقسام العلوم:

وسؤالُ الله تعالى العلمَ النافع، والعياذُ به من علم لا ينفع: يفيد أن هناك علماً ثالثاً هو العلم الضارّ، فالذي لا ينفع: هو الذي لا ينفع ولا يضر، وهو في حقيقته ضارّ، لأن صاحبه المبتلَى به: ينفق مواهبه وماله ووقته وجهده بما لم ينتفع به في آخرته، فهو في الحقيقة ضارّ، وإذا كان الذي لا ينفع: يُستعاذ بالله منه، فالذي يتمحَّض ضرره يُستعاذ بالله منه من بابِ أولى.

وخلاصة الأمر: أن العلم النافع هو الذي حملك على العمل به، وعلى المزيد من التقرب إلى الله تعالى بالأعمال الصالحات، وأنار قلبك، وهذَّب نفسَك فصرْتَ تقف عند كل أمر صغير أو كبير، كما كان يقف

---

(١) (٢٩٧٣٤، ٢٩٧٣٦ - ٢٩٧٣٨، ٢٩٧٥٣، ٢٩٧٦٠، ٢٧٢٤٨).

عنده النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه الصادقون، اللهم أكرمنا بذلك.

وقد كتب الحافظ ابن رجب رحمه الله كلمات نافعات في علامات العلم النافع وأهله، والعلم الذي لا ينفع، في جزئه المبارك «فضل علم السلف على علم الخلف»[١]، فتنظر.

كما عبَّر عن مكانة الكلمة من العلم النافع، وأهميتها، أصدقَ تعبير، الإمام التابعي الكبير الشعبي رحمه الله تعالى، بقوله: «لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن، فحفظ كلمة تنفعه فيما يستقبله من عمره، رأيتُ أن سفره لا يضيع»[٢].

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

---

(١) ص٧٠ وما بعدها.

(٢) أسنده إليه الخطيب في «الرحلة في طلب الحديث» ص٢٦.

الفصل الثاني

بيان أهمية المنهج لطالب العلم

معنىٰ المنهج:

أما المعنى اللغوي: فتقول كتب اللغة عن: النَّهْج، والْمَنْهج، والْمِنهاج: إنه الطريق الواضح البيِّن المسلوك، جاء هذا المعنى في كتب اللغة وما شاكلها، ينظر ـ مثلاً ـ «الصحاح»، و«لسان العرب»، و«المصباح المنير» مادة: ن هـ ج، و«مفردات» الراغب الأصفهاني، والمناوي في «التوقيف»، و«الكليات» لأبي البقاء الكَفَوي[1].

وما يزال أهل المغرب العربي يسمون بعض طرقهم: نهج فلان، أو: نهج كذا، كما يسمي المشارقة: طريق فلان، أو: طريق كذا.

وإذا كان (المنهج) هو (الطريق)، فإن طلب العلم على غير منهج: سير على غير طريق بيِّن واضح مسلوك، وبالتالي: فإنه سير إلى غير هدف محدَّد، وما كان كذلك فهو إلى غير النجاح أقرب، ومن هنا ندرك أهمية المنهج.

---

(١) «الصحاح» ١: ٣٤٦، و«لسان العرب» ٢: ٣٨٣، و«المفردات» ص٨٢٥، والمناوي في «التوقيف» ص٦٨١، وأبو البقاء ص٥٢٤.

أهمية المنهج:

وكما أننا ندرك أهمية المنهج مما تقدم من معناه اللغوي، فكذلك ندركها من واقع الناس في مختلِف ألوان حياتهم، فإن أي عمل دنيوي أو علمي يقوم به أي شخص، لا يصل، ولن يصل، إلى نتائج سليمة إذا لم يضع خِطةً ودراسة لعمله أولَ ما يبدأ به. ولْنفرِض مثلاً على ذلك:

أراد طالبان أن يكتبا بحثاً أو أطروحة علمية لنيل درجة الماجستير أو العالِمية (الدكتوراة)، أما أحدهما: فكتب خِطة وافية لبحثه من أوله إلى آخره، وأما الآخر: فبدأ بالكتابة دون شيء من هذا، فإن النتيجة الحتمية لكل واحد منهما سابقةُ التصوّرِ في ذهنِ كلِّ سامعٍ لأمرهما: نجاح الأول، وخسران الثاني أو تعثُّره.

ولما كان الطريق ـ طريق العلم ـ طويلاً وشاقاً: رأيت أن أجعل أثناء رسمه لطالبه معالمَ ومناراتٍ ومِحطّات ترشد السالك فيه، وتنير له خُطاه ـ إن شاء الله ـ، سميتها: معالم.

والمَعْلَم في اللغة: الأثر الذي يُستدل به على الطريق، هذا لفظ الجوهري في «الصحاح»، ونحوه في «لسان العرب»[1]: «ما جُعل علامة وعَلَماً للطرق».

واللفظ الأول يعبِّر عن مرادي تماماً، فهذه المعالم جعلتها آثاراً ومناراتٍ يَستدل بها طالب العلم، ويسترشد بها في طريقه للوصول إلى

---

(١) «الصحاح» ٥: ١٩٩١، و«اللسان» ١٢: ٤١٩.

العلم، على هدى وبصيرة إن شاء الله تعالى.

وإن جُلَّ أركان هذا المنهج ومناراته التي سأتحدث عنها، مستفاد من واقع طالب العلم الدارس له في المعاهد الشرعية ـ قبل ذَوَبانها ـ، مع زيادات يسيرة كمّاً، مهمةٍ نوعاً، مع إلقاء الضوء عليها، ولفت النظر إليها.

لكنْ كونُ جلِّ هذه المنارات مستفاداً من الواقع: لا يعني عدمَ الحاجة إلى الكتابة، أو تقليلَ الإفادة، ذلك لأن جُلَّ المشتغلين الآن في البحث والتأليف والتحقيق هم من غير الدارسين للعلم، المتلقين له في المدارس والمعاهد الشرعية، بل هم من المتطفلين على موائده، المتعالمين على أهله، وزيادةً على ذلك فإن وسائل الإعلام المرئية والمسموعة صارت لهم أبواقاً ترفع أصواتَهم أمام أهل العلم الصامتين إلا عن قولهم: إنا لله وإنا إليه راجعون، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ويا ليت قومي يعلمون!!.

كما أن غِياب المنهج ـ منهج طلب العلم ـ عن أذهان الناس في هذه العقود الأخيرة من الزمن: رفع عندهم أناساً كثيرين غيرَ متأهلين للرِّفعة، وخفض وغيَّب عن الساحة العلمية بعض الرفعاء المتأهلين للصدارة العلمية، كما أظهر على الساحة العلمية أناساً كثيرين من (أنصاف المتعلمين)، كان لهم على العلم ويلاتٌ وويلات!.

فهذا سبب من أسباب الضرورة الملحَّة على الكتابة في بيان المنهج السليم لتحصيل العلم الشرعي.

وسبب آخر يلحّ على الكتابة فيه أكثر من الذي قبله: هو أننا قادمون على مستقبل علمي قريب، لكنه قاتم غير مشرق، يحصد المسلمون والمتعلمون منه آثاراً علمية سيئة، وذلك من جراء الدراسة عن طريق

الجامعات المفتوحة!! وسيأتي الحديث ـ إن شاء الله ـ عن هذا وعن الذي قبله[1].

من هم أصحاب القرار في أهمية المنهج؟ :

إن أصحابَ الاختصاص في كل أمر ومجال: علمي أو دنيوي، هم الذين يدركون أهمية ما يقرِّره هؤلاء المختصون، فالطبيب هو الذي يدرك أهمية الوقاية من عدوى نقل الدم، أو السُّعال، أو عُطاس المزكوم ـ مثلاً ـ، فيشدِّد في الوقاية حال نقل الدم، ويشدِّد على جلساء المزكوم، وعلى المزكوم نفسه، وكثير جداً من الناس لا يدركون أهمية نصائح الطبيب لهم في ذلك، فيتساهلون ويتواكلون، أو يستخفّون بوصايا الطبيب.

ونرى علماء القراءات ـ مثلاً ـ يشددون على الناس في قراءة القرآن الكريم، في إخراج الحروف من مخارجها الصحيحة، وغيرُهم يرى ذلك تشديداً وتضييقاً لا حاجة إليه، مع أن القول قول القراءِ لا غيرِهم. وهكذا وهكذا أصحاب الفنون الأخرى.

وكذلك القول هنا في أهمية طلب العلم على منهج سليم رشيد، يدرك أهميتَه طالبُ العلم الذي يعيش آلامَ انتهاكِ حرماتِ العلم والدين، ممن يحملون ألقاباً علمية لكنها خلاّبة!، فهؤلاء هم الذين يدركون ضرورة الحثّ على الرجوع إلى منهج علمائنا السابقين في طلب العلم وتحصيله،

(١) صفحة ١٨٩.

ليرى المسلمون من جديد أنهم يعيشون بين علماء عاملين، راسخين صادقين، يتمثَّل فيهم العلمُ الحقُّ، والإسلامُ الحيُّ، والأمةُ بآمالها وآلامها، يعيش الواحد منهم للأمة لا لنفسه.

وأما الذين وصفتهم: يحملون ألقاباً علمية خلاّبة: فهؤلاء يَسعون لتغييب أهمية المنهج عن أسماع الناس، لئلا يُكشَف حالهم وعُوارهم، فيُطردون عن الساحة العلمية، هم ومن جَرَّأهم على اقتحام كرامة العلم، فارتقوا منابر الإعلام، فحقَّ عليهم ـ وفيهم ـ قول القائل(١):

تصدَّر للتدريس كل مُهَوَّس ... بليدٍ يسمى بالفقيه المدرِّس

---

(١) هو الإمام النحْوي أبو الحسن علي بن أحمد بن علي الفالي ـ بالفاء ـ المؤدب، المتوفى ٤٤٨، ذكرها له ابن الجوزي في «المنتظم» ١٦: ١٠، وياقوت في «معجم الأدباء» ٤: ١٦٤٦، وابن كثير في «البداية» ١٥: ٧٣٩، إلا أن ياقوتاً ذكرها قبلُ ٣: ١٠٦٣ في ترجمة أبي علي الحسين بن سعد الآمدي، اللغوي المتوفى ٤٤٤!.

ويؤكد أنها للفالي لا للآمدي: أن ابن الجوزي وياقوتاً نفسه أسندا إليه من رواية الخطيب التبريزي، عنه، أبياتاً أخرى فيها هذا المعنى، وهي:

لما تبدَّلت المجالس أوجهاً ... غيرَ الذي عهدتُ من علمائها

ورأيتها محفوفة بسِوى الأُلى ... كانوا ولاةَ صدورها وفِنائها

أنشدت بيتاً سائراً متقدِّماً ... والعينُ قد شَرِقتْ بجاري مائها

أما الخيام فإنها كخيامهم ... وأرى نساء الحيِّ غيرَ نسائها

وكأن الشيخ عُمِّر طويلاً، ورأى الفرق بين من أدركه الشيخ، وبين من أدركوه.

ثم، إن الفالي هذا، غير الإمام أبي علي القالي ـ بالقاف ـ صاحب «الأمالي» المشهورة، وسبق ذهن الحافظ ابن كثير فنسب «الأمالي» إلى أبي الحسن الفالي.

فَحُقَّ لأهل العلم أن يتمثَّلوا ببيت قديم شاع في كل مجلس:

لقد هُزِلتْ حتى بدا من هُزالها كُلاها وحتى سَامَها كلُّ مفلس

والله سبحانه هو المسئول أن يوفقنا لما فيه رضاه، وأن يُعيد الحقَّ إلى أهله ونصابه.

* * * * *

الفصل الثالث

بيان فضل العلم والعلماء

تمهيد :

لقد كتب السابقون واللاحقون من علمائنا رضي الله عنهم في هذا المضمار ما يصعب حصره تعداداً ـ فضلاً عن حصره جمعاً ـ، وكنت أودّ ـ وأنا في أول سنوات الطلب ـ لو جُمع في مجلد واحد بين ما كتبه الإمام حجة الإسلام الغزالي رحمه الله في أول «الإحياء»، وبين ما كتبه الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله في شرح حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً» الذي طبعه أولَ من طبعه الأستاذ محب الدين الخطيب بعنوان: شرح حديث أبي الدرداء، وبعد سنينَ طويلة طُبع باسم: إلى ورثة الأنبياء، ثم، وثم، ويضاف إليهما: ما يُنتَقَى مما كتبه الإمام ابن القيم رحمه الله في «مفتاح دار السعادة»، كنت أودُّ لو جُمع هذا في مجلد واحد لكان عملاً نافعاً مبروراً، ومع هذا فهو غيض من فيض، مما كتبه العلماء في هذا الباب.

وممن كتب فيه من أئمتنا وسلفنا: الإمام أبو خيثمة زهير بن حرب النسائي (١٦٠ ـ ٢٣٤) رحمه الله تعالى، سماه «كتاب العلم»، وهو مطبوع، وهو من شيوخ الشيخين البخاري ومسلم، كما أفرد له الأئمة الآخرون باباً خاصاً في دواوينهم الأصول: عبد الرزاق، وابن أبي شيبة في مصنفيهما،

والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، وابن حبان، والحاكم، وأوسعهم الدارمي، من رقم (١٠١ ـ ٦٤٩)، لأنه ما اقتصر على المرفوعات، فأتى بالكثير الطيِّب المفيد، تحت ٤٠ باباً، وأقلُّهم ذكراً لأحاديث العلم: مسلم، رحمهم الله جميعاً.

ثم أفرده بالتأليف: الخطيبُ في كتابيه: «آداب الفقيه والمتفقه»[(١)]، و«الجامع لآداب الراوي وأخلاق السامع»، كما أفرد في الحضّ على العمل بالعلم جزأه «اقتضاء العلمِ العملَ»، وابنُ عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله»، ثم أفرد باباً من أبوابه: الإمام أبو سعد السمعاني، فكتب رحمه الله: «أدب الإملاء والاستملاء»، وأتى فيه بغُرَر ودُرَر.

وجمع الحافظ الهيثمي فأمتع، في كتابه خزانة السنة النبوية «مجمع الزوائد»[(٢)]، وهو مصدر غنيّ جداً في هذا الموضوع.

ومع ذلك فلا بدّ من كلمات في مبحثين:

١ ـ كلمات في فضل العلم، وفضل مجالسه.

٢ ـ وكلمات في فضل العلماء، وأثرهم في الأمة.

* * * * *

---

(١) هكذا سماه النووي في «تهذيب الأسماء واللغات» ٣: ١٢٣، وسماه الطوفي في «شرح مختصر الروضة» ٣: ٢٨٨: «آداب الفقيه والمتفقه»، والأول أولى، وإن طبع مرتين باسم: «الفقيه والمتفقه».

(٢) ١: ١١٩ ـ ٢٠٢.

المبحث الأول

كلمات في فضل العلم، وفضل مجالسه

فضل العلم في كتاب الله:

أما فضل العلم في كتاب الله: فإن الله تعالى قد أبان عن فضل العلم في قصة آدم عليه الصلاة والسلام في أوائل سورة البقرة، وذلك أنه تعالى أسجد ملائكته لآدم، فأظهر فضله لهم ولمن سواهم من الإنس والجن إلى يوم الدين، لكن جاء هذا الأمر بالسجود بعد أن علَّمه تعالى الأسماء كلها، وأظهر لهم توقُّفهم عن الإجابة، فحينئذ أمرهم بالسجود لآدمَ العالمِ بالأسماء كلها.

فبالعلم شَرُفَ آدم عليه الصلاة والسلام، وبه استحقَّ سجود الملائكة.

ومن هنا ـ والله أعلم ـ كان احترام متوارث من الملائكة الكرام لطالب العلم، إذ تضع أجنحتها استرضاء منهم لطالب العلم، كما هو معلوم من الحديث المشهور: «من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً، سلك الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم»[1].

وهذا الإكرام الإلهي صالح للاستدلال به هنا على فضل العلم، كما هو صالح للاستدلال به على فضل العلماء.

---

(١) هذا لفظ الترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣).

ومما أشار إليه القرآن الكريم على فضل العلم: أنه مَنْجاة لصاحبه من كل مهلكة، وكلُّ هلكة ونجاة تكون بحسبها، في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا: ففي قصة الهدهد مع سيدنا سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فإنه توعّد الهدهد بالعذاب الشديد أو بالذبح، فكانت نجاته من هذا الوعيد الشديد بالعلم، قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ النمل: ٢٢، وكان من جرّاء ذلك إيمان بلقيس وقومها.

وأما في الآخرة: ففي آخر قصة قارون من سورة القصص: الآيات ٧٦ ـ ٨٣: افتتن أهل الدنيا بمال قارون وأُبَّهته وقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾، أما ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ الحقيقي، وهم الربانيون فقالوا: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، ثم أظهر الله لهم حقيقته: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ..﴾ إلى قوله ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، فهذه عاقبة الغافلين، وهذه عاقبة العالِمين العاملين.

ومن طرائف ما يذكر في هذا المعنى ـ نجاةِ العالم بعلمه ـ: أنه كان من رجالات الخوارج وقوادها رجل اسمه: شبيب بن يزيد الشيباني الخارجي، خرج على عبد الملك بن مروان، وكان في نهاية أمره أن مات غَرَقاً، وكان قد ادعى لنفسه الخلافة، وكان أحدُ أتباعه ـ واسمه عِتبان الحروري ـ قال: فيه أبياتاً يصفه فيها بـ: أمير المؤمنين، وذلك في قوله مخاطباً لعبد الملك ابن مروان:

فمنّا حُصينٌ، والبَطينُ، وقَعنب ومنـا أميـرُ المـؤمنـين شـبـيـب

وبعد أن غَرِق شبيب جيء بعتبانَ هذا إلى عبد الملك، فقال له: ألستَ

القائل يا عدو الله:

فمنّا حُصين، والبَطين، وقعنب ومنـا أميـرُ المـؤمنـين شـبـيـب

فقال عِتبان: لم أقل كذا يا أمير المؤمنين، وإنما قلت:

ومنا ـ أميرَ المؤمنين ـ شبيب

فاستحسن قوله، وأمر بتخلية سبيله، فنجا من القتل بعلمه بتصريف الكلام[١].

ومن أشهر ما يذكر في فضل العلم من كتاب الله: قوله جل شأنه لنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم في سورة طه: الآية ١١٤: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، ولم يأمر الله تعالى حبيبه صلى الله عليه وسلم ـ ولا غيره ـ من عباده بالازدياد من شيء إلا بالازدياد من العلم، ولا ريب أن المراد به: العلم بالله تعالى، وبصفاته وجلال قدسه، وبما يزيده قرباً منه سبحانه.

وقد رُوي مرفوعاً: «اللهم انفعني بما علمتَني، وعلِّمني ما ينفعني، وزدني علماً»[٢].

وقال الله عز وجل في أواخر سورة التوبة: الآية ١٢٢: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ

(١) وممن ذكر هذا الخبر ابن خلكان ٢: ٤٥٦ وقال: هذا الجواب في نهاية الحسن، وفسّره.

(٢) رواه الترمذي (٣٥٩٩) ـ وضعَّفه ـ، وابن ماجه (٢٥١)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

والمعنى الإجمالي لهذه الآية الكريمة ـ في حق مَن جاء بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ـ هو: أنه لا ينبغي لجميع المومنين أن ينفروا للجهاد، بل تخرجُ جماعة منهم لطلب العلم والتفقه في الدين، ثم ترجع هذه الجماعة إلى أقوامهم ليعلِّموهم ويفقهوهم، فعَدَلَ طلبُ العلم الجهادَ في سبيل الله، وهو هو الجهاد الذي هو ذِرْوة سَنام الإسلام[١].

وقد نقل ابن عبد البر خبرين عن أبي الدرداء رضي الله عنه يفيدان أن طلب العلم يعدِل الجهاد، بل نقل بينهما عن ابن عباس: أن تعليم العلم خير من الجهاد[٢].

ونقل أبو الحسن القابِسي المالكي في «الرسالة المفصَّلة لأحوال المتعلمين»[٣]، عن الإمام ابن الإمام: محمد بن سُحنون (٢٠٣ ـ ٢٥٦) رحمهم الله تعالى: أنه كان لرجل ولدٌ يطلب العلم عند ابن سُحنون، فجاء الأبُ ـ ولَنِعم الأبُ كان ـ إلى الأستاذ وقال له: إني أتولّى العمل بنفسي، لا أشغَلُه عما هو فيه من طلب العلم، فقال له الأستاذ محمد بن سحنون ـ ولَنِعم الأستاذُ كان ـ: «أعلمتَ أن أجرك في ذلك أعظمُ من الحج والرباط والجهاد!». أي: الحج النافلة، والرباط والجهاد الكفائي.

(١) وينظر تفسير الآية عند ابن العربي في «أحكام القرآن» ٢: ٦٠١، وفي القرطبي ٨: ٢٩٣ زيادة عليه.

(٢) في «جامعه» (١٥٩، ١٦١، ١٦٠).

(٣) صفحة ٨٩.

وفي هذا الخبر درس لكل والد أو وليّ أمر، أكرمه الله بتوجّه أحد أبنائه إلى طلب العلم: أن يكفيه مؤونة العيش، ولو بقدر المستطاع، وأن يفرِّغه من مسئولية عيش الدنيا، ونفقاتها، ومشاغلها، ليبقى مستريح البال، منقطعاً لدراسته.

وأَذْكَرني هذا بحديث أنس بن مالك رضي الله عنه[١] قال: كان أخوانِ على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فكان أحدهما يأتي النبيَّ صلى الله عليه وسلم، والآخر يحترِف، فشكى المحترِف أخاه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: «لعلك تُرْزَقُ به».

وقال الحافظ ابن رجب[٢]: «إن العلم أفضل أنواع الذكر، وهو أفضل أنواع الجهاد»، وقال في «لطائف المعارف»[٣]: «نصَّ الأئمة الأربعة على أن طلب العلم أفضل من صلاة النافلة، لأن العلم مصباح يُستضاء به في ظلمة الجهل والهوى، فمن سار في طريقٍ على غير مصباح: لم يأمن أن يقع في بئرٍ بَوَارٍ فيعطب».

أما البرهان الزَّرْنُوجيُّ رحمه الله فأفاد أن هناك خلافاً ضعيفاً في هذا الحكم، فقال[٤]: «إن طلب العلم أمر عظيم، وهو أفضل من الغَزَاة عند أكثر العلماء».

---

(١) الذي رواه الترمذي (٢٣٤٥) وقال: حسن صحيح.

(٢) في «شرح حديث أبي الدرداء» ص٣٧.

(٣) صفحة ١٣٠.

(٤) في كتابه «تعليم المتعلم» ص٨٣.

وأما فضل العلم في السنة النبوية : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، رواه ابن ماجه[١] وغيره، من حديث أنس وغيره، وللعلماء كلام كثير عليه من حيثُ صحةُ إسناده، ومن حيثُ معنى متنه.

أما الإسناد : فهو صحيح بطرقه الكثيرة، وللإمام السيوطي جزء خاص به، وهو مطبوع، وقد رواه عن أنس رضي الله عنه فقط واحد وعشرون راوياً.

أما معناه : فالفرض فرضان:

فرض عينٍ للوقت الذي أنتَ فيه: ماذا يتطلَّبه الإسلام منك، وذلك: كمن بلغ سنَّ التكليف قبل صلاة العصر ـ مثلاً ـ فإن الله عز وجل يطلب منه ويكلِّفه فوراً بتعلِّم أحكام الطهارة والصلاة، ليقوم بها ويؤدي صلاة الظهر قبل خروج وقتها بدخول صلاة العصر.

وإن كان بلوغه في أشهر الحج، فإن لله عليه أداءَ فريضة الحج، فعليه أن يتعلم أحكام الحج فوراً ويستعدّ لأدائه، إن توفرت له الواجبات الأخرى، وهكذا حكم الزكاة، وحكم الصيام.

كما أن لهذا الإنسان البالغ الآن أبوين، فعليه أن يتعلم حقوقهما عليه في حال حياتهما ـ أو بعد وفاتهما، إن كانا تُوفِّيا ـ، ويؤديها عن علم وبصيرة، لا عن وراثةِ مجتمعٍ وأعرافٍ وعادات، وهكذا يتدرج في العلم

---

(١) في «سننه» (٢٢٤).

الشرعي المفروض عليه، في كل مرحلة من مراحل حياته: إذا تزوج، وإذا وُلد له، أو صار مدرساً، أو صار قاضياً، وهذا أمر مشهور تقريره بين أهل العلم[1].

وفرض كفاية: إنْ قمتَ به أنت كَفَيت غيرك المؤونة، أو قام به غيرك كفاك المؤونة، إنْ حصلت الكفاية وقُضي الأمر، وإلا فلا. فعشرةٌ من الأطباء المسلمين المختصين بأمراض القلب ـ مثلاً ـ لا تقوم بهم الكفاية في البلد، فحينئذ نقول: على المسلمين أن يجنِّدوا من أبنائهم عدداً آخر لهذا الاختصاص، إلى أن تحصل بهم الكفاية، وإلا فالمسلمون الذين في البلد كلُّهم آثمون غير قائمين بهذه الفريضة.

وهكذا يقال في عدد العلماء المختصين بالعلوم الشرعية التي يَحتاجها المسلمون في البلد، وعددِ المهندسين المسلمين، وعدد الاقتصاديين المسلمين، وعددٍ وعددٍ، على جميع المسلمين في كل بلد: أن يوفِّروا حاجيات المسلمين فيها من أبنائهم، ويتدرَّجوا في العدد والعُدَّة، في الكمِّ والكيف، مع توسع البلد وتنوّع حاجياتها.

والمهم هنا: التنبيه إلى سداد الحاجة الإسلامية الملحَّة في هذا الصدد، وأنه يجب على المسلمين أن يوظِّفوا ويجنِّدوا من أبنائهم للعلوم

---

(١) وقد تكلم في هذ الأمر كثير من العلماء السابقين واللاحقين، ولعل أقدم من نُقل عنه كلام في بيانه الإمام المجتهد عبد الله بن المبارك رحمه الله، نقله عنه ابن أبي العوام في «فضائل أبي حنيفة» (٥٧٠) فينظر فيه.

الشرعية بمختلِف اختصاصاتها، وبمختلفِ حاجيات كل بلدة، ما يسدُّ حاجاتها كمّاً وكيفاً.

تنوع حاجات المجتمع لطالب العلم:

وحاجات كل مجتمع مسلم ـ من حيث الجملة، وفي كل بلد، ولو كان غير إسلامي ـ متنوِّعة إلى ثلاث مراحل من طلبة العلم:

١ ـ يحتاج إلى عدد وفير من طلاب العلم النابهين يقومون بوظيفة المحاريب والمنابر. أي: إلى أئمة وخطباء، يسدُّون هذه المهمة الإسلامية، والشعيرة الدينية، وإن من أشراط الساعة أن تَفتقر الأمة وتفتقد إماماً حين تُقام الصلاة في المسجد، فلا يجدون إماماً يتقدمهم، فيتدافعون الإمامة: أنتَ، لا بل أنتَ، وهكذا.

٢ ـ ويحتاج كل مجتمع مسلم إلى عدد من العلماء المتمكِّنين في علمهم ووعيهم، يفتونهم بحكم الله في مهماتهم العامة.

٣ ـ ويحتاجون إلى طائفة أعلى من التي قبلها في تمكُّنها واختصاصاتها العلمية، وفي وعيها وثقافتها العامة، لتقول حكم الله في المشكلات العامة، ولتردَّ شُبَه المضلِّلين حول كل العلوم الإسلامية، من شُبه في العقيدة، وحول كتاب الله تعالىٰ، وحول السنة النبوية، والفقهِ الإسلامي، واللغةِ العربية لغةِ الكتاب والسنة، وما إلى ذلك مما يتصل بالإسلام.

وهذه الطائفة الأخيرة لا تكون وقفاً على بلد دون بلد، بل هي للمسلمين في كل مكان، ولذلك فإن إعداد هذه الطائفة عدداً وعُدَّة واجب

على المسلمين عامة، ويجب أن يكونوا دائماً في نَمَاء وازدياد، لأن الحاجة إليهم هي في نماء وازدياد دائم من قِبَل أولئك الذين يفتحون على المسلمين ثغرات الشبه والإضلال.

وللحديث عن هذه الطائفة، وعن الحاجة إليها، وعن سُبُل إعدادها، وعن مجالات علمها وعملها: مناسبةٌ أخرى واسعة إن شاء الله تعالى ويسّر.

ومما يُذكر في فضل العلم: هذا الحديث الذي يُروى عن عبد الرحمن ابن أَبْزَى الخُزاعي، وهو من طبقة صغار الصحابة، أو: عن أبيه أبزى، قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، فأثنى على طوائفَ من المسلمين خيراً، ثم قال: «ما بالُ أقوامٍ لا يفقِّهون جيرانهم، ولا يعلِّمونهم، ولا يُفَطِّنونهم، ولا يأمرونهم، ولا ينهونهم! وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم، ولا يتفقَّهون، ولا يتفطَّنون! والله ليعلِّمَنَّ قوم جيرانَهم، ويفقهونهم، ويفطِّنونهم، ويأمرونهم، ويَنْهَوْنهم، وليتعلَّمَنَّ قوم من جيرانهم، ويتفقهون، ويتفطنون، أو لأُعاجلنَّهم العقوبةَ في دار الدنيا»، ثم نزل فدخل بيته.

فقال قوم: مَن ترونه عَنَى بهؤلاء؟ فقالوا: نُراه عنى الأشعريين، هم قوم فقهاء، ولهم جيران جُفَاة من أهل المياه والأعراب، فبلغ ذلك الأشعريين، فأتوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله! ذكرتَ قوماً بخير، وذكرتَنا بشرّ! فما بالُنا؟ فقال: «لَيعلِّمَن قوم جيرانَهم، ولَيفقِّهُنَّهم، وليفطِّنُنَّهم، وليأمُرُنَّهم، ولَيَنْهَوُنَّهم، وليتعلَّمَن قوم من

جيرانهم، ويتفطَّنون، ويتفقهون، أو لأُعاجِلنهم بالعقوبة في دار الدنيا».

فقالوا: يا رسول الله، أنُفطِّن غيرنا؟ فأعاد قوله عليهم، وأعادوا قولهم: أنُفطِّن غيرنا؟ فقال ذلك أيضاً، قالوا: فأَمهِلنا سَنَة، فأمهلَهم سنة ليفقهوهم، ويعلموهم، ويفطِّنوهم، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾[(١)].

وفي هذا من الزجر الشديد «لأُعاجِلنّهم بالعقوبة في دار الدنيا»: ما لم يَرِد في غيره من النصوص المؤكِّدة على أهمية التعلم والتعليم، فلذلك خَصَصتُه بالذكْر.

وسبب ذلك: أنه بالعلم تصح العقيدة، والعبادة، والمعاملة، والأخلاق والسلوك، والعقل والفكر، والعلم، وإذا صحت هذه الجوانب

---

(١) الآيتان ٧٨ ـ ٧٩ من سورة المائدة. والحديث رواه الطبراني في «الكبير» ـ من القسم غير المطبوع ـ، ومن طريقه أبو نعيم في «المعرفة» ١: ٣٦٦، ورجح أنه من رواية عبد الرحمن بن أبزى، وتبعه ابن الأثير في «أُسْد الغابة» ١: ٥٦، ورواه البخاري في «الوحدان»، وابن منده في «المعرفة» أيضاً، ومن طريقه ابن عساكر ٣٢: ٥٨، على أنه من رواية أبزى والد عبد الرحمن، ورجحه الحافظ في «الإصابة» ترجمة أبزى. والله أعلم.

وممن رواه: ابن السكن وقال: إسناده صالح، كما في «كنز العمال» ٣: ٦٨٤ ـ ٦٨٥ (٨٤٥٧)، وذكره المنذري في «الترغيب» ١: ١٢٢ وصدَّره بلفظٍ يُشعر بقبوله.

من المسلم صحَّتْ له دنياه وآخرته، واستقام منه كل شيء[١].

وسبب آخر: لو كان شيء أفضلَ من العلم لورَّثه الأنبياء مِن بعدهم لأممهم، لكنهم لم يورِّثوهم شيئاً غيرَ العلم.

وروى الطبراني في «المعجم الأوسط» بإسناد حسن، كما قال الهيثمي[٢]: أن أبا هريرة رضي الله عنه مرَّ بسوق المدينة، فوقف عليها فقال: يا أهل السوق ما أعجزكم! قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقْسَم وأنتم هاهنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه! قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد، فخرجوا سراعاً إلى المسجد، ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: ما لكم؟ قالوا: يا أبا هريرة فقد أتينا المسجد فدخلنا، فلم نَرَ فيه شيئاً يُقْسَم! فقال لهم أبو هريرة: أما رأيتم في المسجد أحداً؟ قالوا: بلى، رأينا قوماً يصلّون، وقوماً يقرؤون القرآن، وقوماً يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: ويحكم، فذاك ميراث محمد صلى الله عليه وسلم.

وروى الخطيب في «شرف أصحاب الحديث»[٣] عن الأعمش قال: بينما ابن مسعود يوماً معه نفر من أصحابه، إذْ مرّ به أعرابي فقال: على ما

---

(١) وينظر ما سيأتي ص٥٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما من عند ابن عبد البر والخطيب.

(٢) «المعجم الأوسط» (١٤٢٩)، و«مجمع الزوائد» ١ : ١٢٤.

(٣) صفحة ٤٥.

اجتمع هؤلاء؟ قال ابن مسعود: على ميراث محمد صلى الله عليه وسلم يقتسمونه.

فليهنأ طلاب العلم بهذا الشرف، وحرام عليهم أن ينظروا إلى غيرهم أنهم أشرف منهم!.

أما فضل مجالس العلم: فهي نور الإسلام، وبها حياته واستمراره وامتداده، أسند الخطيب[١] إلى الإمام أحمد: أنه أقبل عليه أصحاب الحديث، وبأيديهم المحابر فأومأ إليها وقال: هذه سُرُج الإسلام، ولما قرأت الخبر في مصدره المذكور، أردت أن أعلّق عليه بشرح هذا التشبيه العظيم، لكني رأيت فضيلة الأخ العلامة الدكتور أحمد محمد نور سيف وفّى بشرحه في كتابه الممتع «من أدب المحدثين في التربية والتعليم»، فقال جزاه الله خيراً[٢]: «هذا تشبيه رائع، فهي ـ المحابر ـ وإنْ أظلمت بواطنها بالأحبار، فمن دياجيرها أشرق نور الهداية والرشاد، وإذا ما انغمست فيها الأقلام، وجرتْ على القرطاس والطروس، سطّرتْ من الحكم ولطيف المعاني ما يحيى النفوس، ويُذكي الأفهام، ويبدِّد الشكوك والأوهام، ويَهدي القلوب الحائرة إلى نور الإسلام».

ومن أخبار الترغيب في هذا الباب: ما رواه الدارمي عن ابن سيرين[٣]:

---

(١) في «الجامع» (٥١٣)، وانظر« شرف أصحاب الحديث» له ص٥٣ ـ ٥٤.

(٢) صفحة ٢١٣.

(٣) (٣٥٧)، وابن عبد البر في «الجامع» (٢٤٨) مطوّلاً، من وجه آخر.

أنه دخل المسجد فرأى حميد بن عبد الرحمن الحِميري في حلقة العلم، ورجلاً آخر يقصُّ، فتردّد مع أيهما يجلس، ثم جلس فنَعَس وأخذته سِنَة، قال: فأتاني آتٍ، فقال: ميَّلتَ ـ أي تردّدت ـ إلى أيهما تجلس؟! إن شئتَ أريتُك مكان جبريل من حميد بن عبد الرحمن.

وإنما أردت من ذِكر هذا الخبر لفتَ النظر إلى زيادة فيه على ما هو مشهور من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً[1]: أن الملائكة ـ عموماً ـ تحفُّ مجالس المتدارسين كتابَ الله تعالى، وهذا من العلم، وعند مسلم[2] من حديث معاوية رضي الله عنه أيضاً: أن الله تعالى يباهي ملائكته ـ عموماً ـ بأهل هذا المجلس، أما أثر الدارمي هذا ففيه أن سيد الملائكة الكرام عليهم السلام جميعاً ـ وهو جبريل ـ يحضر مجلس العلم[3].

وقال الحافظ ابن رجب[4]: «رأى بعضهم في المنام النبيَّ صلى الله عليه وسلم قاعداً في المسجد، والناس حوله، ومالكٌ قائم بين يديه، وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم مسك، وهو يأخذ منه قُبضة

---

(١) عند مسلم ٤: ٢٠٧٤ (٣٨)، ثم رواه عقبه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما.

(٢) برقم (٤٠).

(٣) أسند البخاري في «تاريخه الكبير» ٢ (٢٦٩٧) في ترجمة حميد إلى ابن سيرين قوله: «كان حميد أعلم أهل المِصْرَيْن ـ الكوفة والبصرة ـ قبل أن يموت بعشرين سنة» رحمه الله تعالى.

(٤) في «شرح حديث أبي الدرداء» ص ٤٨.

فيدفعها إلى مالك، ومالك ينشرها على الناس، فأُوِّل ذلك لمالكٍ بالعلم واتباع السنة».

تفضيل مجالس العلم على التفرغ للعبادة:

وحكى القاضي عياض في ترجمة الإمام عبد الله بن وهب[1] عن أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، عن عمه عبد الله بن وهب، قال أحمد: «كنت مع عمي بالإسكندرية مرابِطاً، فاجتمع الناس عليه يسألونه نشر العلم فقال: هذا بلد عبادة، وقلَّما أمهِّد لنفسي فيه مع شغل الناس، فترك الجلوس لهم في الأوقات التي كان يجلس، وأقبل على العبادة والحراسة، فبعد يومين أتاه إنسان فأخبره: أنه رأى نفسه في المسجد الحرام، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم فيه، وأبو بكر عن يمينه، وعمر عن شماله، وأنت بين يديه، وفي المسجد قناديل تَزْهَر أحسنَ شيء وأشدَّها ضياءً، إذْ خَفَتَ منها قنديل، فانطفأ، فقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم: قم يا عبد الله أَوْقِدْه، فأوقدتَه، ثم آخر كذلك.

ثم أقمت أياماً فرأيت القناديل كلها همَّتْ أن تطفأ، فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما ترى هذه القناديل! فقال صلى الله عليه وسلم: هذا عمل عبد الله، يريد يطفيها.

فبكىٰ ابن وهب، فقال له الرجل: جئتُ لأبشِّرك، ولو علمت أنه يَغُمُّك لم آتِك، فقال: خير، هذه الرؤيا وُعظتْ بها نفسي، ظننتُ أن

---

(١) من «ترتيب المدارك» ١: ٥٦٠.

العبادة أفضل من نشر العلم، فترك كثيراً من عمله للعلم، وحبس نفسه لهم يقرؤون عليه ويسألونه».

ثم، إن الله تعالى أكرمه بأنْ جعل خاتمة حياته في مجلس علم، وذلك أنه ألَّف كتاباً سماه «أهوال القيامة» وصار يقرؤه على الناس بعد فراغه منه، كعادة غيره من العلماء، وبينما هو يقرؤه عليهم ذات يوم خَرَّ مغشياً عليه، فلم يتكلم بكلمة حتى مات بعد أيام، رحمه الله تعالى(١).

ومما يُذكر من أخبار الأحبار، وتقديمهم الاشتغال بفضل العلم على فضل العبادة، ما حكاه القاضي عياض في «ترتيب المدارك»(٢) عن رحلة أسد بن الفرات من القيروان إلى المدينة المنورة، ثم إلى بغداد، وأنه لقي الإمام أبا يوسف القاضي، وأن أبا يوسف أوصى جليساً له بأسدٍ وقال له: «ضُمَّه إليك. لعل الله ينفعك به في الدنيا والآخرة». قال أسد: «فخرجت معه إلى داره، فإذا هو محمد بن الحسن، فلزمته حتى كنت من المناظرين من أصحابه.

قال أسد: قلت لمحمد بن الحسن: أنا غريب، والسماع منك قليل! فقال له محمد: اسمعْ مع العراقيين بالنهار، وجِئني بالليل وحدك، تَبيتُ معي، فأُسمِعك!! فكان إذا رآني نَعَسْت نضح وجهي بالماء».

ثم قال: «قال أسد: رغب إليَّ محمد أن أزامله إلى مكة، فكأني كرهت

---

(١) حكاه المزي ١٦ : ٢٨٥، وابن حجر في «تهذيبه» ٦ : ٧٣، وينظر «ترتيب المدارك» ١ : ٥٦٥ ـ ٥٦٦.

(٢) ١ : ٦٠٩ ـ ٦١٣.

هذا، فقال لي أصحابه: وَدِدنا لو اشترينا هذا منه بعشرة آلاف درهم! فزاملته، فكنت أُسائله عما أريد، وربما سألته وهو في الصلاة، فيمهِّد بالقراءة: يُعْلِمني أنه يصلي، فأقول: تشغل عني بالصلاة وقد قطعت البلادَ إليك!! فيقطع ويجيبني». يريد: إذا فرغ من الصلاة توقف عنها وأجابه، واشتغل معه بالعلم.

ثم ذكر رحلته إلى مصر، إلى ابن القاسم، ليأخذ عنه، قال له ابن القاسم: «كنتُ أختم في اليوم والليلة ختمتين، فقد نزلت لك عن واحدة، رغبةً في إحياء العلم» رحمه الله وجزاه خيراً[1].

وجاء في ترجمة الإمام أبي زرعة الرازي في «طبقات الحنابلة»[2]: عن عبد الله ابن الإمام أحمد أنه قال: لما قدم أبو زرعة نزل عند أبي، فكان كثيرَ المذاكرة له، سمعت أبي يوماً يقول: ما صليت غير الفرض، استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي، وكانت نوافله في أيام عافيته صلاة ثلاث مئة ركعة، نفلاً مطلقاً، وبعد محنته وضعفه صلاة مئة وخمسين ركعة! رضي الله عنه[3].

---

(١) وهذه الرحلة مما ينبغي لطالب العلم قراءتها بإمعان في مصادر ترجمة الإمام أسد بن الفرات، المطوَّلة، ومما فيها: الدلالة على أثر الصحبة والملازمة في قوله: «فإذا هو محمد بن الحسن، فلزمته، حتى كنت من المناظرين من أصحابه».

(٢) ٢: ٥٥.

(٣) كما في «الحلية» ٩: ١٨١.

ونحو هذا عن الإمام أبي يوسف القاضي، في «مناقب أبي حنيفة»[١]، في تركه لورده الصباحي، وخروجه إلى مجلس العلم مع الناس.

وفي «المقفَّىٰ الكبير»[٢] في ترجمة الإمام ابن دقيق العيد رحمه الله تعالى: «لما ظهر «الشرح الكبير» للرافعي، اشتراه بألف درهم، وصار يصلّي الفرائض فقط، ويشتغل بالمطالعة، إلى أنْ أنهاه».

والقدوة في أخبار هذا الباب ـ الاشتغال بالعلم عن النافلة ـ: ما رواه الخطيب[٣]: أن أبا موسى الأشعري أتى عمر رضي الله عنهما بعد صلاة العشاء الآخرة، فقال عمر: ما جاء بك يا أبا موسى الساعة؟ قال: نتذاكر الفقه، قال: فجلسنا ليلاً طويلاً نتذاكر، ثم قال أبو موسى: الصلاة! فقال عمر: إنا في صلاة، قال: فتذاكرنا حتى كان قريباً من الفجر.

والقدوة الثاني: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فقد روى عنه ابن عبد البر[٤] أنه قال: «الدراسة صلاة».

وممن تدارس العلم حتى الفجر من الأئمة المحدثين: وكيع بن الجراح مع عبد الرحمن بن مهدي. وعبد الله بن المبارك مع تلميذه علي ابن الحسن بن شقيق[٥].

---

(١) للموفق المكي ص٤٩٢.

(٢) للمَقْريزي ٦: ٣٧٤.

(٣) في «آداب الفقيه والمتفقه» (٩٥٤).

(٤) في «الجامع» أيضاً (٩٤)، وانظر «شرف أصحاب الحديث» ص٨٣ ـ ٨٥.

(٥) روى ذلك عنهم الخطيب في «الجامع» (١٨٩٩، ١٩٠٤).

ونقل السخاوي في «فتح المغيث»[١] عن الإمام أحمد قوله: «وأيُّ عمل أفضل من طلب العلم؟!».

فإنْ عاق عائق عن ملء الوقت بالعلم، توجهوا إلى العبادة، كما ذكر الذهبي في «السير»[٢] في ترجمة الإمام الحافظ الحجة الناقد النسابة البارع ـ كما وصفه بهذا الذهبي ـ: أبي بكر الحازمي (٥٤٨ ـ ٥٨٤) عن ثمان وثلاثين سنة!! رحمه الله تعالى، وهو صاحب «الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار» ما نصه: «كان الحازمي رحمه الله في رباط البديع، فكان يدخل بيته كل ليلة، ويطالع ويكتب إلى طلوع الفجر، فقال البديع للخادم: لا تدفع إليه الليلة بزراً للسراج. لعله يستريح الليلة، قال: فلما جنّ الليل اعتذر إليه الخادم، لأجل انقطاع البزر، فدخل بيته وصفَّ قدميه يصلي ويتلو إلى أن طلع الفجر، وكان الشيخ قد خرج ليعرف خبره، فوجده في الصلاة».

وهذا تطبيق للتوجيه الإلهي للنبي صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾ سورة الشرح.

* * * * *

(١) ٣: ٢٩٥.

(٢) ٢١: ١٦٧.

المبحث الثاني

كلمات في فضل العلماء، وأثرهم في الأمة

جاء في فضل العلماء العاملين آيات عدّة، من أشهرها وأجلّها في الدلالة: قول الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ آل عمران: ١٨ ـ ١٩، وفي قراءة الإمام الكسائي: ﴿أن الدين عند الله الإسلام﴾.

والمعنى الإجمالي للآية الكريمة: شهد الله والملائكة وأولوا العلم أن الله تعالى واحد، قائمٌ بالقسط، ويشهدون أن الدين عند الله هو الإسلام.

ولقائل أن يقول: هذه شهادة الله عز وجل، وهذه شهادة ملائكته، وهذه شهادة أولي العلم، فأين شهادة الأنبياء والمرسلين؟ والجواب: قال الإمام البغوي[١]: «قوله تعالى ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾: يعني: الأنبياء عليهم السلام. وقال [صالح] بن كيسان: يعني: المهاجرين والأنصار، وقال مقاتل: علماء مؤمني أهل الكتاب: عبد الله بن سلَام وأصحابه، وقال السُّدّي والكلبي: يعني: جميع علماء المؤمنين».

قلت: وهذا من اختلاف التنوُّع لا اختلاف التضادّ، فكل هذه الأقوال

---

(١) في تفسيره «معالم التنزيل» ٢: ١٨.

صحيحة، والأَوْلىٰ أن يقال: إن المراد جميع من ذُكر، والشاهد في الاستدلال بهذه الآية: أن الله ذكر العلماء مع الأنبياء بوصفهم العلمي فقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله[1] ـ وقد ذكر هذه الآية ـ: «فلم يُفرِد الأنبياءَ بالذِّكر، بل أدخلهم في مسمَّى العلماء، وكفى بهذا شرفاً للعلماء أنهم يُسمَّون باسمٍ يجتمعون هم والأنبياءُ فيه».

أما أثر العلماء الربانيين على الأمة: فهو كأثر الأنبياء والمرسلين على أممهم، وذلك بحكم وراثتهم لهم، فأثر الوارث من أثر الموروث.

وقد أجمل بعض العلماء، وفصَّل بعضٌ آخرُ أثرَ العلماء العاملين الربانيين على الأمة، ومنهم الإمام أبو بكر محمد بن الحسين الآجُرِّي (ت ٣٦٠هـ) رحمه الله في أول كتابه الممتع ـ على وَجَازته ـ «أخلاق العلماء»، أنقله على طوله، قال:

«أما بعد: فإن الله عز وجل، وتقدَّستْ أسماؤه، اختصّ مِن خلقه مَن أحبّ فهداهم للإيمان، ثم اختص مِن سائر المؤمنين مَن أحبّ فتفضل عليهم فعلَّمهم الكتاب الحكمة، وفقَّههم في الدين، وعلَّمهم التأويل، وفضلهم على سائر المؤمنين، وذلك في كل زمان وأوان، رفعهم بالعلم، وزيَّنهم بالحلم، بهم يُعرف الحلال من الحرام، والحقّ من الباطل، والضارّ من النافع، والحسن من القبيح.

---

(١) في «شرح حديث أبي الدرداء» ص٥٠.

فضلُهم عظيم، وخَطَرهم جزيل، ورثة الأنبياء، وقرة عين الأولياء، الحِيتانُ في البحر لهم تستغفر، والملائكة بأجنحتها لهم تخضع، والعلماء في القيامة بعد الأنبياء تشفع، مجالستهم تفيد الحكمة، وبأعمالهم ينزجر أهل الغفلة، هم أفضل من العُبّاد، وأعلى درجة من الزهاد، حياتهم غنيمة، وموتهم مصيبة، يذكِّرون الغافل، ويعلمون الجاهل، لا يُتَوقع لهم بائقة ـ أي: شر ـ، ولا يُخاف منهم غائلة ـ أي: ضرر وفساد ـ، بحسن تأديبهم يتنازع المطيعون، وبجميل موعظتهم يرجع المقصِّرون.

جميع الخلق إلى علمهم محتاج، والصحيح على من خالف: بقولهم مِحْجاج، الطاعة لهم من جميع الخلق واجبة، والمعصية لهم محرَّمة، من أطاعهم رَشَد، ومن عصاهم عَنَد ـ أي: انحرف عن الحق ـ، ما ورد على إمام المسلمين من أمر اشتبه عليه حتى وقف فيه، فَبِقول العلماء يعمل، وعن رأيهم يصدُر، وما ورد على أمراء المسلمين من حُكم لا علم لهم به، فبقولهم يعملون، وعن رأيهم يصدرون، وما أشكل على قضاة المسلمين من حكم فبِقول العلماء يحكمون، وعليه يعوِّلون، فهم سراج العِباد، ومنار البلاد، وقِوام الأمة، وينابيع الحكمة، هم غَيظ الشيطان، بهم تحيا قلوب أهل الحق، وتموت قلوب أهل الزَّيغ، مَثَلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء، يُهتدَى بها في ظلمات البر والبحر، إذا انطمست النجوم تحيَّروا، وإذا أسفر عنها الظلام أبصروا».

ثم ذكر الأدلة على ما قال من الآيات والأحاديث والآثار، ومما ذكره

من الأحاديث بسنده، ما رواه[١] أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن مَثَل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء، يُهْتدَى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطَمَسَتِ النجوم أوشك أن تَضِل الْهُداة».

وقد ذكر الله عز وجل في كتابه الكريم ثلاث فوائد للنجوم في السماء، فقال تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ النحل: ١٦، وقال في أول سورة الملك: ٥ : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾.

والعلماء كذلك في أهل الأرض: هداةٌ مرشدون للخلق إلى الحقّ سبحانه وتعالى، وهم زينة لأهل الأرض، وهم كذلك رجومٌ لشياطين الإنس دعاةِ الضلالة، يقومون في وجوههم ويَحولون بينهم وبين عامة المسلمين أن يشوِّشوا عليهم دينهم. ففي الناس: ظلمات الجهل، وظلمات الضلال، ونور العلماء قاشعٌ ماحٍ لكليهما، كما أن نور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كان من قبلُ ماحياً لظلمات الكفر وظلمات الجهل، وهذا يشهد لحديث أَنَس ويقوِّيه.

وقد ساق الإمام ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» تحت عنوان: تفضيل العلم على العبادة آثاراً كثيرة، ونحوه وأكثرُ منه عند صِنْوِهِ الخطيب في «آداب الفقيه والمتفقه» بعناوينَ مختلفةٍ متقاربة[٢].

---

(١) الإمام أحمد ٣: ١٥٧، وفيه ضعف، وله شواهد عند البيهقي في «المدخل» ص٢٧٤.

(٢) ابن عبد البر (٩٠ ـ ١٣٢)، والخطيب (٣٠ ـ ١٥٠) وما بعدها.

ومما علَّقه ابن عبد البر على ابن عباس، وأسنده إليه الخطيب[١]: أن الشياطين قالوا لإبليس: يا سيدَنا ما لنا نراك تفرح بموت العالم ما لا تفرح بموت العابد، والعالم لا تُصيب منه ـ أي: لا تُضِلُّه ولا تُغويه ـ، والعابد تصيب منه! قال: انطلِقوا، فانطلَقوا إلى عابد قائم يصلي، فقالوا: إنا نريد أن نسألك، فانصرَف ـ أي: قطع عبادته وتوجّه إليهم ـ، فقال له إبليس: هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة؟ فقال: لا، فقال ـ إبليس لأصحابه ـ: أترونه كفر في ساعة!.

ثم جاء إلى عالم في حَلْقة يضاحك أصحابه ويحدثهم، فقال ـ إبليس ـ: إنا نريد أن نسألك، فقال: سَلْ، فقال: هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة؟ فقال: نعم، قال: وكيف؟ قال: يقول لذلك إذا أراد: كن فيكون، قال إبليس ـ لجماعته ـ: أترون ذلك لا يعدو نفسه، وهذا يُفسِد عليَّ عالَماً كثيراً».

وأنا أَفْترِض أن القصة حكاية رمزية ـ ليست أثراً، ويتوجَّبُ عليَّ أن أبحث عن سنده وصحته ـ فإن هذا هو حال المتعبِّدين عن غير علم، وهذا هو حال العلماء، بفضل علمهم تكون النجاة في الدنيا والآخرة.

ضرورة سير العبادة على نهج العلم:

ومما يذكر في أن سلامة الإيمان، وتصحيح العبادة، تكون بالعلم: ما قاله القاضي عياض في «ترتيب المدارك» ترجمة ابن وهب أيضاً، قال ابن

---

(١) ابن عبد البر (١٢٧)، والخطيب (٨٩).

وهب: «كان أول أمري في العبادة قبل طلب العلم، يُولَع بي الشيطان، في ذكر عيسى عليه السلام، وكيف خلقه الله، فشكوت ذلك إلى شيخ، فقال لي: اطلب العلم، فكان سببَ طلبي».

ولا ريب أن الكمال هو في الجمع بين الفضيلتين والحُسْنيين: حُسنَىٰ العلم وحسنى العمل، وهذا هو الصراط المستقيم الذي يدعو به المصلي في كل ركعة من ركعات صلواته: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

فقد جاء تفسير المغضوب عليهم والضالين، في السنة النبوية من حديث عديّ بن حاتم رضي الله عنه، الطويل[1]: بأن المغضوب عليهم هم اليهود، وأن الضالين هم النصارى، ولمَ كان ذلك؟ كان لأن اليهود علِموا أحكام الله تعالى، ولكنهم لم يعملوا ببعضها، وتحيّلوا على بعض آخر، فغضب الله عليهم لعصيانهم المتكرر لأوامره، وأما النصارى فأرادوا الطاعة لكنْ سلكوا سبيلها على غير بصيرة ولا علم يتّبعونه ويعملون بمقتضاه، كمن أراد الوصول إلى مكان ـ كالمسجد ـ مثلاً، وهو لا يعرف طريقه، فمشى على غير بصيرة ولا سؤال، فضلَّ الطريق: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ الحديد: ٢٧.

أما الصراط المستقيم ـ صراطُ الذين أنعم الله عليهم ـ فهو غير صراط

---

(١) عند الترمذي (٢٩٥٣، ٢٩٥٤) وقال: حسن غريب، وأحمد ٤: ٣٧٨ (١٩٣٨١)، وابن حبان في «التقاسيم والأنواع» (٤٥٣٣).

المغضوب عليهم: الذين علموا وما عملوا، وغير صراط الضالين: الذي عملوا عن غير علم، بل هو صراط الذين جمعوا بين الحسنيين: حسنى العلم، وحسنى العمل، وذاك هو الصراط المستقيم.

وقد ذكر الحافظ ابن رجب هذا الحديث الشريف، في «شرح حديث أبي الدرداء»[١]، وأشار إلى التشبيهات الثلاثة التي ذكرتها، ثم قال: «وقد رُوِي عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «أصحابي كالنجوم، فبأيِّهم اقتديتم اهتديتم»[٢]، وقد قيل: إن القمر إنما يستفيد نوره من ضوء الشمس، كما أن العالِم نورُه مقتَبَس من نور الرسالة، فلذلك شُبه بالقمر، ولم يشبَّه بالشمس، ولما كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ سراجاً منيراً يُشرق نوره على الأرض، كان العلماء ورثتُه وخلفاؤه مشبَّهين بالقمر عند تمام نوره وإضاءته».

وما يزال المسلمون ـ والحمد لله ـ يعيشون في جميع أنحاء عالمهم في ظل طوائفَ من هذا الطِّراز المنير، ببشارةٍ محمدية كريمة متواترة الثبوت والدلالة: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرُّهم من

---

(١) صفحة ١٤، ثم صفحة ٣٣.

(٢) في هذا الحديث كلام كثير، وله طرق كثيرة، لذلك سوّغ الحافظ الناقد ابن رجب لنفسه ذكره واستنباط هذا المعنىٰ اللطيف منه، وقد أطال العلامة اللكنوي الكلام عليه في «تحفة الأخيار» من ص٥٣ ـ ٦٦، ونقل فيه ص٥٤ عن الصغاني: أنه حسَّنه، وفي ص٦٣ عن «الصواعق» ـ ولعله: الصواعق المحرقة ـ تحسينه أيضاً، أما أنه موضوع فلا.

خَذَلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك» أي: «وهم ظاهرون»[١].

أثر العلم الرباني في وجوه حامليه:

ومن شأن الله تعالى الحكيم في خلقه: أن يكسو وجوه عباده الصادقين المخلصين الربانيين النور والجلالة، والخَشْعة والمهابة، والأنس والطمأنينة، فتُضفي وتَفيض بهذه المعاني على مُجالسيها والناظرين إليها، كما تكون (واحاتٍ) أمن ولطف، وسعادة وبركة، لمن وقع في شِراك الهم والكربة، كما يكونون مصدر خير وهَدْي ناطق وصامت للمسترشدين، يعلِّمون الناس بمقالهم وحالهم، وهم فوق قول القائل:

إذا سكتوا رأيت لهم جمالاً وإن نطقوا سمعت لهم عقولا

ومن هذا المنطلق: فإن الإمام الحجة يحيى بن يحيى التميمي النيسابوري (ت٢٢٦) رحمه الله، أقام سنةً أمام الإمام مالك رحمه الله، بعد فراغه من سماع «الموطأ» عليه، «مستفيداً لشمائله، لأنها شمائل الصحابة والتابعين»[٢].

وقد عبّر عن هذه المعاني الكريمة، بعبارات صادقة عالية، فضيلة شيخنا[٣] فقال تغمده الله برحماته: «إن النظر إلى الذات القدوة، أفعلُ في النفس من السماع عنها، وأبقى لآثار الخير في ناظرها، وقد كان

---

(١) اللفظ الأول: رواية ثوبان عند مسلم ٣: ١٥٢٣ (١٧٠)، واللفظ الثاني: رواية المغيرة بن شعبة عند البخاري (٣٦٤٠)، ومسلم (١٧١).

(٢) «ترتيب المدارك» ١: ٥٤٤، وانظر الخبر بتمامه فيما يأتي ص٢١٢.

(٣) في تعليقه، بل في شرحه لـ «رسالة المسترشدين» ص١٠٢.

لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك الحظُّ الأوفر، لمجالستهم له صلى الله عليه وسلم، ومشاهدتهم إياه، وقربهم منه، فكانوا خير أمة أخرجت للناس، بعد سيد الناس عليه الصلاة والسلام.

«ورؤية الرجل الصالِح القدوةِ، إنما تذكِّر بالله، لما يُرى عليه من النور والإشراق، والأنس والطمأنينة، والمحبة والسكينة، في سَمْته وهديه وخشعته، في نطقه وصمته، وإطراقه وحركته وسكونه، وكل شؤونه، فلا ينظره ناظر إلا كان نظره إليه مذكراً بالله، وكانت صورته موجِّهة له للإقبال على الله، أولئك الذين إذا رُؤُوا ذُكِر الله».

ثم نقل كلاماً طويلاً للحكيم الترمذي رحمه الله، وعقَّب عليه بقوله: «وقد كان هذا النوع الكريم في السلف منتشراً وكثيراً، وكان الناس يقصدون لقاءه للانتفاع بالنظر إليه، إذ كانت رؤيته وحدها تنير القلب، وتحرك الصلاح في النفس، وتحبِّب بالدين، وتذكِّر بالله تعالى». وانظر تمام كلامه هناك جزاه الله خيراً وأعلى مقامه لديه.

وما على المسلم إلا أن يكون دائم الصلة بهم، للاقتباس من هذا النور والميراث النبوي.

* * * * *

الباب الثاني

المعالم الإرشادية في طريق طالب العلم

تمهيد : في سرد المعالم الأساسية لطالب العلم

وقفت على أقوالِ ستةٍ من الأئمة، فيها تعداد الأركان الأساسية لطالب العلم، ويلاحظ فيها أمر واحد، هو أنه كلما تقدم الزمن كلما زادوا في المقوِّمات والأركان، وأنا أنقلها وأُرتِّبها حسب وَفَيَات أصحابها، مع ما يتيسر من التعليق على بعضها.

١ ـ الإمام محمد بن الحسن الشيباني (ت ١٨٩) رحمه الله تعالىٰ: أسند إليه ابن أبي العوام[١] قوله: «علْمنا هذا لا يصلح إلا بثلاث خصال: أن يكون الرجل مشتهياً له، ذكياً، مكَْفِيّاً».

٢ ـ الإمام الشافعي (ت ٢٠٤) رحمه الله تعالى: روى الخطيب[٢] عنه قوله: «يحتاج طالب العلم إلى ثلاث خصال: أولها : طول العمر، والثانية : سَعَة اليد، والثالثة : الذكاء»، وعلَّق عليه الخطيب رحمه الله بقوله: «قلت: أما طول العمر: فإنه قصد به دوامَ الملازمة للعلم، وأراد بسعة اليد: أن لا يشتغل بالاحترافِ، وطلبِ التكسُّب، فإذا استعمل القناعة أغنتْه عن كثير من ذلك»،

(١) في «المناقب» (٨٥٩).

(٢) في «آداب الفقيه والمتفقه» ٢: ١٨٧ (٨٣٧).

ثم قال بعد صفحة: «وإذا رزقه الله الذكاء: فهو أمارة سعادته، وسرعةُ بلوغه إلى بغيته». والذكاء: هو حدة الفهم.

ولقد أكرم الله عز وجل الإمام الشافعي بهذه الخصال وغيرها من المهمات لبلوغ الإمامة، فكانتْ ملازمتُه للعلم عوضاً له عن طول العمر، فلم يُعَمَّر، بل عاش ـ كما هو مشهور ـ أربعاً وخمسين سنة، وهذا ما حمل الخطيبَ على تفسيره طولَ العمر بدوام الملازمة، ولم يَعرف الاحتراف والتكسب بل استعمل القناعة، وكان من الذكاء بمحلٍّ ميَّزه الله به عن جُلِّ أقرانه ومعاصريه، رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

ثم أسند الخطيب[1] إلى الإمام عبد الله بن شُبْرُمة، أحدِ فقهاء التابعين الأثبات: أن رجلاً سأله عن مسألة، ففسَّرها له، فقال له: لم أفهم، فأعاد، فقال: لم أفهم، فقال له ابن شبرمة: «إن كنت لم تفهم لأنك لم تفهم: فستفهم بالإعادة، وإن كنت لم تفهم لأنك لا تفهم: فهذا داء لا دواء له».

فأشار ابن شُبْرمة رحمه الله بقوله للرجل: «فستفهم بالإعادة» إلى أن الذكاء وَهْبيّ يولد مع الإنسان، أو كسبيّ يتولّد من المزاولة والمدارسة، فإذا ما اجتمعا في شخص ولّدا العجائب، كما كان من أئمة الإسلام سلفاً وخلفاً، والحمد لله.

٣ ـ وقال أبو هلال العسكري (نحو ٤٠٠) رحمه الله تعالى[2]: «قال

---

(١) في «آداب الفقيه والمتفقه» (٨٤٢).

(٢) في «الحثّ على طلب العلم والاجتهاد في جمعه» ص٤٧.

بعض الأوائل: لا يتمّ العلم إلا بستّة أشياء:

١ـ ذهن ثاقب. ٢ـ وزمان طويل.

٣ـ وكفاية ـ من المال ـ. ٤ـ وعمل كثير ـ أي: اشتغال كثير في تحصيله ـ.

٥ـ ومعلِّم حاذق. ٦ـ وشهوة» أي: محبة شديدة للعلم.

وشَرَحها باختصار مفيد.

ويبدو أن وصف «حاذق» ينبغي أن يكون للمعلِّم: في علمه، وفي تعليمه، أعني: أن يكون مختصاً في المادة العلمية التي يدرّسها، وأن يكون ماهراً في تعليم العلم، وحسن تلقينه للطلبة.

٤ ـ أما الإمام الماوردي (ت ٤٣٠) رحمه الله فقال[1]: «الشروط التي يتوفّر بها علم الطالب، وينتهي معها كمال الراغب ـ مع ما يلاحَظ به من التوفيق، ويُمدُّ به من المعونة ـ: فتسعة شروط»، وهذا تعدادها سرداً:

١ـ العقل. ٢ـ الفطنة.

٣ـ الذكاء. ٤ـ الشهوة إلى العلم (الحرص).

٥ـ الاكتفاء بمال يغنيه عن الطلب. ٦ـ التفرغ من الأعمال.

٧ـ التفرُّغ من الهموم والمكدِّرات. ٨ـ طول العمر.

٩ـ أستاذ سَمْح بعلمه.

(١) في كتابه «أدب الدنيا والدين» ص١١١.

٥ ـ وأسند الحافظ ابن النجار[١] إلى إمام الحرمين (ت ٤٧٨) رحمهما الله تعالى قوله[٢]:

أَصِخْ: لن تنـال العلـم إلا بـستة سـأُنبيك عـن تفـصيلها ببيـان:
ذكاءٍ، وحرصٍ، وافتقارٍ، وغربـةٍ وتلقـينِ أسـتاذٍ، وطـولِ زمـان

٦ ـ أما الإمام ابن العربي المالكي (ت ٥٤٣) رحمه الله فقال[٣]: «شروط التعلّم ووظائفه تنيف على المئتين، لكن الأمهات التي ترجع إليها البنات سبعة شروط»، وتعدادها سرداً:

١ـ الإخلاص.
٢ـ التواضع للعلم.
٣ـ التواضع للمعلم.
٤ـ طاعته لإشارة معلمه.
٥ـ التدرج في التعلم.
٦ـ المذاكرة بعلمه.
٧ـ العمل بالعلم.

وثمة أمور أخرى مساعدة، ذكرها السخاوي (ت٩٠٢) رحمه الله[٤]

---

(١) في «ذيل تاريخ بغداد» ١: ٨٩.

(٢) ونسبهما إليه أيضاً التاج السبكي في ترجمته له في «الطبقات» ٥: ٢٠٨، وليسا للإمام الشافعي رحمه الله ـ كما اشتهر ـ وإن ذُكرا في «ديوانه»، فالشعر المنحول لعلي بن أبي طالب والشافعي رضي الله عنهما أكثر من الصحيح عنهما. ومعنى «أصِخْ»: أي: استمعْ وأصْغِ، واشتهر مطلع البيتين بلفظ: أخي...

(٣) في «قانون التأويل» ص٦٣٦.

(٤) في «الجواهر الدرر» ١: ١٦١ـ١٧٠.

فقال: سرعة القراءة الحسنة، وسرعة الكتابة الحسنة، والصحبة الطيبة من طلبة العلم، وعدم التردد إلى الكبراء، واستثمار الوقت، وينظر شرحها هناك.

* * * * *

المَعْلَم الأول

الإخلاص لله في طلب العلم

ابتدأ الإمام الخطيب رحمه الله تعالى جزأه «اقتضاء العلمِ العملَ» بعد البسملة والحمدلة والصلاة على سيدنا رسول الله بقوله: «إني مُوصِيك ـ يا طالب العلم ـ بإخلاص النية في طلبه، وإجهادِ النفس على العمل بموجَبه، فإن العلم شجرة، والعمل ثمرة، وليس يعدُّ عالماً من لم يكن بعلمه عاملاً». وبهذا الركن في حياة كل مسلم ـ وطالب العلم من بابِ أولى ـ بدأ ابن الصلاح حديثه عن آداب طالب الحديث، كما سيأتي، وتراه أول المذكورات السبعة في كلام ابن العربي.

وروىٰ مسلم[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: أنه ذكر ثلاثة أصناف من الناس، هم أول من يُقضىٰ عليهم يوم القيامة، ثانيهم: «رجل تعلَّم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به، فعرَّفه نِعمَه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: نقلتُ العلم وعلَّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبتَ، ولكنك تعلّمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارىء، فقد قيل، ثم أُمِر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار».

ونحوه عند الترمذي عن أبي هريرة أيضاً، وبقصة طويلة، وينظر

(١) في «صحيحه» ٣: ١٥١٣ (١٥٢)، والترمذي (٢٣٨٢).

شرحهما فيما كتبتُه تحت الحديث الرابع «من صحاح الأحاديث القدسية».

ونقلتُ هناك قصة من روائع قِصص أهل الإخلاص، نقلتها عن «عيون الأخبار» لابن قتيبة رحمه الله[١]، قال: «حاصر مسلمة بن عبد الملك حصناً، وكان في ذلك الحِصن نَقْب ـ أي: فتحة في حائطه ـ فندب الناسَ إلى دخوله، فما دخله أحد، فجاء رجل من عُرْض الجيش ـ أي: لا يُعرف ـ فدخله ففتح الله عليهم الحصن. فنادىٰ مسلمة: أين صاحب النَّقب؟ فما جاء أحد، فنادىٰ: إني قد أمرتُ الآذن بإدخاله ساعةَ يأتي، فعزمت عليه إلا جاء، فجاء رجل إلى الآذِن، فقال: استأذنْ لي على الأمير، فقال له: أنت صاحب النَّقب؟ قال: أنا أخبركم عنه، فأتىٰ الآذنُ إلى مسلمة، فأخبره عنه، فأذن له، فقال الرجل لمسلمة: إن صاحب النَّقب يأخذ عليكم ثلاثاً: أن لا تسوِّدوا اسمه ـ أي: لا تكتبوا اسمه بالمداد الأسود ـ في صحيفة إلى الخليفة، ولا تأمروا له بشيء ـ أي: من المال ـ ولا تسألوه: ممن هو؟ قال مسلمة: فذاك له، قال الرجل: أنا هو.

فكان مسلمة بعد هذه الحادثة لا يصلي صلاة إلا قال: اللهم اجعلني مع صاحب النقب».

والإخلاص: قال في تعريفه علماء السلوك والطريق إلى الله أقوالاً كثيرة، ومنهم الإمام الغزالي في «الإحياء»، والقشيري في «الرسالة»[٢]، ومما ذكراه: قولُ أبي يعقوب السُّوسي: «الإخلاص: فَقْد الإخلاص»،

---

(١) «الإحياء» ١ : ١٧٢.

(٢) ٤ : ٣٨١، و«الرسالة» ٣: ١٣٣ بشرح القاضي زكريا.

أي: أن لا ترىٰ نفسك مخلِصاً، وآخرها: «الإخلاص: دوام المراقبة، ونسيان الحظوظ كلها».

ثم ذكر الغزالي حديث سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه[١] قال: قلت: يا رسول الله، حدِّثني بأمر أعتصم به، قال: «قل: ربيَ الله، ثم استقم»، وقال الغزالي تمهيداً وشرحاً لهذا الحديث: «وإنما البيان الشافي بيان سيد الأولين والآخرين ﷺ»، وشَرَحه بقوله: «أي: لا تعبد هواك ونفسك، ولا تعبد إلا ربك، وتستقيمُ في عبادته كما أُمرت، وهذا إشارة إلى قطع ما سوىٰ الله عن مجرىٰ النظر، وهو الإخلاص حقاً».

وكذلك فَعَل الإمام ابن الصلاح ـ ومَن بعده ـ فإنه ابتدأ معرفة آداب طالب الحديث: النوع الثامن والعشرين من «مقدمته» بقوله: «أول ما عليه: تحقيقُ الإخلاص، والحذرُ من أن يتخذه وُصْلةً إلى شيء من الأغراض الدنيوية».

وذَكَر ـ أي: ابن الصلاح ـ كلمةَ الإمامِ حماد بن سلمة رحمه الله تعالى: «من طلب الحديث لغير الله مُكِر به»[٢]، وذكر كلمةَ الإمامِ سفيان الثوري رحمه الله تعالى: «ما أعلم عملاً هو أفضل من طلب الحديث، لمن أراد اللهَ به»[٣].

---

(١) الذي رواه مسلم ١: ٦٥ (٦٢)، والترمذي (٢٤١٠)، والنسائي (١١٤٩٠)، وابن ماجه (٣٩٧٢)، واللفظ له وللترمذي.

(٢) وهي في «الجامع» لابن عبد البر (١١٥٣)، و«جامع» الخطيب (٢٠).

(٣) وهي قريبة من لفظه الذي في «شرف أصحاب الحديث» (١٧٦).

وذِكْر «الحديث» في كلمة حماد بن سلمة والثوريّ جاءت ـ والله أعلم ـ على أن علم الحديث هو العلمُ الشائع الذائع آنذاك، ولا يَعنيان أبداً أن: من طلب علم التفسير ـ مثلاً ـ لغير الله جاز له ولا يُمكر به! بل معنى قولهما وقولِ غيرهما: مَن طلب العلم الشرعيَّ ـ أيَّ فنّ مِن فنونه ـ لغير الله فإن الله تعالى يمكر به، فلا يوفّقه فيه، بل يخذله ويوقعه في خسران.

وهذا في حق من يمحِّض نيته فيه لغير الله، أيْ: طَلَب العلمَ لأمر معيَّن يريده من الدنيا والمفاسد، وذلك كما روى جابر رضي الله عنه مرفوعاً: «لا تَعَلَّموا العلم لتُباهوا به العلماء، ولا لتُماروا به السفهاء، ولا تَخَيَّروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنارَ النارَ»، وفيه كلام لا يضرّ[1].

الترخص في عدم استحضار النية أول الأمر:

أما من طلب العلم أولَ طلبه، ولم يستحضر فيه نية صالحة ـ لله تعالى ـ ولا نية فاسدة لغرض دنيوي فاسد، وتداركَ هذا الطالبُ أمره بعدُ، فَقَمِنٌ أن يتداركه الله تعالى بلطفه.

فقد قال ابن عبد البر: باب الخبر عن العلم أنه يقود إلى الله تعالى على

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٥٤)، وابن حبان (٢٨١٠) من «التقاسيم والأنواع»، والحاكم ١: ٨٦ (٢٩٠) وصححه، وفي الباب أحاديث مرفوعة، وآثار عن السلف موقوفة، تنظر في المصادر الثلاثة المذكورة، وفي «الترغيب» للمنذري ١: ١١٥، و«جامع» ابن عبد البر ١: ٦٤٨ باب: ذم الفاجر من العلماء، وذم طلب العلم للمباهاة والدنيا، و«جامع» الخطيب ١: ١٢٣: باب النية في طلب الحديث، ويُنظر أيضا شرح الحديث (٨٦٠١، ٨٨٤٠) من «فيض القدير» للمناوي.

كل حال، وروى عن حبيب بن أبي ثابت (١١٩هـ) أحد أجلاء التابعين رحمه الله تعالى أنه قال[١]: «طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نية، ثم جاءت النية بعدُ».

وساق قبله من عدة طرق إلى الإمام مَعْمر بن راشد البصري اليمني (١٥٤هـ) رحمه الله تعالى مقولته المشهورة: «طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله»، قال الإمام البدر ابن جماعة رحمه الله في كتابه النافع الماتع «تذكرة السامع والمتكلم»[٢] وهو يتحدث عن آداب العالم مع طلبته: «الثاني: أن لا يمتنع من تعليم الطالب، لعدم خلوص نيته، فإن حسن النية مرجوٌّ له ببركة العلم، قال بعض السلف: طلبنا العلم لغير الله، فأبى أنْ يكون إلا لله، قيل: معناه: فكان عاقبته أنْ صار لله، ولأن إخلاص النية لو شُرِط في تعليم المبتدئين فيه، مع عُسْره على كثير منهم: لأَدَّى ذلك إلى تفويت العلم كثيراً من الناس».

والواقع الذي عليه جُلُّ طلبة العلم من زمن غير قريب: أن الواحد منهم يُوجَّه إلى طلب العلم من قِبَل والديه أو أحدهما، وليس له دراية في النية، وأهميتها، وإخلاصها لله تعالى في طلب العلم، فحينئذ تكون المسئولية ملقاةً على عاتق والديه، فإن لم تكن من والديه فليكن التوجيهُ ولفتُ النظر إليها من الشيخ.

ولهذا قال الإمام ابن جماعة رحمه الله في تمام كلامه: «لكن الشيخ

---

(١) «جامع بيان العلم» (١٣٨٠).

(٢) صفحة ٤٧.

يحرِّض المبتدئ على حسن النية بتدرُّجٍ، قولاً وفعلاً، ويعلِّمه بعد أُنْسه به: أنه ببركة حسن النية، ينال الرتبة العلية من العلم والعمل، وفيض اللطائف، وأنواع الحِكَم، وتنوير القلب، وانشراح الصدر، وتوفيق العزم، وإصابة الحق، وحسن الحال، والتسديد في المقال، وعلوّ الدرجات يوم القيامة».

قال الفاضل العَلْمَويُّ في «المعيد في أدب المفيد والمستفيد»[(١)]: «لا ينبغي أن يمتنع من تعليم أحد لكونه غيرَ صحيح النية، فالامتناع من تعليمهم يؤدي إلى تفويت كثير من العلم، مع أنه يُرجى ببركة العلم تصحيحُها إذا أَنِس بالعلم، وقد قالوا: طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله، معناه: كانت عاقبته أنْ صار لله».

أهمية الإخلاص في نجاح الأعمال:

هذا، وإن موقعَ الإخلاص من نجاح العمل موقعُ الروح من الجسد، فكما أنه لا فائدة من جسد لا روح فيه، فكذلك لا نجاح لعمل لا إخلاص معه، وإن الإكسير الذي خسره المسلمون في أعمالهم، هو الإخلاص لله تعالى فيها، وخير شاهدٍ وتَرجمانٍ على صحة هذه الدعوى هو تاريخ المسلمين على مدى القرون وطولها، فكم أبدعوا من علوم ومعارف وحضارات، وكم أقاموا من دول وفتوحات، مع عَدَد وعُدَّة، لا تُذكر في جنب ما لهم من عَدَد وعُدَّة في هذه الأيام المتأخرة، لكنهم في تقهقرٍ واندحار في كل المجالات التي أبدع فيها أسلافهم.

---

(١) صفحة ٤٥.

وكم وكم من إمام مضى، قدَّم إلى العلم والعلماء إنتاجاً ضخماً يعجز عن إخراجه مجامع علمية، مع أن بُعْد ما بيننا وبينهم من حيث الوسائلُ والأسبابُ، أكبرُ من البُعْد الزماني بيننا وبينهم! لكنه سرُّ الإخلاص والهِمَم العلية! رضي الله عنهم وأرضاهم.

هذا سوى ما دُفن معهم من علوم لا تدخل تحت الحصر. قال ابن فرحون في ترجمة الإمام عبد الله بن عبد الرحمن الشارِمْساحي (٥٨٩ ـ ٦٦٩) رحمه الله تعالى[١]: «ولي تدريس المدرسة المستنصِرية، وكان أول من أنشأها الخليفة ـ المستنصِر بالله ـ، وأَمر الخليفةُ أن يحضر عنده جميعُ المدرسين بجميع المدارس ببغداد، وجميعُ أرباب الدولة، وحجّاب الدواوين، فحضروا...، وألقى عليه بعض العلماء مسألة بيوع الآجال، فقال: أذكر فيها ثمانين ألفَ وجهٍ!! فاستغرب فقهاء بغداد من ذلك، فشرع يسردها عليهم، إلى أن انتهى إلى مئتي وجه، فاستطالوها، وأضربوا عن سماعها، واعترفوا بفضل الشيخ وسعة علمه». والحديث ذو شجون وفنون.

---

(١) في «الديباج المُذْهَب» ١ : ٣٨٧، وانظر كلام الآلوسي رحمه الله في «روح المعاني» ١ : ٢٤٥، عما في البسملة من وجوه المعاني والأسرار، فإنه ضرب من الخيال.

وهناك ما هو مخطوط ومطبوع، لم يُدفن معهم، ومنه كلام الإمام العبقري إسماعيل المَقْري الشافعي المتوفى سنة ٨٣٧ رحمه الله تعالى، الذي تكلّم على حكم استعمال الماء المشمَّس من خمسة ملايين وجه، ومئة وأربعة وثمانين ألف وجه!!، وأشدُّ من هذا عبقريةً وغرابةً أن مساحة كلامه لا تزيد على ستين سطراً مطبوعاً!!.

المَعْلَم الثاني

معرفة طالب العلم موقعه، ومهمته

إن معرفة طالب العلم أهميةَ ما يطلب، وشرفَه ورفعةَ مقامه: لَمن أهم الواجبات الأساسية التي ينبني عليها منهجه، وإن هذه المعرفة هيَ التُّربة التي يزرع فيها غِراسه، ليجنيَ منها الثمار اليانعة: له، وللإسلام، والمسلمين في مستقبله.

فهما أمران، وعلى طالب العلم أَنْ يَقدُر لهما قدرهما:

أولهما: أن يَقْدُر شرف العلم الذي قدَّمتُ قطرةً من بحر فضله وعظيم مكانته في الإسلام، فعليه أن يكون على ذُكْر منه، وأن يكون على يقين أن ما قدَّمتُه إنما هو قطرة من بحر، فيزدادَ إعظاماً لشرف العلم، ويجب عليه بعد أن يُدرك هذا الشرف العظيم: أن يبذل كل غالٍ ورخيص لديه، ليحصل على هذا الشرف بجدارة واستحقاق، فقد اختاره الله تعالى للعلم من بين الملايين من الأمة المحمدية.

روى ابن ماجه، وأحمد، وابن حبان[1] عن أبي عِنَبة الخولاني رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يزال الله يغرس في

---

(١) ابن ماجه (٨)، وأحمد ٤: ٢٠٠، وابن حبان (٤٦١٠) من «التقاسيم والأنواع».

هذا الدين غرساً يستعملهم في طاعته»، فما غَرَسك الله عز وجل إلا وقد اختارك.

ثانيهما : أن يُدرك شرف مهمته المستقبلية، فهو في المستقبل القريب - إن شاء الله - إمامٌ بالمسلمين في صلاتهم لله تعالى، وخطيبٌ عليهم، ومُفْتٍ لهم، مبيِّنٌ لهم شرع الله في أمورهم الدنيوية والدينية.

وعلى طالب العلم أن يفخر بفضل الله عليه، ولا يرىٰ نفسه ضعيفاً، ويرىٰ زميله في الدراسة الابتدائية - مثلاً - قوياً، وقد صار طبيباً، والآخر مهندساً، والثالث رجل أعمال، وبقي هو طالبَ علم، وإمامَ مسجد، وخطيب جمعة!! عليه أن يدرك فضل الله عليه: أنَّ أمره ونهيه وتحليله وتحريمه، من أمر الله العظيم ونهيه، ومن تحليل الله وتحريمه، يقول بقول الله، ويؤيده الله على قوله، فأيُّ شرف أعظم من هذا الشرف! إنه في إمامة المسجد الوسيطُ بين العباد وربهم سبحانه وتعالىٰ، صلاتهم بصلاته، وصلتُهم بالله بِصِلته، هذه هي المكانة المرموقة الحقَّة لطالب العلم إذا عرف حقَّ الله وحقَّ العلم.

إن الله تعالىٰ أنار للناس عامةً الطريق إلى الإيمان به، والعمل بشرعه، في كتابه الكريم، ولما كان لابدّ لهذا الكتاب الكريم من مبلغ وشارح له: أرسل رسوله محمداً ﷺ مبلغاً وداعياً وشارحاً، ولكن محمداً ﷺ ممن تنطبق عليه - من هذه الناحية - ما ينطبق على البشر جميعهم: الحياة ثم الموت، فكان لابدّ لسيدنا رسول الله ﷺ مِن خلفاء عنه ووراثاً له، فاقتضت حكمة الله تعالىٰ أن يكونوا هم العلماء، وعبَّر ﷺ عن هذا المعنىٰ بقوله الكريم: «إن العلماء ورثة الأنبياء»، وليس فوق هذه الرتبة إلا رتبةٌ

معها أو تسبقها، تلك هي رتبة الخلافة عن الله عز وجل في تبليغ شرعه إلى الناس، فكان هذا الخليفةُ هو طالبَ العلم اليوم، وعالمَ الغد، ومفتيَ المستقبل.

طالب العلم خليفة عن الله تعالى:

وقد قال الإمام ابن القيم كلاماً نفيساً أنقله بطوله، قال رحمه الله[1]: «ولما كان التبليغ عن الله سبحانه يعتمد العلمَ بما يبلّغ، والصدقَ فيه، لم تصلح مرتبة التبليغ بالرواية والفتيا إلا لمن اتصف بالعلم والصدق، فيكون عالماً بما يبلّغ، صادقاً فيه، ويكون ـ مع ذلك ـ حسن الطريقة، مرضيّ السيرة، عدلاً في أقواله وأفعاله، متشابه السر والعلانية في مدخله ومخرجه وأحواله، وإذا كان منصبُ التوقيع عن الملوك بالمحلّ الذي لا ينكر فضله، ولا يُجهل قدره، وهو من أعلىٰ المراتب السنيَّات، فكيف بمنصب التوقيع عن رب الأرض والسموات؟!.

«فحقيق بمن أُقيم في هذا المنصب أن يُعِدَّ له عُدّته، وأن يتأهب له أُهبته، وأن يعلم قدر المُقام الذي أُقيم فيه، ولا يكون في صدره حرج من قول الحق والصدع به، فإن الله ناصره وهاديه، وكيف وهو المنصب الذي تولاه بنفسه رب الأرباب فقال: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ النساء: ١٢٧، وكفىٰ بما تولاه الله تعالىٰ بنفسه شرفاً وجلالة إذ يقول في كتابه: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي

---

(١) في مقدمة كتابه «إعلام الموقعين» ١: ١٠.

ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ النساء: ١٧٦، ولْيعلمِ المفتي عمن ينوب في فتواه، وليوقنْ أنه مسئول غداً، وموقوف بين يدي الله.

«وأولُ من قام بهذا المنصب الشريف: سيدُ المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين عبد الله ورسوله وأمينه على وحيه، وسفيره بينه وبين عباده». انتهىٰ كلامه.

فنبَّه رحمه الله إلى أن العالم المفتي إنما هو خليفة عن الله عز وجل الذي تولّىٰ الإفتاء في بعض مسائل الأمة التي وُجِّهت إلى النبي ﷺ، ومن هذا الملحظ سمَّى رحمه الله كتابه المذكور بهذا الاسم الخطير: «إعلام الموقعين عن رب العالمين»، أي: إن المفتي حينما يُصدر فتواه، ويمهر ختامها بتوقيعه، فإنما يوقِّع عن رب العالمين، رب الأرض والسموات، بأن ما أقوله لكم وأكتبه، هو قول الله تعالىٰ، وبالتالي هو قول رسوله ﷺ أيضاً.

وهذه المرتبة العظيمة التي لا مرتبة تعدِلها، ينبغي لصاحبها أن يتصف بأعظم الصفات الكاملة، وقد أشار رحمه الله إلى بعضها.

إن هذه المرتبة تستحق من طالبها أن يبذل للوصول إلى أدنىٰ مراتبها أعلىٰ وأغلى ما عنده، إنها مرتبةُ الخلافةِ عن الله، والوراثةِ لرسول الله عليه الصلاة والسلام، إنها حقاً أشرف المراتب وأعلىٰ المقامات.

وإذا كان طالب اليوم، وعالم الغد، ومفتي المستقبل: يملك التوقيع عن الله ملك الملوك وجبار السموات والأرض، فما هو مدىٰ الرفعة التي رفعه الله إليها؟! وإلى أيّ مدىٰ يتوجب عليه أن يصون هذا الشرف الرفيع، ويحافظ عليه بروحه ودمه!!.

إنه حقاً يجب على طالب العلم أن يعرف شرف العلم الذي يطلبه، وشرف المكانة التي بوأه الله إياها.

وأيضاً: إن العلم عظيم وشريف، فمن أعطاه حقه من التعظيم والتكريم، كرَّمه العلمُ ورفعه، ومن قصّر في حقه فإنه هو المُهان لا العلم، العلم يبقىٰ عظيماً بتعظيم الله له، لأن العلم الذي نحن بصدد الحديث عنه متمثِّل في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، والله عز وجل أجلُّ من أن يترك كتابه وسنة رسوله عبثاً للمفسدين في الأرض.

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظّموه في النفوس لعَظَّما

ولكن أهانوه فهانوا ودنّسوا ... محيّاه بالأطماع حتى تَجَهَّما[1]

* * * * *

(١) البيتان من قصيدة غالية للقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني (٣٩٢) رحمه الله تعالى، ذكر بعضها الخطيب بسنده في «الجامع» (٨٦٢)، وذكرها كلها بسنده أيضاً الإمام التاج السبكي في «معيد النعم» تحت (المثال السادس والأربعون) وقال بعدها: «صدق هذا القائل، لو عظموا العلم لعَظَّمهم، وأنا أقرأ قوله: لعَظّما: بفتح العين، فإن العلم إذا عُظِّم يُعَظِّم، وهو في نفسه عظيم، ولهذا أقول: ولكن أهانوه فهانوا، ولكن الرواية: فهانَ، ولعُظِّم، بضم العين، والأحسن ما أشرت إليه».

المَعْلَم الثالث

أهمية الذكاء في طريق العلم

اتفقت كلمات الأئمة على ضرورة توفّر الذكاء، في طالب العلم: الشافعي، والعسكري، والماوردي، وإمام الحرمين، وتقدمت كلماتهم. وسماه العسكري: الذهن الثاقب، وهو الفطنة والذكاء، وثُقوب الذهن: شدة الفَطانة.

أما الماوردي ففرَّق بينهما، فذكر: العقل، والفطانة، والذكاء.

وأرى ـ والله أعلم ـ أن من اقتصر على الذكاء: فإنما أراد هذه المعاني كلَّها: العقل، والفطانة، وسرعة الخاطر والبديهة، وتوقّد الذهن وحضوره، وجودة القريحة والاستنباط، وما إلى ذلك من ألفاظ مختلفة، ومعانٍ متقاربة.

والذكاء: سرعة الفطنة، وحدّة الفهم، وهذه المادة اللغوية، كما قال ابن فارس(١) تدلّ على حدّة في الشيء.

والذكاء ذكاءان: وَهْبي خِلْقي يولد عليه بعض الناس، وذكاء كَسْبي، يتزايد مع عُمُر الإنسان وخَوْضه غمارَ الحياة وتجاربها، وكما أن الذكاء الوهبي يختلف من قويّ فأقوى، فكذلك الذكاء الكَسْبي يختلف في تزايده

---

(١) في «مقاييس اللغة» ٢: ٣٥٧.

من قوي إلى أقوى، حسب صِلات كل فرد بالآخرين، وعمله الدنيوي، وقد يجتمعان معاً في شخص واحد، يولد ذكياً، ويزداد ذكاؤه بحكم عمله الدنيوي، من تجارات واسعة (رجال أعمال)، أو مهنة القضاء والمحاماة، ونحو ذلك، مما يتعرف به يوماً بعد يوم على واقع الناس المتشابك، فيكون كما قال ابن الرومي:

ألـمـعـيٌّ يـرى بـأوّل رأيٍ آخرَ الأمرين من وراء المَغيب

ومن واجبات الشيخ وهو يعايش طلابه عاماً بعد عام: أن يتخيَّر منهم النبهاء النجباء، ويركِّز عليهم، ويتعهَّدهم ويتفقّد مصالحهم، ويسعى لكفايتهم، ليتفرَّغوا للعلم، فلا يَضيعوا، فيتمُّ استثمار مواهبهم بإذن الله تعالى.

كما أن من واجبات الشيخ: أن يصبر على الصنف الثاني ذوي الذكاء والفهم الكسبي، فيستفيدَ منهم فلا يَضيعوا، وقد أثبتت الأيام أن من صبر عليه أستاذه بلغ درجة عالية جداً في العلم، ومنهم من كان إماماً.

ومن أخبار من صبر عليه أستاذه فبلغ مبلغاً عالياً في العلم: ما جاء في «طبقات الشافعية»[1] في ترجمة الإمام الربيع بن سليمان المرادي راوية الإمام الشافعي، قال السبكي: «قال القفال في «فتاويه»: كان الربيع بطيء الفهم، فكرَّر الشافعي عليه مسألة واحدة أربعين مرة، فلم يفهم، وقام من المجلس حياءً، فدعاه الشافعي في خلوة، وكرَّر عليه حتى فهم»! ورضي الله عن الإمام الشافعي: في صبره وتحمّله، وفي ذوقه وأدبه وتلطُّفه مع من

(١) للسبكي ٢: ١٣٤.

يرجو خيره.

وقد جاء قبل هذا الخبر بسطرين: أن الشافعي قال له: ما أحبَّك إليَّ!!، وقال: ما خدمني أحد قطُّ ما خدمني الربيع بن سليمان. وقال له يوماً: يا ربيع لو أمكنني أن أُطعمك العلم لأطعمتك. فليكن الإمام الشافعي قدوة كل أستاذ ومعلم.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

المَعْلَم الرابع

الحرص على الوقت وتحصيل العلم

تعريف الحرص[*]: قال الراغب في «مفرداته»: الحرص: فَرْط الشَّرَه، وفرط الإرادة. أي: هو شدة الإرادةِ للشيء والرغبة فيه. فليس هو الرغبةَ فقط، بل هو شدة الرغبة فيه.

والحرص يكون:

أ ـ على الوقت.

ب ـ ويكون على تحصيل العلم من حيثُ العموم.

ج ـ ويكون على اقتناص الفائدة أن لا تفوته، ولا يكون هذا إلا بعلو الهمة في طلب العلم، وتحرُّق شديد يأخذ على صاحبه لبَّه وفكره، ليلَ نهارَ، حتى يصل به الحال إلى ما وصل إليه (عقلاء المجانين):

مجانينُ إلا أن سرَّ جنونهم ... خفيٌّ على أبوابه يسجدُ العقل[1]

(*) الحديث عن الحرص بفروعه الثلاثة يتصل اتصالاً وثيقاً بالحديث عن المعلم الخامس: علوّ الهمة في طلب العلم، فتنظر هناك غُرر من أخبارهم في هذا المجال.

(١) ومن هؤلاء:

الإمام أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم (٢٤٧ ـ ٣٤٦) رحمه الله، نقل الذهبي في ترجمته من «السير» ١٥:٤٥٨ عن الحاكم في «تاريخ نيسابور» قال:

=

آ ـ أما الحرص على الوقت[1] : فعلى طالب العلم ـ بل على كل

«حضرت أبا العباس الأصم يوماً في مسجده، فخرج ليؤذن لصلاة العصر، فوقف موضع المئذنة ثم قال بصوت عالٍ: أخبرنا الربيع بن سليمان، أخبرنا الشافعي، ثم ضحك وضحك الناس، ثم أذّن».

ومنهم: الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن محمد بن سليمان الباغَنْدي (ت ٣١٢) رحمه الله، أسند الخطيب في «تاريخه» ٤: ٣٤٥: إلى العتيقي، عن ابن شاهين: أن الباغندي قام يصلي فكبَّر، ثم قال: حدثنا لُوَين. فسبَّحنا به، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين.

ونقل هذه الرواية عنه ابن الجوزي في «المنتظم» ١٣:٢٤٥، ثم أسندها من وجه آخر إلى ابن المهتدي، عن ابن شاهين قال: «صليت خلف الباغندي فافتتح الصلاة، ثم قال: حدثنا لُوَيْن. فقيل له: سبحان الله، فقال: أنبأنا شيبان بن فروخ الأيلي، فقالوا: سبحان الله، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم».

ومنهم: القاضي أبو جعفر محمد بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي (ت ٤١٤) رحمه الله، ترجمه ابن الجوزي أيضاً في «المنتظم» ١٥:١٦٢ فقال: «كان عالماً بالفقه، وكان فقيراً متزهداً، فبات ليلة مكروباً من الإضاقة ـ أي: الحاجة والفقر ـ، فوقع له فرع من مذهبه فأعجب به، فقام قائماً يرقص في داره ويقول: أين الملوك وأبناء الملوك، فسألته زوجته عن حاله، فأخبرها، فتعجَّبت!!».

وكأنه يتمثّل حال الإمام محمد حين كانت تنحلُّ له المشكلات، وهو سهران الليل، فيقول: أين أبناء الملوك من هذه اللذات؟! كما سيأتي ص١٤٤.

وأصل هذه الكلمة للإمام العارف القدوة إبراهيم بن أدهم (ت ١٦١) رضي الله عنه، في قصة رواها أبو نعيم في «الحلية» ٧:٣٧٠ ـ ٣٧١: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه من السرور والنعيم، إذاً لجالدونا على ما نحن فيه بأسيافهم».

(١) أُذكِّر الأخ القارئ الكريم بقراءة كتاب «قيمة الزمن عند العلماء» لفضيلة شيخنا سيدي الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، تغمده الله برحمته، مرة بعد مرة، فهو من =

مسلم ـ أن يدرك عِظم أهمية الزمن الذي وهبه الله تعالى لكل عبد، وأن كل دقيقة تذهب منه فإنما يذهب بها بعضه، ولا تعود، فعليه أن يملأها بما ينفعه دنيا وأخرى، ونَظَر الإمام ابن الجوزي رحمه الله إلى قوله جل شأنه في سورة قَ الآية ١٨ : ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾، فقال مخاطباً لولده في نصيحته المشهورة[١]: «إن الملَكين يُحصيان ألفاظك ونظراتِك، وإن أنفاس الحيّ خُطَاه إلى أجله، فكلّ نَفَس يخرج منك، بمنزلة خَطوة تخطوها إلى منتهى أجلك، وستصل إليه»، فليتدبر العاقل.

وهاهنا حديثان شريفان له، أولهما للعاجل، وثانيهما للآجل، وأَولى الناس بهما، وبالتدبر والتعقُّل لهما: أهلُ العلم وطلابه.

أولهما : ما رواه ابن أبي شيبة[٢] عن عمرو بن ميمون مرسلاً، ورواه الحاكم موصولاً عن ابن عباس، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي: «اغتنم خمساً قبل خمس: حياتَك قبل موتك، وفراغك قبل شَغْلك، وغِناك قبل فقرك، وشبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سَقَمك».

وكل واحدة من هذه الوصايا النبوية الخمسة، هي في حينها لصاحبها، من أنفسِ ما يَتَواصى به المتواصون، وأهمٍّ ما يتناصح به المتناصحون، فكيف بها مجتمعةً صدرت من وحي النبوة الكريم، على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم؟ فهي من أغلى ما يقدَّم هديةً ثمينة لكل

خير الحوافز له على هذه المعاني.

(١) «لفتة الكبِد إلى نصيحة الولد» ص٨.

(٢) في «مصنَّفه» (٣٥٤٦٠) بإسناد قوي، والحاكم (٧٨٤٦).

طالب علم خاصة، ولكل مسلم عامة، «والنصح أغلى ما يباع ويُوهَب».

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرص على توصية كل مسلم باغتنام نعمة الحياة ـ فقط ـ قبل أن يَفْجَأه الموت، وباغتنام نعمة الفراغ ـ فقط ـ قبل أن يدهمه الشَّغل ـ وكذلك النِّعم الثلاثة الأخرى كلٌّ على حِدَة ـ، فكيف يكون واجب هذا الطالبِ ـ بل كلِّ مسلم ـ إذا كان ممتّعاً بهذه النعم الخمس مجتمعةً فيه؟!.

وثانيهما: ما رواه الترمذي[1] عن أبي بَرْزَة الأسلمي رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تزول قَدَما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل: عن عمره فيمَ أفناه، وعن علمه فيمَ فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه، وعن جسمه فيمَ أبلاه».

فإذا كان هذا حالَ كلِّ مسلم ـ وكلِّ طالب علم ـ: لن يبرح من مكانه يوم القيامة، حتى يُسأل عن أركان نعمه الدنيوية: بماذا ملأها، وكيف تصرَّف بها، والسائلُ المحاسِب له هو ربُّ العالمين، الذي لا تخفى عليه خافية، فليُعِدَّ كلٌّ منا العُدَّة والجواب الذي يعتقد أن الله سيقبله منه.

ومعلوم عن عالَم السؤال في الآخرة: أن السؤال يكون تفصيلياً لا إجمالياً، فهذا مما يزيد المسلمَ المسئولَ اهتماماً بأمره وعاقبته، ونسأل الله العافية[2].

---

(١) (٢٤١٧) وقال: حسن صحيح.

(٢) قولهم في كتب اللغة: العافية: دفاع الله عن العبد، يريدون: دفع الله عن العبد ـ المكاره ـ.

وأقول لأخي طالب النجاح والفلاح، والنبوغ والرفعة إلى مقام علمي نبيل، أقول ناصحاً مرشداً، وممسكاً بإِصبَع يده، واضعاً لها على سرّ ذلك: إنه أمران، أولهما: منك، وهو علوُّ همتك في الطلب، واغتنامُك لحظاتِ حياتك.

وثانيهما: من الله تعالى الكريم المنعم المتفضل، وهو توفيقه لك، وتوفيقُ الله لك لا يتخلَّف عنك أبداً، وقد علم منك الإخلاص، والصدق في الطلب، والتحرُّق فيه. فإذا التقى الأمران كان ـ بإذن الله وفضله ـ العالمَ الربانيَّ، والإمامَ القدوةَ.

وأقول له أيضاً: إن هذه (الكُلَيْمات) تغنيك عن كتب لا عن كتاب، وإن الله تعالى يقول: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ إبراهيم: ٣٤، أي: بلسان المقال أو بلسان الحال، فكن على ثقة تامة أن الله تعالى سيتكرَّم عليك ويعطيك سُؤْلك.

وسِيَر العلماءِ العاملين، والأئمةِ الربانيين، مناراتِ الهدىٰ والفضائل: هي خيرُ ما يُذكِّر ويذكَر في هذا المقام: مقامِ الحرص على الوقت، وغيره من أحوال طالب العلم كلها، وطالب كل خير.

من أقوال العلماء في قيمة الزمن:

ومن الأئمة الذين كانوا على حرص شديد لكسب وقتهم: الإمام أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله تعالى، ومما قاله في هذا المعنى[1]: إني

(١) في كتابه «صيد الخاطر» تحت الخاطرة (٢١ ـ بين العلم والعمل) ص٦٢.

«أقول عن نفسي: إنني رجل حبِّب إليّ العلم من زمن الطفولة، فتشاغلت ـ أي: فاشتغلت ـ به، ثم لم يحبَّب إليّ فنّ واحد منه، بل فنونُه، ثم لا تقتصر همتي في فنّ على بعضه، بل أروم استقصاءه، والزمانُ لا يسع، والزمان أضيق..».

وقال تحت الخاطرة (١٦٣ ـ دواء البطالين): «لما رأيت أن الزمان أشرف شيء، والواجبُ انتهابُه بفعل الخير: كرهت ذلك ـ أي زيارة الزائرين له، البطالين ـ وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرت عليهم وقعتْ وحشة، لموضع قطعِ المألوف، وإن تقبَّلتُه منهم ضاع، فصرت أدافع باللقاء جهدي، فإذا غُلبتُ قصّرت في الكلام لأتعجَّل الفراق، ثم أعددتُ أعمالاً لا تمنع من المحادثة، لأوقات لقائهم، لئلا يمضي الزمان فارغاً، فجعلت من الاستعداد للقائهم: قطعَ الكاغَد ـ الورق ـ، وبَرْيَ الأقلام، وحَزْم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لا بدّ منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع شيء من وقتي. نسأل الله أن يعرِّفنا شرف أوقات العمر، وأن يوفقنا لاغتنامه».

ثم قال بعد أسطر: «فعلمت أن الله تعالى لم يُطْلع على شرف العمر، ومعرفة قدر أوقات العافية إلا مَن وفّقه، وألهمه اغتنام ذلك، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾» فصلت: ٣٥.

وبهذه الهمة العالية، وبهذه المحاسبة الشديدة للنفس على الوقت: استطاع الاطلاع على كبرى المكتبات العامة التي كانت في بغداد عاصمة الخلافة لمدة أربعة قرون ـ بالنسبة لتاريخه ـ قال رحمه الله تحت الخاطرة (٣٣٧ ـ القدماء أصحاب همم عليّة): «إني أُخبِر عن حالي: ما أشبع من

مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتاباً لم أره فكأني وقعت على كنز، ولقد نظرت في ثَبَت ـ أي: فِهْرِس ـ الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية، فإذا به يحتوى على نحو ستة آلاف مجلد، وفي ثَبَت كتب ـ مدرسة ـ أبي حنيفة وكتب الحميدي، وكتب شيخنا عبد الوهاب ـ الأَنْماطي ـ، وابن ناصر ـ السَّلاَمي ـ، وكتب أبي محمد ابن الخشّاب، وكانت أحمالاً، وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه، ولو قلت: إني طالعت عشرين ألف مجلد، كان أكثر، وأنا بعدُ في الطلب»[١].

وفي مؤرِّخي المغرب: أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد، ويعرف بابن سعيد، صاحب «المُغْرِب في حُلَى المَغْرب»، وكانت وفاته سنة ٦٨٥ رحمه الله، ترجم لأبيه فقال[٢]: «دخلت عليه في يوم عيد، وهو في جهد عظيم من الكَتْب، فقلت له: يا سيدي، أفي هذا اليوم لا تستريح؟ فنظر إليّ كالمغضَب وقال: أظنك لا تفلح أبداً! أترى الراحة في غير هذا؟ والله لا أحسب راحة تبلغ مبلغَها، ولوددت أن الله تعالى يضاعف عمري حتى أُتم كتاب «المغرب» على غرضي»، رحمه الله تعالى، ولم يُتم الكتاب، فأتمه ولده المذكور.

هكذا العزائم والهمم، وإلا فلا.

---

(١) يُنظر: هل مراده: ما زلت في مرحلة طلب العلم؟! أو: ما زلت في طلب المزيد من الكتب والمصنفات لمطالعتها، لم أقضِ أَرَبي ونَهْمتي من العلم؟ وهذا أقرب.

(٢) كما في «نفح الطيب» ٢: ٣٣٤.

همُ الرجال، وعيبٌ أن يقال لمن   لم يتَّصفْ بمعاني وصفهم: رجلُ

وصدق الإمام ابن عطاء الله الإسكندري إذ قال في «حِكَمه»: «من لم تكن له بداية محرقة، لم تكن له نهاية مشرقة».

ومن أخبار حرصهم رحمهم الله على الوقت: ـ ويدخل في الفقرة التالية: حرصهم على اغتنام الفائدة ـ: ما حكاه الذهبي[١] عن أحمد بن علي الرقَّام: أنه سأل الإمام ابن الإمام: عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي: كيف اتفق له كلُّ هذا السماعِ والمسائلِ لأبيه؟ فقال: ربما كان ـ أبي ـ يأكل وأقرأ عليه، ويمشي وأقرأ عليه، ويدخل الخلاء وأقرأ عليه[٢]، ويدخل البيت في طلب شيء وأقرأ عليه!!».

وكان الأمر بين الابن وأبيه على هذه الحال إلى قبيل ساعة الوفاة. قال ابن أبي حاتم[٣] في ترجمة عقبة بن عبد الغافر الأزدي: «سألت أبي وهو في النَّزْع عن عقبة بن عبد الغافر: هل له صحبة؟ فقال: لا، بلسان مسكين»! فانظر إلى الابن ما أحرصَه على الاستفادة، وإنْ أثقلَ على أبيه،

(١) في «السير» ١٣: ٢٥١.

(٢) يُنظر: هل المعنى: يقرأ عليه وهو ماشٍ يريد دخول الخلاء، أو أنه يفعل كما كان الإمام المجد ابن تيمية الجدّ يقول لابنه عبد الرحمن إذا دخل الخلاء: «اقرأ في هذا الكتاب وارفع صوتك حتى أسمع» حكاه ابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة» ٤: ٥، كلاهما محتمل، والله أعلم.

وقد علَّق الحافظ ابن رجب على هذا الخبر بقوله: هذا يدل «على قوة حرصه على العلم وحصوله، وحفظه لأوقاته».

(٣) في «الجرح والتعديل» ٦ (١٧٤٢).

وانظر إلى الأب ما أحرصَه على الإفادة: لم يبخل بها ولم يتضجَّر من ابنه، وهو في هذه الدقائق الأخيرة من حياته، فرضي الله عنهما وعن سائر علماء الإسلام.

ونقل أبو هلال العسكري[١] عن الإمام العبقري الخليل بن أحمد الفَراهيدي رحمهما الله تعالى قوله: «أثقلُ ساعاتٍ عليَّ ساعةَ آكل فيها!».

وكان في عصره الفقيه الزاهد العابد داود الطائي رحمه الله، فقد روى أبو نعيم[٢]: أن دايةَ (قابلةَ) داودَ الطائيِّ قالت له: «يا أبا سليمان، أما تشتهي الخبز؟ قال: يا داية، بين مضْغ الخبز، وشُرب الفَتيت قراءة خمسين آية».

وقال ابن الجوزي[٣] في ترجمة أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي صاحب «الفنون» ـ وما أدراك ـ: رأيت بخط ابن عقيل يحكي عن نفسه: «إني لا يحلّ لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطّل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أُعمِل فكري في حال راحتي وأنا مستطرِح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أُسطّره، وإني لأجدُ من حرصي على العلم وأنا في عَشْر الثمانين، أشدَّ مما كنت أجده وأنا ابن عشرين!».

وقال ابن الجوزي أيضاً[٤] في ترجمة العالم الوزير ابن الوزير: أبي

---

(١) في جزئه «الحث على طلب العلم» ص٨٧

(٢) في «الحلية» ٧: ٣٥٠.

(٣) في «المنتظم» ٧: ١٨١.

(٤) في «المنتظم» ١٧: ٢٢.

شجاع محمد بن حسين الأهوازي، أنه كان مبتلًى بالوسوسة في الطهارة، فكتب إليه ابن عقيل ينصحه ويعاتبه على ضياع الوقت والماء: «إن أجلّ محصول عند العقلاء، بإجماع الفقهاء: الوقت، فهو غنيمة يُنتهز فيها الفُرص، والتكاليف كثيرة، والأوقات خاطفة، وأقلُّ متعبَّد به الماء..، فإن خطر بالبال نوع احتياط في الطهارة، فإنه يفوِّت من الأعمار ما لا يفي به الاحتياط في الماء الذي أصله الطهارة».

ونقل الحافظ ابن رجب[1] عن كتاب «الفنون» لابن عقيل نفسه قولَه عن نفسه: «قال حنبليّ ـ يعني نفسه ـ: أنا أقصر بغاية جهدي أوقاتَ أكلي، حتى أختار سَفّ الكعك وتحسّيه بالماء، على الخبز، لأجل ما بينهما من تفاوتِ المضْغ، توفّراً على مطالعة، أو تسطيرِ فائدة لم أدركها».

وحكى ابن أبي أُصَيبِعة[2] عن الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله أنه قال: «والله إنني أتأسف في الفوات عن الاشتغال بالعلم في وقت الأكل، فإن الوقت والزمان عزيز».

وقال الذهبي في ترجمة الإمام النووي رحمهما الله[3]: «كان لا يضيع وقتاً لا في ليل ولا في نهار، إلا في الاشتغال، حتى في الطُّرق..، وكان يأكل في اليوم والليلة أكلة، ويشرب شَربة واحدة عند السحَر».

(١) في «ذيل طبقات الحنابلة» ١ : ٣٢٥.

(٢) في «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» ٢ : ٣٤.

(٣) في «تذكرة الحفاظ» ٤ : ١٤٧٢.

وقال الحافظ ابن عساكر[١] في ترجمة الإمام أبي الفتح سُليم بن أيوب الرازي رحمه الله تعالى: «حُدِّثت عنه أنه كان يحاسب نفسه على الأنفاس، لا يَدَع وقتاً يمضي عليه بغير فائدة، إما ينسخ، أو يدرّس، أو يقرأ، وينسخ شيئاً كثيراً، ولقد حدثني عنه شيخنا أبو الفرج الإسفراييني: أن أبا الفتح نزل يوماً إلى داره ورجع فقال: قد قرأت جزءاً في طريقي. قال: وحدثني المؤمَّل بن الحسن: أنه رأى سُليماً حَفِيَ عليه القلم ـ أي: رَقّ ولم يَعُدْ يصلح للكتابة به ـ فإلى أنْ قَطَّه ـ أي: أصلحه للكتابة ـ جعل يحرك شفتيه، فعلم أنه يقرأ بإزاء إصلاحه القلم، لئلا يمضيَ عليه زمان وهو فارغ». رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

ومثلُه وأبلغ منه في الحرص على الخير والإفادة: ما أسنده ابن أبي العوام[٢] إلى الإمام أحمد قال: «كان ابن المبارك يطوف البيت ويقول: فلان قويّ، وفلان ضعيف». أي: يشتغل بعلم الجرح والتعديل، وهو في الطواف! فهذا جمع لعبادتين في آن واحد.

وحكى السخاوي[٣] عن شيخه الحافظ ابن حجر رحمهما الله تعالى قال: «كان رحمه الله إذا جلس مع الجماعة بعد العشاء وغيرها للمذاكرة، تكون السُّبحة داخلَ كُمّه بحيثُ لا يراها أحد، ويستمرُّ يديرها وهو يسبِّح أو يذكر، غالب جلوسه، وربما تسقط من كمّه، فيتأثر بذلك، رغبة في إخفائه».

---

(١) في «تبيين كذب المفتري» ص٢٦٣.

(٢) في «فضائل أبي حنيفة» (٦١٨).

(٣) في «الجواهر والدرر» ١ : ١٧١.

وذكر قبل ذلك بقليل[1] أن الحافظ أقام بدمشق مئة يوم، من ٢١ من رمضان سنة ٨٠٢، إلى أول يوم من المحرم سنة ٨٠٣، وذكر ما قرأ فيها من الكتب وما سمعه، وأن جملتها «نحو ثلاثين مجلداً ضخمةً، تكون نحو أربع مئة وخمسين جزءاً حديثية[2]، خارجاً عن الأجزاء الحديثية، وهي تزيد على هذا المقدار».

وذكر أنه كتب بخطه من الأجزاء الحديثية والفوائد النثرية ثمانَ مجلداتٍ فأكثر، وعمل «أطراف أحاديث كتاب «المختارة» للضياء المقدسي في مجلد ضخم، قال السخاوي: «ولو لم يكن له عمل في طول هذه المدة إلا هي، لكانت كافية في جلالته».

ب ـ أما الحرص على تحصيل العلم

ج ـ وكذلك الحرص على اغتنام الفائدة الواحدة خشية فواتها

فهذا المعنى هو الذي أراده الإمام البخاري رحمه الله تعالى، فيما حكاه الحافظ[3] عن ورّاق البخاري، واسمه محمد بن أبي حاتم الوراق، قال: «بلغني أنه شرب البلاذُر[4]، فقلت له مرة في خلوة: هل من دواء

---

(١) «الجواهر والدرر» ١ : ١٦٠.

(٢) والجزء الحديثي يقدَّر بأربعين صفحة، قاله الذهبي في «السير» ٢٠ : ٥٥٨.

(٣) في «مقدمة الفتح» ص٤٨٧ ـ ٤٨٨.

(٤) البلاذر: ثمرة تشبه قلوب الطير، ولونه أحمر إلى السواد، وفي داخله شيء شبيه بالدم، وهو نافع للنسيان وذهاب الحفظ. كما في «الجامع» لابن البيطار ١ : ١٥٤، و«المعتمد» للملك المظفر ابن رسول ص٣١، وكانوا يستعملونه لقوة الحفظ، =

للحفظ؟ فقال: لا أعلم، ثم أقبل عليَّ فقال: لا أعلم شيئاً أنفعَ للحفظ من نَهْمة الرجل، ومداومة النظر».

أما مداومة النظر: فسيأتي الحديث عنها إن شاء الله[١].

وأما النَّهمة: فهي شدة الحرص على الشيء، ومعلوم أن مَن كانت نَهْمتُه في العلم فإنه لا يشبع منه، كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «منهومان لا يشبعان: منهوم في علم لا يشبع، ومنهوم في دنيا لا يشبع»[٢].

ومن أخبار نَهمتهم في العلم رضي الله عنهم: ما جاء[٣] أولَ ترجمة الإمام الكبير إبراهيم بن الحسين ابن دِيْزِيل الهَمَذاني ـ أحدِ أقران الأئمة: البخاري ومسلم وغيرهما ـ، قال الذهبي: «يُلقَّب بـ: سِيْفَنَّه، وسِيْفَنَّه: طائر ببلاد مصر، لا يكاد يحطُّ على شجرة إلا أكل ورقها حتى يُعْرِيَها، فكذلك كان إبراهيم، إذا ورد على شيخ لم يفارقه حتى يستوعب ما عنده».

وترجم الإمام ابن عساكر[٤] لأحد أئمة الحديث الرحالين، وهو من أئمة الصوفية المتحقِّقين: أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصرآبادي،

والإكثار منه ضارّ، وممن تضرَّر به: البلاذري صاحب «فتوح البلدان».

(١) في المعلم الثامن ص١٦٠.

(٢) رواه الحاكم (٣١٢) وقال: صحيح على شرطهما ولم أجد له علة، ووافقه الذهبي، لكن فيه عنعنة قتادة عن أنس.

(٣) في «السير» ١٣: ١٨٥.

(٤) في تاريخه ٧: ١٠٣.

المتوفَّى بمكة سنة ٣٦٧ رحمه الله تعالى، ومما جاء في ترجمته[١] قول تلميذه ورفيقه في طريق الحج: الإمام أبي عبد الرحمن السُّلمي: «ولما دخلنا البادية كان كلما نزل عن راحلته في سيره لا تفارقه المَحبرة والمَقْلَمة والبياض ـ أي: الورق ـ، فقلت: أيها الأستاذ: في هذا الموضع والناسُ يخفِّفون عن أنفسهم!! فقال: أبا عبد الرحمن، ربما أسمع شيئاً من جمّال أو غيره حكمة، أُثْبته كي لا أنسى».

وأسبقُ منهما: قتادةُ بن دِعامة الإمامُ في النُّورين: الكتاب والسنة، مع شيخه الإمام العَلَم سيد التابعين سعيد بن المسيَّب رضي الله عنهم، أيامَ محنة عامل المدينة المنورة لسعيد حين توقف عن إعطاء البيعة لولدَيْ عبد الملك بن مروان: الوليدِ وسليمانَ، فأقام العاملُ سعيداً في الشمس وضربه ستين سوطاً، أو أكثر أو أقلّ، وسعيدٌ في هذه الحال، قال قتادة: «أتيت سعيد بن المسيَّب، وقد أُلبِس تُبّان شَعر ـ سراويل قصيرة لستر العورة الغليظة ـ وأُقيم في الشمس فقلت لقائدي ـ وكان قتادة أكمهَ ـ: أَدْنِني منه، فأدناني، فجعلت أسأله، خوفاً من أن يفوتني، وهو يُجيبني حِسبة، والناسُ يعجبون»[٢].

وقال العسكري[٣]: «حكي عن ثعلب ـ إمام الكوفة في اللغة العربية ـ أنه كان لا يفارقه كتاب يدرسه، فإذا دعاه رجل إلى دعوة شَرَط عليه أن

---

(١) صفحة ١٠٩.

(٢) كما في «حلية الأولياء» ٢: ١٧١.

(٣) في «الحث على طلب العلم» ص٧٧.

يوسّع له مقدار مِسْوَرة ـ مِخَدَّة ـ يضع فيها كتاباً ويقرأ. وكان أبو بكر الخياط النحْوي ـ من علماء أواخر القرن الثالث ـ يدرس جميع أوقاته، حتى في الطريق، وكان ربما سقط في جُرْف، أو خبطتْه دابة! وكان ابن الفرات لا يترك كل يوم إذا أصبح أن يحفظ شيئاً وإنْ قلّ. وسأل رجل أبا حنيفة عما يُورِث الحفظ، فقال: البِزْر البِزْر. ـ يريد: زيت السراج، يريد: السهر في العلم ـ. ونحوُ ذلك: أن رجلاً قال لسقراط: كيف حفظتَ هذا العلم الكثيرَ؟ فقال: أوقدتُ من الزيت أكثر مما شربتُ من الماء!!».

وبعدهم: الإمام شمس الأئمة السَّرَخْسي، المتوفَّىٰ نحو سنة ٤٩٠ رحمه الله تعالى، جرى بينه وبين أمير مدينة أُوْزْجَنْد ما أوغر عليه صدره، فحبسه في الجبّ، فخاف عليه تلامذته أن يُقضى عليه أمر، فتفاوضوا معه على أن يجلسوا عند فم الجبّ، وهو يُملي عليهم شرحاً على كتاب «الكافي» للحاكم الشهيد، الذي جمع فيه كتب الإمام محمد بن الحسن الشيباني الستةَ المعروفةَ بكتب «ظاهر الرواية»، فأجابهم إلى ذلك، وأملى عليهم كتابه الشهير «المبسوط»، المطبوع في ثلاثين جزءاً، وبعد أن فرغ منه أملى عليهم كتاباً في «أصول الفقه» طبع في مجلدين، ثم بدأ بإملاء شرح مستقل على «السِّير الكبير» للإمام محمد، فأملى عليهم من المطبوع مجلدين أيضاً، ثم أذِن الله تعالى بالفرج، فأتمّ شرحه في مدينة فَرْغانة.

وكان إملاء ذلك عليهم من حافظته دون رجوع إلى كتاب، ورضي الله عن هذه (المكتبة المتنقلة)[1].

---

(١) وتنظر ترجمته في «الجواهر المضية» للحافظ القرشي ٣: ٧٨ وغيره.

فلم يكن السَّجن أو التعذيب عائقاً للمستفيد، ولا عائقاً للمفيد، عن الاستفادة والإفادة.

وتقدم شيء من هذا القبيل في أخبار الإمام أبي حاتم الرازي وابنه رحمه الله تعالى[١].

وصدر للأخ الكريم الدكتور محمد مطيع الحافظ حفظه الله، كتاب «في ربوع الشام: دمشق»، ومما فيه صورُ سماعاتٍ لبعض الأجزاء الحديثية التي تمّ سماعها بدمشق، ومنها[٢]:

ـ سماع على شيخٍ قبل وفاته بأربعة أيام.

ـ سماع آخر فيه: «ونحن سائرون على الدواب إلى النيرب.. من غوطة دمشق» يعني: إلى النزهة.

ـ إحضار لطفل عمره ثمانية أشهر، تحمله مرضعته.

ـ سماع «سنة خمس وثلاثين وست مئة بظاهر دمشق، وهي محصورة» في حال حرب وحصار.

ـ سماع «سنة خمس وسبع مئة بقرية الكسوة عند تلقي الحاجّ».

ـ سماع «سنة اثنتين وخمسين وست مئة بحمّام الصوفي بدرب الفراش من دمشق».

---

(١) صفحة ٨٧.

(٢) في هذه الصفحات المتفرقة على الترتيب: ص٤٧٣، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٨، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٦، ٤٨٨، ٥١٠، ٥١٥.

ـ سماع لجماعة كانوا في الحج سنة ٦٤٢، ومعهم بنت في السنة الخامسة من عمرها.

ـ سماع لأسرة خرجت إلى نزهة في قرية مقرى من غوطة دمشق، ومعهم بنت في السنة الثالثة من عمرها، مؤرخ سنة ٧٢٢.

ـ سماع لجزء كان أصحابه في السفينة من الجيزة إلى القاهرة سنة ٧٠٧.

ـ سماع لجماعة أُحضر معهم طفل وهو في اليوم الخامس من عمره، وهو في حَجْر أمه.

ـ سماع لجماعة أخرى، أُحضر معهم فاطمة بنت الإمام البِرْزالي، ولها من العمر ٩ أشهر ـ لا: ٥ أشهر ـ.

وفي كل هذه السماعات: معنى ناطقٌ بالحرص على شَغْل الوقت بالعلم، سواء في الرخاء، ككونهم في متنـزَّه، أو في شدة، ككون دمشقَ محاصرةً، أو في سفر قريب: من الجيزة إلى القاهرة، أو من دمشق إلى النيرب، من الغوطة، أو هم في خروج إلى ظاهر البلد لتلقي الحجاج.

وفي هذه السماعات: معنى ناطق أيضاً بالحرص على أن تشمل بركة العلم الشريف ـ وخاصة الحديثَ النبويَّ الشريف ـ أطفالهم الصغار: مولود له من العمر خمسة أيام، وآخر له من العمر ثمانية أشهر، وآخر عمره تسعة أشهر، ومما لا يحتاج إلى بيان: أن إحضار هؤلاء كان لتنالهم بركة العلم الذي أَخَذ حبُّه على أهليهم مشاعرَهم وأحاسيسَهم، وعلى أمل

أن يكونوا (رجال الغدِ المأمول)[١] للتشرُّف بحمله وخدمته.

وما كانت الشدائد في يوم من الأيام ـ على اختلاف أنواعها ـ عائقاً أو حائلاً بين العلم والعلماء، بل كان اشتغالهم بالعلم سُلواناً لهم عن كل مصيبة، وبلسماً شافياً لكل آلامهم، وقدَّمتُ قبل قليل[٢] خبر الإمام السرخسي وهو في الجبّ، وخبر قتادة مع سعيد بن المسيّب وهو يُجلَد، وخبر أبي حاتم الرازي وروحه تُنْزع منه!!.

وقد كان من دعاء الشيخ الإمام أبي محمد الجُوَيني والد إمام الحرمين رضي الله عنهما، في القنوت في الفجر: «اللهم لا تَعُقْنا عن العلم بعائق، ولا تمنعْنا عنه بمانعٍ. آمين آمين»[٣].

مدارستهم للعلم حتى في ساعات احتضارهم:

وروى ابن أبي العوام[٤] عن الإمام أبي نعيم الفضل بن دُكين الثقة الثَّبْت، أحدِ كبار شيوخ الإمام البخاري طبقةً وحجيَّةً، أنه قال: «دخلت على زُفَر ـ أحدِ أجلاء تلامذة الإمام أبي حنيفة ـ وقد احتُضِرَ، وهو يقول:

---

(١) انظر سبعة أبيات رائعة لحافظ إبراهيم افتتحها بهذا النداء ضمن قصيدته «تحية العام الهجري ١٣٢٧» هي في «ديوانه» ٢: ٣٧، وآخر هذه الأبيات السبعة:

رجال الغد المأمول إن بلادكم ... تناشدكم بالله أن تتذكّروا

عليكم حقوق للبلاد أجلُّها ... تعهُّد روض العلم، فالروض مُقْفِر

(٢) صفحة ٩٣، ٩٤، ٨٧.

(٣) حكاه السبكي في «الطبقات» ٥: ٧٤.

(٤) في «فضائل أبي حنيفة» (٦٨١).

في حالٍ لها مهر، وفي حال لها ثلثا مهر»، فهو يدرُس في حال احتضاره، في نفسه مع نفسه، صورةً من صُور مسائل الفقه.

ثم روى[١] نحو هذا عن الإمام أبي يوسف القاضي أشهر تلامذة أبي حنيفة، فأسند إلى إبراهيم بن الجراح قوله: «مرض أبو يوسف، فأتيته أعوده، فوجدته مُغْمًى عليه، فلما أفاق قال لي: يا إبراهيم، ما تقول في مسألة؟ قلت: في مثل هذه الحالة! قال: وَلا بأس بذلك، لعله ينجو به ناجٍ. ثم قال: يا إبراهيم، أيُّما أفضل في رمي الجمار: أن يرميها ماشياً أو راكباً؟ قلت: راكباً، قال: أخطأتَ، قلت: ماشياً، قال: أخطأتَ، قلت: قل فيها رضي الله عنك! قال: أما ما كان يُوقَف عنده للدعاء: فالأفضل أن يرميه ماشياً، وأما ما كان لا يوقف عنده: فالأفضل أن يرميه راكباً، ثم قمت من عنده، فما بلغتُ باب داره حتى سمعت الصُّراخ عليه، وإذا هو قد مات. رحمة الله عليه».

وقال الزَّرنوجي رحمه الله[٢]: «قيل: رُئي محمد رحمه الله في المنام بعد وفاته، فقيل له: كيف كنت في حال النزع؟ فقال: كنت متأملاً في مسألة من مسائل المكاتَب، فلم أشعر بخروج روحي».

وختم الحافظ ابن عساكر ترجمة الإمام أبي مسعود الرازي بهذا الخبر، قال[٣]: قال محمد بن يوسف البنا: رأيت أبا مسعود أحمد بن

---

(١) ابن أبي العوام أيضاً (٧٦٥).

(٢) في «تعليم المتعلم» ص٨٤.

(٣) في «تاريخه» ٥: ٥٧.

الفرات في النوم ـ بعد وفاته ـ فجعل يقول: حدثنا، وأخبرنا، فقلت: يا أبا مسعود، وفي الآخرة أيضاً: حدثنا، وأخبرنا؟! قال: نعم، وفي الآخرة: حدثنا وأخبرنا.

وكان من علماء بلدي الأول ـ مدينة حلب، أنقذها الله وسائر بلاد المسلمين من الفتن ـ عالمان كبيران، هما من مشايخ مشايخي جميعهم فيها بلا استثناء: العلامة الفقيه الشافعي التقيّ النقيّ الرباني الشيخ محمد سعيد الإدلبي (١٢٨٨ ـ ١٣٧٠)، والعلامة المحدث المؤرخ ناشر نفائس تراث السنة وعلومها، آنذاك، الشيخ محمد راغب الطباخ (١٢٩٣ ـ ١٣٧٠) رحمهما الله تعالى، توفيا في عام واحد، وكانا يسكنان في حيّ واحد، وتوفيا على حال واحدة.

أما الأول منهما: فسئل: ما يفعل من جاءته سكرات الموت؟ فقال: يطلب العلم. وحصل له هذا، كان كلما صحا من سكرات الموت ـ تغمده الله بالرحمة ـ يقول لمن حوله: أعطني الكتاب، حتى مات والكتاب على صدره.

وأما الثاني: فدخل عليه شاب من طلابه، وحول الشيخ مساند كثيرة، يستند إليها كيفما التفت، فسأله عن أمر، فقال له: ناولني هذا الكتاب، فأتاه به، فأخذه الشيخ، فثقل عليه المرض، ودخل عليه ابنه، فاعتذر إلى التلميذ الشاب، وأشار إليه بالخروج، فخرج، فلم يغادر الباب إلا وتوفي الشيخ، تغمده الله برحمته.

* * * * *

المَعْلَم الخامس

علوّ الهمة في طلب العلم

تعريف الهمّة: عرَّف العلماء الهمة بتعريفات عدَّة، يكاد يكون الاختلاف فيها لفظياً، ورأيت أوْلاها ما حكاه العلامة الأصولي، الأخلاقي الحكيم، المجاهد، شيخ الأزهر سابقاً الشيخ محمد الخَضِر حسين (١٢٩٣ ـ ١٣٧٧) رحمه الله تعالى[١]، قال: «أحكمَ علماء الأخلاق بيان هذا الخُلُق فقالوا: هو استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور».

الحث على رفع الهمة في طلب العلم:

وأقول: لقد استنهض الله عز وجل هِمَم عباده في عمل الخير، فقال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ البقرة: ١٤٨، وقال: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ الصافات: ٦١، وقال: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ المطففين: ٢٦.

وكذلك حضّنا النبي صلى الله عليه وسلم على هذا المعنى بقوله الكريم، الذي رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «المؤمنُ القويُّ خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خيرٌ، اِحرِصْ على ما

(١) في كتابه «رسائل الإصلاح» ٢: ٢٠٣، وهو كتاب كاسمه: فيه علم صحيح، وعمل رشيد، وفكر سديد.

ينفعك، واستعنْ بالله، ولا تَعجِزْ»[١].

ولا أنفعَ من العلم للمؤمن، وتأملْ قوله صلى الله عليه وسلم «احرِص»، و«استعنْ»، و«لا تعجِز»: ففيها من معاني علوّ الهمة واستنهاضها الشيءُ الكثير، وصلى الله وسلم على معلم الناس الخيرَ كلَّ الخير.

يقول الزمخشري رحمه الله في أبياته المشهورة، التي مطلعها[٢]:

سَهَري لتنقيح العلوم ألذُّ لي ... من وصْل غانية وطِيب عِناقِ

ثم يقول في آخرها:

يا من يحاول بالأماني رُتْبتي: ... كم بين مُستَفِلٍ وآخَرَ راقي

أأَبيتُ سهرانَ الدُّجى وتَبيتُه ... نوماً، وتبغي بعد ذاك لَحَاقي؟!

والعلم الشريف أعزُّ مطلوب، وأكرم مقصود بعد الإيمان بالله عز وجل، ويقولون: مَن يخطُبِ الحسناءَ يستسهلْ مهرها، وقد نظم هذا القول: الإمام النَّحْوي المشهور ابن هشام رحمه الله، المتوفىٰ سنة ٧٦١ عن ثلاث وخمسين سنة ـ وقد بلغ هذه الإمامة ـ، فقال[٣]:

ومَن يَصطبِرْ للعلم يظفرْ بنَيْله ... ومن يخطُبِ الحسناءَ يصبرْ على البذل

---

(١) وهو في «صحيح مسلم» ٤: ٢٠٥٢ (٣٤).

(٢) تنظر الأبيات بتمامها، وينظر القول في نسبتها إلى الزمخشري في كتاب شيخنا رحمه الله تعالى «صفحات من صبر العلماء» ص١٣٩.

(٣) كما في «الدرر الكامنة» ٢: ٣٠٩.

ومَن لم يُذِلَّ النفسَ في طلب العـلا يسيراً، يعشْ دهراً طويلاً أخـا ذلّ

وينبغي أن نلاحظ قوله «ومن يصطبر للعلم»، فإنه أبلغ من قوله: ومن يصبر على العلم، فالاصطبار أبلغ من الصبر، لما هو مقرَّر من أن زيادة المبنى، تدل على زيادة المعنى.

وكذلك حال من يطلب العلم، عليه أن يبذل في سبيل الحصول على الرتب العالية فيه أغلى ما يملك، ويغالب ويقاوم العوائق كلها، ليدرك منه، ما يمنّ الله عليه به، على قدر إخلاصه فيه، وعلى قدر بذله في سبيله.

قال أبو هلال العسكري[1]: «إذا كنت أيها الأخ ترغبُ في سموّ القدر، ونباهة الذِّكر، وارتفاع المنزلة بين الخلق، وتلتمسُ عزاً لا تثلِمه الليالي والأيام، ولا تَتَحيَّفه ـ لا يَنقُص مدى ـ الدهور والأعوام، وهيبةً بغير سلطان، وغنىً بلا مال، ومنَعةً بغير سلاح، وعلاء من غير عشيرة، وأعواناً بغير أجر، وجنداً بلا ديوان وفَرْض: فعليك بالعلم، فاطلُبه في مظانّه، تَأْتِك المنافع عفواً، وتَلْقَ ما يعتمد منها صفْواً، واجتهد في تحصيله لياليَ قلائل، ثم تذوَّقْ حلاوة الكرامة مدة عمرك، وتمتَّع بلذة الشرف فيه بقية أيامك، واستَبْقِ لنفسك الذكر به بعد وفاتك».

ثم ذكَر قول سيدنا عليّ رضي الله عنه «قيمة كلِّ امرىء ما يُحسِنه»، وعلَّق عليه[2] بقوله: «إذا تدبَّرت هذا كنت حقيقاً بالاجتهاد في طلب العلم

(١) في أول جزئه النافع «الحثّ على طلب العلم والاجتهاد في جمعه» ص٤٣

(٢) ص٤٥ ـ ٤٦.

أوانَ قدرتك عليه، غيرَ معذور في التواني عنه، والتقصير فيه، لأن العاقل لا يعتمد تَخْسِيس قيمته، ولا يغفُل عما يرفع قدره».

ومن وصايا العلامة العَلْمَوي رحمه الله في كتابه «المعيد في أدب المفيد والمستفيد»[١]: «ينبغي - للطالب - بل يتعيَّنُ: أن تكون همته في طلب العلم عالية، فلا يكتفي بقليل العلم مع إمكان كثيرِهِ، ولا يقنعُ من إرث الأنبياء بيسيرِهِ، ولا يؤخرُ تحصيل فائدة تمكَّن منها، ولا يشغلُه الأمل والتسويف عنها، فإن للتأخير آفات، ولأنه إذا حصّلها في الزمن الحاضر، نفعتْه في الزمن الآتِ، ويغتنمُ وقت الفراغ والنشاط، ويجتهد في الاستنتاج والاستنباط قبل عوارض البطالة، وموانع الرئاسة والملالة».

وهذه كلمات غاليات، أحب أن أقف قليلاً عند كلمتين منها.

أولاهما: قوله «ولا يقنع من إرث الأنبياء بيسيره»، فهذه كلمة عزيزة كريمة، ذات لفتة إلى معنى عزيز كريم: إنك يا طالبَ العلم طالبٌ لميراثك وحظك، ممن؟! من أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، فهل تقنع بأيِّ مقدار كان، أو أنك تطلب المزيد والمزيد؟! تكون كما قال المتنبي:

إذا غامرتَ في شرف مَروم ... فلا تقنع بما دون النجومِ
فطعمُ الموتِ في أمر حقير ... كطعمِ الموتِ في أمر عظيم

ثانيتهما: قوله «ولا يشغله الأمل والتسويف عنها»، أي: عن تحصيل الفائدة، وأنقل لك هذه الآثار الثلاثة عن بعض السلف في التحذير من

---

(١) صفحة ٧٦.

التسويف، رواها ابن أبي الدنيا[١].

الأول: عن أبي إسحاق السَّبيعي رحمه الله قال: قيل لرجل من عبد القيس: أوصِ، قال: احذروا «سوف».

والثاني: عن أبي الجَلْد جَيلان بن فَروة رحمه الله قال: قرأت في بعض الكتب: أن «سوف» جند من جنود إبليس.

والثالث: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «التسويف جندٌ من جنود إبليسَ عظيمٌ، طالما خَدَع به».

وهذا خُلُق يجب أن يحترس منه كل إنسان، وطالبُ العلم خاصة.

لا يستطاع العلم براحة الجسم:

ولأبي نصر يحيى بن أبي كثير اليمامي، أحدِ سادات التابعين الثقات، ومن مشاهير رواة الحديث في الكتب الستة وغيرها، كلمةٌ مشهورة مأثورة، تستنهض همم الفاترين في طلب العلم، قال رحمه الله: «لا يُستطاع العلم براحة الجسم»، ولهذه المقولة خبر.

روى الإمام مسلم حديث أبي مسعود البدري، وعائشة، وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم في مواقيت الصلوات الخمسة[٢]، رواها بألفاظ متعددة عن ثلاثةَ عشَر شيخاً: عن قتيبة بن سعيد البَغْلاني ـ وبَغْلان قرية من بلخ، وهي الآن في بلاد الأفغان ـ، وعن يحيى بن يحيى النيسابوري،

---

(١) في كتابه «قِصَر الأمل» (٢٠٦ ـ ٢٠٨).

(٢) في «صحيحه» ١: ٤٢٥ ـ ٤٢٧ (١٦٦ ـ ١٧٤).

وأبي بكر ابن أبي شيبة الكوفي، وعن عمرو بن محمد الناقد البغدادي الرقي ـ من سورية ـ، وعن حرملة بن يحيى التُّجِيبي المصري، وعن محمد بن عبد الله بن نُمير الكوفي، وعن أبي غسانَ المِسْمَعي، واسمه مالك بن عبد الواحد البصري، وعن محمد بن المثنى العَنَزي البصري، وعن عبيدالله بن معاذ العنبري البصري، وعن زهير بن حرب النسائي ـ من مدينة نَسَا ـ ثم البغدادي، وعن أحمد بن إبراهيم الدورقي البغدادي، وعن أحمد بن يوسف الأزدي النيسابوري.

ثم أَتْبع هذه الروايات عن هؤلاء الشيوخ بقوله: «حدثنا يحيى بن يحيى التميمي قال: أخبرنا عبد الله بن يحيى بن أبي كثير قال: سمعت أبي يقول: لا يستطاع العلم براحة الجسم».

ومعلوم أن من مزايا «صحيح مسلم» على «صحيح البخاري» أنه ـ كما قال ابن الصلاح ـ: ليس فيه بعد مقدمته إلا الحديث السَّرْد، فما الداعي له إلى رواية هذه المقولة هنا؟.

قال القاضي عياض[1]: «كثيرٌ مَن يَسأل عن ذكر مسلم هذا الخبرَ في هذا الموضع، وليس منه، ولا هو من حديث النبي صلى الله عليه وسلم، ولا من شرط الكتاب، فقال لنا بعض شيوخنا: إن مسلماً رحمه الله أعجبه ما ذَكَر في الباب، وعرف مقدار ما تعب في تحصيله وجمعه من ذلك، فأدخل بينها الخبر، تنبيهاً على هذا، وأنه لم يُحصِّل ما ذكر إلا بعد مشقة وتعب، وهو بيِّن، والله أعلم».

---

(١) في شرحه «إكمال المُعْلِم بفوائد مسلم» ٢: ٥٧٧، وعنه النووي ٥: ١١٣.

فمن الأفغان إلى نيسابور، إلى الكوفة، إلى بغداد، إلى الرقة، إلى البصرة، إلى مصر، بلدان مترامية الأطراف، مع وسائل بدائية في السفر والتَّرحال، فهذا ما دعا الإمام مسلماً إلى أن يختم هذه الروايات بكلمة يحيى بن أبي كثير: لا يستطاع العلم براحة الجسم، فكانت بمثابة حجر الأساس في منهج طالب العلم.

ولهذه الكلمة «المنهجية» خبر آخر يتصل بها.

حكى الذهبي رحمه الله[١] عن الإمام ابن الإمام: ابن أبي حاتم الرازي قال: «كنا بمصر سبعةَ أشهر، لم نأكل فيها مرقاً، كلُّ نهارنا مقسَّم لمجالس الشيوخ، وبالليل: النسخ والمقابلة، قال: فأتينا يوماً أنا ورفيق لي شيخاً، فقالوا: هو عليل، فرأينا في طريقنا سمكة أعجبتنا، فاشتريناه[٢]، فلما صِرنا إلى البيت حضر وقتُ مجلسٍ، فلم يُمكنّا إصلاحه، ومضينا إلى المجلس، فلم نزل حتى أتى عليه ثلاثة أيام، وكاد أن يتغيَّر، فأكلناه نِيْئاً، لم يكن لنا فراغ أن نعطيه من يشويه، ثم قال: لا يستطاع العلم براحة الجسد».

(١) في «السير» ١٣ : ٢٦٦.

(٢) جاء الضمير بصيغة التذكير هنا وما بعده؛ لأنه جاء في رواية ابن عساكر ٣٥:٣٦١ «حوتاً» بدل: سمكة.

ويضاف إلى هذا الخبر خبرُ الإمام أبي إسحاق الشيرازي مع (مرقة الفول) الآتي ص٢٥٦.

وكلمة يحيى بن أبي كثير بتمامها[(١)]: «ميراث العلم خير من ميراث الذهب، والنفس الصالحة خير من اللؤلؤ، ولا يستطاع العلم براحة الجسد».

ومعنى «لا يستطاع العلم» ـ والله أعلم ـ: أن العلم لا يكون طَوْع الإنسان يأخذ منه ويستفيد، ويحتج ويستدل، مع راحة الجسم والدَّعَة، ولذيذ المُقام، وطيب المنام، بل لا بدّ من التعب والنَّصَب، وتحمّل المشاقّ وغربة الأسفار.

جاء في «معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان»[(٢)]: كان أسد يقول: «ضربنا في طلب العلم آباط الإبل، واغتربنا في البلدان، ولقينا العلماء، وغيرُنا إنما طلب العلم خلفَ كانون أبيه، ووراءَ مَنْسَج أمه، ويريدون أن يلحقونا!!».

وكانت لأسد رحلة طويلة وبعيدة، من القيروان في تونس، إلى المدينة المنورة، إلى العراق، إلى مصر، ثم عاد إلى بلده، وجمع بين الثقافتين والفقهين: الحجازي والعراقي، ونقلهما إلى المغرب. ورحلته: شيِّقة ممتعة، ينبغي لطالب العلم أن يقرأها في مصادرها المطوَّلة بتأنّ وتدبّر، ففيها دروس وعبر.

---

(١) كما في «تاريخ بغداد» ١١: ٣٧٥ ترجمة عبد الله بن محمد الرِّقاعي، بالقاف، لا بالفاء.

(٢) ٢: ١٨ في ترجمة الإمام أسد بن الفرات رحمه الله تعالى.

وحكىٰ ابن النجار[١] من كلام أبي بكر محمد بن الإمام داود الظاهري: «من لم يشرب ماء الغُربة، ولم يضع رأسه على ساعد الكُربة، لم يعرف حق الوطن والتربة، ولم يعرف حقَّ ذي العلم والشيبة».

ومن أخبارهم في علو الهمة في العلم وتحصيله واغتنامه ما يلي:

روى الخطيب[٢] عن عُبيد بن يَعيش الكوفي العطار أحد الثقات، ومن شيوخ البخاري ومسلم، أنه قال عن نفسه: «أقمت ثلاثين سنة ما أكلت بيدي، يعني بالليل، كانت أختي تُلْقِمُني، وأنا أكتب الحديث». يعني: حين كان يبيِّض في الليل ما كان يكتبه في النهار عن الشيوخ.

ومن أخبار أحبارهم: ما جاء في ترجمة الإمام شريف الدين التِّلِمْساني (٧١٠ ـ ٧٧١) رحمه الله تعالى[٣] قال فيها: «حضر يوماً مجلس أبي زيد ابن الإمام[٤] في تفسير القرآن، فذكر نعيم الجنة، فقال له الشريف، وهو صبيّ: هل يُقرأ فيها العلم؟ فقال له ـ الشيخ جواباً عاماً ـ: نعم، فيها ما تشتهيه الأنفس، وتَلَذُّ الأعين، فقال له: لو قلتَ: لا، لقلت لك: لا لذة فيها، فعجب منه الشيخ ودلّه.

---

(١) في «ذيل تاريخ بغداد» ١: ٢٠٧.

(٢) في «الجامع» (١٥٩٢).

(٣) في «نيل الابتهاج» للتُّنْبُكتي ص٤٣٣.

(٤) هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد التلمساني (ت ٧٤٣) رحمه الله، من أئمة السادة المالكية، وصفه ابن فرحون في «الديباج المذهب» ١: ٤١٦ بالإمام العلامة الأوحد.

واستفرغ التلميذ النَّهِمُ وُسْعه في طلب العلم حتى ذكر بعضُهم أنه لازمه أربعة أشهر فلم يره نزع ثوبه ولا عمامته، لشَغْله بالنظر والبحث، فإذا غلبه النوم نام نوماً خفيفاً، فإذا أفاق لم يرجع إلى النوم ويقول: أَخَذَتِ النفس حقها، فيتوضأ، والوضوء من أخفّ الأشياء عليه، ثم رجع للنظر، وابتدأ الإقراء ـ أي: التدريس ـ وهو ابن إحدى عشرة سنة!».

ثم حصل لهذا (الصبي) مع هذا الشيخ موقف آخر، قال التُّنْبُكتي[1]: «وبحث يوماً مع أبي زيد ابن الإمام في حديث، وتجاذبا فيه الكلام جواباً، حتى ظهر (التلميذ)، فأنشد الشيخ:

أعلِّمــه الرمايــة كــلَّ يــوم فلما استَدَّ ساعده رمـاني»

[وكم علَّمته نظم القـوافي فلمـا قـال قافيـة هجـاني]

وفي ترجمته نفائس، هي من نَتَاج هذه الهمة العالية النادرة، والنَّهمة الفائقة، والعشق للعلم، حتى وصفوه ببلوغه رتبة الاجتهاد، فَتُقرأُ بتأنّ وإمعان.

ومن أخبارهم في علوّ الهمة في تحصيل العلم: ما حكاه العلامة الشيخ محمد الخَضِر حسين رحمه الله بقوله[2]: «عكف أبو صالح أيوب بن

---

(١) في «نيل الابتهاج» ص٤٣٥.

(٢) في «رسائل الإصلاح» ١: ٩٩ من مقاله النافع الماتع: «كبر الهمة في العلم».
وأيوب بن سليمان، هو المَعَافري، من علماء المالكية في القرن الثالث، وكانت وفاته رحمه الله أول القرن الرابع سنة ٣٠١، أو ٣٠٢. ومصادر ترجمته كثيرة، لكني لم أر هذه القصة فيما رجعت إليه منها، لكن الشيخ عمدة.

سليمان على كتاب العروض حتى حفظه، فسأله بعضهم عن إقباله على هذا العلم بعد الكِبَر؟ فقال: حضرت قوماً يتكلمون فيه، فأخذني ذلّ في نفسي أن يكون باب من العلم لا أتكلم فيه».

ومنها: ما حكاه السخاوي عن شيخه ابن حجر رحمهما الله تعالى[١] قال: «كنت في أول الأمر أنظم الشعر من غير تقدّمِ اشتغالٍ في العروض، فسألني شخص أن يقرأ عليّ مقدمةً في العروض سريعةَ المأخذ، فأجبته لذلك وواعدته ليومٍ عيَّنْتُه له، ثم توجهت في الحال من مصر ـ حيّ مسجد عمرو بن العاص رضي الله عنه، الآن ـ، إلى القاهرة ـ حيّ الأزهر ـ، فاجتمعتُ بصاحبنا البدر البَشْتكي، وسألته عن مقدمةٍ في ذلك سهلة التناول، فأشار إليها، فأخذتها منه، وقرأت عليه منها مجلساً، استفدت منه معرفة الفنّ بكماله، ورجعت، فأقرأتها السائل، ولم أحتجْ لقراءة باقيها».

قال: «وَجَدَّ رضي الله عنه بهمة وافرة، وفكرة سليمة باهرة، في طلب العلوم، منقولها ومعقولها، حتى بلغ الغاية القصوى، وصار كلامه مقبولاً عند أرباب سائر الطوائف، لا يَعْدُون مقالته، لشدة ذكائه، وقوة باعه، حتى كان حقيقاً بقول القائل:

وكان من العلوم بحيث يُقضَىٰ ... لـه في كـل علـم بـالجميع»

وجاء في التعليق على «طبقات» السبكي[٢]: «كان ـ الخُسْروشاهي ـ

---

(١) في «الجواهر والدرر» ١: ١٣٩.

(٢) ٨: ١٦٢ زيادةٌ في ترجمة عبد الحميد بن عيسى الخُسْرُوشاهي، المتوفىٰ =

يحكي من جلالة الإمام ـ الفخر الرازي ـ وعظمته أنه هو وسائر طلبة الإمام صبَّحهم يومٌ أبيض ـ كثيرُ الثلج ـ، ونَوْءٌ بات ياسَمينُه على الأرض يُنفَض، والثلج قد أبطل كل حركة، وكيف لا، وهو بلا شك كافور، والسحائب عمَّ عطاؤها في البلد، فساوى بين مستَفِلات الأرض وشُرُفات السُّور، وهمتهم مع ذلك، لم تَخْمُد نيرانها، ولم تفتُر عن سماع كلمات الإمام آذانها، وإن عامتِ الأرض لكثرة الماء، وعمَّت الجدرانَ سحائبُ السماء، وأبتْ همتهم أن تبطُل فوائدُ الإمام، ولو بطلت الحواسّ الخمس، ونفوسُهم أن تغيب عن كلماته، وإن غابت تحت الغمام عين الشمس.

فأتوا جميعاً ووقفوا تحت طاقة الإمام، ووضعوا على رؤوسهم كساء يمنع وصول المطر، وفتحوا «المحصول»[١]، وشرع واحد يقرأ ثم واحد، والإمام لا يُدني رأسه من الكُوّة إلا لمن يرتضيه، فمنهم من يجيبه، ومنهم من يقرأ إلى آخر درسه، والإمام لا يلتفت إليه، تمريناً منه رحمه الله على الآداب، وتعريفاً لمقدار العلم، وأنه يَعِزُّ، وإنِ اقتحم ذو العزيمة الأهوال، وظن أن همته تعلو السحاب»[٢].

سنة ٦٥٢، أحد تلامذة الإمام الفخر الرازي، وممن كان على نهجه: أصولياً كلامياً، رحمهما الله، جاءت هذه الزيادة نقلاً عن ترجمته في «الطبقات الوسطى» للسبكي نفسه.

(١) للإمام الفخر الرازي نفسه، وهو من عُمُد كتب أصول الفقه الشافعي، على طريقة المتكلمين.

(٢) نقل هذا الخبر العَلْموي في «المعيد» ص٤١، ويصحح ما هناك على ما هنا.

الكلمة الطيبة وأثرها في صنع الرجال :

وعلوُّ الهمة في طلب العلم يستدعي حديثاً طويلاً لا ينتهي في فصل من فصول هذا الكتاب، لكنه يحلو بالأحاديث والأخبار عن الهمم التي جاءت بالعجائب، وتولّد عنها وقائع هي إلى الكرامات والخوارق، أقرب منها إلى الواقع المادي البشري، ولكني لن أُبعِد.

ـ أحيل أولاً الأخ القارئ إلى قراءة خبر ذاك الشاب سَنَد بن علي الآتي[(١)].

ـ ثم أذكُر قصة أحد كبار السادة الشافعية أبي بكر عبد الله بن أحمد المروزي القفال الصغير، المتوفَّىٰ سنة ٤١٧ عن تسعين سنة رحمه الله تعالى، أنقلها بطولها من «معجم البلدان» لياقوت[(٢)]:

قال ياقوت رحمه الله: «وإليها ـ وإلى مروالشاهِجان ـ ينسب عبد الله ـ لا: عبد الرحمن ـ بن أحمد بن عبد الله أبو بكر القفال المروزي، وحيد زمانه فقهاً وعلماً، رحل إلى الناس، وصنَّف وظهرت بركته، وهو أحد أركان مذهب الشافعي، وتخرّج به جماعة، وانتشر علمه في الآفاق، وكان ابتداء اشتغاله بالفقه على كبر السنّ.

حدثني بعض فقهاء مرو بـ: قنين، من قُراها: أن القفال الشاشي ـ يريد رجلاً معروفاً في البلد، لا الإمام المتحدَّثَ عنه ـ صنع قفلاً ومفتاحاً وزنه

(١) صفحة ١٥٠، وذكْره هناك أليَق من ذكره هنا.

(٢) رسم (مروالشاهِجان)، وفي ترجمته عند ابن الصلاح ـ والنووي والمـزي ـ في «طبقات الشافعية» ١ : ٤٩٦، و«طبقات» السبكي ٥ : ٥٣، إشاراتٌ إليها.

دانق واحد ـ والدانق: وزنه سُدُس وزن الدرهم ـ، فأُعجب الناس به جداً، وسار ذكره، وبلغ خبره إلى القفال هذا ـ أبي بكر ـ فصنع قفلاً مع مفتاحه وزنه طَسُّوج ـ أي: ربع دانق!![1] ـ، وأراه الناسَ، فاستحسنوه ولم

(١) اقرأْ وتأملْ إلى أيّ حدّ وصل إليه أسلافنا المسلمون في مهارة الصناعة اليدوية، وذلك منذ نحو عشرة قرون، ولا تبادر إلى الإنكار والتكذيب وتقول: كيف يمكن لهذا الصانع أن يمسك بكلتا يديه القطع الحديدية الدقيقة ويركّبها ليصنع منها قفلاً مع مفتاحه، بهذا الوزن الصغير جداً.

وأحكي لك خبراً آخر يستثير عجبك أكثر من هذا، أحكيه لك بطوله من أوله إلى آخره:

كنت طالباً في السنة الثانية من المرحلة الثانوية، في الثانوية الشرعية بحلب، حرسها الله تعالى وسائر بلاد الإسلام، من هذه الفتن العمياء، وكان أستاذنا في درس الفقه الحنفي فضيلة سيدي العالم الأصولي الفقيه الصالح الورع الشيخ محمد السلقيني تغمده الله تعالى برحماته، وكان شديد الحرص على الوقت، ومن شدة حرصه أنه قد يدخل غرفة الدرس قبل الطلبة، وفي يوم من الأيام تأخر الشيخ، ووقفنا ننتظر قدومه، وبعد دقائق رأينا الشيخ قادماً من طرف غرفة الأساتذة، مسرعاً، يتدارك تأخره، ودخل وبدأ الكلام معتذراً عن تأخره فقال:

جاءنا ضيف إلى المدرسة، وبينما هو جالس معنا إذ وقع نظره على الأستاذ الشيخ عبد الرحمن زين العابدين ـ رحمه الله تعالى ـ وحوله بعض الطلبة من المرحلة الإعدادية، فسألَنا هذا الضيف: ماذا يفعل هذا الشيخ هنا؟ فقلنا له: يدرِّس النحو، فهزّ برأسه متألماً على الشيخ، منكراً علينا، وقال: أليس حراماً أن يكون هذا الشيخ مدرساً عندكم: ضرب زيد عمراً، وهو إنسان يأتي بالعجائب!! فقلنا له: نعم، نحن نعرفه بالمهارة في عدة أمور، لكنْ أَيْشٍ من العجائب يأتي به؟.

فقال: هذا إنسان يثقب الإبرة طولانياً!! وبدأ الشيخ درسه الفقهيّ.

ومضت أيام قليلة، وذهبتُ لزيارة أستاذنا الشيخ عبد الرحمن زين العابدين في

=

....

بيته بعد العشاء، كعادته اليومية في استقبال أي زائر: طالب من طلابه، مثلي ومثل زملائي، أو زميل له من أقرانه، أو أي إنسان يسمع بعبقرية الشيخ، يريد أن يتشرف بالتعرف عليه.

ذهبت لزيارته رحمه الله، وإذ بالشيخ يَفْجَؤُني بالقصة من أولها، قال لي:

قرأت في مجلة خبراً، فيه مساجلة بين رجلين: أمريكي وألماني، يقول أحدهما ـ ونسيته أنا ـ: إنه يثقب الإبرة طولانياً، فردّ عليه الثاني بقوله: وأنا أثقب الريشة التي تثقب بها الإبرة.

قال الشيخ: فقرأت هذا الخبر على ضيف كان عندي، فقلت له: لو كنتُ ثالثَهما لثقبت إبرة الرجل الثاني، فأخذتِ الرجلَ دهشةٌ بالغة، ولم يتمالك نفسه أن قال لي: أستاذ، ماذا تقول؟! فقلت له ـ والكلام كله للشيخ رحمه الله ـ: أما تصدق؟! هاتِ يدك، وأدخلتُه على غرفة المعمل ـ هكذا قال الشيخ، يريد: الغرفة الخاصة التي فيها أدوات الصناعة والميكانيك والمخترعات، وكل شيء ـ، وجئت بإبرة، وصنعت الريشة الفولاذية لثقبها، ثم عملت ريشة ثانية وثقبت بها الريشة الأولى، ثم عملت ريشة ثالثة وثقبت بها الريشة الثانية!!.

فخرج الرجل على وجهه، لا يصدق ما رأى.

ـ ولا ريب أن هذا المشهد صار حديثَ الرجل في اليوم الثاني مع كل من يلقاه ـ.

قال الشيخ تغمده الله برحمته: وفي اليوم الثاني في مثل الوقت الأول، يُطرق الباب، ففتحته وإذْ بالرجل ومعه آخر، يبدأ كلامه باستغاثة ولهفة: يا أستاذ أرجوك أرجوك، إكراماً لله، إكراماً لله، فقلت له: خيراً، ماذا تريد؟ فقال: العملية التي أجريتَها البارحة تُعيدها الآن مرة ثانية، وبيني وبين هذا الرجل مراهنة على مئة ليرة سورية ـ وهي الآن تعادل مئة ألف ليرة سورية ـ.

قال الشيخ: فأدخلتُهما على غرفة المعمل ثانية، وأعدت العملية بمراحلها مرة ثانية.

هذا كلام الشيخ منذ اثنين وخمسين عاماً. وهو الإمام العبقري في المعقولات،

=

يَشعْ له ذكْر، فقال يوماً لبعض من يأنس إليه: ألا ترى! كلُّ شيء يفتقر إلى الحظّ؟ عمل الشاشي قفلاً وزنه دانق، وطنَّت به البلاد، وعملت أنا قفلاً بمقدارِ ربعه، ما ذكرني أحد!! فقال له: إنما الذكر بالعلم لا بالأقفال!.

فرغب في العلم واشتغل به، وقد بلغ من عمره أربعين سنة، وجاء إلى شيخ من أهل مرو وعرَّفه رغبته، فيما رغب فيه، فلقَّنه أول كتاب المزني، وهو: هذا كتاب اختصرته، فرقىٰ إلى سطحه وكرر هذه الثلاثة ألفاظ من العِشاء إلى أنْ طلع الفجر، فحملتْه عينه فنام، ثم انتبه وقد نسيها، فضاق صدره، وقال: أَيْشٍ أقول للشيخ! وخرج من بيته.

فقالت له امرأة من جيرانه: يا أبا بكر لقد أسهرتَنا البارحة في قولك: هذا كتاب اختصرته! فتلقَّنها منها[1]، وعاد إلى شيخه وأخبره بما كان منه، فقال له: لا يصدَّنك هذا عن الاشتغال، فإنك إذا لازمت الحفظ والاشتغال، صار لك عادة، فجَدَّ ولازم الاشتغال، وكان منه ما كان، فعاش ثمانين سنة، أربعين جاهلاً، وأربعين عالماً»[2]. ثم نقل ياقوت عن السمعاني أنه عاش ٩٠ سنة وتوفي سنة ٤١٧.

واللغة العربية: نحوها، وصرفها، والصناعات بمختلفها، والرماية.

وكانت ولادته سنة ١٣٢٦ هـ ـ ووفاته سنة ١٤١١ رحمه الله تعالى، ولم يترك بعده خَلَفاً ناطقاً ولا صامتاً.

(١) تنظر قصة امرأة كانت تصحح للإمام أبي عبد الله الدامَغاني الحنفي خطأه في أول طلبه للعلم، في «الجواهر المضية» ٣: ٢٧١، وفيها طرافة.

(٢) ولعل الفاضل العَلْموي يشير إلى هذه الرواية بقوله في كتابه «المعيد» ص٥٩: «وقصة القفال واشتغاله في كبره بالعلم، مشهورة، معلومة مسطورة».

ومع ما في هذا الخبر من همة عالية من رجل بلغ الأربعين من العمر، وهو لا يعرف الفرق بين ضمير المتكلم من ضمير المخاطب: اختصرتَ اختصرتُ[(١)]، لعاميَّته ولعُجمته، فإنه صار إماماً يشار إليه، بهذه الهمة.

أقول: مع ما في الخبر من هذا المعنى، فإن فيه أيضاً ملاحظة وتنبيهاً إلى أدب كريم من ذاك الجليس الأنيس له، ومن ذاك الأستاذ المعلِّم له، فإنهما بـ(الكلمة الطيبة) النابعة من نفس متفائلة متطلِّعة، غيرِ مثبِّطة ولا متشائمة، نبَّهاه إلى ما فيه جميلُ الذكر وحسن العاقبة، ودفعا عنه اليأس، بملازمة الجِدّ والاشتغال بالعلم، فكان منه إمام وُصف بأنه «أحد مفاخر خراسان»، وبأنه «وحيد زمانه فقهاً وحفظاً وورعاً وزهداً»، وبأنه «تخرج به جماعة كثيرة صاروا أئمة في البلاد»، و«لم يكن في زمانه أفقه منه، ولا يكون بعده مثله، وكنا نقول: إنه مَلَك في صورة إنسان».

وهذه «الكلمة الطيبة» وأثرها هذا الأثر العظيم: أذكرتني بكلمات طيبة أخرى، وكان لها من الأثر ما هو أعظم من هذا بكثير.

فقد أسند الموفق المكي رحمه الله تعالى[(٢)] إلى أبي حنيفة أنه قال: «مررت يوماً على الشعبي وهو جالس، فدعاني وقال لي: إلى مَن تختلف؟ فقلت: أختلف إلى السوق، وسميت له أستاذي، فقال: لم أعنِ الاختلاف إلى السوق، عَنَيت الاختلاف إلى العلماء، فقلت له: أنا قليل الاختلاف إليهم، فقال لي: لا تَغْفُل، وعليك بالنظر في العلم ومجالسة العلماء،

---

(١) كما قاله ابن الصلاح في «طبقاته» ١ : ٤٩٨.

(٢) في «مناقب أبي حنيفة» ص٥٤.

فإني أرى فيك يقظة وحركة، قال: فوقع في قلبي من قوله، فتركت الاختلاف إلى السوق، وأخذت في العلم، فنفعني الله تعالى بقوله».

وأسند البيهقي رحمه الله(١) إلى الربيع بن سليمان المرادي قال: «سمعت الشافعي يقول: خرجت من مكة فلزِمت هُذيلاً في البادية، أتعلَّم كلامها وآخذ بلُغَتها، وكانت أفصح العرب، فأقمت معهم مدة أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم، فلما أنْ رجعتُ إلى مكة جعلت أُنشد الأشعار، وأذكر أيام الناس، فمرَّ بي رجل من الزُّهريين فقال لي: يا أبا عبد الله، عزّ عليّ أن لا تكون في العلم والفقه هذه الفصاحة والبلاغة! قلت: مَن بقي ممن يُقصد؟ فقال: مالك بن أنس سيد المسلمين! قال: فوقع في قلبي، وعَمَدت إلى «الموطأ» فاستعرته من رجل بمكة وحفظته..» إلى آخر الخبر.

فانظر إلى هذا التلطُّف والأدب في الخطاب، وانظر إلى هذا الارتفاع بالهمة، إذْ كلٌّ من الإمام الشعبي، والرجل الزهري، تكلم بكلمات لا تزيد على السطر الواحد، جعلت منها إماماً للمسلمين يَنْعَم المسلمون ـ على مدى هذه القرون المتطاولة، وإلى يوم الدين ـ بعلمه وفقهه، وأقول: إن هذه الكلمات صادفت محلاً وهمة عالية، وأيضاً: إنها كانت كلمات ناصحات صادقات، خرجت من قلب صادق، فكان لها ذاك الأثر العظيم.

ورضي الله عن الإمام أبي حنيفة والشافعي وعن سائر علماء المسلمين، وجزى الله كل خير الإمام الشعبي، وذاك الرجل الزهريَّ على

---

(١) في «مناقب الشافعي» ١ : ١٠٢.

ما أنطقهما الله به، فكان منه هذا الخير العظيم.

وهذا درس عابر ينبغي أن يستفيده كل مسلم: بأن يتكلم بخير وبما ينهض بالهمم، لا بما يثبِّط الهمم، ويميت العزائم.

وأعود إلى ما كنت فيه، فأقول: تقدمت[١] نماذج من حرص الأئمة على الفائدة وهم في ظروف الرخاء والشدة، وأزيد عليها ما يلي:

روى الترمذي[٢] حديث أنس رضي الله عنه: أنه صلى الله عليه وسلم خرج وهو يتكئ على أسامة بن زيد، وعليه ثوبٌ قِطْريٌ[٣]، قد توشّح به، فصلّى بهم. رواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن محمد بن الفضل، ثم أعقبه الترمذي بهذه الحكاية العجيبة في بابها، قال:

«وقال عبد بن حميد: قال محمد بن الفضل: سألني يحيى بن معين عن هذا الحديث أولَ ما جلس إليّ، فقلت: حدثنا حماد بن سلمة، فقال ـ يحيى ـ: لو كان من كتابك، فقمت لأُخرِج كتابي، فقبض على ثوبي ثم قال: أَمْلِلْهُ عليّ، فإني أخاف أن لا ألقاك، فأمليته عليه، ثم أخرجت كتابي فقرأته عليه».

قال شارحه الإمام الفقيه الباجوري رحمه الله تعالى في شرح قوله «فإني أخاف أن لا ألقاك»: «أي: لأنه لا اعتماد على الحياة، فإن الوقت

---

(١) صفحة ٩٠ فما بعدها.

(٢) في كتابه «الشمائل المحمدية» (٥٩)، وظاهر ما في «فتح المغيث» ٣: ٢٨٨ أن الخبر في «المسند»، وليس فيه.

(٣) نسبة على خلاف القياس إلى دولة قَطَر، أو هي بُرُود يمنية الصناعة، من قطن.

سيف قاطع، وبرق لامع، وفيه: كمالُ التحريضِ على تحصيل العلم، والتنفيرِ من الأمل، سيما في الاستباق إلى الخيرات».

وروى الخطيب[1] خبرين، الأول: عن سفيان الثوري، والثاني: عن يحيى بن معين.

أما الخبر الأول: فقال محمد بن كثير العبدي: «قدم سفيان الثوري البصرة، فلما نظر إلى حماد بن سلمة قال له: حدِّثني حديث أبي العُشَراء، عن أبيه ـ «لو طعنتَ في فخذها لأجزأ عنك» ـ، فقال حماد: حدثني أبو العشراء، عن أبيه، الحديثَ، قال: فلما فرغ من الحديث أقبل عليه سفيان فسلّم عليه واعتنقه، فقال ـ حماد ـ: من أنتَ؟ قال: أنا سفيان، قال: ابن سعيد؟ قال: نعم، قال: الثوري؟ قال: نعم، قال: أبو عبد الله؟ قال: نعم، قال: فما منعك أن تسلِّم عليَّ ثم تسأل عن الحديث؟ قال: خشيت أن تموت قبل أن أسمع الحديث منك!!».

وأما الخبر الثاني: فقال أبو جعفر عبد الله بن محمد النُّفيلي: «قدم علينا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، فسألني يحيى وهو يعانقني، قال: يا أبا جعفر، قرأتَ على معقل بن عبيد الله، عن عطاء: أدنى وقتِ الحائض يومٌ؟ فقال له أبو عبد الله ـ يعني: أحمد بن حنبل ـ: لو جلستَ! فقال ـ يحيى للنُّفيلي ـ: أكره أن تموت، أو تفارق الدنيا، قبل أن أسمعه!!».

وختم الحاكم أبو عبد الله كتابه «معرفة علوم الحديث» بهذا الخبر عن الإمام شعبة بن الحجاج: قال بقية بن الوليد: لقيني شعبة ببغداد فقال لي:

---

(١) في «الجامع» (١٦٠٢، ١٦٠٣).

لو لم أَلْقَكَ لَمُتُّ! معك كتاب بَحِير بن سعد؟ قال: قلت: لا، قال: إذا رجعتَ فاكتبه، واختِمه، ووجِّه به إليَّ». فانظر قوله: لو لم أَلْقَك لمتُّ.

وروى الخطيب[1] في ترجمة الإمام البخاري رحمه الله تعالى، عن ورّاقه محمد بن أبي حاتم ـ ومن شأن الوراق أنه يكون ملازماً سفراً وحضراً للشيخ ـ، قال: «إذا كنتُ معه في سفر يجمعنا بيت واحد إلا في القيظ أحياناً، فكنت أَراه يقوم في ليلة واحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة، في كل ذلك يأخذ القداحة، فيُورِي ناراً بيده، ويسرج، ثم يخرج أحاديث فيعلِّم عليها، ثم يضع رأسه، وكان لا يوقظني في كل ما يقوم، فقلت له: إنك تحمل على نفسك كلّ هذا ولا توقظني؟ قال: أنت شابّ فلا أحبّ أن أُفسد عليك نومك».

ثم روى في الصفحة التالية عن تلميذ البخاري وراوية «صحيحه»: محمد بن يوسف الفِرَبْري قال: «كنت عند محمد بن إسماعيل البخاري بمنزله ذات ليلة، فأحصيت عليه أنه قام وأسرج يستذكر أشياء يعلقها في ليلةٍ ثماني عشْرةَ مرة».

وروى أبو نعيم[2] عن أخت الإمام الشافعي، قالت: «ربما قدّمنا في ليلة واحدة ثلاثين مرة، أو أقل أو أكثر، المصباحَ إلى بين يدي الشافعي، وكان يستلقي ويتفكر، ثم ينادي: يا جارية هلُمي المصباح، فتقدمه ويكتب ما يكتب، ثم يقول: ارفعيه، فقيل للراوي: ما أراد بردّ المصباح؟ قال:

---

(١) في «تاريخه» ٢: ٣٢٢.

(٢) في «الحلية» ٩: ١٠٤.

[قال]: الظلمة أجلى للقلب»[١].

بل قال أبو هلال العسكري[٢]: «حكى الربيع ـ بن سليمان ـ عن فاطمة بنت الشافعي رحمه الله تعالى أنها قالت: أسرجتُ لأبي في ليلةٍ سبعين مرة!! وكان الشافعي يقول: الظلمة أضوأ للقلب».

ومما ينبغي ملاحظته مع هذه الأخبار: أن عندهم واجباً آخر عليهم، هو صلاة قيام الليل، فإن لها قسطاً وافراً من ليلهم، فمهما كان الليل طويلاً فإنه قصير، ومع ذلك يقوم هذا الإمام لتحصيل فائدة، أو تسجيل خاطرة، هذه المرات الكثيرة، في هذا القدر القصير من الليل، فالفائدة أغلى من الراحة.

ولسان حال كل واحد من هؤلاء الأئمة ـ وغيرهم ـ ينشد ويقول، ويفخر على الدنيا وأهلها بما ينشد وبما يقول:

بَصُرتُ بالراحة الكبرى فلم أَرَهـا ... تُنال إلا على جسر من التعب[٣]

---

(١) في «الحلية» ٩: ١٠٤، وأضفت [قال] بين معقوفين، وفاعلها هو الشافعي، ليتفق النص حينئذ مع نصّ العسكري الآتي. والله أعلم.

(٢) في «الحثّ على طلب العلم» ص٧٣.

(٣) البيت لأبي تمام، يخاطب به المعتصم بالله في قصيدته عن فتح عمّورية، التي مطلعها:

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكـتب ... في حدّه الحدُّ بين الجِدّ واللعب

وأصل إنشاده بصيغة المخاطب:

بصُرتَ بالراحة الكبرىٰ فلم تَرَها ... تُنال إلا على جسـر من التـعـب

وروى أبو نعيم في ترجمة محمد بن عبد الرحيم الوراق[1] أنه قال: «سمعت سلمة بن شبيب يقول: «كنا عند يزيد بن هارون، فازدحم الناس عليه، فوقع صبيٌّ تحت أقدام الناس، فقال يزيد: اتقوا الله! انظروا ما حالُ الصبيِّ! فنظرنا، فإذا هو حدقتاه قد حَرِجتْ وهو يقول: يا أبا خالد ـ وهي كنية يزيد بن هارون ـ زِدْنا!! فقال يزيد: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما أعظمَ المصيبةَ بكم يا أصحاب الحديث، إذْ نزل بهذا الغلام ما نزل وهو يطلب الزيادة!»».

وأقول تعليقاً على هذا الخبر: كأن هذا الصبي كان يرضَع العلم مع رضاعه حليبَ أمه، حتى إذا ما بلغ هذا المبلغ من العمر، وصل إلى ما وصل إليه من تذوّق حلاوة العلم، حتى إنه ليطلب المزيد منه وهو في مهلكة!! أما إنه طلب العلم البارحة، وهو اليومَ عاشق للعلم مستميت في طلبه، فلا!.

---

(١) من «تاريخ أصبهان» ٢: ٢٢٩، وذكر السخاوي في «فتح المغيث» ٣: ٢٨١ أول «آداب طالب الحديث» كلمةَ يحيى بن أبي كثير «لا يستطاع العلم براحة الجسم»، وحديثَ «احرِصْ على ما ينفعك»، ثم قال: «ومن أبلغ ما يحكى عن السلف في ذلك: قول سلمةَ بنِ شَبيب»، وذكره.

وأزيد في البيان: أن كلمة «حَرِجتْ حدقتاه» هكذا جاءت في المصدر الأصلي، وجاءت في «فتح المغيث»: خرجت حدقتاه، بالخاء المعجمة، ومعنى حَرِجت ـ بالمهملة ـ: غارت فضاقت عليها منافذ البصر، كما في «أساس البلاغة»، ويؤيده أن الطفل لم يُذكر أنه مات، كما هو حال من تخرج حدقتاه، ويؤيد أنها بالمعجمة ذكر كلمة: حدقتاه، فلا يقال: حَرِجت حدقتاه، بل: خرجت حدقتاه، والله أعلم.

وقال الإمام أبو سعد السمعاني[1]: «وقد كتب جماعة من السلف رحمنا الله وإياهم، لعدم القرطاس، أو لإعوازه في الحال، على الجلود والألواح والخزف والرمل، والنعل والكفّ، وقد ذكرت هذه الأنواع بأسانيدها في كتاب «أدب الطلب»، ومن رامها فليرجع إليه.

«وأعجبُ ما مرّ بي في الكتابة على غير القرطاس ما أخبرني ـ وروى بسنده إلى عبيد بن عبد الواحد بن شريك ـ قال: حضرت مجلساً كثُر ازدحام الناس فيه، فأحسستُ في قفايَ بحِكّة وحركة، فلما أردت الانصراف إذا برجل يُجلسني فقلت: مالك؟ فقال: اجلسْ فإني قد كتبت المجلس في قفاك! فانتظِرني حتى أقابِل به!».

وما أظن الإمامَ السمعانيَّ يفوته في كتابه «أدب الطلب» الحكايةُ التي ذكرها الإمام الحاكم[2]، وتمهيدُها وتقريبها كما يلي:

من مشاهير الأئمة المحدثين: الإمام محمد بن يحيى الذُّهلي، وهو من مشاهير شيوخ الإمام البخاري، وللذهلي ابن هو أبو زكريا يحيى بن محمد بن يحيى الذهلي، وهو إمام ابن إمام[3].

---

(١) في أواخر كتابه الطريف الظريف «أدب الإملاء والاستملاء» قبل الفقرة (٤٩٠)، وتمام اسم كتابه الآخر «طراز الذهب في أدب الطلب».

(٢) في «معرفة علوم الحديث» (١٣٩).

(٣) ترجمه الذهبي في «السير» ١٢ : ٢٧٣ وأطال فيها وقال في آخرها ١٢ : ٢٨٥ : «خَلَفه في مشيخة البلد ولده يحيى بن محمد بن يحيى الذهلي، الحافظ المجوِّد الشهير».

أما الحكاية: فقد روى الحاكم في «المعرفة» حديثاً فيه طول، وفي سنده ذكر أبي زكريا يحيى بن محمد هذا، يرويه عن الإمام يحيى بن يحيى التميمي النيسابوري راوية «الموطأ» عن الإمام مالك، ثم ساق الحاكم السند والمتن بتمامه، وقال في آخره: قال أبو زكريا: أحسَبني كتبتُ هذا الحديث على مفتاح الحانوت، لأنه لم يكن معي بياض» أي: ورقة أكتب عليها الحديث.

ونحو هذا في الحرص على اغتنام العلم: ما حكاه الذهبي[١] في ترجمة الإمام محمد بن سَلاَم ـ أو: سلّام ـ البِيْكَنْدي، شيخ الإمام البخاري: أنه انكسر قلمه في مجلس إملاء أحد الشيوخ، فأمر محمد بن سلام أن يُنادَى: قلم بدينار، فطارت إليه الأقلام. قال الذهبي: وكان ذا مالٍ. يعني: أنه اشترى القلم بدينار لكونه ذا مالٍ ويسار، وإلا فمن أين لطالب العلم أن يشتري قلماً بدينار! وأيضاً: فإن هذا يدل على حرصه على أن لا يفوته شيء من إملاء الشيخ، وإن لم يتيسَّر له الدينار لكتب على ثوبه أو على ظهر مَن أمامه كما فعل غيره.

ومثل هذا ما حكاه الزَّرْنوجي[٢] عن عصام بن يوسف البلخي، المتوفى سنة ٢١٠، أو ٢١٥، من تلامذة تلامذة أبي حنيفة، قال: «اشترى عصام ابن يوسف قلماً بدينار، ليكتب ما سمعه في الحال» خشية فوات الفائدة.

---

(١) في «السير» ١٠: ٦٢٩.

(٢) في «تعليم المتعلم» ص٩١.

علو الهمة في طلب الحديث الواحد :

أما علوّ همتهم في الرحلة في طلب الحديث الواحد: فأمر أشهر من أن يُذكر، ولهم فيه عجائب، كأن الدنيا كانت عندهم بمنزلة الغرفة الواحدة، يتنقّل أحدهم في البلدان، كأنه يتنقل بين زوايا هذه الغرفة، وإن كتاب الإمام الخطيب البغدادي «الرحلة في طلب الحديث الواحد» معروف مشهور، مع ما فاته من أخبار كثيرة جداً.

وإذا كان الناس اليوم يقولون: إن العالَم صار كالقرية الصغيرة، بسبب ما وصلوا إليه من وسائل ومخترعات، فإن أولئك الرجال كانوا ينظرون هذه النظرة إلى العالَم، لكنْ بما منحهم الله إياه من همم عالية عليّة، كانت بين جَنَباتهم، بل كانت في خلايا أجسادهم، لا بهذه الوسائل المتطورة، ولا بتلك الوسائل البدائية!!.

ولم يكن أحدهم يرحل من أجل حديث نبوي شريف، تتوقُّف عليه الحجية في حكم شرعي من شريعة الله عز وجل، بل كان يرحل من أجل تحصيل إسنادِ كلمةٍ حكيمة من كلام السلف الصالح، هو يحفظها، لكنه يريد إسنادها، أو يرحل من أجل إسنادٍ آخرَ فيه (متابعةٌ) لإسناد هو عنده موجودٌ محفوظ، وغيرِ ذلك من فنون الإسناد.

ففي «الرحلة في طلب الحديث»[1] عن هارون بن المغيرة البَجَلي الرازي قال: قدم عليَّ ابنُ المبارك، فجاء إليَّ وهو على الرحل، فسألني

---

(١) للخطيب ص١٥٦.

عن قول الحسن البصري رضي الله عنه ـ وعنهم جميعاً ـ: «لا تشترِ مودة ألفِ رجل بعداوة رجل واحد»، فحدثته به، فقال: ما وضعتُ رحلي من مرو إلا لهذا الحديث.

والرازي: من الري، وهي طهران، وبينها وبين مرو بلدة الإمام عبد الله بن المبارك نحوٌ من ١٥٠٠ كيلو متراً، كما أخبرني بعض أهل العلم من تلك الديار! فاعجب لهذه الهمة القعساء التي تطاول السماء!!.

وأقول زيادة في البيان: إن الحسن البصري توفي سنة ١١٠، وولادة ابن المبارك سنة ١١٨، ووفاته سنة ١٨١، فبينهما في الرواية والإسناد غالباً رجل واحد الذي سمعها من الحسن، فمن أجل معرفة اسم هذا الرجل الواحد ـ رحل ابن المبارك هذه المسافة ١٥٠٠ كليو متراً ذهاباً، ومثلها إياباً.

وكان الإمام أبو جعفر أحمد بن حمدان الحِيري النيسابوري، المتوفَّىٰ سنة ٣١١، وقد جاوز السبعين من العمر، عمل مستخرَجاً على «صحيح مسلم»، ولما وصل إلى حديث مسلم[١] عن سويد بن سعيد، عن حفص ابن ميسرة، رحل من نيسابور إلى جُرْجان، ليسمعه من عمران بن موسى ابن مُجاشع، عن سويد، ليحقِّق شرط الاستخراج[٢].

---

(١) ١: ٣٧٥ (١٤).

(٢) الاستخراج: أن يأتي إمام من أئمة الحديث إلى كتاب من كتبه كصحيح البخاري مثلاً، فيروي كلَّ حديث من أحاديثه بإسنادٍ من عنده، إلى أن يصل إلى شيخ =

وكذلك ضاق عليه مخرج حديثٍ رواه مسلم[١] عن محمد بن عبّاد، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار «فلم يجده عند أحد عن ابن عباد، فقيل له: هو عند أبي يعلى الموصلي، عن ابن عباد، فرحل إليه قاصداً من نيسابور لسماع هذا الحديث»[٢].

ولفظ الذهبي في حكايته الرحلةَ إلى الموصل صريحٌ في أنه كان كبير السنِّ، يريد: أنه تحمّل مشقة السفر من نيسابور إلى الموصل، وبينهما من بُعْد الشُّقَّة الشيءُ الكثيرُ مع كبر السنّ، من أجل أمر فنيّ في علم الحديث لا يترتب عليه هنا تصحيح حديث ضعيف ـ مثلاً ـ، بل الحديث في «صحيح مسلم» لا وقفةَ فيه.

وكذلك كان سبب رحلته إلى جُرجان، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

وخبر آخر هو من نوادر أخبارهم في الرحلة، لكشف حقيقةِ إسنادِ

البخاري أو من فوقه، ثم يتفق معه في باقي السند، ولا ينبغي له أن يدخل على الحديث من طريق صاحب الكتاب، كالإمام البخاري مثلاً، بل: من شيخ البخاري فمن فوقه، وإذا كان للإمام المستخرِج إسنادان، أحدهما يُوصله إلى شيخ البخاري، والثاني يوصله إلى شيخ شيخه، فإنه مُلزَم بالسند الأول، إلا لضرورة، كأن يكون في السند الثاني فائدة إسنادية، أو متنية، فإنه يسوغ له حينئذٍ استخراج الحديث بالسند الثاني.

تنظر المسألة الثالثة من مسائل الحديث الصحيح في «تدريب الراوي».

(١) ٣: ١٣٥٩ (بعد ٧).

(٢) كما قاله الذهبي في «السير» ١٤: ٣٠٠، وهاتان الرحلتان لأبي جعفر مما لم يذكره الخطيب.

حديث، والحديث صحيح من طريق آخر، ويمكنني أن أحيل القارئ الكريم إلى عدد من كتب الحديث وعلومه ليقرأ الخبر فيها، لكني أحببت حكايته هنا، لأصلَ إلى التذكير بتطبيق سنة نبوية كريمة، وأختصر صدر القصة.

روى مسلم[1] عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من مسلم يتوضأ فيحسنُ وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين، مقبلٌ عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة»، ثم زاده عمر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: «ما منكم من أحد

---

(١) ١ : ٢٠٩ (١٧)، وزاد أبو داود (١٧٢): أن يرفع نظره إلى السماء، ثم يقول: أشهد..، وزاد الترمذي (٥٥) ـ من حديث عقبة، عن عمر ـ: أن يقول في آخر الدعاء: «اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين»، وأعلّ الترمذي هذه الزيادة، لكنها تتقوى برواية الطبراني لها في «المعجم الأوسط» (٤٨٩٥)، وفي إسناده سعيد بن المرزبان البقال، وهو ضعيف مدلس.

وأطلق الحافظ عزوه في «التلخيص الحبير» ١ : ١٠١ إلى البزار، فأوهم أنه في «مسنده»، وأن الهيثمي قصّر في «المجمع» ١ : ٢٣٩ فلم يعزه إليه، في حين أن ابن دقيق العيد صرَّح في «شرح الإلمام» ٥ : ١٧٠ ـ وتبعه ابن الملقن في «البدر المنير» ٤ : ١٠٦ ـ أن البزار رواه في كتاب الطهارة من «السنن».

وممن روى الزيادة الثانية ـ اللهم اجعلني.. ـ: المستغفري في «الدعوات» من حديث البراء بن عازب، كما في «البدر المنير» ٤ : ٩٤، وأن المستغفري قال: حسن غريب.

وعلى كل: فيسنّ الإتيان بهذه الزيادة بعد إتيانه بما في رواية مسلم.

يتوضأ فيُبْلغُ ـ أو: فيُسبِغُ ـ الوضوءَ، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، إلا فُتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء»[١].

ولهذا الحديث الصحيح إسناد آخر وقصة طويلة، خلاصتها: أن أحد الرواة ـ واسمه نصر بن حماد الوراق ـ روى هذا الحديثَ لزملائه وهُم جالسون على باب الإمام العظيم شعبة بن الحجاج، رضي الله عنهم جميعاً، عن إسرائيل بن يونس، عن جده أبي إسحاق السَّبيعي، عن عبد الله بن عطاء، عن عقبة بن عامر، وذكر الحديث.

فسمع شعبة من داخل الدار نصراً الوراق روى هذا الحديث بهذا السند، وكانت له قصة ورحلة شاقّة طويلة كشف بها ما فيه من تقصير، فلم يَملك نفسه إلا أن خرج من بيته ولطم نصراً ورجع إلى بيته قليلاً، ثم خرج ثانية فرأى نصراً يبكي، فقال: ما له يبكي؟ فقال له أحدُ الحاضرين ـ عبد الله بن إدريس ـ: لقد أسأتَ إليه! فقال: أما تسمع ما يحدث به: إسرائيل، عن جده..، أنا قلت لأبي إسحاق: أسَمِع عبد الله بنُ عطاء من عقبة؟ فقال: لا، وغضب، وكان حاضراً مع أبي إسحاق مسعرُ بن كِدام، فغضب لغضب أبي إسحاق، وقال لشعبة: أغضبتَ الشيخ، فقال شعبة لمسعر: ليُصَحِّحَنَّ لي هذا الحديثَ أو لأُسْقِطنّ حديثه.

فقال مسعر: عبد الله بن عطاء بمكة، فرحلت إليه لم أُرِد الحج، إنما

---

(١) وفي رواية ثانية عند مسلم: «أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله».

أردت الحديث، فلقيت عبد الله بن عطاء، فسألته، فقال: سعد بن إبراهيم حدثني به، وكان في المجلس الإمام مالك، فقال مالك لشعبة: سعد بن إبراهيم بالمدينة لم يحج، فدخلتُ المدينة، فلقيت سعد بن إبراهيم، فسألته، فقال: الحديث من عندكم، زياد بن مِخْراق حدثني به، فقال شعبة: أيّ شيء هذا الحديث!! بينا هو كوفي، صار مكياً، صار مدنياً، صار بصرياً.

قال شعبة: فدخلت البصرة، فلقيت زيادَ بن مِخْراق فسألته، فقال: ليس هذا من بابتك ـ أي: لا يناسبك هذا الحديث ولا يعجبك، ولا ترضاه، لأنه عن راو لا ترتضي روايته ـ فقال له شعبة: بلى، قال له زياد: لا تريده، قال: أريده، فقال: شهر بن حوشب حدثني به عن أبي ريحانة، عن عقبة. قال شعبة: فلما ذكر لي شهراً قلت: دمَّر عليّ هذا الحديث، لو صحّ لي هذا الحديث كان أحبّ إليّ من أهلي، ومن مالي، ومن الدنيا كلّها!.

قلت: الحديث صحيح بغير هذا الإسناد، كما قدمته من «صحيح مسلم»، وإنما ذكرت هذه القصة، لننشط نحن مع الدَّعة والراحة التامة، لأداء هذه السنة النبوية بعد كل وضوء، فقد تعب الإمام شعبة بن الحجاج كلَّ هذا التعب والنصَب، لكشف حقيقةِ إسناده، فلا ينبغي التقصير منا في العمل به[1].

---

(١) والقصة في مصادر كثيرة، أقدمُها مِن كتب علوم الحديث: «المحدث الفاصل» للرامهرمزي ص٣١٣.

ومما ينبغي الوقوف عنده في هذه القصة: قول مسعر لشعبة ـ وهما بالكوفة، أو بواسط ـ: عبد الله بن عطاء بمكة، أي: فارحل إليه، ثم قول مالك لشعبة وهما بمكة: سعد بن إبراهيم بالمدينة، أي: فارحل إليه، والرحلة لم تكن بطيارة ولا سيارة!! وكلامهم هذا واضح في أنه لا حساب عندهم في حياتهم العلمية، لا لتعب ولا لمشقة، فهذا لا ذكر له في حياة طالب العلمِ، ولا ملحظ له في (قاموس) طالب البحثِ والحقيقة، فقد كان في بواطن نفوسهم هِمم تفوق همم أصحاب السيارات والطيارات، إذْ ما أَثَرُ وجودِ الطائرة عند صاحبها إذا لم يملك همة تنهض به للاستفادة منها! والدليلُ الناطق الصامت: ما نحن عليه اليوم!!.

وفي أصحاب سيدنا عبد الله بن عباس رجل مغمور يجهل اسمَه كثير من طلاب العلم، اسمه أَرْبِدة التميمي رضي الله عنه، قال[1]: ما سمعتُ ببلدة فيها علم إلا أتيتها. ونحوُ هذا قول مكحولِ الشامي، المولى المعتَق، وهو بعد أربِدَة بقليل، قال رحمه الله: طِفتُ الأرض كلَّها في طلب العلم!!.

علو الهمة في الرحلة وتقصّي الحقائق:

ومن روائع أخبارهم وعلو همتهم في الرحلة وتقصّي الحقائق، في خدمة السنة النبوية، ما أحكيه عن الإمام يحيى بن معين رضي الله عنه، البغدادي البلد، لكنه لكثرة تَرحاله لا ينبغي أن ينسب إلى بلد، فبلاد الإسلام وخاصةً حواضرَها، هي بلاده.

---

(١) كما في «العلل» للإمام أحمد (٧٢، ٤٢٦٣).

جاء يحيىٰ مرة إلى الإمام عفان بن مسلم الصفار ليسمعَ منه كتب حماد ابن سلمة، فقال له عفان[١]: «ما سمعتَها من أحد؟ قال يحيى: نعم، حدثني سبعةَ عشرَ نفساً عن حماد، فقال عفان: والله لا حدَّثتك، فقال يحيى: إنما هو درهم ـ أي: أجرة الطريق ـ وأنحدر إلى البصرة، وأسمع من التَّبوْذَكي ـ موسى بن إسماعيل ـ فقال له: شأنَك، فانحدَر إلى البصرة، وجاء إلى موسى بن إسماعيل، فقال له موسى: لمْ تسمع هذه الكتب عن أحد؟ فقال: سمعتُها على الوجه ـ أي: بتمامها ـ من سبعة عشر نفساً، وأنت الثامن عشر، فقال: وماذا تصنع بهذا؟ فقال: إن حماد بن سلمة كان يخطىء، فأردت أن أميز خطأه من خطأ غيره، فإذا رأيت أصحابه قد اجتمعوا على شيء علمت أن الخطأ من حماد نفسه، وإذا اجتمعوا على شيء عنه، وقال واحد بخلافهم علمت أن الخطأ منه، لا من حماد، فأميز بين ما أَخطأ هو بنفسه، وبين ما أُخطىء عليه».

علو الهمة يتغلّب على الفقر الشديد:

وما دمت في الحديث عن علوّ الهمة في طلب العلم، وذكرت من أخبارهم المشرقة ما ذكرتُ وأطلتُ، فإنه لا بدّ من ذكر معوِّق وقاطع عن الاستمرار في طلب العلم، لكن كانت هممهم السامية رضي الله عنهم تعلوا عليه، فتقطعه ولا يقطعها، هو الفقر، ورحم الله الفقيه المزجَّد اليمني الشافعي المتوفىٰ سنة ٩٣٥، القائل:

---

(١) كما في «المجروحين» لابن حبان ١ : ٣٢.

قيل للفقر: أين أنت مقيم؟ قال لي: في عمائم الفقهاء

إن بـــيني وبـــينهم لإخـاءً وعزيزٌ علـيَّ قطع الإخـاء

وإن مفتاح باب الحديث عن الهمة المتغلِّبة على الفقر، هو حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال[١]: «إن الناس كانوا يقولون: أكثر أبو هريرة!، وإني كنت ألزمُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بشبع بطني، حتى لا آكل الخَمير ـ الخبز الذي في عجينه خميرة ـ، ولا ألبس الحَبير ـ البرود الحِبَرة المزخرفة ـ، ولا يخدُمني فلان ولا فلانة، وكنت أُلصق بطني بالحصباء من الجوع، وإنْ كنتُ لأستقرِئُ الرجلَ الآية ـ أي: أطلب منه أن يقرئني آية كريمة ـ هي معي ـ أي: أنا حافظ لها ـ، كي ينقلب بي فيطعمَني».

ولقد كان الجوع يأخذ منه قواه كلَّها، حتى حكى ذلك عن نفسه[٢]، قال ابن سيرين: كنا عند أبي هريرة، وعليه ثوبان مُمَشَّقان ـ أي: مصبوغان بالأحمر ـ من كَتّان، فتمخَّط، فقال: بخٍ بخٍ، أبو هريرة يتمخّط في الكتان، لقد رأيتُني وإني لأَخِرُّ فيما بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حجرة عائشة، مغشيّاً عليّ، فيجيء الجائي فيضع رجله على عنقي، ويُرَى أني مجنون، وما بي من جنون، ما بي إلا الجوع!» رضي الله عنه.

لكنه كان يتغلَّب على فقره بحبه للعلم، وصحبة النبي صلى الله عليه

(١) الذي رواه عنه البخاري في «صحيحه» (٣٧٠٨).

(٢) فيما رواه البخاري أيضاً (٧٣٢٤)

وسلم، بل لقد شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بحرصه على الاستفادة وتحصيل العلم، وذلك حين سأل النبيَّ صلى الله عليه وسلم: من أَسعدُ الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال له صلى الله عليه وسلم: «لقد ظننتُ أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أولَ منك، لِمَا رأيت من حرصك على الحديث، أسعدُ الناس بشفاعتي يوم القيامة: من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»، أو: «نفسه»[١].

ومن أقوال الأئمة وأخبارهم في هذا الصدد: ما أسنده ابن عبد البر[٢] إلى الإمام مالك، قال: «إن هذا الأمر لن يُنال حتى يُذاق فيه طعم الفقر»، ثم ذَكَر مالك ما نزل بشيخه ربيعةَ الرأي الإمامِ العَلَم، من الفقر في طلب العلم، حتى باع خشب سقف بيته في طلب العلم، وحتى كان يأكل ما يُلقى على مزابل المدينة من الزبيب وعُصارة التمر!!.

ثم أسند إلى الإمام شعبة بن الحجاج قوله: من طلب الحديث أفلس، إلى ما هنالك من أخبار عجيبة، مما يمرّ بطالب العلم، تنظر في كتاب شيخنا رحمه الله «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل»، ثم يكرمه الله تعالى ببحبوحة العيش.

ولو كانوا يرون أن هذا الفقر والضيق، تَعب ونَصب، ومكروه وظلمة حياة، لصرفوا مواهبهم التي نبغوا بها في هذه العلوم، إلى تحصيل العلوم الدنيوية، ولَمَا حصل لهم وعليهم ما قاسَوْه من شدائد ومصاعب، لكنهم

---

(١) رواه البخاري (٩٩).

(٢) في «الجامع» (٥٩٦).

كانوا يرون السعادة في ذاك الشقاء، والراحة في ذاك النصب، والنعيم في ساعات الحميم!.

كانوا يرون أنهم أغنياء بشَمَم نفوسهم، وأن غيرهم فقراء بذِلَّة نفوسهم، وقد عبّر عن هذا المعنىٰ الإمامُ العاقل الحكيم الخليل بن أحمد الفراهيدي رحمه الله تعالى بأربعة أبيات كتبها إلى والي فارس، يقول في آخرها:

الفقر في النفس لا في المال نعرفه ومثلُ ذاك: الغنى في النفس لا المال

وقال له أيضاً:

إن الـذي شـقَّ فـمي ضـامنٌ للـرزق حـتى يتوفّـاني[1]

كانوا يقتلون جبروت الفقر والجوع بالصبر عليهما، وبالثقة بالله، ويتقلبون في نعيم العلم والمعرفة، ولذة العبادة والقرب، فلا يَعرف ألم الضائقة سبيلاً إلى نفوسهم الأبيّة، وأرواحهم الأوّابة إلى ربها سبحانه، فكان الله جل جلاله لهم بالمعونة والإنقاذ، يسخِّر لهم قلوب عباده الغافلين عنهم.

من أخبار عون الله تعالى لهم:

ومن أخبارهم في ذلك: ما رواه الحافظ ابن عساكر رحمه الله في «تاريخه»[2] في ترجمة الإمام الحافظ الثَّبْت أبي العباس الحسن بن سفيان

---

(١) وتنظر قصة ذلك في «صفحات من صبر العلماء» ص١٦٦.

(٢) ١٣: ١٠٣ ـ ١٠٥، ومن طريقه ابن العديم في «بغية الطلب في تاريخ حلب»

=

النَّسَوي، من بلدة نسا، من بلاد خراسان، المتوفى سنة ٣٠٣ عن تسعين سنة، أو أزيد من تسعين، وكانت له رحلات طويلة.

أسند ابن عساكر إلى أبي الحسن الصفار قوله: كنا عند الشيخ الإمام الزاهد الحسن بن سفيان النَّسَوي وقد اجتمع لديه طائفة من أهل الفضل، ارتحلوا إليه من أطباق الأرض والبلاد البعيدة، مختلفين إلى مجلسه لاقتباس العلم وكِتْبة الحديث.

فخرج يوماً إلى مجلسه الذي كان يُملي فيه الحديثَ وقال: اسمعوا ما أقول لكم قبل أن نشرع في الإملاء.

قد علمنا أنكم طائفة من أبناء النِّعم وأهل الفضل، هجرتم أوطانكم، وفارقتم دياركم وأصحابكم في طلبِ العلم، واستفادةِ الحديث، فلا يخطُرَنَّ ببالكم أنكم قضيتم بهذا التجشُّم للعلم حقاً، وأدّيتم بما تحملتم من الكُلَف والمشاقّ من فروضه فرضاً، فإني أحدثكم ببعض ما تحمَّلته في طلب العلم من المشقة والجهد، وما كشف الله سبحانه وتعالى عني وعن أصحابي ببركة العلم وصفوة العقيدة من الضيق والضَّنْك.

اعلموا أني كنت في عُنفوان شبابي، ارتحلت من وطني لطلب العلم واستملاء الحديث، فاتفق حصولي بأقصى المغرب، وحلولي بمصر، في تسعة نفر من أصحابي، طلبة للعلم وسامعي الحديث، وكنا نختلِف إلى شيخ كان أرفعَ أهل عصره في العلم منزلةً، وأدراهم للحديث، وأعلاهم إسناداً، وأصحهم روايةً.

---

٥ : ٢٣٧٠، وصوَّبتُ منه أربع كلمات تحرفت في طبعة «تاريخ ابن عساكر».

وكان يُملي علينا كل يوم مقداراً يسيراً من الحديث، حتى طالت المدة، وخفَّت النفقة، ودفعتنا الضرورة إلى بيع ما صَحِبْنا من ثوبٍ وخرقة، إلى أن لم يبق لنا ما كنا نرجوا حصول قوتِ يومٍ منه، وطوينا ثلاثة أيام بلياليها جوعاً وسوء حال، ولم يذق أحد منا فيها شيئاً، وأصبحنا بكرةَ اليوم الرابع، بحيثُ لا حَراكَ بأحد من جُملتنا من الجوع، وضَعْف الأطراف.

وأحوجتِ الضرورة إلى كشف قناع الحِشمة، وبذل الوجه للسؤال، فلم تسمح أنفسنا بذلك، ولم تَطِب قلوبنا به، وأَنِف كل واحد منا عن ذلك، والضرورةُ تُحوِج إلى السؤال على كل حال.

فوقع اختيار الجماعة على كِتْبة رقاع بأسامي كل واحد منا، وإرسالها قرعةً، فمن ارتفع اسمه عن الرقاع كان هو القائم بالسؤال، واستماحة القوت لنفسه ولجميع أصحابه.

فارتفعت الرقعة التي اشتملت على اسمي، فتحيرتُ ودُهشت، ولم تسامحني نفسي بالمسألة واحتمال المذلة، فعدلتُ إلى زاوية من المسجد أصلي ركعتين طويلتين، قد اقترن الاعتقاد فيهما بالإخلاص، أدعو الله سبحانه بأسمائه العظام، وكلماته الرفيعة، لكشف الضرِّ وسياقة الفرج.

فلم أفرغ بعدُ عن إتمام الصلاة حتى دخل المسجدَ شابٌ حسن الوجه، نظيف الثوب، طيب الرائحة، يتبعه خادم في يده منديل، فقال: مَن منكم الحسن بن سفيان؟ فرفعت رأسي من السجدة، فقلت: أنا الحسن بن سفيان فما الحاجة؟ فقال: إن الأمير طولون صاحبي يُقرئكم السلام والتحية، ويعتذر إليكم في الغفلة عن تفقد أحوالكم، والتقصير

الواقع في رعاية حقوقكم، وقد بعث بما يكفي نفقةَ الوقت، وهو زائركم غداً بنفسه، ويعتذرُ بلفظه إليكم، ووضع بين يدي كل واحد منا صرَّة فيها مئة دينار.

فتعجبنا من ذلك، وقلنا للشاب: ما القصةُ في هذا؟ فقال: أنا أحدُ خَدَم الأمير طولون المختصين به، والمتصلين بأقربائه، وخواص أصحابه، دخلت عليه بكرةَ يومي هذا مسلِّماً في جملة أصحابي، فقال لي وللقوم: أنا أحبُّ أن أخلوَ يومي هذا، فانصرفوا أنتم إلى منازلكم.

فانصرفت أنا والقوم، فلما عدت إلى منزلي لم يَتَّسِق قعودي حتى أتاني رسول الأمير مسرعاً مستعجلاً، يطلبني حثيثاً، فأجبته مسرعاً، فوجدته منفرداً في بيتٍ، واضعاً يمينه على خاصرته، لوجع مُمِضّ اعتراه في داخل جسده، فقال لي: أتعرفُ الحسن بن سفيان وأصحابه؟ فقلت: لا، فقال: اقصدْ المحلّة الفلانية، والمسجد الفلاني، واحمِل هذه الصُّرَر، وسلِّمها في الحين إليه، وإلى أصحابه، فإنهم منذ ثلاثة أيام جياعٌ بحالة صعبة، ومهِّد عذري لديهم، وعرِّفهم أني صبيحةَ الغد زائرهم، ومعتذر شفاهاً إليهم.

فقال الشاب: سألته عن السبب الذي دعاه إلى هذا؟ فقال: دخلت هذا البيت منفرداً عَلّي أن أستريح ساعة، فلما هدأتْ عيني، رأيت في المنام فارساً في الهواء متمكناً تمكّن من يمشي على بساط الأرض، وبيده رمح، فقضيتُ العجب من ذلك، وكنت أنظر إليه متعجباً حتى نزل إلى باب هذا البيت، ووضع سافِلة رمحه على خاصرتي، فقال: قم فأدرك الحسن بن سفيان وأصحابه، قم وأدركهم، قم وأدركهم، فإنهم منذ

ثلاثةٍ جياع في المسجد الفلاني، فقلت له: من أنت؟ فقال: أنا رضوان صاحب الجنة، ومنذ أصاب سافلة رمحه خاصرتي أصابني وجع شديد لا حراك بي له، فعجِّل إيصال هذا المال ليزول هذا الوجع عني.

فقال الحسن: فتعجبنا من ذلك، وشكرنا الله سبحانه وتعالى، وأصلحنا أمورنا، ولم تَطِب أنفسُنا بالمُقام، حتى لا يزورنا الأمير، ولا يطَّلع الناس على أسرارنا، فيكون ذلك سببُ ارتفاعِ اسمٍ، وانبساطِ جاهٍ، ويتصلَ ذلك بنوعٍ من الرياء والسمعة[1]، وخرجنا تلك الليلة من مصر، وأصبح كل واحد منا واحدَ عصرِه، وفريدَ دهره في العلم والفضل.

فلما أصبح الأمير طولون أتى المسجد لزيارتنا، وطلبنا، وأحسّ بخروجنا، أمر بابتياع تلك المحلة بأسرها، ووَقَفَها على ذلك المسجد، وعلى من ينزل به من الغرباء، وأهل الفضل، وطلبة العلم، نفقةً لهم، حتى لا تختلَّ أمورهم ولا يصيبَهم من الخلل ما أصابنا، وذلك كلُّه بقوة الدين، وصفوة الاعتقاد، والله سبحانه ولي التوفيق.

كان في الأصل في المواضع كلها: طولون، والصواب: ابن طولون[2].

---

(١) انظر محاسبتهم لأنفسهم ومراقبتهم لأحوالهم، مع ما نزل بهم! رضي الله عنهم وأرضاهم.

(٢) انتهى النقل عن ابن عساكر وابن العديم، وقد نقلها بقريب من اللفظ والتفصيل الذهبي في «السير» ١٤: ١٦١، وعنده «طولون» أيضاً، لا: ابن طولون، وقال: «رواها الحافظ عبد الغني ـ المقدسي ـ في الرابع من الحكايات، والله أعلم بصحتها، ولم يلِ طولون مصر، وأما ابنه أحمد بن طولون فيصغر عن الحكاية، ولا أعرف ناقلها، وذلك ممكن».

=

ومن أخبارهم أيضاً: ما أسنده التاج السبكي[١] إلى أبي العباس البكري ـ من ولد الصديق الأكبر رضي الله عنه ـ قال: جمعتِ الرحلة بين محمد بن جرير الطبري، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة، ومحمد بن نصر المروزي، ومحمد بن هارون الرُّوياني، بمصر، فأرمَلوا ـ نفِد زادهم ـ ولم يبق عندهم ما يَقُوتهم ـ يمسك أبدانهم من شدة الجوع ـ، وأضرّ بهم الجوع.

فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون إليه، فاتفق رأيهم على أن يَستهموا ويضربوا القُرعة، فمن خرجت عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام، فخرجت القرعة على ابن خزيمة، فقال لأصحابه: أَمهِلوني حتى أتوضأ وأصلي صلاة الخِيَرة ـ الاستخارة ـ، فاندفع في الصلاة، فإذا هم بالشموع، وخَصِيٌّ من قِبَل والي مصر يدقّ الباب، ففتحوا الباب، فنزل

قلت: قد صوّب ابن عساكر ـ وهو إمام حافظ ـ أنه: ابن طولون، ووافقه ابن العديم، وهو حافظ أيضاً.

أما قوله عن أحمد بن طولون: يصغر عن الحكاية، فبيانه: أنه ولد سنة ٢١٤، وتولى الحكم سنة ٢٥٤، وتوفي سنة ٢٧٠، والحسن بن سفيان صاحب القصة توفي سنة ٣٠٣ عن تسعين سنة، فيكون عمره لما تولى ابن طولون الحكم ٤١ سنة، والمحدثون في هذه السنّ يكونون قد انتهت رحلاتهم وجلسوا للرواية والأداء والعطاء، وقبل بلوغ الحسن بن سفيان تلك السنّ لم يكن ابن طولون أميراً ليذكر وليرى هذه الرؤيا، ومع ذلك فقد ترك الذهبي رحمه الله مجالاً لتصحيح الخبر فقال: وذلك ممكن.

(١) في «طبقاته» ٢: ٢٥١.

عن دابته، فقال: أيكم محمد بن نصر؟ فقيل: هو هذا، فأخرج صرّة فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه، ثم سأل عن محمد بن جرير، وعن محمد بن خزيمة، وعن محمد بن هارون، ويعطي كل واحد منهم مثل ما أعطى الأول، ثم قال لهم:

إن الأمير كان قائلاً بالأمس ـ نومة القيلولة وسط النهار ـ فرأى في المنام خيّالاً فقال له: إن المحامد ـ أي: المحمدين الأربعة ـ طَوَوْا كَشْحهم ـ جَنَباتهم وبطونهم ـ جياعاً، فأنفذَ إليكم هذه الصِّرار، وأَقسم عليكم إذا نَفِدت فابعثوا إليّ أحدكم.

والفقر لم يكن عائقاً وقاطعاً عن العلم إلا لأصحاب النفوس الضعيفة التي لا تثبت للمحنة ولا للامتحان، ومثل هذا العارض مما ينبغي أن ينبِّه المؤدِّبون تلامذتهم إليه، حتى إذا امتُحِنوا به صبروا، وعلموا أنها أيام وتنقضي، وأن لهؤلاء المبتدئين سلفاً صالحاً، امتُحنوا، فصبَروا، فظفِروا.

وقد روى الخطيب[1] عن الإمام الكبير إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى أنه قال: «من ابتغى شيئاً من العلم يبتغي به وجه الله، آتاه الله منه بما يكفيه»[2].

---

(١) في «الجامع» (٧١).

(٢) أي: آتاه الله من فضله ورزقه ما يكفيه، وكأنه ضمّن فعل «آتاه» معنى: أكرمه، أي: أكرمه الله من فضله بما يكفيه. ودليل ذلك: أن الخطيب روى هذا الخبر عقب روايته الحديث المرفوع من رواية زياد بن الحارث الصُّدائي: «من طلب العلم تكفل الله برزقه»، وهو ضعيف جداً.

وأقول للأخ القارئ الكريم بعد هذه الأخبار وما شابهها: قف وتأمل حقّ التأمل: هل هذه الأخبار ـ وغيرها كثير ـ هي من عالم الواقع، أو هي من نسج الخيال وأحلام اليقظة؟! إنها من عالم الواقع، إنها أخبار أناس اختارهم الله عز وجل لحفظ دينه، وحمل شريعته ثم أدائها إلينا، بهم أيَّد الله دينه، وأيَّدهم بدينه، وعلينا أن ندرك الصلة بين هؤلاء الرجال وبين وعد الله تعالى بحفظ كتابه ـ وشريعته ـ في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الحجر: ٩، فبهؤلاء حفظ الله دينه، وأذاقهم في الدنيا شيئاً من جزائه لهم في الآخرة، وبهذا النعيم تحمَّلوا وصبروا، ولولا أنهم أدركوا حقَّ الله عليهم، وأدركوا ـ حقاً وحقيقةً ـ عِظَم موقعهم وشرفَه عند الله، ووجدوا لهذا التعب والنصب حلاوة تفوق وتُنْسي مرارة ارتكاب الشدائد والمخاطر التي كانت تمرّ بهم، لولا هذا كلُّه: لَمَا فعلوا ما فعلوه، وتحملوا ما تحملوه! فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجزاهم الله أعظم الجزاء الخيِّر على ما خدموا به دين الإسلام.

وهم أحقّ وأولى من كل الوجوه والاعتبارات بقول أبي العلاء:

جمالَ ذي الأرض كانوا في الحياة، وهم
بعد الممات جمالُ الكُتْب والسِّيَر

بل هم هم أصحاب هذا التشبيه والمديح، لا غيرهم.

والحديث طويل وطويل، وذو شجون وفنون، كما أن الحديث عن علوّ همة أئمتنا أطول وأحلى.

* * * * *

المَعْلَم السادس

التفرُّغ للعلم من العوائق

إن التفرُّغ من العوائق والعلائق من أساسيات النجاح في طلب العلم، ولا ينفع الحرصُ على الوقت وتحصيل العلم إن لم يكن معه انقطاع وتفرغ، وهذا ما أتحدث عنه الآن.

أ ـ حبس النفس حتى عن الضروريات:

إن المعوِّقات في طريق العلم والنبوغ فيه كثيرة جداً، لا يمكن للكاتب إحصاؤها، لأنه إنما يحصي منها ما يخطر بباله، والذي يخطر بباله هو ما يمرّ عليه في حياته، أو ما يسمعه عن غيره، ولا ريب أن هناك حوادثَ ووقائع لغيره لم يسمع بها، فالقواطع كثيرة، ويكفي لفتَ نظر طالب العلم إلى ضابط لها، هو: أن يراقب نفسه ووقته بحذر شديد، فكلُّ ما يراه مؤثِّراً على القيام بواجبه المحدَّد عليه، اعتبره قاطعاً شاغلاً، فعليه أن يَقطعه عنه ويُبعده، ويعتبره معثِّراً له في طريق نجاحه ووصوله إلى غايته.

وقد عبَّر عن ضرورة التفرُّغ للعلم عن كل عائق وشاغل، أصدقَ تعبير: الإمام أبو يوسف القاضي رحمه الله تعالى فقال[1]: «العلم شيء لا

(١) فيما أسنده إليه الخطيب في «الجامع» (١٥٧٠).

يعطيك بعضَه حتى تعطيه كلَّك، وأنت إذا أعطيته كلَّك: من إعطائه البعضَ على غَرَر» أي: على احتمالِ أن يعطيك بعضه، أو أن لا يعطيك[١].

وأعقبه بقول أبي أحمد نصر بن أحمد العياضي الفقيه: «لا ينال هذا العلمَ إلا من عطّل دكانه، وخرَّب بستانه، وهجر إخوانه، ومات أقربُ أهله إليه فلم يشهد جنازته».

والعياضي هذا: لم أقف له على ترجمة، لكن كأنه يشير بقوله: لا يشهد جنازة أقرب أهله إليه: يشير إلى ما حكاه الموفَّق المكي[٢] عن الإمام أبي يوسف قال: «مات ابن لي، فلم أحضُر جِهازه ولا دفنه، وتركته على جيراني وأقربائي، مخافةَ أن يفوتني من أبي حنيفة شيء لا تذهبُ حسرتُه عني»[٣].

وقريبٌ من هذا: صنيع الإمام الحافظ المنذري رحمه الله، حين كان مجاوراً في دار الحديث الكاملية بالقاهرة، توفي ولده محمد، عن ثلاثين سنة من العمر، وقد بلغ من العلم مبلغاً يُذكَر به، فصلّى عليه والده داخل المدرسة، وشيّعه إلى بابها، ودمعت عيناه وقال: أودعتك ـ يا ولدي ـ اللهَ

---

(١) وكانت وفاة أبي يوسف سنة ١٨٣، وأسند هذه الكلمة الخطيب في «تاريخه» ٦: ٦٢٥ إلى إبراهيم النظَّام المتوفىٰ سنة ٢١٣، من رواية الجاحظ عنه، ونسبها أبو هلال العسكري في «الحث على طلب العلم» ص٤٢ إلى الجاحظ وكانت وفاته ٢٥٥.

(٢) في «مناقب الإمام أبي حنيفة» ص٤٧٢.

(٣) ولذلك شهد الإمام بشدة ملازمة أبي يوسف له، أسند الموفق المكي عقب هذا الخبر إلى أبي حنيفة قوله: «ما لزمني أحد ما لزمني أبو يوسف».

تعالى، وفارقه، ولم يخرج من المدرسة[١].

وقريبٌ من هذا أيضاً: ما حدثني به سيدي الوالد تغمده الله تعالى برحماته، عن الشيخ العلامة محمد راغب الطباخ رحمه الله تعالى: أنه لما توفي ولده الكبير محمد، وكان هو القائمَ بأعمال مطبعته (المطبعة العلمية)، جاء الشيخ في اليوم الثاني إلى المدرسة الخسروية ـ المعهد الديني العريق في مدينة حلب ـ وحضر الدرس، فعجب التلامذة من حضوره، وتهامسوا فيما بينهم، ثم صارحوا الشيخ باستغرابهم حضوره، وقد دَفَن ولده الكبير البارحة! فقال لهم الشيخ: خَسِرنا الولد، أفنخسَر بركة العلم أيضاً؟!.

وأعود إلى ما كنت فيه من الحديث عن قطع العلائق الدنيوية، فأقول: قال البرهان الزَّرنوجي[٢]: «ولا بد لطالب العلم من تقليل العلائق الدنيوية بقدر الوسع، ولهذا اختاروا الغُرْبة، ولا بدّ لطالب العلم من تحمّل النَّصَب والمشقة في سفر العلم، كما قال موسى عليه السلام في سفر التعلُّم، ولم يُنقل عنه في غيره من الأسفار، قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ الكهف: ٦٢، ليُعلَم أن سفر التعلم لا يخلو عن النصب.

«فمن صبر على ذلك وجد لذةً تفوق سائر لذات الدنيا، ولهذا كان محمد بن الحسن رحمه الله إذا سهر الليالي، وانحلَّت له المشكلات يقول: أين أبناء الملوك من هذه اللذات؟!.

---

(١) كما في «طبقات» السبكي ٨: ٢٦٠.

(٢) في «تعليم المتعلم» ص٨٣.

«وينبغي لطالب العلم أن لا يشتغلَ بشيء آخرَ غيرِ العلم، ولا يُعرضَ عن الفقه، قال محمد رحمه الله: من أراد أن يترك علمنا هذا ساعةً، فليتركه الساعةَ، إن صناعتنا هذه من المهد إلى اللحد». انتهىٰ.

ومما ينبغي لفت نظر طالب العلم إليه في هذا الصدد: أنه قد يعرض أمر له اعتباران: اعتبار خيرٍ ودين، واعتبارٌ معثِّر ـ ولا أقول: قاطع ـ، فعليه أن ينظر إليه بعين البصيرة والحكمة.

ومن أمثلة ذلك: ما جاء في ترجمة الإمام سُليم بن أيوب الرازي رحمه الله تعالى، ونقله عنه السبكي في «طبقاته الوسطى»[1]، وذلك أن سُليماً هذا رازيٌّ خرج يطلب العلم ببغداد، فيُحكَى عنه «في حال طلبه العلم، أنه كانت تَرِد عليه الكتبُ من أهله، فلا يقرأ منها شيئاً، ولا ينظر فيها، وجمعها عنده إلى أنْ فرغ من تحصيل ما أراد، ففتحها فوجد في بعضها: ماتت أمك، وفي بعضها ما يناسب ذلك، مما ضاق به صدره، فقال: لو كنتُ قرأتها قطعتني عما كنت فيه من التحصيل».

وقد كنت سمعت نحو هذا الخبر، وأنا في بداية طلبي العلم، عن العلامة الرباني فريد عصره في بلدتنا حلب: الشيخ أحمد بن عبد الكريم التُّرمانيني الحلبي (١٢٠٨ ـ ١٢٩٣) رحمه الله تعالى، ثم رأيت الأستاذ الشيخ محمد راغب الطباخ رحمه الله ذكره في تاريخه[2]، فأنا أنقله منه، قال بعد ما ذكر أن الشيخ الترمانيني مكث ثلاثَ عشْرةَ سنةً في الأزهر:

---

(١) وهو في التعليق على «الطبقات الكبرى» ٤ : ٣٨٩.

(٢) «إعلام النبلاء» ٧: ٣٥٢.

«وتلقى العلم هناك، وما كان في أثناء هذه المدة ليشتغل في غير التحصيل، حتى إن التحارير ـ أي الرسائل ـ التي كانت تأتيه من أهله كان يتركها على الرفّ، حتى انتهى من التحصيل وعوّل على الرجوع، وحينئذ فتحها، فوجد أن فلاناً من أقاربه قد تزوج، وفلاناً قد مات، إلى غير ذلك، وقصد بذلك أن لا يشغله عن العلم شاغل آخر».

وأقصد من حكاية هذين الخبرين ـ وما كان على شاكلتهما ـ أنه قد يبدو لطالب العلم ترجيح الجانب الشرعي، وهو حقّ الوالدين والتعرف على أخبارهما، فإذا عرفها وعرف ما فيها من متاعب ومقلقات ترك طلب العلم ورجع إليهما، والحَكَم الفصل في ذلك: النظرُ الدقيق المستوفي للأمر من كل أطرافه، وتقديمُ المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وغير ذلك من الاعتبارات، لا ترجيح العاطفة على الحق الشرعي. والله أعلم.

ب ـ همُّ المعيشة والولد والعيال:

ومن العلائق والعوائق الدنيوية: همُّ المعيشة وأمور العائلة والبيت. قال الخطيب[1]: «باب حذف المتفقه العلائق»، أي: قطعه العلائق، وافتتحه بقوله: «كان بعض الفلاسفة لا يعلِّم أحداً يتعلق بشيء من الدنيا ويقول: العلم أجلُّ من أن يُشتغل عنه بغيره».

وروى الصَّيْمَري[2] بسنده: أن رجلاً سأل أبا حنيفة رحمه الله: بمَ

(١) في «آداب الفقيه والمتفقه» ٢: ١٨٤.

(٢) في «أخبار أبي حنيفة وأصحابه» ص٢٢.

يُستعان على الفقه حتى يُحفظ؟ قال: بجمع الهمّ ـ يريد: العزم والتوجه ـ، قال: قلت: وبمَ يستعان على جمع الهم؟ قال: بحذف العلائق، قال: قلت: وبم يستعان على حذف العلائق؟ قال: بأخذ الشيء عند الحاجة ولا تَزِد».

وينبغي أن يكون صَدْر هذا الباب: قول النبي صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه عنه عدد من الصحابة ـ: «إن الولد مَبْخَلَة مَجْبَنَة مَجْهَلَة مَحْزَنَة»[1]، قال المناوي[2] في شرح الكلمة المقصودة هنا «مجهلة»: «لكون ـ الولد ـ يحمل ـ الوالد ـ على ترك الرحلة في طلب العلم والجِدّ في تحصيله، لاهتمام الوالد بتحصيل المال له».

وروى الإمام الحافظ ابن عساكر رحمه الله[3] في ترجمة الإمام أحمد ابن الفرات الرازي المتوفَّى سنة ٢٥٨ رحمه الله تعالى، أحدِ أعاجيب السلف في كثرة الحفظ واستحضار المحفوظات، قال: «حضرت مجلس يزيد بن هارون، فأملى ثلاثين حديثاً فحفظتها، فجئت إلى منـزلي أعلِّق ـ أي: أُبيِّض ـ فعلَّقت منها ثلاثة، فجاءتني الجارية وقالت: مولاي، فَني الدقيق! فنسيت سبعة وعشرين، وبقيت ثلاثة»[4]، ومما هو متكرر على

---

(١) هذا لفظ الحاكم (٥٢٨٤) من حديث الأسود بن خلف، وصحح إسناده العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» ٣: ٢٦١، وينظر ما علَّقتُه على الحديث (١٨) من «مسند عمر بن عبد العزيز» للباغندي.

(٢) في «فيض القدير» ٢: ٤٠٣.

(٣) في «تاريخه» ٥: ١٥٥.

(٤) وهي التي بيَّضها، وفي هذا الخبر: تنبيه لطالب العلم أن يكتب ويقيِّد ما يسمعه من أستاذه زيادة على ما هو مدوَّن في كتابه، ففي هذا الخبر حفظُ ما دوَّنه، =

ألسنَة الأساتذة والشيوخ: «لو كلِّفت شراء بَصَلة، ما تعلمت مسألة»، ذكرها البدر ابن جماعة[١] بلفظ: «ومما يقال عن الشافعي» فذكرها.

جـ ـ ومن المعوِّقات ذاتِ الأثر الكبير: معاشرةُ الإخوان، والعلاقات العامة مع الناس.

وهذا المعوِّق ضررُه وأثرُه السيء يتَّسع ويضيق، حسب واقع الإخوان ومَن يُنشِئ معهم هذا الطالبُ علاقاتِه، فإن كانوا على خلق كريم حسن، ضاقت دائرة ضررهم، واقتصر على ضياع الوقت معهم، والانشغال بهم عما نَذَر نفسه له، وهو تحصيل العلم، وإن كانوا على غير ذلك: فقد ضاع العمر والوقت، وضاع العلم، لأنهم بطبعهم يؤثرون على ما نذر له نفسه، ولسانُ حالهم يصرفه عن طلب العلم، فيضيع.

ولذلك: فإن العلماء الذين كتبوا عن العلم وآدابه، وآداب أهله وطلابه: يحذِّرون من هذا الطبع جدَّ التحذير، ويُوصون ويرغِّبون أن يكون لطالب العلم إخوانٌ ورفقاءُ من طلاب العلم مثلِه، يذاكرونه العلم.

ومن الأقوال المسلَّم بها، الدارجة علىٰ ألسنة العامة والخاصة: قل لي مَن تُصاحب، أقل لك مَن أنت.

وفي وصية الإمام أبي حنيفة لأبي يوسف رحمهما الله تعالى[٢]: «ولا

وفوات ما لم يدوِّنه، وانظر الدرس الذي لا يُنْسى من قصة الغزالي مع العيّارين قطاع الطريق، وستأتي ص٢٩٩.

(١) في «التذكرة» ص٧١.

(٢) كما في «مناقبه» للموفق المكي ص٣٧٣.

تُكثر معاشرة الناس إلا بعد أن يعاشروك، وقابلْ معاشرتهم بذِكْر المسائل، حتى إن مَن كان مِن أهله اشتغل بالعلم، ومَن لم يكن مِن أهله يجتنبُك، ولا يجدُ عليك، بل لا يحوم حولك».

وأكتفي بنقل خبر واحد ناطقٍ عن أهمية الانقطاع عن العلائق كلها، وخاصة قطعَ العلاقات العامة عن الناس، وما أنتج من أثر علمي عظيم في حياة صاحبه الشابّ اللَّقِن.

قال أبو جعفر أحمد بن يوسف البغدادي المصري الكاتب، في كتابه «المكافأة»[1]: «وحدثني شجاع بن أسلم الحاسِب قال: قلت لسندِ بن علي: مَن كان سببَك إلى المأمون، حتى اتصلتَ به وكنت من جلسائه؟ قال: أُحدثك به:

كان والدي يتكسَّب بصناعة أحكام النجوم، مع قوم من أسباب السلطان يَوَدّونه ويحبونه، وتعلَّق قلبي بعد فراغي من قراءة كتاب «أُقْليدِس» بكتاب «المِجَسْطِي»، وكان في أيام المأمون بسوق الورّاقين رجل يُعرف بـ: معروف، يُورِّق هذا الكتاب، ويبيعه بعد تكامل خطه وأشكاله وتجليده بعشرين ديناراً، فسألت والدي ابتياعه لي، فقال: أنظِرني يا بني إلى أن يتهيَّأ لي شيء آخذه، إما من رَزق، وإما من فضل، وأبتاعهُ لك.

وكان لي أخ لا يشتهي مما تقدمت أنا فيه من العلم شيئاً، إلا أنه كان

---

(١) صفحة ٢١١، وكانت وفاة مؤلفه كما قال ياقوت في «معجم الأدباء» ٢: ٥٥٩: «سنة نيف وثلاثين وثلاث مئة، وأظنها سنة أربعين وثلاث مئة».

يخدُم أبي في حوائجه والإشفاق عليه.

فلما سوَّفني أبي بالكتاب، وطالت المدة فيه، ركبت معه أُمسك دابته في دخوله إلى من يدخل إليه، ولي إذ ذاك سبعَ عشْرةَ سنة، فخرج إليَّ غلمانُ مَن كان عنده فقالوا: انصرف، فقد أقام أبوك عند مولانا، فمضيت بالدابة فبعتها بسرجها ولجامها بأقل من ثلاثين ديناراً، ومضيت إلى معروف فاشتريت الكتاب بعشرين ديناراً.

وكان لي بيتٌ أخلو فيه، وجئت أمي فقلت لها: قد جنيت عليكم جناية! واقتصصتُ القصة عليها، وحلفتُ لها إن شحَذَتْ أبي عليَّ حتى يمنعني من النظر في الكتاب، لأخرجنّ عنهم إلى أبعد غاية، ورددت عليها فضلَ ثمنِ الدابة، وقلت لها: أنا أُغلق باب هذا المنزل الذي لي، وأرضى منكم برغيفٍ يُلقى إليّ كما يلقى إلى المحبوس، إلى أن أقرأه جميعاً، فتضمَّنَتْ لي بتسكين فَوْرَته.

ودخلتُ البيت وأغلقته من عندي، فمضى أخي إلى والدي في الموضع الذي كان فيه، فأسرَّ إليه الخبر، فتغيَّر وجهه، وتَلَجْلج في حديثه، فقال له من كان عنده: قد شَغلت قلبي وقلبَ من حضر بما ظهر منك، فبحقِّي عليك إلا أخبرتنا بماذا؟ فحدَّثه أبي، فقال الرجل: هذا والله يسرُّنا في ولدك، فاتَّعد فيه بكل جميل، ثم استحضرَ من إصْطَبْله بغلاً أفْرَهَ من بغل أبي، وسرجاً خيراً من سَرجه، وقال لأبي: اركَبْ هذا البغلَ ولا تُكلِّم ابنك بحرف.

قال سند: وأقمت ثلاث سنين كيوم واحد، لا يَرى لي أبي صورة وجه، وأنا مُجِدٌّ حتى استكملت كتاب «المِجَسْطِي»، ثم خرجت وقد

عملت أشكالاً مُستصعَبات، ووضعتها في كُمّي، وسألت: هل للمهندسين والحُسَّاب موضع يجتمعون فيه؟ فقيل لي: لهم مجلس في دار العباس بن سعيد الجوهري تِرْبِ المأمون، يجتمع فيه وجوه العلماء بالهيئة والهندسة، فحضرته، فرأيت جميع من حضر مشايخ، ولم يكن فيهم حَدَثٌ غيري، لأني كنت في العشرين.

فقال العباس: من تكون؟ وفيم نظرتَ؟ فقلت: غلام يحب صناعة الهندسة والهيئة، قال: ما قرأتَ؟ قلتُ: «أُقليدس» و«المِجَسْطي»، قال: قراءة إحاطة؟ قلت: نعم، فسألني عن شيء مستصعَب في كتاب «المِجَسطي» كان تفسيره في الأوراق التي كانت في كُمِّي فأجبته، فعجِب وقال: من أفادك هذا الجواب؟ قلت: استخرجَتْه قريحتي وما سمعته من غيري، وهو وغيره فيما مرّ بي في ورق معي، قال: هاته، فلما رآه اغتاظ واضطرب، ثم قال لبعض مَنْ بين يديه من غلمانه: السَّفَط!، فجيء به، فنظر إلى خاتَمه فوجده بحاله، ثم فضَّه وأخرج منه كُرَّاسة، فجعل يُقابل بها الورق الذي كان معي، فكان الكلامُ فيما معه أحسَن رَصْفاً من الكلام الذي معي، والمعنى واحد.

فقال: هذا شيء تولَّيتُ تبيينه من كتاب «المِجَسْطي»، فلما أحضَرتَنيه توهَّمْتُ أنه سُرق مني، حتى تبيَّنت اختلاف اللفظين مع اتفاق المعنى، ثم أمر أن يُقطع لي أقبية، ويُرتادَ لي مِنطقةٌ مُذْهَبة، ففُرِغ من جميع ذلك في تلك الليلة، وأَدخَلَ بي إلى المأمون، وأمرني بملازمته، وأجرى لي أَنْزالاً ورَزْقاً». أي: مرتَّباً ثابتاً في بيت المال، كل شهر، أو كل سنة.

وهذا المرتَّب لا يصل للحصول عليه إلا قلائل من الناس، وكان عمر

ابن عبد العزيز رضي الله عنه أمر به لكل من انقطع لطلب العلم، أو لتعليمه للناس[١].

ثم قام عامة الناس به عن طريق الوقف الخيري، خير قيام، وهو الآن واجب أهل الخير والبر من المسلمين عامة: أن يتكفّلوا بكفاية طلبة العلم النجباء، فهو بابٌ من الخير عظيم، وهو أعظم عند الله تعالى أجراً، وأعظم للمسلمين أثراً في مستقبلهم، من كفالة اليتيم، على ما في كفالة اليتيم من أجر كبير.

والناس ـ كلُّ الناس ـ مسلمهم وكافرهم، يتحدثون عن إنقاذ الدول المنكوبة بفيضانات وأعاصير وزلازل، ولا يتحدث المسلمون منهم عن مُصابهم بكارثة فَقْد العلماء، وكيف تتدارك الأمة مُصابها بوفاة علمائها ومراجعهم الدينية!!، وذلك يكون بتقديم النجباء من أبنائهم إلى طلب العلم الشرعي، مع تفريغهم لهم عن كل مشغلة، وبغير ذلك من الوسائل.

وإن عدم تحدُّثهم وتفكيرهم بتدارك كارثة فَقْد العلماء، لَهو كارثة فوق كارثة! وإنا لله وإنا إليه راجعون.

* * * * *

(١) كما تجد أخباره الكثيرة في هذا الجانب في مقدمتي لـ«مسند عمر بن عبد العزيز» للباغندي ص٣١ ـ ٣٣.

المَعْلَم السابع

صحبة المتعلِّم للأقران

تقدم قُبيل صفحات قليلة أن من معوِّقات طالب العلم في مسيرته العلمية: كثرةَ العلاقات العامة مع الناس عامة، وأتحدث هنا عن صحبة خاصة، أتحدث عن اتخاذه إخواناً تكون بينهم ملازمة ووثاقة، وطول مجالسة، أتحدث عن ذلك بكلمة موجزة عن الصحبة وأثرها على الإنسان، وطالب العلم خاصة.

إنه لا يخفى على كل عاقل: أن الإنسانَ ابنُ بيئته: طباعاً وسجايا، وعاداتٍ وأعرافاً، وثقافةً وفكراً، نعم، له إمكانية الاختيار منها، لكنه لا يخرج عنها، ولا ينكَر تأثرُ الإنسان ـ وهو الإنسان العاقل ـ بالطبيعة الصماء البكماء التي يعيش في صحرائها وجبالها وأوديتها، أو بالطبيعة الغَنَّاء الوارفة، والجِنان الحانية، فالشاعر ـ مثلاً ـ الذي يعيش في الطبيعة الأولى، يكون خشنَ الألفاظ، جافَّ الطباع، كشعراء الجاهلية، خلافَ الشاعر الذي عاش في الطبيعة الثانية، كشعراء الأندلس.

وأيضاً: روى البخاري، ومسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم، بألفاظ متقاربة، منها[1]: «إن القسوة وغِلَظ القلوب في الفَدَّادين عند أصول

(١) عن أبي هريرة (٣٧٠١)، وأبي مسعود البدري (٣٧٠٢)، ومسلم ١ : ٧١
=

أذناب الإبل»، و«الفخرُ والخيلاء في أهل الخيل والإبل الفدّادين أهل الوَبَر، والسكينةُ في أهل الغنم».

ومعنى «الفدادين» واضح من الحديث: أنهم أهل الخيل والإبل ورُعاتها من أهل البادية، ففيهم الغلظة والخيلاء، تأثراً منهم بطباع هذا الحيوان الذي يرعونه ويسوسونه، وواضح إثبات النبي صلى الله عليه وسلم هذه الصفاتِ لهم، وإثباتُ صفة السكينة لرعاة الغنم.

فإذا كان الإنسان ـ وهو الإنسان ـ يتأثر بجماد الطبيعة وبجمالها، ويتأثر بالحيوان الذي يعايشه، فكيف بتأثره بالإنسان الذي يعايشه أيضاً طوال عمره: علماً وفكراً وثقافة وأخلاقاً وحضارة..!.

ومما يؤثِّر في الصحبة: عملٌ من الأعمال اليسيرة، أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «لا تُصاحبْ إلا مؤمناً، ولا يأكلْ طعامك إلا تقي»[١]. فأرشد عليه الصلاة والسلام إلى أن للمؤاكلة أثراً بين الرجلين، فلا تؤاكل إلا تقياً، وكانوا يرون أن المؤاكلة رضاع.

وقال الإمام البدر ابن جماعة في شرح الأدب العاشر من الآداب التي في خاصة طالب العلم[٢]: «العاشر: أن يترك العِشرة، فإنّ تركها من أهم ما

---

(٨١) عن أبي مسعود، وما بعده عن أبي هريرة، رضي الله عنهما.

(١) الذي رواه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٣٩٥) وقال: حديث حسن، وأخرجه ابن حبان (٥٥٤) من «التقاسيم والأنواع»، والحاكم (٧١٦٩)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) من كتابه النفيس «تذكرة السامع والمتكلم» ص٨٣.

ينبغي لطالب العلم، ولا سيما لغير الجنس، وخصوصاً لمن كثر لعبه، وقلَّت فكرته، فإن الطباع سرّاقة، وآفة العشرة ضياع العمر بغير فائدة، والذي ينبغي لطالب العلم أن لا يُخالط إلا من يفيده أو يستفيد منه، فإنْ تسرَّع أو تعرَّض لصحبة من يُضيع عمره معه ولا يفيده، ولا يستفيد منه، ولا يُعينه على ما هو بصدده فليتلطَّف في قطع عشرته من أول الأمر قبل تمكُّنها، فإن الأمور إذا تمكنتْ عسُرت إزالتها، ومن الجاري على ألسنة الفقهاء: الدفع أسهل من الرفع[1].

«فإن احتاج إلى من يصحبه فليكن صاحباً صالحاً، ديّناً تقياً، ورعاً ذكياً، كثير الخير، قليل الشر، حسن المداراة، قليل المماراة، إنْ نسي ذكّره، وإن ذكَر أعانه، وإن احتاج واساه، وإن ضجر صبّره».

ولعلماء السلوك والأخلاق «التصوف» كلام طويل، واهتمام جدٌّ شديدٍ بالصحبة والصاحب، واختيار الأخ الصالح الناصح، ومن جليل نصائحهم ووصاياهم في هذا الباب قول الإمام الحكيم صاحب (الحِكَم) رحمه الله تعالى: «لا تصحب من لا يُنْهِضك حاله، ولا يدلُّك على الله مقاله».

وهذا في حق الصحبة العامة، أما في حق طالب العلم: فلا يصاحب

(١) أي: أن تدفع عنك أمراً قبل وقوعه وحصوله، أيسر من أن ينزل بك، ثم تحاول رفعه عنك، وهكذا هنا: قطع العلائق والمعاشرة قبل حصولها، أيسر على الطالب من مصاحبته فلاناً وفلاناً، ثم مقاطعتهم وهجرانهم.

إلا من يُعينه على ما هو في طريق تحصيله.

وليلاحظْ هذا الطالب أن الأمة تنتظره، وإذا كان الأئمة يَرَون في حق العالم ـ ومثلُه الطالب ـ: أن التفرغَ للعلم أفضلُ له من فضل العبادة والنوافل[1]، فكيف لا يحاسبونه على أقلِّ وقتٍ يصرفه مع صاحب فارغ لا يفيده ولا يستفيد منه؟! فكيف بالساعات يضيعها هَدْراً، وليس ذلك منه في يوم واحد، بل في أيام وأيام متكررة؟! إن هذا لهو الخسران المبين.

وقد عدَّد الحافظ السخاوي[2] الأمور المساعدة لشيخه الحافظ ابن حجر على نبوغه في العلم، ثم قال: «ومنها: الرفاق الذين كانوا غايةً في الديانة والتواضع والاعتناء بالشأن، والاهتمام بفنونه، فذا يعين رفيقه نَوْبَةً بالقراءة، ومرة بالكتابة، وأخرى بالعاريّة، ووقتاً بالمذاكرة..»، فيعيش طالب العلم مع أقرانه طلابِ العلم حياةً كلُّها علم ومذاكرة، كيفما التفت وتنقَّل يرى طلبةَ العلم روافدَ له، وهو رافد لهم، معينٌ ومذكِّر، ومعلِّم ومتعلِّم، وكلٌّ منهم للآخرين: (حارث وهمّام)[3].

---

(١) كما سبق ص٤٥ فما بعدها.

(٢) في «الجواهر والدرر» ١: ١٦١.

(٣) هذا طرف من حديث رواه أبو داود (٤٩١١) عن أبي وهب الجُشَمي رضي الله عنه، مرفوعاً، وفيه: «أحبُّ الأسماء إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمام»، لأن كل إنسان لا يخلو من كونه يحرث ويكتسب لدنياه أو آخرته، وكل إنسان يَهُم بالأمر الذي يريده ويهمُّه.

ومرادي هنا: أن كل طالب علم محرِّض لأخيه على الخير في طلب العلم،

=

وكذلك هم في أمور العبادة والخير: كلٌّ ينهض بهمة الآخرين، يتسابقون: أيُّهم ينهض لصلاة الليل قبلُ، وأيهم يحافظ على صلاة الضحىٰ أكثر من غيره، وأيّهم أكثر ورداً من القرآن الكريم، وهكذا وهكذا، وعلى هذا أدركنا بعض شيوخنا ـ رحمهم الله تعالى جميعاً ـ في العلم والعمل.

وإن من أهمّ مهمات الشيوخ والأساتذة المربين: تنبيهَ الطلبة ـ ولا سيما المبتدئين منهم ـ إلى أضرار اتخاذ قرناء لهم من غير جنسهم: أي: ليسوا طلابَ علم، أو كانوا قرناء لهم قبل تشرُّفهم بالانتساب إلى العلم الشرعي الشريف، وليذكُروا لهم، ويذكِّروهم بين الحين والآخر بقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما مَثَل الجليس الصالح والجليس السَّوْء، كحامل المسك ونافخ الكِيْر، فحامل المسك إما أن يُحْذِيَك ـ أي: يعطيَك ـ، وإما أن تبتاعَ منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخُ الكير إما أن يَحْرِق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة»[1].

وروى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الرجل على دين خليله، فلينظُر أحدُكم من يُخالِل»[2].

وبالحديث الآخر، حديثِ ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قيل: يا

ومحرِّك لعزيمته.

(١) رواه البخاري (٢١٠١، ٥٥٣٤)، ومسلم ٤: ٢٠٢٦ (١٤٦) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود (٤٨٠٠)، والترمذي (٢٣٧٨) وقال: حسن غريب.

رسول الله، أيُّ جلسائنا خير؟ فقال: «مَن ذكَّركم اللهَ رؤيتُه، وزاد في علمكم منطقُه، وذكّركم بالآخرة عملُه»[١].

* * * * *

(١) رواه عبد بن حميد (٦٣١)، وأبو يعلى (٢٤٣٧)، قال البوصيري في «إتحاف الخيرة» (٨١٢٩) عن إسناد عبد بن حميد: رواته ثقات، مع أن في إسنادهما مبارك بن حسان، ذكره ابن حبان في «الثقات» ٧: ٥٠١ وقال: يخطئ ويخالف، وليس فيه من التوثيق والاعتبار غير هذا، وما سواه فجرح، لكن الرجل من رجال البخاري في «الأدب المفرد»، وهذا يدل على قبول حديثه في الآداب، كهذا الحديث، وقال عنه في «التقريب» (٦٤٦٠): لين الحديث.

المَعْلَم الثامن

ضرورة تلقّي العلم عن الشيوخ

إن أخذ العلم عن الشيوخ: هو مفتاح العلم الصحيح، وعنوان فلاح الطالب وظَفَره، ولا خير في علمِ مَن لم يتلقَّ العلم عن العلماء المتقنين، والعلمُ الشرعي الشريف ـ من هذه الحيثية ـ كالعلوم والصناعات الأخرى، فلا يُؤتَمن لطبيب لم يدرس الطب على أطباء مَهَرة، ولا يُطمأن إلى طبيب جراح لم يتمهَّر على مختصين بهذا الجانب من الجراحة، كما لا يوثق بهندسة معمار لعمارةٍ ضخمة تتسع لسكنى المئات من العائلات، إذا لم يتخصص بذلك نظرياً وعملياً، وهكذا غيرهما من الدراسات النظرية والتطبيقية.

ودينُ الله أجلّ وأغلى، فلا يجوز لأحد أن يتدخل في الكلام في دين الله تعالى: عقائدَ، وعباداتٍ، ومعاملات، وتفسيرٍ لكتاب الله، أو شرح للسنة النبوية، أو تصحيح أو تضعيف فيها، وما إلى ذلك من علوم الإسلام، إلا إذا تلقى ذلك وأتقنه، على أيدي علماء حلماء حكماء، تلقوا ذلك أيضاً من شيوخ ورثوا منهم العلم والحكمة، وهكذا.

والطبقة الأولى في الإسلام من طلاب العلم هم الصحابة رضي الله عنهم، تلقوا العلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة، أو بواسطة صحابي (مرسَل الصحابي)، وكان المتبصِّر منهم عند الحاجة يتصرف بأمر

من أموره على فحوى ما علمه، ثم يرجع إلى رسول صلى الله عليه وسلم، فيقرُّه على ما صنع، أو يصحح له.

وتوالت الطبقات العلمية جيلاً بعد جيل: جيل التابعين، ثم جيل أتباعهم، ثم، وثم، ثم صارت المدارس العلمية، وصار لكل عالم جليل كبير مدرسة ينتسب إليه وإليها أصحابه فمن بعدهم، وهو كالوالد لهم ينتسبون إلى منهجه العلمي، ومشربه الروحي، ومدرسته الفكرية.

وساد العرف العلمي بين أهله: أن شيوخ طالب العلم هم آباؤه وأجداده وعمود نسبه، ومن لم يكن له شيوخ تلقى عنهم العلم، ثم ادّعى العلم وتكلم فيه: فهو دعيٌّ فيه، مجهولُ الهُوِيَّة والنَسب.

قال الإمام النووي رحمه الله[١] وهو يتحدَّث عن أهمية تراجِم العلماء: «إنهم أئمتنا وأسلافنا، كالوالدين لنا».

وقال فيه أيضاً [٢] في ترجمة مسلم بن خالد الزَّنجي: «ومسلم رضي الله عنه أحد أجدادنا في سلسلة الفقه المتصلة بنا إلى رسول الله ﷺ».

وقال في كتابه الأصيل الحَفيل «المجموع»[٣] وهو يترجم الإمام أبا العباس ابن سُرَيج: «هو أحد أجدادنا في سلسلة الفقه».

وكانوا ينظرون إلى أن الشيوخ آباء الأرواح، فهم أجلّ من آباء

(١) في مقدمة «تهذيب الأسماء واللغات» ١ : ١١.

(٢) ٢ : ٩٣.

(٣) ١ : ٢١٤.

الأشباح، وأنهم آباء الهداية والنور، فهم أجلُّ من آباء الطعام والشراب. وفي ترجمة ابن وهب[1] ما خلاصته: أن رجلاً مسكيناً أساء إلى الإمام ابن وهب، فغار لذلك رجل عراقي غيرة شديدة، فأساء إلى المسكين بشدّة، وقال لابن وهب: أنت مصباحنا وضياؤنا. فانظر إلى هاتين الكلمتين ما أجلَّهما!!.

ولم يكونوا يلتفتون إلى من لم يكن له شيوخ في العلم، ولا يقيمون له وزناً ولا اعتباراً، ولا يرون فيه أهلية التكلُّم معه، لأنه محلُّ الخَطَل والغلط.

ففي «الإلماع» للقاضي عياض، و«الصلة» لتلميذه ابن بَشْكُوال[2] عن الإمام ابن الفَرَضي، بسنده إلى صالح ابن الإمام أحمد قال: «سمعت أبي يقول: ما الناس إلا من قال: حدثنا وأخبرنا، وسائر الناس لا خير فيهم. ولقد التفت المعتصم إلى أبي فقال له: كلِّم ابن أبي دُؤاد، فأعرض عنه أبي بوجهه وقال: كيف أكلِّم من لم أره على باب عالم قط؟!».

«وقال ابن حبان: كلُّ مشتغل بعلم من العلوم لا بدَّ أن يتحقق به أو يُكثر منه، إلا أهلَ الحديث فإن أكثرهم عوامّ، ولم يتمثَّل أحد منهم بين يَدَيْ عالم ولا مقرئ ولا فقيه ولا نحْوي ولا لغوي ولا أديب ولا أصولي، إنما ينشأ الواحد منهم وقد علم الخطّ من الكُتّاب، فيعلِّقُه ـ أي:

---

(١) من «ترتيب المدارك» ١: ٥٦٣.

(٢) «الإلماع» ص ٢٨، و«الصلة» ١: ٢٥٥.

يحبِّبُه ـ عاميّ مثلُه بسماع الحديث..»[١]، فانظر قوله «لم يتمثّل بين يدي عالم ولا ولا»، والتمثُّل، والمثول: القيام، أي: لم ينتصب طالب الحديث قائماً بين يدي عالم من علماء هذه الفنون، أو على بابه، ليتمكن من هذه العلوم التي يحتاج إليها طالب هذا العلم الشريف. وإلى الله المشتكى!.

وقال القاضي عياض رحمه الله[٢] في ترجمة أبي جعفر الداودي الأسدي، المتوفَّى سنة ٤٠٢: «بلغني أنه كان يُنكر على معاصريه من علماء القيروان سُكناهم في مملكة بني عُبَيد، وبقاءَهم بين أظهرهم، وأنه كتب إليهم مرةً بذلك، فأجابوه: اسكتْ لا شيخ لك!.

«أي: لأن دَرْسَه كان وحده، ولم يتفقَّه في أكثر علمه عند إمام مشهور، وإنما وصل إلى ما وصل بإدراكه، ويُشيرون أنه لو كان له شيخ يفقِّهه حقيقةَ الفقه، لعلم أن بقاءهم مع مَن هناك مِن عامة المسلمين تثبيتٌ لهم على الإسلام، وبقيةٌ صالحة للإيمان..».

فانظُر إلى جوابهم ما أبلَغَه: اسكت لا شيخ لك، وإلى قوله: يفقِّهه حقيقة الفقه، فهذا ما أردتُه بقولي عن طالب العلم بالتلقي: يحصل على العلم الصافي المحقَّق.

وأصلُ هذا الجواب قديمٌ قائمٌ في نفوس العلماء سلفاً وخلفاً. وممن رُوي عنه من الأئمة المتقدمين: أبو حنيفة رحمه الله تعالى.

---

(١) من «البحر الذي زخر» للسيوطي ١: ٢٦١.

(٢) «ترتيب المدارك» ٣: ٤٠٢.

فقد أسند الخطيب في «أدب الفقيه والمتفقه»[١] أنه «قيل لأبي حنيفة: في المسجد حَلْقة ينظرون في الفقه، فقال: لهم رأسٌ؟ قالوا: لا، قال: لا يفقه هؤلاء أبداً».

وفي «إسعاف المبطَّأ»[٢] للسيوطي رحمه الله: «قال إسحاق بن محمد الفَرْوي: سُئِل مالك: أيؤْخَذ العلم عمن ليس له طلب ولا مجالسة؟ فقال: لا، فقيل: أيؤخذ ممن هو صحيح ثقة، غير أنه لا يحفظ ولا يفهم؟ فقال: لا يُكتبُ العلم إلا ممن يحفظ، ويكون قد طلب وجالس الناس، وعرف وعمل، ويكون معه ورع».

ولهذا كلِّه ـ وغيره ـ «كان كل من أخذ العلم عن السطور ضالاً مضلاً، قال النووي رحمه الله: من رأى المسألة في عشرة كتب مثلاً لا يجوز له الافتاء بها، لاحتمال أن تلك الكتب ماشية على قول أو طريق ضعيف»[٣]. فأين المتبجِّح بأنه ليس له إلا شيخ واحد وبالإجازة لا بالتلقي!! أوَليس هو الذي مزَّق صفوف طلاب العلم وشباب المسلمين، ثم مزَّق كتب السنة تحت شعار العمل بالكتاب والسنة، وتمييز ضعيف السنة من صحيحها!!.

وقد أسِفَ بعض الأئمة لما دُوِّن العلم، لأنه وسيلة إلى إضعاف التلقي له عن الشيوخ، فقد روى الدارمي في مقدمة «السنن»، والبيهقي في

---

(١) (٧٩٠).

(٢) ص ١٨٠.

(٣) كما في «الفتاوى الحديثية» لابن حجر المكي ص٢٧.

«المدخل»[(١)]، عن الأوزاعي أنه قال: «ما زال هذا العلم عزيزاً يتلقاه الرجال، حتى وقع في الصحف فحَمَله ـ أو دخل فيه ـ غيرُ أهله».

ويكون مع التلقي: الإقبالُ الشديدُ، والنَّهَم، والبُكُور، وقد يعبَّر عن هذه الخصال بالمزاحمة بالرُّكب.

أسند ابن عبد البر[(٢)] إلى ثلاثة من الأجلاء: الإمام مالك، وسليمان التَّيمي، وسليمان بن حبيب المُحَاربي: أنهم حكَوا عن لُقمان الحكيم قولَه لابنه يوصيه: «يا بنيَّ: جالس العلماء، وزاحِمهم بركبتيك، فإن الله يحيي القلوب بالحكمة، كما يُحيي الأرضَ الميتةَ بوابِل السماء».

وقد تقدم بعض عجائب أخبارهم في الإقبال على العلم والنَّهم في تحصيله، وأحكي لك نادرتين من نوادر أخبارهم في البكور للقرب من الشيخ لا غير.

الأولى: أسند الخطيب[(٣)] إلى جعفر بن دُرُسْتُوَيْهْ أنه قال: «كنا نأخذ المجلس ـ موضع الجلوس ـ في مجلس علي ابن المديني وقت العصر اليومَ لِمجلس غدٍ، فنقعد طول الليل مخافةَ أن لا نلحق من الغد موضعاً نسمع فيه، ورأيت شيخاً في المجلس يبول في طيلسانه، ويدرج الطيلسان، حتى فرغ، مخافةَ أن يؤخذ مكانه إن قام للبول!!».

ثانيتهما: قصة الإمام أبي علي القالي رحمه الله تعالى، وهي كما

---

(١) «سنن الدارمي» (٤٦٧)، و«المدخل» ص ٤١٠.

(٢) في «جامع بيان العلم» (٦٧٤ ـ ٦٧٧).

(٣) في «الجامع» (١٤٦٥).

حكاها عنه تلميذه أبو نصر هارون بن موسى بن جَنْدل النَّحْوِيُّ قال: «كنا نختلِف ـ أي: نتردَّد ـ إلى أبي علي البغدادي ـ هو القاليُّ ـ رحمه الله وقت إملائه «النوادر» بجامع الزهراء ـ بقرطبة ـ ونحن في فصل الربيع، فبينا أنا ذات يوم في بعض الطريق إذْ أَخَذَتني سحابة، فما وصلتُ إلى مجلسه رحمه الله إلا وقد ابتَلَّتْ ثيابي كلُّها، وحَوَالي أبي عليّ أعلامُ أهلِ قرطبة.

فأمرني بالدنُوِّ منه وقال لي: مهلاً يا أبا نصر، لا تأسفْ على ما عَرَض لك، فهذا شيء يَضْمَحلُّ عنك بسرعةٍ: بثيابٍ غيرِها تُبدِّلُـها، وقد عَرَض لي ما أبقى بجسمي نُدوباً يدخل معي القبر!.

ثم قال لنا:

كنت أختلِف إلى الإمام ابن مجاهد رحمه الله، فأدلجتُ إليه لأتقرب منه، فلما انتهيت إلى الدرب الذي أخرج منه إلى مجلسه أَلفيتُه مُغْلَقاً، وراث عليَّ فتحه[1]، فقلت: سبحان الله! أُبكِّر هذا البكور وأُغلَبُ على القُرب منه!.

فنظرتُ إلى سَرَبٍ بجنب الدار فاقتحمته أشدَّ الاقتحام حتى نَفَذت، بعد أن تخرَّقَت ثيابي وأثَّر السَّرَب في لحمي حتى انكشف العظم!! ومنَّ الله عليَّ بالخروج، فوافيتُ مجلس الشيخ على هذه الحال!.

فأين أنت مما عَرَض لي؟! وأنشَدَنا:

دَبَبْتَ للمجد والسَّاعُون قد بَلَغوا ... جَهد النفوس، وأَلقَوا دونه الأُزُرا

---

(١) راث: فعل ماض، مضارعه: يَرِيث، ومعناه صَعُب وتأخر عليَّ فتحه.

فكابَدوا المجدَ حتى مَلَّ أكثرُهم وعانَقَ المجدَ مَن أوفى ومَن صَبَرا

لا تَحسَبِ المجدَ تمراً أنت آكِلُه لن تبلُغ المجدَ حتى تَلعَقَ الصَّبِرا

قال أبو نصر: فكتبناها عنه من قبلِ أن يأتي موضعها في «نوادره» وسَلاَّني بما حكاه، وهان عندي ما عَرَض لي من تلك الثياب، واستكثرتُ من الاختلاف إليه، ولم أُفارقْه حتى مات. رحمه الله»[١].

فإذا ما اكتمل هلاله بدراً، أذن له شيوخه بالتعليم والإفادة، والكتابة والإفتاء، ونحو ذلك، ولا يزالُ هو يزداد إقبالاً عليهم، وانتهالاً من مواردهم، مهما تقدَّم به العلم والعُمُر. وهذا هو المرادُ بـ«طول زمان»: طول زمن الصحبة، وطول زمن الطلب، وعدم الفترة فيهما أو الانقطاع.

ولقد سَرَى هذا الخُلُق العلمي في حكم فقهي قاله فقهاؤنا الحنفية رحمهم الله تعالى.

فمن المعلوم أن أفضل المساجد للصلاة فيها: المسجد الحرام، ثم المسجد النبوي، ثم المسجد الأقصى، قالوا: «ثم قُباء، ثم الأقدم، ثم الأعظم ـ الأكبر ـ، ثم الأقرب، ومسجدُ أستاذه لدرسه، أو لسماع الأخبار ـ أي المواعظ ـ: أفضلُ اتفاقاً»[٢].

---

(١) «الصلة» لابن بَشْكُوال رحمه الله ٦٥٦(١٤٤١). والأبيات «لحَوْط بن رئاب الأسدي، شاعر إسلامي، وأحسبه أدرك الجاهلية». انظر «الأمالي» لأبي علي القالي نفسه ١ : ١١٣، وشرحها «سمط اللآلىء» للبكري ١ : ٣٣٩. وانظر إلى الدرس والفائدة في قوله «استكثرت من الاختلاف إليه، ولم أفارقه حتى مات».

(٢) «الدر المختار» بحاشية ابن عابدين ١ : ٤٤٣.

أي: صلاة طالب العلم في مسجد شيخه أفضل من صلاته في المسجد الأقدم، أو المسجد الأعظم، أو الأقرب، وذلك لإحرازه فضيلة الصلاة في المسجد والاستفادة من الشيخ، أو فضيلة الصلاة في المسجد وسماعه الموعظة العامة، فتراهم استحبوا للطالب أن يصلي في مسجد أستاذه زيادة في توفُّر الملازمة والصحبة، فقد يعرض للشيخ فائدة يقولها، لا تأتي لها مناسبة في درس الكتاب والعلم، وما أكثر ذلك! وهذا لا يشعر به ولا يجده إلا التلميذ الممارس للصحبة(١).

وقد كان ابن عباس رضي الله عنهما المَثَل والقُدوة في التوفُّر الكامل

---

(١) هذه الفِقْرة من قولي «ولقد سَرَى هذا الخُلُق العلميُّ..» إلى هنا أضفتها في الطبعة الثانية لـ «أدب الاختلاف»، وأضيف الآن في الطبعة الثالثة حكايتها للسادة القراء، فهي تطبيق عمليّ لهذا الحكم الفقهي:

كنت مع سيدي العلامة الأجلّ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى في صلاة التراويح في مسجد قُباء، وكان ذلك بعد إصدار الطبعة الأولى لهذا الكتاب، وصرتُ ـ ونحن في انتظار إقامة الصلاة ـ أذاكر فضيلته بقولهم: مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب، فنبَّهني ـ تغمده الله برحمته ـ إلى أن الأَولى أن يقال: مذهبنا صواب ويحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ ويحتمل الصواب.

فسُررت بهذا التنبيه، وكررت له شكري عليه، فقال لي رحمه الله: لذلك قالوا: ومسجد أستاذه، فسكتُّ متأمِّلاً معنى هذا القول، فأعاد عليَّ القول وقال: ذكروا أن الأفضل في حقّ التلميذ أن يصلي في المسجد الذي يصلي فيه شيخه، لتزداد له صحبته، فتكثر له الفائدة منه، فرجعت إلى المصدر الذي يجد القارىء الكريم العزو إليه، وشرحته بنحو ما شرحه لي شيخنا:

بِعِشْرتكَ الكرامَ تُعدُّ منهم فلا تُرَيَنْ لغيرهمُ أَلُوفا

على الصحبة مع الأدب، فكان يجلس على باب الصحابي الذي يريد أن يسمع منه ما يسمع، فإذا خرج لزمه وصحبه وسأله، ولا يطرق عليه بابه، خشيةَ أن يكون في نوم أو حاجة خاصة.

وائتسى به الإمام عبد الرحمن بن القاسم العُتَقيُّ تلميذُ مالكٍ الأكبرُ وخليفتُه في مجلسه، رحمهما الله تعالى، ومما جاء في ترجمته[(١)] قوله: «كنت آتي مالكاً غَلَساً، فأسأله عن مسألتين، ثلاثة، أربعة، وكنت أجد منه في ذلك الوقت انشراحَ صدر، فكنتُ آتي كلَّ سَحَر، فتوسَّدتُ مرةً في عَتَبته، فغلبتني عيني، فنمتُ فخرج مالك إلى المسجد فلم أشعُر به، فركَضَتْني ـ جارية ـ سوداءُ له برجلها، وقالت: إن مولاك قد خرج، ليس يغفُل كما تغفُل أنت! اليوم له تسع وأربعون سنةً ما صلى الصبح إلا بوضوء العتمة!!.

ظنَّت السوداء أنه مولاه ـ أي سيده ومالكه ـ من كثرة اختلافِه إليه» أي: تردُّدِه وذهابِه ومجيئه معه، ذلك أن هذا الجلوس في الليل على باب الدار شأن الموالي.

فرحمه الله تعالى ورضي عنه.

أما مجردُ طلب العلم وتلقِّيه عن شيخٍ سنةً أو سنتين، ثم الاستقلال بالعلم، والفهم، والتلقي من الصحف، وما شاكل حالَ أهل زماننا ـ زمن

---

(١) في «ترتيب المدارك» ١ : ٥٧٣.

العجائب ـ: فلا، ولن[1].

روى ابن عبد البر[2] عن أبي الدرداء رضي الله عنه حكيمِ هذه الأمة، قال: «مِن فِقه الرجل مَمشاه ومَدخَلُه ومخرَجه مع أهل العلم».

ومن وصاياهم: حيثما كنت فكن قُربَ فقيه.

ولهذه الوصية قصة، يحسن ذكرها، وإن لم تكن من أصل موضوعنا.

جاء في «التاريخ الكبير» لابن أبي خيثمة رحمه الله[3] ما نصه: «قال عبد الله بن أبي موسى التُّسْتَري: قيل لي: حيثما كنتَ فكن قربَ فقيه. قال: فأتيت بيروت إلى الأوزاعي، فبينا أنا عنده إذ سألني عن أمري، فأخبرتُه، قال: وكان (مجوسياً ثم) أسلم، فقال لي: ألك أبٌ؟ قلت: نعم تركتُه بالعراق، مجوسيٌّ، قال: فهل لك أن تَرجِع، لعل الله يهديه (على) يديك؟ قلت: تَرى لي ذاك؟ قال: نعم.

فأتيتُ أبي فوجدته مريضاً، فقال لي: يا بنيَّ، أيُّ شيء أنتَ عليه؟ فأخبرته أني أسلمت، فقال لي: فاعرِض عليَّ دينك، فأخبرته بالإسلام

---

(١) ومن العجائب ـ والعجائب جمّة في هذا الزمن ـ أن تنقلب الحقائق والثوابت عند بعض الكاتبين، فيجعلَ مدحاً ما هو ذمّ ونقطة ضعف في حياة العالم، لو صحّ ذاك فيه، كما تجده في ترجمة بعضهم للإمام ابن عبد الهادي صاحب «مختصر طبقات علماء الحديث»، وكما تجده في كتاب أُفرد لترجمة الشيخ عبد القادر بدران.

(٢) «جامع بيان العلم» (٨٢١).

(٣) من القطعة المخطوطة المحفوظة في المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة ورقة ١٧/آ. وهي في السفر الثالث من المطبوع (٤٦٩٨).

وأهله، قال: فإني أُشهدك أني قد أسلمت، قال: فمات في مرضه ذلك، فدفنتُه، ورجعت إلى الأوزاعي فأخبرته».

فانظر إلى أثر «حيثما كنتَ فكن قرب فقيه» أي: عالم.

«وصحبة أستاذ وطولِ زمانٍ»:

وروى ابن حبان[1] في ترجمة التابعي الثقة نُعيم بن عبد الله المُجْمِر: أن مالكاً قال: «أتى نعيمٌ المُجْمِرُ أبا هريرة عشرين سنة». أي: صحبه وجالسه وتردد إلى حلقته.

وقال ابن حبان[2] في ترجمة حامد بن يحيى البلخي، أحد الثقات الحفاظ: «كان ممن أفنى عُمُره بمجالسة ابن عيينة».

واشتهر في ترجمة التابعي القدوة الجليل ثابت البُناني رضي الله عنه: أنه صحب أنس بن مالك رضي الله عنه أربعين سنة! كما في «السِّيَر»[3]، وغيره.

وعن الإمام مالك قال: «كان الرجل يختلف إلى الرجل ثلاثين سنة يتعلَّم منه»[4]. وكأنه يعني نفسه رضي الله عنه.

ثم أسند أبو نعيم عقب هذا الخبر إلى نافع بن عبد الله أحد تلامذة

---

(١) في «الثقات» ٥: ٤٧٦.

(٢) في «الثقات» أيضاً ٨: ٢١٨.

(٣) ٥: ٢٢٢.

(٤) «الحلية» ٦: ٣٢٠.

مالك قال: «جالست مالكاً أربعين سنة، أو: خمساً وثلاثين سنة، كلَّ يوم أبكِّر، وأهجِّر، وأروح».

وفي «مناقب أبي حنيفة»[١]: قيل لأبي حنيفة: «من أين لك هذا الفقه؟ فقال: كنت في معدِن العلم والفقه، فجالست أهله، ولزمت فقيهاً من فقهائهم يقال له: حماد، فانتفعت به». وقال: لقد لزمت حماداً لزوماً ما أعلم أن أحداً لزم أحداً مثل ما لزمته، وكنت أُكثر السؤال، فربما تبرَّم مني ويقول: «يا أبا حنيفة، قد انتفخ جنبي وضاق صدري».

فأفاد رحمه الله بقوله «كنت في معدن العلم والفقه فجالست أهله»: أن توفُّر البيئة العلمية من أسباب النبوغ في العلم: إما في بيئته وأسرته، وإما مع زملائه ورفقته، هو يكوِّن لنفسه بنفسه المُناخ العلمي له.

وأفاد بقوله «لزمت فقيهاً من فقهائهم»: أهمية اتخاذ الطالب لنفسه شيخاً خاصاً يجعله لنفسه قدوة يلازمه تمام الملازمة[٢].

وسَرَى هذا الخُلُق العلمي في روح الخلف بعد السلف، وانطلاقاً من هذا المعنى قال العلامة الفقيه ابن نُجَيم، المتوفَّى سنة ٩٧٠ رحمه الله كلمته التي تقدَّمت[٣]: «وقصدُهم بذلك أن لا يدَّعيَ علمهم إلا من زاحمهم عليه بالرُّكب، وليعلم أنه لا يحصُل إلا بكثرة المراجعة، وتتبُّع

---

(١) للموفق المكي ص٥٢ ـ ٥٣.

(٢) وانظر هذين المعنيين جيداً فيما كتبه الإمام القاضي ابن العربي في «قانون التأويل» ص٤٥١ ـ ٤٥٢، وهو يحكي لقاءه بالإمام الغزالي رحمهما الله تعالى.

(٣) صفحة ١٤٧ من «أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين».

عباراتهم، والأخذِ عن الأشياخ».

ومن لم يتلقَّ العلم عن العلماء، ولم يصحبهم زمناً طويلاً، ولم يتأدب بآدابهم، كيف يُتَصوَّر منه أن يعرف قيمة العلماء؟ فلا عجب إذا طال لسانه وقلمه عليهم، ولم يتأدب بأدب الاختلاف معهم[١]. ولا بدَّ لمن جالس العلماء العاملين أن يتأدب معهم، سواء باختياره أو باضطراره، حتى لو كان جليسُهم غيرَ معتقِد فيهم، لما لهم من الكرامة عند الله تعالى، فكيف إذا كان محباً لهم، معتقِداً فيهم، قاصداً التلقيَ عنهم، والاسترشادَ بهديهم!.

روى أبو محمد الحارثيُّ عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى قال: «ما مددتُ رجلي نحو دار أستاذي حماد بن أبي سليمان إجلالاً له، وكان بين داره وداري سبعُ سِكك!»[٢].

وروى البيهقي في «مناقب الشافعي»[٣] أنه قال: «قدمت المدينة، فرأيتُ من مالك بن أنس ما رأيتُ من هيبته وإجلاله للعلم، فازددت لذلك ـ أدباً ـ حتى ربما كنت أكون في مجلسه، فأريد أن أَصْفَح الورقة فأصفحها صفحاً رقيقاً، هيبة له، لئلا يسمع وَقْعها!».

---

(١) وفي حال ابن حزم من السابقين عبرة. انظر كلام الشاطبي فيه قريباً ص ٢٢٦، وانظر قصة الجَوْجَري مع الشريف يحيى المناوي ص ٢٦٧.

(٢) «عقود الجمان في مناقب أبي حنيفة النعمان» للعلامة الصالحي ص ٢٩٣.

(٣) ٢: ١٤٤.

ثم أسند إلى الربيع بن سليمان[١] أنه قال: «والله ما اجترأتُ أن أشرب الماء والشافعيُّ ينظر إليَّ، هيبةً له!!».

وهذا يصدِّق قولَ القائل:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظَّموه في النفوس لعَظَّما

وهذا أدب الأئمة، وأدبُ الإمام إمام الأدب، ولئن كنا نحن دون ذلك بمفاوزَ لكن علينا أن نتدارك ونتشبَّه ونسعى ونتأسَّى، والله ولي التوفيق، ويا خسارة المحروم!.

وللإمام أبي إسحاق الشاطبي رحمه الله، كلام نفيس في كتابه «الموافقات» عن أهمية التلقي، وممن يكون التلقي، أنقل إلى القارئ الكريم منه ما تيسر، فإنه طويل. قال رحمه الله[٢]:

«المقدمة الثانية عشرة: من أنفع طرق العلم الموصلة إلى غايةِ التحقُّق به: أَخْذُه عن أهله المتحققين به على الكمال والتمام[٣]..، وقد اختلفوا: هل يمكن حصول العلم دون معلِّم أوْ لا؟ فالإمكان مسلَّم، ولكن الواقع في مجاري العادات أن لا بدَّ من المعلِّم، وهو متفق عليه في الجملة، وإن اختلفوا في بعض التفاصيل.. واتفاق الناس على ذلك في الوقوع وجَرَيان العادة به: كافٍ في أنه لا بدَّ منه.

(١) «المناقب» ٢: ١٤٥، و«المدخل» ص ٣٩٠.

(٢) ١: ٩١ ـ ٩٩، وسيأتي طرف منه ص٢٠٠.

(٣) سيأتي بيانه لأمارات المتحققين بالعلم بعد صفحة واحدة، ثم ص٢٠١.

وقد قالوا: إن العلم كان في صدور الرجال، ثم انتقل إلى الكتب، وصارت مفاتحه بأيدي الرجال[1]. وهذا الكلام يَقضي بأن لا بدَّ في تحصيله من الرجال، إذ ليس وراء هاتين المرتبتين[2] مرمى عندهم.

وأصل هذا في الصحيح: «إن الله لا يقبضُ العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يَقبِض العلم بقبض العلماء» الحديث[3]. فإذا كان كذلك فالرجال هم مفاتحه بلا شك[4].

---

(١) لفظ ابن رشد الجدِّ رحمه الله في «المقدِّمات الممهِّدات» ١: ٤٩: «كان العلم في الصدر الأول والثاني في صدور الرجال، ثم انتقل إلى جلود الضأن، وصارت مفاتحه في صدور الرجال، فلا بد لطالب العلم من معلم يفتح عليه ويُطرِّق له». أي: يفتح له طرق الفهم.

(٢) الكتب والرجال.

(٣) الحديث في البخاري (١٠٠)، ومسلم ٤: ٢٠٥٨ (١٣).

(٤) وفي «الآداب الشرعية» لابن مفلح ٢: ١٢٥ عن الإمام أبي حيان الأندلسي (المفسِّر المحدِّث النَّحْوي)، المتوفى سنة ٧٤٥ رحمهما الله تعالى، من كلام قال في آخره: «وقد نظمت أبياتاً في شأن من ينهز بنفسه ـ أي: يرفع نفسه ـ، ويأخذ العلم من الصحف بفهمه:

يظنّ الغَمْر أن الكُتْب تَهْدي ... أخا فهمٍ لإدراك العلوم
وما يَدري الجهول بأن فيها ... غوامضَ حيَّرتْ عقل الفهيم
إذا رُمتَ العلوم بغير شيخ ... ضَلَلتَ عن الصراط المستقيم
وتلتبس الأمور عليك حتى ... تصير أضلَّ من توما الحكيم

أشرت إلى قول بعضهم:

قال حمار الحكيم توما ... لو أنصفوني لكنت أركب

=

فإذا تقرر هذا: فلا يؤخذ إلا ممن تحقَّق به، وهذا أيضاً واضح في نفسه، وهو أيضاً متفق عليه بين العقلاء إذ إن شروطهم في العالم ـ بأيِّ علمٍ اتفق ـ أن يكون:

١ ـ عارفاً بأصوله وما ينبني عليه ذلك العلم.

٢ ـ قادراً على التعبير عن مقصوده فيه.

٣ ـ عارفاً بما يلزم عنه.

٤ ـ قائماً على دفع الشُّبَه الواردة فيه[1].

فإذا نظرنا إلى ما اشترطوه، وعرضنا أئمة السلف في العلوم الشرعية، وجدناهم قد اتصفوا بها على الكمال.

غير أنه لا يشترط السلامة عن الخطأ البتة.. ولا يقدح في كونه عالماً، ولا يضرُّ في كونه إماماً مقتدىً به، فإن قصُر عن استيفاء الشروط، نقص عن رتبة الكمال بمقدار ذلك النقصان، فلا يستحقُّ الرتبة الكمالية ما لم يُكمل ما نقص.

لأنـــي جـاهــل بـســيط وصاحبي جاهل مركَّــب»

وتوما الحكيم: رجل كان يتطبَّب من الكتب، فيحـرِّف تحريفـات عجيبـة! أهلكـت عدداً من الناس، منها: أنه قرأ الحديث الشريف: «الحبة السوداء شفاء من كل داء»، قرأه: الحية السوداء شفاء من كل داء، هكذا: الحيّة، بياء تحتية، بدل الباء الموحدة!!.

وينظر هل هو الذي ترجمه الحافظ في «الدرر الكامنة» آخر حرف التـاء المثنـاة، وأرخ وفاته سنة ٧٢٤؟.

(١) انظر الإفادة ٢٧ من «الإفادات والإنشادات» ص١٠٧ للإمام الشاطبي نفسه.

فصل: وللعالم المتحقق بالعلم أماراتٌ وعلامات، تتفق مع ما تقدم، وإن خالَفَتها في النظر، وهي ثلاث:

إحداها: العمل بما علم، حتى يكون قوله مطابقاً لفعله، فإن كان مخالفاً له فليس بأهل لأن يؤخذ عنه، ولا أن يُقتدى به في علم.

والثانية: أن يكون ممن ربّاه الشيوخ في ذلك العلم، لأخذه عنهم وملازمته لهم، فهو الجدير بأن يتصف بما اتصفوا به من ذلك، وهكذا كان شأن السلف الصالح.

فأولُ ذلك: ملازمةُ الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ وأخذُهم بأقواله وأفعاله، واعتمادُهم على ما يَرِد عنه، كائناً ما كان، وعلى أيِّ وجه صدر.. (وذكر قول عمر للنبي ﷺ يوم الحديبية: ألسنا على حق وهم على باطل..، ثم قال):

فهذا من فوائد الملازمة، والانقياد للعلماء والصبر عليهم في مواطن الإشكال[1]، حتى لاح البرهان للعيان، وفيه قال سهل بن حُنَيف يوم صفِّين: أيها الناس، اتَّهموا رأيكم، والله لقد رأيتُني يوم أبي جَنْدَل ولو أني أستطيع أن أردَّ أمر رسول الله ﷺ لرددته. وإنما قال ذلك لما عرض لهم فيه من الإشكال، ولكنهم سلَّموا وتركوا رأيهم حتى نزل القرآن، فزال الإشكال والالتباس.

وصار مثلُ ذلك أصلاً لمن بعدهم، فالتزم التابعون في الصحابة

---

(١) انظر الفصل الذي كتبه الشاطبي رحمه الله في «الموافقات» ٤: ٣٢١ وأوله: «ترك الاعتراض على الكبراء محمود...».

سيرتهم مع النبي ﷺ حتى فقُهوا ونالوا ذِروة الكمال مع العلوم الشرعية، وحَسْبُك من صحة هذه القاعدة أنك لا تجد عالماً اشتهر في الناس الأخذ عنه إلا وله قدوة اشتهر في قرنه بمثل ذلك، وقلَّما وُجِدت فِرقة زائغة، ولا أحد مخالف للسنة إلا وهو مفارق لهذا الوصف.

وبهذا وقع التشنيع على ابن حزم الظاهري، وأنه لم يلازم الأخذ عن الشيوخ ولا تأدب بآدابهم[١]، وبضدِّ ذلك كان العلماء الراسخون، كالأئمة الأربعة وأشباههم.

والثالثة: الاقتداءُ بمن أخذ عنه، والتأدبُ بأدبه، كما علمتَ من اقتداء الصحابة بالنبي ﷺ، واقتداء التابعين بالصحابة، وهكذا في كل قرنٍ، وبهذا الوصف امتاز مالك عن أضرابه. أعني: بشدة الاتصاف به، وإلا فالجميع ممن يُهْتَدى به في الدين، كذلك كانوا، ولكن مالكاً اشتهر بالمبالغة في هذا المعنى. فلما تُرك هذا الوصف رَفَعت البدع رؤوسها، لأن ترك الاقتداء دليل على أمر حَدَث عند التارك، أصله اتباع الهوى.

فصل: وإذا ثَبَتَ أنه لا بدَّ من أخذ العلم عن أهله: فلذلك طريقان:

أحدهما: المشافهة، وهي أنفع الطريقين وأسلمهما، لوجهين[٢]:

---

(١) لاحظ قول الشاطبي: لم يلازم، لئلا يُشكل عليك كثرة شيوخه في الرواية، الذين يروي عنهم في «المحلى» وغيره، فهذا شيء، وذاك شيء آخر، فالملازمة تقتضي استدامة الصحبة والمجالسة، والرواية تكون في مجالس يسمع فيها الحديث، أو يجيزه الشيخ بالكتاب مثلاً.

(٢) ذكر وجهاً واحداً فقط.

الأول: خاصيَّة جعلها الله تعالى بين المعلِّم والمتعلِّم، يشهدها كل من زاول العلم والعلماء، فكم من مسألة يقرؤها المتعلم في كتابه، ويحفظها ويردِّدها على قلبه فلا يفهمها، فإذا ألقاها إليه المعلم فهمها بغتة، وحصل له العلم بها بالحضرة... إذ يفتح للمتعلم بين أيديهم ما لا يفتح له دونهم، ويبقى ذلك النور لهم بمقدار ما بقوا في متابعةِ معلمهم وتأدبهم معه واقتدائهم به ـ وذكر حديث مسلم[1] ـ: نافق حنظلة، وقوله ﷺ: «لو تَدومون على ما تكونون عندي وفي الذِّكر لصافحتكم الملائكة على فُرُشكم وفي طُرُقكم..».

الطريق الثاني: مطالعة كتب المصنفين، ومدوِّني الدواوين، وهو أيضاً نافع في بابه بشرطين:

الأول: أن يحصلَ له مِن فهم مقاصد ذلك العلم المطلوب ومعرفةِ اصطلاحات أهله، ما يَتمُّ له به النظر في الكتب، وذلك يحصل بالطريق الأول من مشافهة العلماء، أو مما هو راجع إليه، والكتب وحدها لا تفيد الطالبَ منها شيئاً دون فتح العلماء، وهو مشاهد معتاد. (إذاً: آل الأمر إلى التلقي).

والشرط الثاني: أن يتحرى كتب المتقدمين من أهل العلمِ المرادِ، فإنهم أقعدُ به من غيرهم من المتأخرين[2]. وأصل ذلك التجربة والخَبَر.

---

(١) ٤: ٢١٠٦ (١٢).

(٢) قال الحافظ ابن حجر في «لسان الميزان» ٣: ٣١٦ ترجمة خالد بن أنس: «النفس إلى كلام المتقدمين أميلُ وأشدُّ ركوناً»، وانظر مناسبة هذا القول ليكون وقعه =

أما التجربة: فهو أمر مشاهد في أي علم كان، فالمتأخر لا يبلغ من الرسوخ في علمٍ ما ما بلغه المتقدم..، فتحققُ الصحابة بعلوم الشريعة ليس كتحقق التابعين، والتابعون ليسوا كتابعيهم، وهكذا إلى الآن. ومن طالع سِيَرَهم وأقوالَهم وحكاياتهم أبصر العجب في هذا المعنى.

وأما الخبر: ففي الحديث: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، وفي هذا إشارة إلى أن كل قرن مع ما بعده كذلك ـ وذكر أخباراً عديدة ـ ، ثم قال:

فلذلك صارت كتب المتقدمين وكلامهم وسِيَرهم أنفعَ لمن أراد الأخذ بالاحتياط في العلم على أي نوع كان، وخصوصاً علمَ الشريعة الذي هو العروة الوثقى، والوَزَر الأحمى. وبالله تعالى التوفيق».

انتهى كلام الشاطبي رحمه الله تعالى.

التحذير الشديد من تشييخ الصحيفة :

وتتالت طبقات العلم والعلماء على هذا النهج، وحصل لبعض المتقدمين منهم ـ على ندرةٍ نادرةٍ ـ خطأ في قراءة كلمة، فتوالت منهم كلمات تحذِّر من أخذ العلم عن الصحيفة، وأنشأوا عِلْمين للضبط والتقييد: «التصحيف والتحريف» للكلام عامة، و«المؤتلف والمختلف» للأعلام خاصة، كما توالت على ألسنتهم: لا تأخذ القرآنَ عن مُصْحفي، ولا العلمَ عن صَحَفي، وشاع على ألسنتهم التعوّذ بالله من تشييخ

أعظم في نفسك.

الصحيفة.

وقد ذكر الذهبي في ترجمة الإمام الأوزاعي[1] سبباً واحداً من أسباب تحذيرهم من الأخذ من الصحف، هو تصحيف الكلمة بما يحيل المعنى ويفسده، إذ لم يكن انتشر في ذلك العصر ـ عصر الإمام الأوزاعي ـ النَّقْط والشَّكْل.

وأقول: نعم، ثم عمّ وانتشر، إلى عصر شيوع الطباعة، لكنا ابتلينا في المطبوعات بما هو أشد وأفظع من ذلك، لأحد أسباب ثلاثة، منفردة أو مجتمعة:

ـ أخطاء مطبعية عَفْوية لا يخلو عنها الطبع البشري، مع اهتمام الطابع، أو المحقق، وحرصهما الأكيد الشديد على الصحة والدقة.

ـ أو تلك الأخطاءُ المطبعيةُ الناتجة عن ضعف اهتمام الطابع أو المحقق لوصولهما إلى الصواب.

ـ أو تلك الأخطاءُ العلميةُ والمطبعية الناتجة عن تدخل (المحقق!!) في تحقيقِ كتابٍ في علم لم يطلبه، فضلاً عن أنه لم يتقنه! وما إلى ذلك من صور واقعية مَشِينة!.

أقول: إنا ابتُلينا في عالم المطبوعات، بهذا (التشويه) لهذا التراث النقيّ المشرِق، وهو أشدّ بلاء وضرراً على العلم والدين، مما كان يحصل في عالم المخطوطات.

---

(١) في «السير» ٧: ١١٤.

وهذا مما يزيد الأمر تأكيداً على ضرورة تلقي العلم عن العلماء، المتوارِثين للعلم طبقة بعد طبقة.

وإنما أؤكد على ضرورة تلقي العلم عمن توارث العلم جيلاً بعد جيل، لأصلَ في حديثي إلى التحذير من الواقع الذي وصلنا إليه، بل: لأَصِل إلى التحذير من الهاوية التي وصلنا إليها.

استطراد في أثر الدراسة الجامعية على العلم الشرعي(١):

لقد كان العلم بالتلقي والمزاحمة بالرُّكب، ووقوفِ طلاب العلم على أبواب العلماء، وبقراءة عدد من الكتب المعتمدة في كل فنّ، وبحفظ أمهات المختصرات في كل علم، وكان الطالب يتدرَّج في التحصيل تدرجاً مشتركاً: بين تحصيل التلقي، وتحصيل الجهد الشخصي، أقصد: في مطالعاته الخاصة، مع رجوعه إلى شيوخه فيما يشكل عليه، فيصلُ بتوفيق الله إلى مرحلة يكون فيها مرجعاً للجيل اللاحق له، من الطلاب، أو عامة المسلمين في استفتاءاتهم، مع الضعف المشهود: ضعف الجيل الثاني عن الجيل الأول، وضعف الجيل الثالث عن الجيل الثاني، وهكذا.

لكنا انتقلنا إلى مرحلة خطيرة أدَّت بنا إلى مرحلة أشدَّ خطراً، فكان الأمر كما قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الفتن آخر الزمان: «يُرقِّق بعضها بعضاً»(٢).

---

(١) ينتهي هذا الاستطراد آخر ص١٩٤.

(٢) هذا طرف من حديث رواه مسلم ٣: ١٤٧٢ (٤٦).

أما المرحلة الأولى الخطيرة: فهي الدراسة في الجامعات الشرعية «كليات الشريعة» من غير مطالبةِ الطالب بالحضور والدوام، ولا يشترطون لقبوله أن يكون (طالب علم شرعي) قبلَ دخوله المرحلة الجامعية، أي: إنه لم يدرس المرحلة الإعدادية والثانوية في المدارس الشرعية، بل يُقبَل طالباً منتسباً في كلية الشريعة ولو كان طالبَ ثانوياتٍ عامة، ليس له أساس في العلوم الشرعية، ولم يدرس مبادئها وضرورياتها.

يدخل هذا الطالب المرحلة الجامعية، فيدرس في كلية الشريعة أربع سنوات، يتخرَّج بعدها مدرساً ومعلماً للأجيال دينَها، وينظر إلى نفسه أنه صار (عالماً) إذا جلس بين العامة، يتكلم في دين الله بما تقتضيه ضرورة المجلس.

ولكل إنسانٍ ثلاثةُ أعمار: عُمُر زمنيّ: من يوم ولادته، وعُمُر عقلي: حسب ما وهبه الله من مدارك، فقد يكون عقله أكبر من عمره الزمني، وقد يكون متناسباً معه، وقد يكون أصغر، وعمرٌ علميّ: وذلك من يوم بدء دراسته لهذا العلم.

فهذا الطالب الذي درس في كلية الشريعة أربع سنوات، وكان قبلها طالباً في الثانويات العامة يكون عمرُه العلمي الشرعي يومَ تخرُّجه أربعَ سنوات، ومع ذلك يبدأ بتدريس الأجيال، أو يتصدر المجالس!.

والفرق بينه وبين ذاك الطالب الذي درس العلوم الشرعية ستَّ سنوات، في المرحلة الإعدادية والثانوية، ثم ارتقى إلى المرحلة الجامعية فدرسها أربع سنوات: أنه صارت سنواتُ عمره العلمي الشرعي عشرَ سنوات.

هذا من حيثُ العدد والرقم.

أما من حيثُ الأهمية: فالفرق أكبر بكثير، إذْ إن هذا الطالب درس ستَّ سنوات زائدةً، لكنها من حيثُ الأثر والفائدة تعدِل أضعافَ الرقم العددي، إذ هي ست سنوات تأسيسية لمراحل عمره العلمي كلها، وهي تشكل في ارتقائه العلميّ تدرجاً سليماً، وارتقاء صحيحاً، أما ذاك فيحاول الرقيَّ إلى السطح دون مراقي (دَرَج)، وهذا لا يكون أبداً.

والداء الوبيل، وهو الخطر الثاني، هو أن أساتذة الجامعات الشرعية يَعلَمون ما عليه طلابهم من الضعف، ومع ذلك فإنهم يجرِّؤونهم آخر العام ـ حتى في السنة الأولى ـ في الاختبارات النهائية على أن يزاحموا الأئمة المجتهدين: أبا حنيفة ومالكاً والشافعي وأحمد، في آرائهم واجتهاداتهم، إذا بحثوا مسألة فقهية في مادة الفقه، أو في آيات الأحكام، أو أحاديث الأحكام، بأن يذكر الطالب الذي بلغ من العمر العلمي سنة واحدة رأي الأئمة الأربعة وغيرهم، ثم يذكر رأيه وترجيحه!!! وزِدْ من إشارات التعجب ما شئت.

وزيادةً في ضعف هذا الطالب: فإن الطالب الجامعي ينشّأ على دراسة العلم في مذكِّرات يكتبها الأساتذة، ثم تنقلب إلى كتب مطبوعة، ويقطعون الطلاب عن كتب الأئمة السابقين، وتراثهم الأصيل القويم القديم، وعباراتهم العلمية الرصينة، وما تحمله من مصطلحات موروثة لابدَّ لطالب العلم من فهمها، وتصير هذه المذكرات المطبوعة هي مصادرَهم في المستقبل، بحيث إذا احتاج هذا (الطالبُ) فيما كان، و(العالمُ) فيما سيكون، إذا احتاج إلى مراجعة مسألة علمية في كتاب تراثي: يصعب

عليه، وبهذا نكون قد قطعنا رجال اليوم والغد، عن علماء الأمة السابقين، وهذا خطر علمي كبير، وقد وقع في شِراكه كثير، وأوقعوا فيه غيرهم.

ولَأَنْ أقول: إن الحكم الفقهي أفتى فيه فلان وفلان من أئمة الفقه السابقين، في كتاب كذا: بكذا، خير من أن أقول: أفتى فيه الدكتور فلان وفلان، من الأساتذة الجامعيين، ولَأَنْ أقول: الحديث الفلاني صححه فلان وفلان من الأئمة السابقين، خير من أن أقول فيه: صححه فلان وفلان من المعاصرين، فالمعاصرون إنْ أصابوا: فمن فُتَات موائد المتقدمين، وإن أخطأوا فلا حاجة بنا إلى خطئهم.

وضرر هذه الدراسة ـ على مستوى الفرد ـ: كما وصفت: تُخرِّج طالبَ علم ضعيفاً لا يصلح لشيء، مع ما يحمله من شذوذات، إلا إذا كانت رغبته في تحصيل العلم قويةً نابعة من قلبه، فحينئذ تشمله العناية الإلهية، ويوفَّق لتدارك تقصيره، فيطلب العلوم التأسيسية، ويلحق بالركب، وهذا قليلٌ قليلٌ.

أثر البرامج الحاسوبية على طالب العلم:

وزَامنَ هذا القطعَ عن تراث الأئمة السابقين، بل ساعد على المزيد من الانفصام عنه: تلك البرامجُ الحاسوبية التي عمَّتْ وطمَّتْ، وصار ينظر إلى غير المتعامل معها: أنه ضعيف في علمه وفهمه، متخلِّف عن ركب الحضارة العلمية!!.

ولا يُنكِر فائدةَ هذه الدراسة الجامعية، وفائدةَ هذه البرامج، بعضَ الفائدة: ذو بصر، فضلاً عن ذي بصيرة، كما أنه لا ينكر ضررها المادي

والروحي ـ لمن اقتصر عليها ـ ذو بصر، فضلاً عن ذي بصيرة، وبقدْر ما يقتصر عليها الباحث، يكون ضرره بها مادياً وروحياً.

فمن ضررها المادي: أنه لا يصح أبداً الرجوع إليها فقط، دون الرجوع إلى مصادرها الناقلة عنها، والحديث عن هذه الفِقرة طويل.

أما بيان ضررها الروحي: فإن العلم الشرعي يختلف عن العلوم الأخرى، من حيث إنه علم، وتربية وسلوك، إنه يمكن المهندسَ المعماري ـ مثلاً ـ أن يعتمد على برامجَ لرسومٍ هندسية، ذلك أنه يتعامل مع جمادات وأحجار. أما طالب العلم فإنه يتعلم العلم، ويتعلم معه السلوك والعمل من الشيوخ، إن البرنامج الحاسوبي يقول له ـ مثلاً ـ: الصلاة فريضة، ودليل ذلك كذا، لكن ليس فيه روح نورانية ينفخها في جلسائه والناظرين إليه، كما في قصة يحيى بن يحيى النيسابوري مع الإمام مالك، وليس له عينان يراقب بهما أصحابه ليربِّيهم كما يريد، كما في قصة الإمام أحمد مع ضيفه أبي عصمة البيهقي، الآتية، وما بعدها[1].

الاكتفاء بالدراسة الجامعية وخطورتها على الأمة الإسلامية:

أما ضرر هذه الدارسة على مستوى الأمة: فخطير خطير، إذ إنها أوجدت في الأمة (أنصاف المتعلمين)، وما أكثرَهم فينا!.

ولو أننا قمنا بعملية إحصائية بسيطة لخِرِّيجي كليةٍ من كليات الشريعة على مدى ٥٠ سنة من عُمُرها الجامعي، ولننظرْ: كم خِرِّيجاً يصلح للفتوى منهم، مع ملاحظة من كان منهم ينتمي إلى جذور (مشيخية) غير الجامعة،

(١) تأتي قصة يحيى بن يحيى ص٢١٢، وتأتي قصة أحمد مع ضيفه ص٢٤٠.

لئلا يُحسب منهم، مع ملاحظة أخرى مهمة: أن الطلبة المتخرجين فيها في السنوات الأولى من الخمسين، أقوى علمياً من الطلبة المتخرجين فيها، في السنوات الأخيرة منها.

ومع هذا كله: فإني لا أنكر بعض محاسن الدراسات الحديثة لطالب العلم، إلى جانب هذه المحاذير، وأن الأتمّ والأكمل للطالب جمعُه للحُسْنيين: بين القديم الأصيل، والحديث الرتيب.

أنصاف المتعلمين وأثرهم السيء في مختلف العلوم:

وقد ضمَّن الشرع الحنيف «مَن تَطَبَّبَ ولم يُعلم منه طِبّ»[1] فحصلتْ منه إذاية بدنية لمريض، فكذلك يجب الحَجْر على من يؤذي الناس في دِينهم من بابٍ أولى: «وقد قال بعض الناس: أكثرُ ما يُفسد الدنيا: نصف متكلم، ونصف متفقه، ونصف متطبب، ونصف نَحْوي. هذا يفسد الأديان، وهذا يفسد البلدان، وهذا يفسد الأبدان، وهذا يفسد اللسان»[2].

وجاء العلامة الفقيه الورع المجاهد فضيلة الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى، يستأذن أخاه شاعر حماة الأستاذ بدر الدين الحامد، في إتمام دراسته في الجامع الأزهر، أيام كان الأزهر أزهراً، وذلك بعد فراغه من

---

(١) نصّ حديث شريف، رواه أبو داود (٤٥٧٦)، والنسائي (٧٠٣٤، ٧٠٦٩)، وابن ماجه (٣٤٦٦)، والحاكم ٤:٢١٢ (٧٤٨٤)، وصححه ووافقه الذهبي، وهو مختلف في وصله وإرساله، وقد اعتمده الأئمة الفقهاء في مذاهبهم.

(٢) من آخر «الفتوى الحَمَوية الكبرى» لابن تيمية رحمه الله تعالى. وينظر ما يأتي بعده، فإنه منقول مما كتبته في ص ٦٦ من «أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين».

الدراسة بحلب، فقال له أخوه: لا مانع عندي، ولكن أريد منك أن ترجع أحد رجلين: عالماً أو جاهلاً، أما أن ترجع نصف متعلم فلا.

ذلك أن العالم يتكلم بعلم، والجاهل يسكت لأنه يعرف أنه جاهل، أما نصف العالم فيتكلم ظاناً أنه عالم، وهو جاهل، فيَضِلُّ ويُضل، وهذا هو الذي يقال فيه: جاهل جهلاً مركباً، لأنه جاهل، ولا يدري أنه جاهل.

وهذه النتائج لهذه المرحلة الخطيرة، رقَّقَتْ وسهَّلت المرحلة الثانية التي دخلتْ علينا منذ سنين قليلةٍ مضتْ، هي دراسة العلم عن طريق الجامعات المفتوحة، فمسخت ومسحت من حياة الطالب تلك الساعات القليلة التي يلتقي فيها الطالب بأساتذته الجامعيين، خلال السنوات الأربعة، أو ما زاد عليها!.

وجمَّل الطريقتين في أعين الناس الدعاياتُ لهما، بتوفيرهما الشهاداتِ العلمية، وأسبابَ الرزق والمعاش، دون تحمّل أعباءِ السفر إلى البلدان الأخرى، ونفقاتِ السفر والعيش في الغربة، وغالباً ما يكون أهل الطالب في عجز ماديّ.

وهذا لا ينكر، لكن لا ينكر أيضاً أننا ودَّعْنا العلمَ، وودَّعَنا العلمُ، ولا ينكر أن العلم قد احتُضِر أيام المرحلة الأولى، ثم إنه مات مع المرحلة الثانية.

ولذلك، فإني أقول وأُكرر القول، وأرجو وأُلح في الرجاء: أن يتدارك السادة الصفوة الباقية من أهل العلم، هذه الحالَ المتدهورةَ في التعليم، فيعودوا ـ بشكل خاص ـ إلى حلقات التعليم السابقة، وما يتبعها من أساليبَ نجحَ علماؤنا السابقون باتّباعها، فأوصلوا العلم غضّاً طريّاً إلى ما

بعد مئات السنين من حياتهم.

ونحن على ثقة تامة، وأمل عظيم محقَّق، بالله الكريم، المتكفّل بحفظ دينه وشريعته إلى قيام الساعة، أن يهيئ أناساً أمناء يبلّغون دين الله عزَّ وجلَّ، على النهج القويم، إلى الأجيال اللاحقة، إلى يوم الدين، محفوظين أيضاً بحفظ الله لهم، لا يضرُّهم من خذلهم ولا من خالفهم، كما تواتر ذلك عن الصادق المصدوق، صلوات الله وسلاماته عليه وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وهذه البشاراتُ النبوية القطعية ثوابتُ عندنا لا تتغيَّر ولا تزول، لكن علينا أن نسعى للعمل على التشرّف بالقيام بها، وإلا فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ محمد: ٣٨.

استطراد حول ما استُحدِث من قراءة كتب السنة سرداً:

هذا، وإن الحديث عما استُحدِث من طرق جديدة في التعليم، يدعوني إلى الحديث عن الطريقة الجديدة التي استُحدثت في قراءة كتب السنة النبوية، فأقول، وبإيجاز شديد:

أولاً: إن مقارنة سريعة جداً بين أخبار (الأصالة) في القراءة والسماع، وأخبار (المعاصرة) في القراءة والسماع، تعطينا الحكم الصادق العدل على ما ظهر حديثاً على الساحة الحديثية.

فمن أخبار السلف في دقة السماع والرواية: هذه الأخبار الثلاثة

التي رواها الخطيب في «الكفاية»[1]، أولها: عن الثقة الحجة الورع علي بن الحسن بن شقيق المروزي، أحد خاصة أصحاب ابن المبارك رحمهما الله تعالى، أنه سئل: هل سمعت «كتاب الصلاة» من أبي حمزة ـ السكري ـ؟ قال: سمعت الكتاب كلَّه، إلا أنه نَهَق حمار يوماً، فخفي عليّ حديث أو بعضُ حديث، ثم نسيت أيَّ حديث كان من الكتاب، فتركت الكتاب كله.

ثانيها: عن ابن معين قال: أتينا حاتم بن إسماعيل بشيء من حديث عبيد الله بن عمر، فلما قرأ علينا حديثاً قال: أستغفر الله، كتبت عن عبيد الله كتاباً، فشككت في حديث منها، فلست أحدث عنه قليلاً ولا كثيراً.

ثالثها: عن يوسف بن مسلم قال: سمعت الهيثم بن جميل ـ البغدادي الأنطاكي ـ يقول: سمعت من شعبة سبع مئة حديث، فشككت في واحد منها، فتركتها كلَّها.

وروى السمعاني[2] عن الإمام الحجة يحيى بن يحيى التميمي النيسابوري أحد رواة «الموطأ» عن الإمام مالك رحمهما الله تعالى: أنه قال لمالك بعد ما فرغ من قراءة «الموطأ»: «ما سكن قلبي إلى هذا السماع، قال: ولمَ؟ قال: لأني خشيت أنه سقط مني شيء، فقرأ مالك، فلما فرغ قال: ما سكن قلبي إليه، لأني أخشى أن يكون سقط من أذني شيء، قال:

---

(١) صفحة ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(٢) في «أدب الإملاء والاستملاء» (٢٢).

فما تريد؟ قال: أقرؤه أنا ثانياً فتسمعه، فقرأه، فتمّ له سماع ثلاث مرات».

وقال الحافظ ابن حجر في آخر ترجمة الإمام الحافظ أبي قرّة الزَّبيدي[١]: «صنف كتاب «السنن» على الأبواب في مجلد، رأيته، ولا يقول في حديثه: حدثنا، إنما يقول: ذَكَر فلان، وقد سئل الدارقطني عن ذلك؟ فقال: كانت أصابتْ كتبَه علةٌ، فتورَّع أن يصرِّح بالإخبار».

وقال الزركشي[٢]: «روى الشيخ أبو محمد ـ الجويني ـ، عن أبي بكر الحِيري، عن أبي العباس الأصم قال: كان يُقرأ عليه حديث فقال: أروي نصفه، ولا أروي نصفه الآخر، فقيل له في ذلك؟ فقال: قرأت نصفه على الشيخ، ثم نهق حمار، فلا أدري سمعه الشيخ أوْ لا؟ فشككتُ فيه فتركته. وكان الناس هكذا».

وكانت وفاة أبي العباس هذا سنة ٣٤٦، وانظر وتأملْ قوله: وكان الناس هكذا!! ومن شواهد أن الناس كانوا هكذا: هذه الأخبار التي قدمتها.

وجاء في ترجمة الإمام ابن الإمام أبي عبد الله محمد بن الفضل الفُراوي أنه قال[٣]: كنا نسمع «مسند أبي عوانة» على أبي القاسم القشيري، وكان يحضر رجل من المحتشِمين، يجلس بجنب الشيخ

---

(١) من «تهذيب التهذيب» ١٠ : ٣٥٠.

(٢) في «النكت على ابن الصلاح» ٣: ١٠٠٨ (٢٧٤).

(٣) كما في «السير» ١٩ : ٦١٨، و«طبقات» السبكي ٦ : ١٦٨، والنقل منه.

ـ القشيري ـ، وكان القارئ أَبِي، فاتفق أنه بعد قراءةِ جملةٍ من الكتاب، انقطع ذلك المحتشِم يوماً، وخرج الشيخ على العادة، وكان في أكثر الأوقات يخرج ويقعد وعليه قميصٌ أسودُ خشِن، وعمامة صغيرة، وكنت أظن أن والدي يقرأ الكتاب على ذلك المحتشم، فشرع أبي في القراءة، فقلت: يا سيدي على مَن تقرأ والشيخُ ما يحضر؟ فقال: وكأنك تظن أن شيخك ذلك الشخص؟ قلت: نعم، فضاق صدره واسترجع، وقال: يا بني، شيخك هذا القاعد، وعلَّم ذلك المكان، ثم أعاد لي من أول الكتاب إليه».

قلت: هذا الخبر يدل ـ أيضاً ـ على أهمية معرفة شخص الشيخ المقروء عليه، للتحمّل عنه، ويُنظر لهذه المسألة في كتب علوم الحديث، هل يصح هذا التحمل أوْ لا؟.

وجاء في ترجمة الإمام ابن دقيق العيد رحمه الله تعالى[1]، من كلام الإمام الحافظ القطب الحلبي: «كان آية في الإتقان والتحري، أتيته بجزءٍ سمعه من ابن رَوَاج، والطبقةُ بخطه، فقال: حتى أنظر فيه، ثم عدتُ إليه فقال: خطّي، لكن ما أُحَقِّق سماعه ولا أذكره، ولم يحدِّث به».

وهذه الأخبار وغيرها تعطي صورة صادقة عن (الأصالة) في القراءة والسماع، وأن الإسناد من الدين، وأنه مفخرة علوم الإسلام، ومظهر من مظاهر العبقرية الإسلامية، وأنه مصدر الطمأنينة والوثاقة بدين الإسلام.

---

(١) في «الدرر الكامنة» ٤ : ٩٣.

ثانياً: وبعد استقرار الأمور على ما يرام، بدأ يدخل أمران اثنان على الرواية بالقراءة والسماع.

أولهما: إحضار صغارِ السن مجالسَ الرواية، ومَن ليس مِن أهل العلم.

وثانيهما: رغبةُ بعض الأئمة أن يعلو إسنادهم بروايتهم لكتاب معيَّن، أو رغبتُهم بتكثيرِ طرقِ روايتهم له.

أما الأول: فكثيراً ما يتحقق الرجاء لهذا الطفل، فيتوجه إلى طلب العلم، ويكون في المستقبل عالماً مقصوداً بالرحلة لعلمه، ولعلوّ إسناده، كما أنه قد يتوجه هذا الذي ليس من أهل العلم، فتشمله العناية والبركة، ويسلك طريق العلم، فيكون من أهله، والأمثلة كثيرة، وكثيراً ما لا يكون هذا ولا ذاك.

وكان من أثر حضور هذه المجالس من هذين الصنفين: أنهم يروون ما تحمّلوه حين عدم أهلية التحمّل، وهذا الذي تحمّلوه إما كتابٌ مشهور متداول، وهذا التحمّل ضعيف، لكن لا يضرّ الكتابَ المشهور المتداول، أو جزءٌ من أجزاء السنة النبوية، غيرُ مشهور ولا متداول، فيدخل بسبب عدم أهليتهما للتحمّل كما ينبغي، احتمالُ عدمِ ضبطهما وإتقانهما لما تحمّلوه، فيتعذّر على مَن بعدهما مِن أهل العلم الحكمُ على أحاديث هذه الأجزاء بالصحة[1].

---

(١) وهذا هو الذي عناه ابن الصلاح رحمه الله بقوله في المسألة الثانية من مسائل الحديث الصحيح: إذا وجدنا فيما يُروى من الأجزاء حديثاً فإنا لا نتجاسر على جزم =

وأما الثاني: فإنهم ـ في الواقع ـ قد تحمّلوا الكتاب رواية ودراية، وضبطاً وتحريراً مرات سابقة، والآن يتحملونه رغبة في تكثير الطرق وعلوّ الإسناد، فلا يضرّ تحمّلُهم إياه بهذه الطريقة إن حصل فيها شيء[1].

أما إن كان هذا التحملُ الضعيفُ هو الأولَ والأخيرَ، وبه يحصل لصاحبه التبجُّح بأنه سمع كتاب كذا، وكتاب كذا، من أصول السنة، وليس له سابقة علم بقوانين الدراية: فلا قيمة لهذا السماع ولا التحمل.

ومن أخبار (المعاصرة) عن القراءة والسماع: أنه جاءني منذ أكثر من أربعين سنة طالب علم يحكي (انتفاخ الطاووس) وقال لي: إنه حضر كتاب كذا ـ من الأصول الستة ـ على العالم الفلاني ـ من المشاهير ـ، وكتاب كذا على فلان، وذكر من جملة ذلك: حضوره «سنن الترمذي» على عالم مشهور جداً، فتعمّدتُ أنْ قلت له: بلا فَوْت!، فسكتَ ولم يفهم ما قلته!! فهل هذا الإسناد هو الذي عناه الإمام ابن المبارك بقوله: الإسناد من الدين؟!

أقول: معاذ الله من ذلك، إنما مراده مثلُ ما حكيته قبل قليل عن تلميذه علي بن الحسن بن شقيق.

وكأن الدعاة المروِّجين لهذه الطريقة غافلون عن أمرين اثنين:

أولهما : هذا الفارق الذي قدّمته، وهو أن السابقين تلقَوْا الكتب أولاً

الحكم بصحته، وللبحث تتمة وبيان فيما علَّقته على «تدريب الراوي»، يسّر الله إتمامه بمنّه وكرمه.

(١) ينظر «الجواهر والدرر» للسخاوي ١ : ١٦٢، وما بعدها.

على ما يُرام من الدقة والإتقان، ثم تلقَّوْها بهذه الطريقة، لهذه الرغبة، فاحتجاج المتساهلين علينا بهذا، فيه ما يسميه الأصوليون: قياس مع الفارق، أو: قياس فاسد.

ثانيهما: غفلتهم عن الظرف الذي نحن فيه، الذي يتهجم فيه عدةُ طوائفَ على السنة النبوية، ليهدموا حجيتها من قلوب الناس: من القرآنيين والعَلمانيين والعقلانيين، وجهلة متعالمين!! إذْ يتذرّعون علينا بالطعن بالسنة، بهذه الاتصالات الهزيلة، ويقولون: إنْ كانت سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم، مبنيةً على هذا الأساس فهو أساس على جُرُف هارٍ مُنْهارٍ.

ولا بدّ من تعقّل للأمور، وتفقّه للأحداث، وحسنِ تطبيق لما نقرؤه، على الواقع الذي نعيشه.

عودة إلى وظائف تلقي العلم عن الشيوخ:

وذكر الإمام الغزالي رحمه الله في «الإحياء» عشر وظائف على المتعلم والعالم، وقال[1]: «الوظيفة الخامسة: أن لا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة، ولا نوعاً من أنواعه، إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته، ثم إنْ ساعده العمر طلب التبحُّر فيه، وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه، وتَطَرَّف من البقية[2]، فإن العلوم متعاونة، وبعضها مرتبط ببعض، ويستفيد منه في الحال الانفكاكَ عن عداوة ذلك العلم، بسبب

---

(١) ١: ٥١.

(٢) أي: أخذ من كل علم طرفاً.

جهله، فإن الناس أعداء ما جهلوا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ الأحقاف: ١١.

والوظيفة السادسة: أن لا يخوض في فنٍّ من فنون العلم دفعةً، بل يراعي الترتيب ويبتدئ بالأهم...

والوظيفة السابعة: أن لا يخوض في فنّ حتى يستوفيَ الفن الذي قبله، فإن العلوم مرتّبة ترتيباً ضرورياً، وبعضُها طريق إلى بعض، والموفَّقُ من راعى ذلك الترتيب والتدريج..».

وقال ابن الجوزي[1]: «للفقيه أن يطالع من كل فن طَرفاً، من تاريخ وحديث ولغة وغير ذلك، فإن الفقه يحتاج إلى جميع العلوم، فليأخذ من كل شيء منها مهماً».

ثم قال آخر هذه الخاطرة: «ينبغي لكل ذي علم أن يساهم بباقي العلوم، فيطالع منها طرفاً، إذْ لكل علم بعلم تعلُّق»، وذكر بين كلامَيْه أمثلةً من كلام بعض الفقهاء فيها تناقضات تاريخية، أصاب فيها إلا واحداً، استدركه عليه فضيلة محققه الأستاذ الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله، فاستفدنا منه: أن المشاركة في العلوم ينبغي أن تكون على وجه التحقيق والإمعان، وأن لا يُسارع الكاتب أو المؤلف في الانتقاد والاستدراك[2].

---

(١) في «صيد الخاطر» ص ٣٧٣ (٣٣٦).

(٢) وتطبيقاً لهذه الفائدة: عدم الإسراعِ في الاستدراك، أقول: إن استدراك =

ويتصل بكلام الإمام ابن الجوزي وتنبيهه إلى أوهام تاريخية في كلام بعض الأئمة الفقهاء: كلام طويل وأمثلة كثيرة في أوائل «الإعلان بالتوبيخ» للسخاوي، وفي مقدمة «الوافي بالوفيات» للصفدي، ومقال للعلامة الكوثري في أواخر «مقالاته» بعنوان: «بعض أغلاط تاريخية»، وينظر بعده ما علَّقته على أوائل النوع الحادي والعشرين: الحديث الموضوع، من «تدريب الراوي»، يسَّر الله إتمامه بمنّه وكرمه.

كما أن للعلامة السيد محمد عبد الحي الكتاني كلاماً آخر يتصل بضرورة تحري التاريخ والطبقات، وذلك في آخر كتابه «فهرس الفهارس»[١].

* * * * *

فضيلة الشيخ لهذا الأمر الواحد، يحتاج إلى تثبّت ومراجعة، فإني راجعت فلم أجد شيئاً.

(١) ٢: ١١٥٨ ـ ١١٦٠.

المَعْلَم التاسع

اختيار الشيخ

إن هذا العلم دين :

ينبغي أن يكون مفتاح هذا العنوانِ: المنهجَ الذي رسمه الإمام التابعي الجليل محمد بن سيرين (١١٠هـ) رحمه الله تعالى، بقوله: «إن هذا العلم دِين، فانظروا عمن تأخذون دينكم»[١].

ومراده بـ «هذا العلم»: العلوم الشرعية، والعربية وآلاتها، لكونها خادماً للعلوم الشرعية، كما نبه إليه المناوي رحمه الله[٢].

وأسند الخطيب[٣] إلى إبراهيم النخعي المتوفىٰ سنة ٩٦ عن نحو خمسين عاماً، فهو من مواليد منتصف القرن الهجري الأول، وأدرك عِلية القوم، قال رحمه الله: «كانوا إذا أَتَوُا الرجلَ ليأخذوا عنه نظروا إلى سَمته، وإلى صلاته، وإلى حاله، ثم يأخذون عنه».

---

(١) رواه الإمام مسلم في مقدمة «صحيحه» ١: ١٤ أول الباب الخامس، وختم به الترمذي كتابه «الشمائل»، ورُوي موقوفاً ومرفوعاً، ولا يصح، وانظر «الجامع» للخطيب (١٣٧ فما بعدها)، و«المحدث الفاصل» (٤٣٧ ـ ٤٤٥).

(٢) في «فيض القدير» ٢: ٥٤٥.

(٣) في «الجامع» (١٣٦)، و«الكفاية» ص١٥٧.

وأسند الرامهرمزيُّ نحوه[١] إلى أبي العالية الرِّياحي عصريّ إبراهيم النخعي، بل هو أعلى طبقةً منه، ولفظه كلفظ النخعي: يحكي عن حال الصحابة وكبار التابعين في أخذهم العلم عمن هديه في العبادة، مطابقاً للعلم المحمدي المتوارث بينهم.

واختيار الشيخ أمر مهم جداً لطالب العلم، لكن حيثُ يكون له مجال الاختيار، أما في الحال العامة: مثل نظام الدراسة في أيامنا، فللطالب مجالُ الاختيار لاتخاذ شيخ خاص يلتزمه، ولو كان من غير شيوخه الذين يحضر عليهم دروسه النظامية، وليس له اختيار في بعضهم الآخر.

ومن تنبيه العلماء وأقوالهم عن اختيار الشيوخ: ما قاله الإمام البدر ابن جماعة رحمه الله[٢]: «ينبغي للطالب أن يقدِّم النظر ويستخير الله فيمن يأخذ العلم عنه، ويكتسب حسن الأخلاق والآداب منه، وليكن ـ إن أمكن ـ ممن كمُلت أهليته، وتحققت شفقته، وظهرت مروءته، وعُرفت عفَّته، واشتهرت صيانته، وكان أحسنَ تعليماً، وأجودَ تفهيماً، ولا يرغبُ الطالب في زيادة العلم مع نقص في ورع، أو دين، أو عدم خُلُق جميل... وإذا سَبَرت أحوال السلف والخلف لم تجد النفعَ يَحصل غالباً، والفلاحَ يدرِك طالباً، إلا إذا كان للشيخ من التقوى نصيب وافر، وعلى شفقته ونصحه للطالب دليل ظاهر.

«ولْيجتهد الطالب على أن يكون الشيخ ممن له على العلوم الشرعية

---

(١) في «المحدث الفاصل» (٤٣٠).

(٢) في «تذكرة السامع والمتكلم» ص٨٥.

تمام الاطلاع، وله مع مَن يوثق به مِن مشايخ عصره كثرةُ بحث وطولُ اجتماع، لا ممن أخذ من بطون الأوراق، ولم يُعرف بصحبة المشايخ الحُذّاق».

قلت: وينبغي للقارئ الكريم أن يتأمل هذه الأوصاف المطلوبة في الشيخ جملةً جملة، ليدرك أهميةَ ذلك لطالب العلم.

وأن يتأمل خاصة هذا السَّبْر لسِيَر السلف والخلف: أنه لا يحصل النفع والفلاح والنجاح للطالب إلا إذا كان لشيخه حظٌّ وافر من الصلاح، (شيخُ جامعٍ، لا جامعةٍ) ليسري هذا الصلاح في طلابه، فإنّ تأثر كلِّ إنسان بجليسه مما لا يخفى على كل عاقل.

وتقدم[1] أن الإنسان يتأثر بمعايشته للحيوان في طباعه وسجاياه، أُنساً وجفاءً، فما بالك بتأثره بجليسه من بني جنسه! فما بالك بتأثره بأساتذته ومربيه؟ ثم ما بالك بتأثره بخاصة أساتذته: الذي اتخذه قدوة له ومربياً، فلا ريب أنه سيكون الأمر كما تقدم في الأخبار التي ذكرتها فيما سبق عن الصحبة وأثرها بشكل عام، وأثرها بشكل خاص.

ومن النصائح الغاليات من الإمام الذهبي رحمه الله[2] قال: «كان السلف يطلبون العلم لله، فنَبُلُوا وصاروا أئمة يقتدى بهم»، ثم ذكر أقساماً على غير هذا الهَدْي، وقال: «وتلاهم قوم انتمَوْا إلى العلم في الظاهر، ولم يُتقنوا منه سوى نزر يسير، أَوْهموا به أنهم علماء فضلاء، ولم يَدُرْ في

(١) صفحة ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٢) في «السِّيَر» ٧: ١٥٢ ـ ١٥٣.

أذهانهم قطّ أنهم يتقربون به إلى الله، لأنهم ما رأوا شيخاً يُقتدى به في العلم، فصاروا هَمَجاً رَعاعاً، غايةُ المدرس منهم أن يحصِّل كتباً مثمَّنة يخزنها وينظر فيها يوماً ما، فيصحِّف ما يورده ولا يقرِّره، فنسأل الله النجاة والعفو، كما قال بعضهم: ما أنا عالم، ولا رأيت عالماً».

فالسبب الذي جعل هذه الفئة ـ كما وصفهم ـ: همجاً رَعاعاً: لا أتقنوا العلم، ولا سلكوا طريق العمل: هو أنهم لم يصحبوا عالماً ربانياً يسري علمه وصلاحه فيهم، فيقتدوا به.

هذا، وإن من المحقَّق المسلَّم به: أن أساتذة طالب العلم هم مصدر غذائه العلمي والفكري، والسلوكي والروحي، وإن أستاذه الخاص هو مصدر تكوينه في هذه الجوانب الأربعة، وهو قدوته فيها، وهو الممثِّل لها في نظر الطالب، بل هو الصلة بينه وبين الله عز وجل، وبينه وبين العباد أيضاً، فهم ينظرون إليه نظرة عامة من خلال نظرتهم إلى المدرسة العلمية التي انتسب إليها أولاً، ثم ينظرون إليه نظرة خاصة من خلال نظرتهم إلى شيخه الذي اختاره قدوة له.

فلذا كان من المفيد أن أنقل تعريفاً بما ينبغي أن يكون عليه العالم القدوة، عن أكثر من عالم قدوة.

أمارات العالم المتحقق بالعلم:

كتب الإمام أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله تعالى كلاماً طويلاً عن أمارات العالم المتحقق بالعلم، الذي يصح اتخاذه قدوة، أقتبس بعضه،

قال رحمه الله[١]:

«المقدمة الثانيةَ عشْرةَ: من أنفع طرق العمل المُوصِلة إلى غاية التحقُّق به: أخذُه عن أهله المتحققين به على الكمال والتمام». ثم قال: «وللعالم المتحقق به أماراتٌ وعلامات تتفق مع ما تقدم، وإنْ خَالَفَتْها في النظر، وهي ثلاث:

«إحداها: العمل بما علم، حتى يكون قوله مطابقاً لفعله، فإن كان مخالفاً فليس بأهل لأن يُؤخذ عنه، ولا أن يُقتدى به في علم، وهذا المعنى مبيَّن على الكمال في كتاب الاجتهاد، ولله الحمد[٢].

«والثانية: أن يكون ممن ربّاه الشيوخ في ذلك العلم، لأخذه عنهم، وملازمته لهم، فهو الجدير بأن يتصف بما اتّصفوا به من ذلك، وهكذا كان شأن السلف الصالح، فأولُ ذلك ملازمةُ الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذُهم بأقواله وأفعاله، واعتمادهم على ما يَرِد منه، كائناً ما كان، وعلى أي وجه صدر منه، فَهِموا مغزى ما أراد به أوْ لا، حتى علموا وتيقّنوا أنه الحق الذي لا يعارَض..».

إلى أن قال: «فهذا من فوائد الملازمة والانقياد للعلماء، والصبر عليهم في مواطن الإشكال، حتى لاح البرهان للعِيان،.. وصار مثلُ ذلك أصلاً لمن بعدهم، فالتزم التابعون في الصحابة سيرتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم، حتى فقُهوا، ونالوا ذِروة الكمال في العلوم الشرعية،

---

(١) في «الموافقات» ١: ٦٤.

(٢) ٤: ١٨٤ من «الموافقات» نفسه.

وحَسْبك من صحة هذه القاعدة أنك لا تجد عالماً اشتهر في الناس الأخذُ عنه إلا وله قدوة اشتهر في قرنه بمثل ذلك، وقلَّما وجدتَ فرقةً زائغة، ولا أحدَ مخالفٌ للسنة، إلا وهو مفارق لهذا الوصف، وبهذا الوجه وقع التشنيع على ابن حزم الظاهري، وأنه لم يلازم الأخذ عن الشيوخ، ولا تأدب بآدابهم[١]، وبضدّ ذلك كان العلماء الراسخون، كالأئمة الأربعة وأشباههم.

«والثالثة: الاقتداء بمن أَخذ عنه، والتأدب بأدبه، كما علمتَ من اقتداء الصحابة بالنبي صلى الله عليه وسلم، واقتداء التابعين بالصحابة، وهكذا في كل قرن، وبهذا الوصف امتاز مالك عن أضرابه، أعني: بشدة الاتصاف به، وإلا فالجميع ممن يُهتدى به في الدين: كذلك كانوا، ولكن مالكاً اشتهر بالمبالغة في هذا المعنى».

وهذا كلام نفيس للغاية، وللإمام الشاطبي رحمه الله كلام آخر في مواطن أخرى من كتابه ينبغي تتبُّعها فيه.

مزيدٌ من أمارات العالم المتحقق:

وقال الإمام البدر ابن جماعة رحمه الله[٢]: «آداب الشيخ في نفسه، وهي اثنا عشر نوعاً:

---

(١) نعم كان له كثرة من الشيوخِ، شيوخِ الرواية، إلا أن الشاطبي يتكلم عن شيوخ الصحبة والملازمة والتأدب بآداب العلماء المتحقِّقين به. وانظر ص ٢٢٣.

(٢) في «التذكرة» ص ١٥.

١ ـ دوام مراقبة الله تعالى في السرّ والعلن، والمحافظة على خوفه في جميع حركاته وسكْناته وأقواله وأفعاله، فإنه أمين على ما أُودِع من العلوم.

٢ ـ أن يصون العلم كما صانه علماء السلف، فلا يُذلُّه بذهابه ومشيه إلى غير أهله من أبناء الدنيا.

٣ ـ أن يتخلَّق بالزهد في الدنيا والتقلُّل منها بقدر الإمكان الذي لا يُضر بنفسه أو بعياله.

٤ ـ أن يُنَزِّه علمه عن جعله سُلَّماً يتوصَّل به إلى الأغراض الدنيوية.

٥ ـ أن يتنزه عن دَنيّ المكاسب ورذيلها طبعاً، وعن مكروهها عادة وشرعاً، ويتجنّب مواضع التُّهَم، وما فيه نقص مروءة، أو ما يُستنكر ظاهراً، وإن كان جائزاً باطناً.

٦ ـ أن يحافظ على القيام بشعائر الإسلام وظواهر الأحكام، وكذلك القيام بإظهار السنن وإخماد البدع.

٧ ـ أن يحافظ على المندوبات الشرعية القولية والفعلية، كتلاوة القرآن، وذكر الله تعالى بالقلب واللسان، وما ورد من دعوات وأذكار.

٨ ـ أن يعامل الناس بمكارم الأخلاق.

٩ ـ أن يطهِّر باطنه وظاهره من الأخلاق الرديئة، ويعمُره بالأخلاق المرضية، ثم ذَكَر بعض الأخلاق الرديئة وقال: «أدوية هذه البلية مستوفاة في كُتُب الرقائق، فمن أراد تطهير نفسه منها فعليه بتلك الكتب، ومن

أنفعها كتاب «الرعاية» للمحاسبي رحمه الله تعالى[١]، وأطال رحمه الله.

١٠ ـ دوام الحرص على الازدياد، بملازمة الجدّ والاجتهاد، والمواظبة على العبادة والاشتغال بالعلم: قراءة وإقراءً، ومطالعة وفكراً، وتعليقاً وحفظاً، وتصنيفاً وبحثاً، ولا يضيّع شيئاً من أوقات عمره في غير ما هو بصدده من العلم والعمل إلا بقدر الضرورة، أو لألم أو غيره مما يتعذر معه الاشتغال، وكان بعضهم لا يترك الاشتغال بعُروض مرض خفيف أو ألم لطيف، بل كان يستشفي بالعلم[٢]، ويشتغل بقدر الإمكان، كما قيل:

إذا مرضْنا تداوينا بذِكركمُ ... ونتركُ الذكر أحياناً فننتكسُ

وذلك لأن درجة العلم درجة وراثة الأنبياء، ولا تنال إلا بشقّ الأنفس.

قال الربيع: لم أر الشافعي رضي الله عنه آكلاً بنهار، ولا نائماً بليل،

---

(١) هكذا الصواب، وتحرفت كلمة «تعالى» هناك إلى: يقال، فتصحح.

(٢) روى الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» ص٨٧ عن الإمام أحمد بن منصور الرمادي: أنه إذا اشتكى شيئاً دعا أصحاب الحديث وقال لهم: اقرؤوا عليّ الحديث. وممن كان على هذا السَّنن: فضيلة العلامة الشيخ ظَفَر أحمد العثماني التهانَوي (١٣١٠ ـ ١٣٩٤) رحمه الله، كان إذا ازداد عليه ثِقل المرض، زاد في تدريس «صحيح» البخاري، يستشفي بذلك، فيكرمه الله تعالىٰ بالشفاء.

واتصلتُ مرة ـ هاتفياً ـ بسيدي الأجلّ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله، أسأله عن أمر، فرأيت في صوته ضعفاً فاعتذرت، على أمل أن أتصل ثانية، فأصرّ رحمه الله إلا أن أسأل وقال: قل، قل، كانوا يستشفون بـ: حدثنا وأخبرنا.

لاشتغاله بالتصنيف.

١١ ـ أن لا يستنكف أن يستفيد ما لا يعلمه ممن هو دونه منصباً، أو نسباً، أو سِناً.

١٢ ـ الاشتغال بالتصنيف والجمع والتأليف، لكن مع تمام الفضيلة، وكمال الأهلية، أما من لم يتأهل لذلك، فالإنكار عليه متّجه، لِما يتضمنه من الجهل، وتغرير من يقف على ذلك التصنيف به، ولكونه يضيّع زمانه فيما لم يتقنه». انتهى.

والذي أراه وأعتقده: أن الشيخ القدوة هو واحد، سواء في طريق العلم، أو طريق التربية والسلوك (التصوف)، والعلمُ الصحيح، والتصوفُ الصحيح: متلازمان لا ينفكّ أحدهما عن الآخر، وقد قال الإمام الغزالي رحمه الله[1] عن شيخ التصوف كلمات جامعةً لما تقدم وزيادة، قال: «هو من يُعرض عن حب الدنيا وحب الجاه، وكان قد تابع شيخاً بصيراً تتسلسل متابعته إلى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، وكان مُحسِناً رياضةَ نفسه..، وكان بمتابعة الشيخ البصير جاعلاً محاسنَ الأخلاق له سيرة، كالصبر والصلاة والشكر، والتوكل واليقين، والسخاء والقناعة، وطمأنينة النفس، والحلم والتواضع، والعلم والصدق، والحياء والوفاء، والوقار والسكون والتأني، وأمثالها، فهو إذاً نور من أنوار النبي صلى الله عليه وسلم، يصلح للاقتداء به».

والجديد في هذا البيان: تأكيده رحمه الله على أن يكون اقتداء الشيخ

---

(١) في رسالته «أيها الولد» ص١٢٩.

بهدي النبي صلى الله عليه وسلم، اقتداء متوارَثاً: عالماً ربانياً عن عالم ربّاني، مرشداً عن مرشد، بلسان الحال قبل لسان المقال.

واختيار مثل هذا الشيخ لا يتسنَّى ـ غالباً ـ لطالب العلم المبتدئ، فإما أن يُختار له ويُدلَّ عليه، وإما أن يتأخر اختياره إلى أن يتأهل الطالب لذلك بنفسه، ومع ذلك: فلا بد له أن يَسأل اللهَ تعالى: أن يدلَّه على من يدلُّه عليه. والله يتولاني وإياك، وكلَّ طالب علم وهداية.

ولا بدّ من التنبيه إلى معنى يتصل باختيار الشيخ، وهو: أن هذا (الشيخ) إنما هو للصحبة والقدوة، إلى جانب الاستفادة العلمية، ولا يُراد من التأكيد على اختياره لطالب العلم: الاقتصارُ عليه، بل ينبغي للطالب تعددُ شيوخه، لتتسع دائرة علمه وثقافته وفكره، بل كانوا يحرصون على ذلك، ويتسابقون إليه.

وأؤكِّد على ما قدمته من التفرقة بين شيوخ الرواية واللقاء، وبين شيوخ الصحبة والملازمة والاقتداء.

البكور في صحبة الشيخ القدوة:

ومن توفيق الله تعالى للطالب: أن ييسِّر له التزامَ عالمٍ عامل من بواكير أيامه في الطلب، ويستمرَّ على هذه الصحبة طوال أيامه، دون فتور ولا انقطاع عنه، بل يزداد ـ مع الأيام ـ صحبة والتزاماً، وحباً وانقطاعاً، حتى تنطبع في شخصيته طباعُ شيخه وخصالُه، كما سبق في تاريخ صدر الإسلام، أن انطبعتْ في الصحابة رضي الله عنهم أحوال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، كلٌّ على قدر صحبته: زمناً ومجالسة وحباً.

وهذا الحب الشديد، كان أحدَ الأسباب الرئيسية في حفظ حفّاظهم للسنة النبوية من الأقوال والأفعال والهدي العام، ومنهم سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه بحفظه هذا القدرَ الكبير من السنة، والذي ساعده عليه: الانقطاع التام أيام «التحمل»، ثم الانقطاع التام أيام «الأداء».

ولا تتم الفائدةُ المرجوّة من هذه الصحبة، وانصباغُ الطالب بحال شيخه ومقاله، إلا إذا كان تعلق الطالب بشيخه تعلقاً شديداً، فكلما زاد تعلقه به، ازداد توجه الشيخ إليه بالإفادة والنصح، وازداد الطالب ترقياً في الكمالات العلمية والعملية.

وحالُ الصحابة رضي الله عنهم علماً وفضلاً وكمالاً: خيرُ دليل على ما أقول، فإن العامل القوي فيها كان حبَّهم لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبسببه صدر ما صدر من اقتدائهم به، حتى في أمورهم العادية بَلْهَ العبادية.

وأُشير باختصار إلى شذراتٍ من أخبارهم وأخبار مَن بعدهم، مما ذكرته في «حجية أفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم»[1].

فمنها: موقف عليّ رضي الله عنه، لما رجع من اليمن، وعلم بتوجّه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحج، فتوجّه هو أيضاً، فسأله عليه الصلاة والسلام: «بما أهللتَ يا عليّ؟» قال: بما أهلّ به النبي صلى الله عليه وسلم. ومثلُه موقف أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. وهذان في الصحيحين.

---

(١) صفحة ٨٣ فما بعدها، وهناك تخريج النقول.

وروى أبو داود، وأحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه في قصةٍ، قال: لا أجد رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على حال أبداً إلا كنت عليها.

ولما رأى أنسٌ رسولَ الله صلى الله عليه سلم يتتبّع الدباء من حوالَي القصعة، قال: لم أزل أحب الدباء من يومئذ، وصار يحرص على صنعها في طعامه. ولما رأى أبو أيوبَ الأنصاري رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لم يأكل الطعام الذي فيه ثومٌ أمسكَ هو عن أكله، وقال له: إني أكره ما كرهتَ.

ولما بايع قرةُ بن إياس المزني رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام، كان قميصه عليه الصلاة والسلام آنذاك مُطلَق الأزرار، فما رُئي قرةُ إلا مطلَقَ الأزرار، وكذلك كان ابنه معاوية، لا في حرّ ولا في برد.

وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها ـ كما في الصحيحين ـ: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعجبه التيمُّن في تنعُّله وترجُّله وطُهوره، في شأنه كله، ففهم ـ والله أعلم ـ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه من هذا، التعميم «في شأنه كله»: أن الإشارة باليد أثناء الحديث ينبغي أن تكون كذلك، باليد اليمنى، وفي أحدِ أيامه الشديدة: يومِ وفاة ولده، رأىٰ رجلاً يتكلم ويشير بيساره، وعمر ما يزال في المقبرة، فقال له: يا هذا إذا تكلمتَ فلا تُشرِ بشمالك، أَشِرْ بيمينك!! فقال الرجل: ما رأيتُ كاليوم! إن رجلاً دفن أعزَّ الناس، ثم إنه يهمّه يميني من شمالي[1]!!.

وهذا أغرب أخبارهم، فيما أعلم.

---

(١) وانظر خبر الإمام أحمد الآتي آخر ص٤١١.

والشاهد من هذا: أن الحب الشديد يورِّث التأثر الشديد، وإن شئتَ قلتَ: يورِّث الاتباع الكامل، وهذا هو المطلوب بين التلميذ وأستاذه الخاص، وهذه هي الحال التي كان عليها علماؤنا السابقون مع خاصة شيوخهم، ورحم الله علماء الإسلام، وألحقنا بهم على خير حال.

* * * * *

المَعْلَم العاشر

الصحبة مع الأستاذ

إن صلة الطالب بأستاذه، تزيد على صلته بصاحبه ومعايشته للآخرين، من حيثُ إنه يُسْلِم إليه زمامه وقياده في هذه الأمور: العلم والثقافة والسلوك..، فمنه يتعلم العلم، وبه يقتدي بالعمل والسلوك.

هذا في صلة الطالب بأساتذته عامةً، ويزيد التأثرُ والانطباع منه بأستاذه الخاص، الذي أحبّه وآثره على غيره، وأخذ على نفسه الانتساب إليه، فحينئذ تظهر فيه وعليه اختصاصاته العلمية أولاً، ثم أخلاقه وأقواله، وأفعاله، وعاداته، وسجاياه، وهذا ما يسمونه بـ: الهَدْي والدَّلّ.

وكنت عَرَضتُ لهذا المعنى في «أدب الاختلاف»، فأنقل منه ما يلي[1].

روى أبو عبيد القاسم بن سلاّم[2]: أن أصحاب ابن مسعود كانوا يرحلون إلى عمر رضي الله عنهم جميعاً، فينظرون إلى سَمْته وهديه ودلّه، فيتشبّهون به.

---

(١) من صفحة ٧٢ فما بعدها.

(٢) في «غريب الحديث» ٣: ٣٨٣.

قال ابن الأثير[١]: الدلّ والهدْي والسمت عبارة عن الحالة التي يكون عليها الإنسان من السكينة والوقار، وحسن السيرة والطريقة، واستقامة المنظر والهيئة.

وحكى ابن سيرين رحمه الله عن حال كبار التابعين: أنهم كانوا يتعلمون الهَدْي، كما يتعلمون العلم، حتى إنه بعث رجلاً ينظر إلى هَدْي القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، لِمَا عند القاسم من هدي النبوة، وهَدْيِ بيت النبوة: من قِبَل جده الصديق الأكبر، وعمته السيدة عائشة رضي الله عنهم أجمعين، مع ملاحظة أن ابن سيرين والقاسم من طبقة واحدة، لكن يمتاز القاسم بما ذكرت.

وجاء في «ربيع الأبرار» للزمخشري[٢]: «قيل لعبد الله بن المبارك ـ وقد سافر ـ أين تريد؟ قال: البصرة، قيل: من تقصد بالبصرة؟ قال: ابن عون، آخُذُ من أخلاقه، آخُذُ من آدابه». ومن تمام إدراك مكانة هذا الخبر أن يُعرف: في أيّ البلاد كان ابن المبارك وقصد منها السفر إلى البصرة، هل كان في بلده الأصلي: مرو، فالسفر إلى البصرة يكون فيه آلاف الكيلو مترات!!.

ومما رواه ابن عساكر[٣] في ترجمة ابن عون، عن ابن المبارك قوله: «ما أحدٌ ممن لقيت آسَىٰ عليه، كما آسَىٰ على ابن عون أن لا أكون لزمته

(١) في «النهاية» ٢: ١٣١، وأصله لأبي عبيد.

(٢) ١: ٨١٥.

(٣) ٣١: ٣٤٦، ٣٤٧.

حتى أموت»، وقوله الآخر بعد صفحة: «طلبت العلم فوجدته، وطلبت الأدب فلم أجده إلا عند مسعر، وابن عون».

وحكى الذهبي[١] أنه كان يجتمع في مجلس الإمام أحمد زُهاء خمسة آلاف أو يزيدون، نحوُ خمس مئة منهم يكتبون، والباقون منهم يتعلمون منه حسن الأدب والسمت.

ومن أخبارهم رحمهم الله في اقتباسِ الأصحابِ أخلاقَ شيوخهم وهديَهم: ما حكاه الذهبي أيضاً عن حميد بن عبد الرحمن الرُّؤاسي قال: يقال: لم يكن أحد من الصحابة أشبهَ هدياً وسمتاً ودلاًّ من ابن مسعود، بالنبي صلى الله عليه وسلم، وكان أشبهَ الناس به علقمة، وكان أشبهَ الناس بعلقمة إبراهيمُ النخعي، وكان أشبههم بإبراهيم منصورُ بن المعتمر، وأشبهَ الناس به الثوريُّ، وأشبهَ الناس بالثوري وكيع، وأشبه الناس بوكيع، فيما قاله محمد بن يونس الجمّال: أحمد بن حنبل.

إلى غير ذلك من الأخبار.

وفي أصحاب الإمام مالك: يحيى بن يحيى التميمي النيسابوري المتوفى سنة ٢٢٦ رحمه الله، شيخ البخاري ومسلم، قال فيه الإمام أبو بكر ابن إسحاق الصِّبْغي[٢]: «لم يكن بخراسانَ أعقلُ من يحيى بن يحيى، وكان أخذ تلك الشمائل من مالك بن أنس، أقام عليها لأخذها سنةً بعد أنْ فرغ من سماع «الموطأ»، فقيل له في ذلك؟ فقال: إنما أقمت مستفيداً

---

(١) في «السير» ١١ : ٣١٦.

(٢) كما في «ترتيب المدارك» ١ : ٥٤٤.

لشمائله، فإنها شمائل الصحابة والتابعين».

وقال ابن عبد البر[١] عن تلميذ مالك الآخر: يحيى بن يحيى بن كثير الليثي الأندلسي المتوفى سنة ٢٣٤ رحمه الله: كان ثقة عاقلاً حسنَ الهدي والسَّمت، كان يشبَّه في سمته بسمت مالك.

وقال الإمام أبو إسحاق الشاطبي[٢] وهو يتحدث عن صفات العالم المتحقق بالعلم: «الثالثة : الاقتداء بمن أخذ عنه، والتأدب بأدبه، كما عُلم من اقتداء الصحابة بالنبي صلى الله عليه وسلم، واقتداء التابعين بالصحابة، وهكذا في كل قرن، وبهذا الوصف امتاز مالك عن أضرابه، أعني: بشدة الاتصاف به، وإلا فالجميع ممن يُهتدى به في الدين: كذلك كانوا، ولكن مالكاً اشتهر بالمبالغة في هذا المعنى».

إرشاد الشيخ تلميذَه في اختيار من ينفعه :

ومن المفيد جداً للطالب: اختيارُ أحد شيوخه وتوجيهُه له، إلى من ينتفع بصحبته علماً وتحصيلاً، وسلوكاً وتربيةً، فاختيار الشيخ للطالب خير من اختبار الطالب لنفسه.

ومن أمثلة ذلك: ما جاء في خبر معاذ بن جبل رضي الله عنه الطويل، حين إصابته بالطاعون، ومحلُّ الشاهد منه[٣]: أن معاذاً رضي الله عنه

---

(١) في «الانتقاء» ص١٠٩.

(٢) في «الموافقات» ١ : ٦٧.

(٣) الذي رواه عبد الرزاق (٢٠١٦٤)، والبزار من وجه آخر (٣٠٤٢ من زوائده).

أُغمي عليه ثم أفاق، فرأى رجلاً من أصحابه يبكي[١]، فسأله عما يبكيه؟ فقال: أبكي على العلم الذي أُصيبُ منك، قال له: لا تبكِ، فإن العلم لا يذهب، والتمسْه من حيثُ التمسَه خليل الله إبراهيم، فإذا أنا متُّ فالتمس العلم عند أربعة نفر: عبد الله بن سلاَم، وعبد الله بن مسعود، وسلمان، وعويمرٍ أبي الدرداء.

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله[٢]: «لقي عمرو بن ميمون الأوديُّ معاذَ بن جبل وصَحِبه، وأخذ عنه، وأوصاه معاذ عند موته أن يلحق بابن مسعود فيصحبه ويطلب العلم عنده، ففعل ذلك»، ولم يعزه بهذا اللفظ إلى مصدر.

ومن ذلك: صنيع الإمام مالك مع تلميذه أسد بن الفرات رحمهما الله تعالى.

قال الإمام القاضي عياض[٣]: قال أسد بن الفرات: «كان ابن القاسم وغيره يحملني أن أسأل مالكاً، فإذا أجابني قالوا لي: قل له: فإن كان كذا وكذا، فضاق عليّ يوماً وقال: هذه سلسلة بنت سلسلة، إن كان كذا كان كذا، إن أردتَ فعليك بالعراق»، وكان مالك يكره افتراض المسائل قبل وقوعها، فلحق بالعراق، وصحب أبا يوسف القاضي قليلاً، ثم قال أبو

---

(١) سُمّي في رواية البزار: الحارث بن عميرة، وروى الخبر مختصراً جداً: البخاري في «تاريخه الأوسط» (٢٥٦، ٢٥٧) وسماه يزيد بن عَميرة.

(٢) في «إعلام الموقعين» ١: ٢٥.

(٣) في «ترتيب المدارك» ١: ٦٠٩، ٦١٠.

يوسف لصاحبه محمد بن الحسن الشيباني: ضُمَّه إليك، لعل الله ينفعك به في الدنيا والآخرة، قال أسد: فلزمته حتى كنت من المناظرين من أصحابه.

فكان من بركة هذا الإرشاد ما ترجّاه أبو يوسف القاضي، رحمهم الله تعالى جميعاً: إمامٌ جامع لأكبر ثقافتين علميتين آنذاك: ثقافةَ الحجاز وفقهَه، والعراقِ وفقهَه.

وفي علماء السادة الحنابلة: أبو يعلى الفراء الحنبلي صاحب «الأحكام السلطانية»، وابنه: ابن أبي يعلى صاحب «طبقات الحنابلة»، رحمهما الله تعالى، ذَكَر الابنُ[1]: أن جده توفي ولأبيه أبي يعلى من العمر عشر سنين، قال: «وكان وصيّه يعرف بـ «الحربي» يسكن بدار القزِّ، فنقل ـ الوصيُّ ـ الوالدَ السعيدَ من باب الطاق إلى شارع دار القزّ، وفيه مسجد يصلّي فيه شيخ صالح، يعرف بابن مقدحة المقرئ، يقرئ القرآن، ويلقّن من يقرأ عليه العبادات من «مختصر الخِرَقي»، فلقَّن الوالدَ السعيد ما جرتْ به عادته بتلقينه من العبادات، فاستزاده الوالد السعيد، فقال له ذلك الشيخ: هذا القدر الذي أُحسِنه، فإن أردت زيادة عليه فعليك بالشيخ أبي عبد الله ابن حامد، فمضى إليه وصحبه إلى أن توفي سنة ٤٠٣، وبرع في ذلك».

وكان هذا الخُلُق العلمي الكريم بارزاً في الحافظ ابن حجر، فقد عقد تلميذه السخاوي رحمهما الله تعالى فصلاً[2]، ذكر فيه مواقف كثيرة يرشد فيها أصحابه ـ السخاويَّ وغيره ـ إلى الأخذ عن علماء عصره، للاستفادة

---

(١) في «الطبقات» ٣: ٣٦٤.

(٢) في «الجواهر والدرر» ٣: ١٠٢١ ـ ١٠٢٣.

من السماع عليهم وعلوّ أسانيدهم، أو إشاعة ما انفردوا بروايته.

ضرورة تعدد الشيوخ للطالب:

وعاملٌ آخر عظيم الأثر في نجابة طالب العلم: أن يوفقه الله للرحلة في طلب العلم، ولقاء العلماء، فيضيف نوراً إلى نور، وحكمة إلى حكمة، وصاحبُ الرحلة يكون كالنحلة، تجمع من كل زهرة وريحانة صفْوَها، ثم يعطي الأمةَ عسلاً شهياً، فيه شفاءٌ لمن استشفى اللهَ تعالى، وهدايةٌ لمن استهداه.

فإن لم يتيسَّر له الرحلة فليأخذ بنصيحة الإمام القاضي أبي بكر ابن العربي، قال رحمه الله[1]: «من تعذَّرت عليه الرحلة ببدنه فليرحل إلى الله تعالى بقلبه، ارحَلْ من عالَم الشهوات إلى عالم القربات، وسافرْ من المحسوسات إلى المعقولات، وانظر في الزادِ، فلا بدّ منه، والدليلِ، وهو العلم، فلا غنى عنه، فمن وجد معلِّماً فهو النعيم يهدي إلى السبيل، ويَنظم الدليل، ويحمي عن البدعة والتعطيل».

وأشار السخاوي في ترجمة شيخه ابن حجر رحمهما الله تعالى[2] إلى أن من أسباب نبوغه: أنه «اجتمع له من الشيوخ الذين يُشار إليهم، ويعوَّل في حل المشكلات عليهم، ما لم يجتمع لأحد من أهل عصره، لأن كل واحد منهم كان متبحِّراً ورأساً في فنّه الذي اشتهر به، لا يُلحق فيه».

(١) في «قانون التأويل» ص٦٤٥.

(٢) «الجواهر والدرر» ١: ١٤٠.

وأول ما يُستدل به على رغبة علمائنا السابقين بهذا النهج: تأكيدهم على أمرين: الرحلةِ في طلب العلم، وأخذِ كل علم عن أهله المختصين به، فهذان عاملان رئيسيان في تعدد شيوخ الطالب.

ومما يتصل بتعدد الشيوخ: التأكيد على أخذ العلم عن مختلِف الطبقات: في السنّ، والنسب، والبلد، فالفائدة هي مطلبه، والازدياد من العلم هو مقصده، ومن المشهور على الألسنة حديثٌ[1]: «الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحقّ بها».

وقال الإمام النووي رحمه الله[2]، وهو يتحدث عن آداب المعلم والأستاذ ـ فضلاً عن المتعلمِ التلميذِ ـ: «ينبغي أن لا يستنكف من التعلم ممن هو دونه في سنّ أو نسب أو بلد أو شهرة أو دين ـ أي: تديُّن ـ أو في علم آخر، بل يحرص على الفائدة ممن كانت عنده، وإن كان دونه في جميع هذا». وإذا كان هذا الخُلُق مطلوباً من الأستاذ، فهو مطلوب من التلميذ من بابٍ أولى.

وسئل الإمام أبو حنيفة رحمه الله[3]: بم نِلْتَ ما نِلْتَ؟ فقال: ما بخلتُ بالإفادة، ولم أستنكف عن الاستفادة.

---

(١) وهو حديث ضعيف، رواه الترمذي (٢٦٨٧) وضعفه، وابن ماجه (٤١٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: «الكلمةُ الحكمةُ: ضالة المؤمن..».

(٢) في مقدمة «المجموع» ١ : ٢٩.

(٣) من «الفتاوى السراجية» لسراج الدين الأوشي ص٦١٠، ونسبه الزرنوجي ص٧٤ إلى أبي يوسف.

وفي «العقد الفريد»[١]: «دخل رجل على عبد الملك بن مروان، وكان لا يسأله عن شيء إلا وجد عنده منه علماً، فقال له: أنىَّ لك هذا؟ فقال: لم أَمنع قطّ يا أمير المؤمنين علماً أُفيدُه، ولم أحتقر علماً أستفيده، وكنت إذا لقيت الرجل أخذت منه وأعطيته».

وفي «أدب الدنيا والدين»[٢]: «قيل للخليل بن أحمد ـ الإمام الفراهيدي ـ: بمَ أدركتَ هذا العلم؟ قال: كنت إذا لقيت عالماً أخذت منه وأعطيته، وقال المنصور ـ الخليفة العباسي ـ لشَريك ـ القاضي ـ: أنَّى لك هذا العلم؟! قال: لم أرغبْ عن قليلٍ أستفيده، ولم أبخل بكثير أُفيده».

وهذا يصح على المبدأ الذيَ قعّده الإمام أبو حاتم الرازي رحمه الله، ورواه عنه الخطيب[٣]: «إذا كتبت فقَمِّشْ، وإذا حدثتَ ففتِّشْ».

وروى الخطيب أيضاً[٤] عن الإمام وكيع بن الجراح قوله: «لا يكون الرجل عالماً حتى يكتب عمن هو فوقه، وعمن هو دونه، وعمن هو مثلُه».

---

(١) لابن عبد ربه ٢: ٢٢١.

(٢) للماوردي ص١٢٤.

(٣) في «الجامع» (١٧٢٩)، مع أنه أسندها في «تاريخه» ١: ٣٤٤ إلى ابن معين، وينظر معناه في «فتح المغيث» ٣: ٣١٢. وينظر أيضاً كلامٌ نحوُه لابن قتيبة في مقدمة كتابه «عيون الأخبار».

(٤) (١٧١٤)، وروى نحوه عن سفيان بن عيينة برقم (١٧٢٠)، ورُوي عن غيرهما.

ثم روى في خاتمة تلك الأبواب[1] عن القاسم بن داود البغدادي: أنه كتب عن ستة آلاف شيخ!.

وإذا كانت ترجمة القاسم البغدادي في «ميزان الاعتدال»، ولم يزد عليه الحافظ شيئاً في «اللسان»[2]: تورث الشك في صحة هذا الخبر، فإن لبعضهم هذا العدد من الشيوخ وزيادة، فقد ذكر الذهبي[3] في ترجمة الإمام الحافظ أبي سعد السمعاني (٥٠٦ ـ ٥٦٢) رحمه الله: أنه بلغ عدد شيوخه سبعة آلاف شيخ!! قال: «قال ابن النجار: سمعت من يذكر أن عدد شيوخ أبي سعد سبعة آلاف شيخ، وهذا شيء لم يبلغه أحد».

وقال الذهبي أيضاً[4] في ترجمة الإمام الحافظ ابن النجار (٥٧٨ ـ ٦٤٣) رحمه الله: «قال ابن الساعي: اشتملت مشيخته على ثلاثة آلف شيخ وأربع مئة امرأة».

وأغرب منه: ما جاء في «السير» للذهبي[5] عن ابن المبارك قوله: «حملت العلم عن أربعة آلاف شيخ، فرويت عن ألف شيخ»، ووجه الغرابة أن ابن المبارك متقدم (ت١٨١)، وابن النجار متأخر.

---

(١) «الجامع» (١٧٣٧).

(٢) «الميزان» (٦٤٣١)، و«اللسان» (٦١١٣).

(٣) في «السير» ٢٠: ٤٦٢، وهو في «المستفاد من ذيل تاريخ بغداد» لابن أيبك الدمياطي، وينظر «فتح المغيث» للسخاوي ٣: ٣١٠، و«النكت الوفية» ٢: ٣٧٥.

(٤) في «السير» ٢٣: ١٣٣.

(٥) ٨: ٣٩٧.

والقصد من هذا: أن الإكثار من شيوخ العلم محمود، مع النية الصالحة، أما بقصد المفاخرة فحرام.

ضرورة اليقظة وأن تكون مصاحِبةً للطالب في جميع أحواله:

ويكون مع الإكثار من الشيوخ: يقظةٌ كاملة من الطالب في التأثّر بالشيخ طباعاً وأخلاقاً، ومنهجاً علمياً سديداً، وليحذر الطالب أن يُسلِم قِياده لكل أحد، وليعلم أن الطبع يسرق من الطبع، ومع كل مجالسة مجانسة، وليكن كالنحلة، تأخذ من كل زهرة خير ما فيها، وتطرح ما سواه.

وليكن هذا حالَ الطالب ـ وحالَ كل إنسان ـ مع من يجالسه من أهل العلم والفكر، ومع كل كتاب يقرؤه، ومع كل متحدث يستمع إليه في وسائل الإعلام، فقد صار الغُثاء والغَثُّ فيها أكثرَ من الصالح والسمين.

وليكن رائده مع هذا الحذر: السيرَ وراء هدي الكتاب والسنة، وسيرة السلف الصالح، ومن اهتدى بهديهم من العلماء العاملين، فما كل جديد يطرح، ولا كل قديم في كل زمان يصلح.

* * * * *

المَعْلَم الحادي عشر

تحلّي الطالب بحلية الأدب

«الأدب»: إحدى الكلمات القلائل النادرة التي تشمل كلّ ما جاء به الإسلام، مَثَلها مَثَل كلمة «الأمانة»، فهي في معناها المحدود: أداء الوديعة لصاحبها، ولكنها في معناها العام المراد ـ والله أعلم بمراده ـ بقوله سبحانه ـ آخر سورة الأحزاب: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾: هو الإسلام كله.

قال القرطبي[1]: «الأمانة تعمّ جميع وظائف الدين، على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور».

كذلك كلمة «العدل» فإن معناها الضيق: العدل في الحكم والقضاء، وهو ضدّ الظلم، لكنها في معناها العام شاملة للإسلام كله، كما شرحه ابن العربي[2] في تفسير الآية ٩٠ من سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾.

---

(١) في تفسير هذه الآية ١٤: ٢٥٣.

(٢) في «أحكام القرآن» ٣: ١٥٣ ـ ١٥٤.

ومن ذلك كلمة «الأدب»[١]، فإنها تحمل هذا المعنى العام جداً، الشامل للإسلام كله، فإن الأدب أدب مع الله عز وجل، وأدب مع مخلوقاته كلهم: أنبيائه، وملائكته، ومن سواهم، وأدب العبد مع نفسه، ومع من يتصل به اتصالاً وثيقاً كوالديه، أو اتصالاً خفيفاً، كمن يلقاه ولو مرةً في طريقه...

بل هو باختصار وإيجاز شديد: أدب العبد مع ربه بالتصديق بكل ما جاء عنه، وبالعمل به.

ومن شواهد هذا العموم والشمول: ما حكاه الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله في «الرسالة»[٢] عن سيد التابعين سعيد بن المسيَّب رضي الله عنهما قال: «من لم يعرف ما لله عز وجل عليه في نفسه، ولم يتأدب بأمره ونهيه: كان من الأدب في عزلة».

ومما يندرج تحت هذا المعنى العام للأدب: أدبُ الطالب مع ذوي الحقوق عليه، ومن خاصتهم: أساتذتُه ومربُّوه، ومنقذوه من الجهالة والآثام، بالعلم والميراث النبوي، وبالعمل الصالح، فلا ريب أن لهم حقوقاً، هي من أعظم حقوق العباد عليه، وهم الذين سيعلِّمونه ما عليه من حقوق لله سبحانه، ولأنبيائه، وملائكته، ووالديه، والعباد أجمعين، وما إلى ذلك.

---

(١) وجاءت بهذا المعنى العام جداً كلمة «الزكاة» مرة واحدة في القرآن الكريم، انظر تفسير الآية السابقة من سورة فصلت، عند ابن كثير وغيره.

(٢) أول باب الأدب ٤ : ١٥ بشرحها.

فمهما قدَّم لهم من الاحترام والتكريم، فإنه قليل بالنسبة لما منحوه من فضائل ومكارم في الدنيا، فما بالك في الآخرة!؟.

كما يتصل بالحديث عن أدب الطالب مع شيوخه ومربّيه اتصالاً وثيقاً: الحديثُ عن أدب الطالب مع العلم نفسه، الذي ينشِّئُه عليه معلموه ومربّوه، والحديث عنهما رحب الساحة، واسع الأطراف، ولكنه لا بدّ مما لا بدّ منه، ولذا سأعرض له بكُلَيمات يسيرة، إذِ الحديث عن الأدب أطول من كل حديث، فأقول:

أولاً: الأدب مع الشيخ:

أدب الطالب مع أستاذه أهمُّ ما يقوِّم عليه سلوكه، ويُلفَت إليه نظره، في كل حركاته، في مشهده معه وفي مَغيبه، وهو عنوان فلاحه ونجاحه، وأشرف ما يتحلّى به من السجايا والخصال، وللسلف والخلف طرائف في أخبارهم، كتبتُ بعضاً منها في «أدب الاختلاف»[(١)]، منها: ما قدمته[(٢)] عن ابن عباس، وابن القاسم تلميذ مالك رضي الله عنهم.

ومنها: ما حكاه عبد الله ابن الإمام أحمد: «سمعت أبي سُئل: لمَ لمْ تسمع من إبراهيم بن سعد كثيراً وقد نزل في جوارك بدار عُمارة؟ فقال: حضرنا مجلسه مرة فحدَّثَنا، فلما كان المجلس الثاني، رأى شباباً تقدموا بين يدي الشيوخ، فغضب وقال: والله لا حدثتُ سنة! فمات ولم

(١) ص ١٩٠ ـ ١٩٦.
(٢) صفحة ٢١٧.

يحدِّث»[1]. أي: مات قبل أن تمضي السنة.

وقد أذكَرني هذا الخبر بأخبار كثيرة من قَبيله، منها: ما رواه ابن سعد في «طبقاته»، والخطيب في «جامعه»[2] عن مالك بن مِغْوَل أنه قال: «كنت أمشي مع طلحة بن مصرِّف، فَصِرنا إلى مضيق، فتقدَّمني ثم قال: لو كنتُ أعلم أنك أكبر مني بيوم ما تقدمتك»!.

ومنها: ما رواه الدوري في «تاريخه»، والخطيب في «جامعه» أيضاً[3]: أن «علي بن صالح بن حيّ، والحسن بن صالح بن حيّ، إخوة توأم، إلا أن علياً وُلد قبله بساعة، وكان الحسن يوقّره بتلك الساعة، ويقول: قال أبو محمد، وقال أبو محمد، وكان لا يسميه. وكان الحسن بن صالح إذا قعد عليّ بن صالح أخوه في مقعد لم يقعد بجنبه، بل يقعد أسفل منه، يعظمه بتلك الساعة التي ولد قبله!!».

وقال العلامة المُناوي رحمه الله تعالى[4]: «ذَكَر البرهان البِقاعيُّ: أنه سأله بعض العجم أن يقرأ عليه، فأذِن له، فجلس متربِّعاً، فامتنع من إقرائه وقال له: أنت أحوجُ إلى الأدب، منك إلى العلم الذي جئت تطلبه.

«وحُكي عن الشمس الجَوْجَري: أنه لما شرع في الاشتغال بالعلم

---

(١) «السِّيَر» ١١: ٣١٧.

(٢) ابن سعد ٦: ٣٠٨، والخطيب (٢٥٢) واللفظ له.

(٣) الدوري ٢: ٤١٨ (٤٧٨٧) واللفظ له، والخطيب (٢٥٥) مقتصراً على الشق الثاني من الخبر، وعنده طرائف وغرائب أخرى.

(٤) في «فيض القدير» ١: ٢٢٥.

طاف على أكابر علماء بلده، فلم يعجبه منهم أحد، لحدَّة فهمه، حتى إذا جاء إلى شيخ الإسلام يحيى المناوي، فجلس بين يديه ـ وفي ظنه أنه يُلحقه بمن تقدم ـ فانتهره وقال له بحال: أنت قليل الأدب، لا يجيء منك في الطلب، غطِّ إصبَعك، واستعمل الأدب! فَحُمَّ لوقته، وزال عنه ما كان يجده من الاستخفاف بالناس، ولزم دروسه حتى صار رأساً عظيماً في العلم».

فإذا ما تروَّضتْ نفسُه وأخلاقه بمثل هذه الآداب، رأيتَه تصدر عنه آداب أخرى سجيةً أعلى وأرقى مما أُدِّب عليه.

وقارن هاتين القصتين بما سبق عن الإمام أبي حنيفة مع شيخه حماد، والإمام الشافعي مع مالك، والربيع بن سليمان مع الشافعي رضي الله عنهم[1].

فهاتان يؤدَّبان فيهما تأديباً، وتلك يصدر الأدب من أصحابها سجيةً وفطرةً دون تنبيه ولا تأديب.

ومن الآداب المتوارثة حتى أيامنا هذه: أن الطالب إذا كان يمشي مع أستاذه في وقت الشمس، في مكان فيه ظل وشمس، ترك الظلّ للشيخ

---

(١) خلاصة ما تقدم هناك ص١٧٢ قولُ أبي حنيفة: «ما مددت رجلي نحو دار أستاذي حماد بن أبي سليمان، إجلالاً له، وكان بين داره وداري سبعُ سِكك». وقولُ الشافعي: «.. كنت أُريد أن أصفح الورقة، فأصفحها صفحاً رقيقاً هيبة له، لئلا يسمع وَقْعها». وقولُ الربيع بن سليمان: «والله ما اجترأتُ أن أشرب الماء والشافعي ينظر إليَّ، هيبة له»!!.

يمشي فيه، ومشى هو في الشمس.

ومنها أيضاً: أن يلاحظ الطالب وهو في هذه الحال: أن لا يمشي على ظل شيخه، بل يمشي في الجانب الآخر منه.

وأحكي مشهداً من مشاهد أدب أرباب الكمال والفضل مع شيوخهم، يتصل اتصالاً وثيقاً بهذا الأدب الذي ذكرته.

كنت في مجلس كريم مع سماحة شيخ الشيوخ، فضيلة العلامة الأصولي الفقيه، مفتي السادة الشافعية بحلب، الشيخ محمد أسعد عبجي (١٣٠٥ ـ ١٣٩٣) رحمه الله تعالى، ومعه فضيلة سيدي الإمام المربي بأنفاسه وألحاظه، الأستاذ الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله، وأستاذ آخر من أساتذة المدرسة الشعبانية، وكان المجلس في فناء المدرسة، أول ضحوة يوم من أيام الربيع، والشمس لطيفة خفيفة، فما شعرت إلا وفضيلة سيدي الشيخ يشير بإصبعه المسبِّحة إلى ذاك الأستاذ أن يؤخر قدميه، فنظرت وإذ بقدميه على ظلّ سماحة الشيخ المفتي، يشير إليه سيدي الشيخ أن يؤخرهما عن ظل سماحة المفتي.

والشيء بالشيء يذكر، كنت في يوم من أيام الإجازة الصيفية مع صديقي الأعز، أخي الحبيب في الله، التقي الصالح، الأستاذ الشيخ عبد المجيد قطان رحمه الله، داخلين إلى المدرسة الشعبانية أدام الله بقاءها، وعَمَرها بالعلم والعمل، فوافق دخولَنا باب المدرسة لقاؤنا بسماحة الشيخ المفتي محمد أسعد عبجي، وخرج معه يودِّعه إلى باب المدرسة سيدي القدوة الأجلّ المربي الأستاذ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمهما الله تعالى، فتقدم أخي الشيخ عبد المجيد ليبدأ بالسلام أولاً على

الأستاذ الشيخ عبد الفتاح فأبى عليه وقال له: الأستاذ أول، الأستاذ أول، فتحول للسلام على سماحة المفتي، فقلت في نفسي: ريثما يسلم أخي الشيخ عبد المجيد على الشيخ المفتي، أنا أسلّم على الأستاذ الشيخ عبد الفتاح، فتقدمت للسلام عليه، فأبى عليّ وقال بلهجة أشدّ: الأستاذ أول، الأستاذ أول.

ومن أدرك تلك الفترة الزمنية، وحالَ هؤلاء الشيوخ الثلاثة حينئذ، أدرك قيمة هذا الأدب حقاً، ورضي الله عن مشايخنا ومؤدبينا وجزاهم عنا خير الجزاء، وأكرمنا بالسير على هديهم.

وتساءل معي: أين هؤلاء ممن يقول ـ وقد اشترك في الجلوس في غرفة الأساتذة والمدرسين، مع أساتذته ـ: لقد تساوت الرؤوس!!.

وقد يعجب إنسانٌ ما من هذه الآداب: كيف يستطيع الإنسان أن يحمل نفسه عليها؟! وجوابه: أن هذه الآداب ليست بنتَ ساعتها، إنما هي نَتائجُ مقدِّماتٍ كثيرة وطويلة من الرياضات والمجاهدات.

ألا ترى إلى إنسان ساذَجٍ نشأ في البادية، فإذا نُقل طَفْرةً إلى مدينة فيها ناطحات السحاب ـ مثلاً ـ أَخَذه العَجَب الشديد: كيف يمكن قيام هذه الشاهقات المُذْهِلات؟ فإذا فُهِّم وقيل له: إن هذا الارتفاع الكبير سبقه تأسيس ودراسات، وتجارب وتمهيدات.. وارتفاع يسير فأكثر وأكثر.. زال عنه ما أَخَذه أولاً.

وكذلك آداب القوم، إنما هي نهاياتُ بداياتٍ. رضي الله عنهم.

وقد يأخذك العَجَب والإنكار لو قلت لك: إن الأدب مع الأكابر خُلُق مغروز في نفوس البهائم. ولكن أقول لك: لا تعجل. ألم تقرأ قول الله

العظيم: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ النمل: ١٧ ـ ١٨.

فتأمَّلْ قول النملةِ تلك الحيوانِ البهيمِ: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، تأدَّبت مع جنود سليمان عليه الصلاة والسلام، فهم عظماء لأنهم جنود سليمان العظيم، واعتذرتْ عنهم بأنهم إنْ صدر منهم أذى لكم فإنما هو عن غير قصد: هم لا يشعرون!، فهكذا يكون الأدب مع الأكابر.

وإذا كان هذا أدبَ الحيوان مع صحابة سليمان عليه الصلاة والسلام، فكيف ينبغي أن يكون أدبنا مع صحابة نبينا محمد ﷺ، ومع سائر الأئمة والعلماء، رضي الله عنهم؟! اللهم وفقنا لذلك.

من التوجيه القرآني للطالب مع الشيخ:

ولا أحب أن أُنهي الكلام عن الأدب والتأديب، وأُخْلِيَ المقام من كلام الإمام الفخر الرازي رحمه الله تعالى في «تفسيره» على قول الله عز وجل، فيما حكاه عن أدب موسى مع الخَضِر عليهما الصلاة والسلام، وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[1] الكهف: ٦٦.

---

(١) هذا فيما يتعلق بهذه الآية الأكريمة، أما القصة بتمامها: فحكى العلامة =

قال الرازي: «اعلم[١] أن هذه الآيات تدلُّ على أن موسى عليه السلام راعى أنواعاً كثيرة من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر:

فأحدها: أنه جعل نفسه تَبَعاً له، لأنه قال: «هل أَتَّبعك».

وثانيها: أنه استأذن في إثبات هذه التبعيَّة، فإنه قال: هل تأذنُ لي أن أجعل نفسي تبعاً لك، وهذه مبالغة عظيمة في التواضع.

وثالثها: أنه قال: «على أن تُعلِّمن»، وهذا إقرار له على نفسه بالجهل، وعلى أستاذه بالعلم.

ورابعها: أنه قال: «مما عُلِّمتَ»، وصيغة «مِن» للتبعيض، فطلب منه تعليم بعضِ ما علَّمه الله، وهذا أيضاً مشعر بالتواضع، كأنه يقول له: لا أطلب منك أن تجعلني مساوياً في العلم لك، بل أطلب منك أن تعطيني جزءاً من أجزاء علمك، كما يطلب الفقير من الغني أن يدفع إليه جزءاً من أجزاء ماله.

وخامسها: أنه قال: «مما عُلِّمت»، اعتراف بأن الله علَّمه ذلك العلم.

وسادسها: أن قوله «رُشْداً»: طلبٌ منه للإرشاد والهداية، والإرشاد:

الطاهر ابن عاشور في مقدمة تفسيره «التحرير والتنوير» ١: ٤٢ عن القاضي ابن العربي: أنه أملى على القصةِ ـ قصةِ موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام ـ ثمان مئة مسألة. رحمه الله تعالى.

(١) بمناسبة الحديث عن الأدب مع الشيوخ أقول: إن مما كنا نؤدب عليه: أنْ إذا مرَّت علينا كلمة (اعلم) حين قراءتنا عليهم نصاً من الكتاب، أن نقرأها: لِيُعْلَم، لئلا يكون في مخاطبة التلميذ لأستاذه صيغة أمر.

هو الأمر الذي لو لم يحصل لحصلت الغَواية والضلال.

وسابعها : أن قوله «تُعَلِّمني مما علمت»: معناه أنه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله به. وفيه إشعار بأنه يكون إنعامك عليَّ عند هذا التعليم شبيهاً بإنعام الله تعالى عليك في هذا التعليم، ولهذا المعنى قيل: أنا عبدُ من تعلمت منه حرفاً.

وثامنها : أن المتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير، لأجل كونه فعلاً لذلك الغير، فإنا إذا قلنا: لا إله إلا الله، فاليهود الذين كانوا قبلنا كانوا يذكرون هذه الكلمة، فلا يجب كوننا متَّبِعين لهم في ذكر هذه الكلمة، لأنا لا نقول هذه الكلمة لأجل أنهم قالوها، وإنما نقولها لقيام الدليل على أنه يجب ذكرها، أما إذا أتينا بهذه الصلوات الخمس على موافقة فعل الرسول ﷺ، فإنما أتينا بها لأجل أنه عليه السلام أتى بها، لا جرَم كنا متبعين في فعل هذه الصلوات لرسول الله ﷺ.

إذا ثبت هذا فنقول: قوله «هل أتبعك»: يدل على أنه يأتي بمثل أفعال ذلك الأستاذ، لمجرد كون ذلك الأستاذ آتياً بها. وهذا يدل على أن المتعلم يجب عليه في أول الأمر التسليم وترك المنازعةِ والاعتراض.

وتاسعها : أن قوله «أتبعك»: يدل على طلب متابعته مطلقاً في جميع الأمور غير مقيد بشيء دون شيء.

وعاشرها : أنه ثبت بالإخبار أن الخَضِر عَرَف أولاً أنه نبيٌّ بني إسرائيل، وأنه موسى صاحب التوراة، وهو الرجل الذي كلَّمه الله عز وجل من غير واسطة، وخصَّه بالمعجزات القاهرة الباهرة، ثم إنه عليه السلام مع هذه

المناصب الرفيعة، والدرجات العالية الشريفة أتى بهذه الأنواع الكثيرة من التواضع، وذلك يدل على كونه عليه السلام آتياً في طلب العلم بأعظم أنواع المبالغة. وهذا هو اللائق به، لأن كل من كانت إحاطته بالعلوم أكثر، كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثرَ، فكان طلبه لها أشدَّ، وكان تعظيمه لأرباب العلم أكملَ وأشد.

والحادي عشر: أنه قال: «هل أتبعك على أن تعلمني»، فأثبت كونه تبعاً له أولاً، ثم طلب ثانياً أن يُعلِّمه، وهذا منه ابتداء بالخدمة، ثم في المرتبة الثانية: طلب منه التعليم.

والثاني عشر: أنه قال: «هل أتبعك على أن تعلمني»، فلم يطلب على تلك المتابعة على التعليم شيئاً، كأنه قال: لا أطلب منك على هذه المتابعة المالَ والجاهَ، ولا غرض لي إلا طلبُ العلم». انتهى كلام الإمام الفخر الرازي رحمه الله» وانتهى نقل ما كتبته في «أدب الاختلاف».

نوادر من أدب الطلبة مع الشيوخ:

وهذا باب طويل لا ينتهي، وللزيادة على ما تقدم مجالُها الرحْب الواسع، فمن ذلك: ما رواه الخطيب[1] تحت عنوان: هيبة الطالب للمحدِّث، عن مغيرة بن مِقْسَم الضبي قال: كنا نهاب إبراهيم ـ النخعي ـ كما نهاب الأمير.

وعن أيوبَ السَّخْتِياني: كان الرجل يجلس إلى الحسن ـ البصري ـ

(١) في «الجامع» (٢٩٧ ـ ٣٠٣).

ثلاث سنين فلا يسأله عن شيء، هيبة له.

وعن عبد الرحمن بن حرملة الأسلمي: ما كان إنسان يجترئ على سعيد بن المسيب يسأله عن شيء حتى يَستأذنه كما يُستأذن الأمير.

وعن ابن شهاب الزهري قال: جالست سعيد بن المسيب سنين تُحاكُّ ركبتي ركبته، لا أقدر منه على حديث، إلا أني أقول: قالوا اليومَ كذا، وقالوا اليومَ كذا، فيتكلم.

وقال الزرنوجي رحمه الله[1]، وهو يتحدث عن توقير التلميذ لشيخه: «ومن توقيره: توقير أولاده ومن يتعلق به، وكان أستاذنا شيخ الإسلام برهان الدين (المرغيناني) صاحب «الهداية» رحمه الله، يحكي أن واحداً من كبار أئمة بخارى كان يجلس مجلس الدرس، وكان يقوم في خلال الدرس أحياناً، فسألوه عنه، قال: إن ابن أستاذي يلعب مع الصبيان في السِّكَّة، ويجيء أحياناً إلى باب المسجد، فإذا رأيته أقوم له، تعظيماً لأستاذي».

والخبر الأخير منها: عن إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد قال: كنت أرَىٰ يحيى القطان يصلي العصر، ثم يستندُ إلى أصل منارةِ مسجدِه، فيقف بين يديه: ابن المديني، والشاذَكوني، وعمرو الفلّاس، وأحمد، وابن معين، وغيرهم، يسألونه عن الحديث وهم قيام على أرجلهم، إلى أن تَحينَ صلاة المغرب، لا يقول لواحد منهم: اجلس، ولا يجلسون، هيبة وإعظاماً.

---

(١) في «تعليم المتعلم» ص٤٨.

وأغرب ما وقفت عليه ـ أو: من أغربه ـ في باب احترام القارئ للشيخ المقروء عليه: ما حكاه ياقوت[١] في ترجمة الشريف عزيز الدين إسماعيل بن الحسين العلوي الحسيني المروزي النسّابة (٥٧٢ ـ نحو ٦٣٢) رحمه الله قال: «لما ورد الفخر الرازي إلى مرو ـ وكان من جلالة القَدْر، وعظيم الذِّكْر، وضخامة الهيبة، بحيثُ لا يُراجَع في كلامه، ولا يَتنفَّس أحد بين يديه، لإعظامه، على ما هو مشهور متعارف، دخلت إليه، وترددت للقراءة عليه، فقال لي يوماً: أحبّ أن تصنِّف لي كتاباً لطيفاً في أنساب الطالبيين، لأنظر فيه، فلا أحب أن أموت جاهلاً به، فقلت له: أتريده مشجَّراً أم منثوراً، فقال: المشجَّر لا ينضبط بالحفظ، وأنا أريد شيئاً أحفظه، فقلت له: السمع والطاعة.

ومضيت وصنفت له الكتاب الذي سميته بـ «الفخري»، وحملته وجئته به، فلما وقف عليه نزل عن طَراحته وجلس على الحصير وقال لي: اجلس على هذه الطراحة، فأعظمتُ ذلك وهِبْتُه، فانتهرني نَهْرَةً عظيمة مزعجة وزَعَق فيّ قائلاً: اجلسْ بحيث أقول لك، فتَداخلني ـ عَلِم الله ـ من هيبته ما لم أتمالك إلا أنْ جلستُ حيث أمرني، ثم أخذ يقرأ عليّ ذلك الكتاب وهو جالس بين يديّ ويستفهمني عما يَستغلق عليه، إلى أنْ أنهاه قراءة، فلما فرغ من قراءته قال: اجلس الآن حيث شئتَ، فإن هذا علم أنت أستاذي فيه، وأنا أستفيد منك وأتتلمذ لك، وليس من الأدب أن يجلس التلميذ إلا بين يدي الأستاذ.

---

(١) في «معجم الأدباء» ٢: ٦٥٤.

فقمت من مقامي، وجلس هو في منصبه، ثم أخذت أقرأ عليه وأنا جالس بحيثُ كان أولاً. وهذا لعمري من حُسْن الأدب حَسَن، ولا سيما من مثل ذلك الرجل العظيم المرتبة». ورحم الله أئمة الإسلام، وأهل الأدب[1].

ما ينبغي للطالب التنبه له أيام الصحبة:

ومما ينبغي للطالب أن يحرص عليه في أيام صحبته للشيخ: الاستزادة من علمه وفضله، قبل أن يأتيه اليوم الذي لا لقاء له بعده بشيوخه، فيقول: ليتني سألت، ليتني استفدت، لقد فاتني التحقق من الأمر الفلاني، لقد فاتني تحقيق تلك المُعْضلة مع الشيخ، فإنه حلّال عُقَدها!! ولاتَ ساعةَ مَنْدم.

وهذا لا يكون إلا بملاحظة عدة أمور منه: أن يزداد له حباً، وبه

---

(١) الخبر واضح جداً في لزوم الأئمة السابقين خُلُق الأدب الرفيع، رحمهم الله تعالىٰ، وفي هذا الخبر ملاحظتان أُخريان، أولاهما: همة الإمام الفخر الرازي في العلم، بحيث إنه لا يحبّ أن يموت جاهلاً في علم من العلوم. وثانيتهما: أن الشريف النسابة ولد سنة (٥٧٢هـ)، وكانت وفاة الرازي سنة (٦٠٦هـ) عن (٦٢) عاماً، فيكون عمر الشريف يوم وفاة الرازي أربعة وثلاثين عاماً، فهو في سنّ الشباب، وكان عمره دون ذلك يوم ألّف كتابه هذا للفخر الرازي، فهذه القصة فيها منقبة للرازي في زيادة علو همته، ومنقبة له في رفعة أدبه، إذ هو في هذا المقام العلمي العظيم بحيثُ لا يَتَنفَّس أحد بين يديه، ويتواضع هذا التواضع لمن هو في سِنّ ولد من أولاده.

ثم رأيت بعد هذا الأخ الدكتور عبد الحكيم الأنيس جمع في «أدب المتعلم تجاه المعلّم» جملة وفيرة من أخبار السابقين، فيها هذا المعنى الكريم، وفيها هذا الخبر.

إعجاباً، وأن يزداد معه أدباً واحتراماً، وأن يكون حكيماً في مراعاته لنشاط الشيخ: هل الأولى أن يذاكره بالعلم ويباحثه، أو أن يُنصت لما يُلقيه إليه الشيخ من الفوائد والنصائح، وفي كلٍّ خير، وينتج عن هذه الملاحظات: صبره وتحمُّله في سبيل الحصول على العلم، ولا يَستفيد الطالب من الشيخ، ولا الشيخ يُفيد الطالب: إن لم تحصل بينهما محبة وأُنس أول الأمر، وازدادت مع الأيام، وانظر ما يأتي قريباً عن قصة الحبر البحر ابن عباس، وما ناله من الخير العظيم، من جرّاء أدبه مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد أسند البيهقي[1] إلى الإمام الحافظ الصدوق حجة الأدب ولسان العرب: الأصمعي رحمه الله قوله: «من لم يحتمل ذلَّ التعلُّم ساعة، بقي في ذلّ الجهل أبداً».

وأَعقبه كالدليل العملي عليه من واقع السلف بالإسناد إلى الإمام مالك قال: كان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود رضي الله عنه من علماء الناس، كثير العلم، وكان ابن شهاب يخدُمه، حتى إنه كان ليناوله الشيء. قال: وكان ابن شهاب يصحب عبيد الله، حتى إنه كان لينزع له الماء. قال: وكان عبيد الله إذا دخل في صلاته، فقعد إليه إنسان لم يُقبل عليه حتى يفرغ من صلاته، على نحو ما كان يرى من طولها ـ يعني: يصلي صلاة طويلة لا يقصِّر شيئاً منها كما لو كان وحده ـ.

قال مالك: إن علي بن الحسين ـ زين العابدين رضي الله عنهما ـ كان

---

(١) في «المدخل إلى السنن الكبرى» (٤٠٣).

من أهل الفضل، وكان يأتيه ـ أي: كان عليّ يذهب إلى عبيد الله هذا ـ فيجلس إليه، فيطوِّل عبيد الله صلاته ولا يلتفت إليه، فيقال له: علي بن الحسين!! وهو ممن هو منه! فيقول: لا بدّ لمن طلب هذا الأمر يُعنَّى به[١].

ثم أسند[٢] إلى ثلاثة من العظماء تواردوا على كلمة واحدة في الباب، هي قولهم: من رَقَّ وجهه رَقَّ علمُه، رواها عن الثوري أولاً، ثم عن ابن عمر، ثم عن عمر رضي الله عنهم، وكأن الأصل لعمر، وتمثَّل بها مَن بعده.

وأسند الخطيب إلى السيد الجليل السَّرِيّ السَّقَطي رحمه الله قوله: «من عَلِم ما طلب، هان عليه ما بذل»[٣].

وأخبارهم كثيرة في ضرورة الرفق بالشيخ، واستدرار علمه باحترامه والصبر عليه، ومن ذلك ما رواه ابن عبد البر في «جامعه»[٤] عن الإمام الكبير الحجة ابن جُرَيج أنه قال: «لم أَستخرج الذي استخرجت من عطاء ـ ابن أبي رباح ـ إلا برفقي به».

---

(١) أي: يُتعب ويُرهَق في تحصيله، ومن هذا القبيل: ما قدَّمته عن الإمام الفخر الرازي ص ١١٠ حين كان طلابه يقرؤون عليه كتاب «المحصول».

(٢) البيهقي في «المدخل» (٤٠٦ ـ ٤٠٨)، وهو عند الدارمي (٥٥٠) عن النخعي، والشعبي، وعمر رضي الله عنهم.

(٣) في «الجامع» (٧٨)، وينظر منه (٣٨٤ فما بعده)، كما ينظر من «جامع» ابن عبد البر (٨٣٩ فما بعده).

(٤) (٦٢٥)، ورواه البيهقي كذلك في «مناقب الشافعي» ٢: ١٥١، وفي إسناده سَقَط مطبعي، فيصحح من عند ابن عبد البر.

ولا يُنكَر أن هذا هو حال الأكثر الأغلب من السلف والخلف، وأن لبعضهم ـ ورضي الله عن جميعهم ـ ملحظاً آخر في الرفق بالطالب، وكانوا يضعون الأمور مواضعها حسبما تقتضيه الحكمة.

ومن أخبارهم في ذلك: ما رواه الخطيب[1] عن الإمام وكيع بن الجراح: أنه كان يمضي في الحرّ وقت القيلولة للجِمال إلى قوم سَقّائين يحدِّثهم، ويقول: هؤلاء قوم لهم معاش لا يقدرون يأتوني، فيحدِّثهم، يتواضع بذلك.

وروى بعده عن الوليد بن عتبة الأشجعي الدمشقي أحد الثقات: أنه كان يقرأ في مسجد باب الجابية بدمشق مصنفات الوليد بن مسلم، وكان رجل يجيء متأخراً، فيحصل له فواتٌ مما قُرِئ، فكان الوليد يعيده له، فلما كثر ذلك منه، قال له الوليد: يا هذا، أيُّ شيء يُلبِّث بك؟ ـ أي: يؤخِّرك ـ، لئن لم تجئ مع الناس لا أعدتُ شيئاً، فقال له: أنا رجل مُعيل ـ ذو عيال ـ ولي دكان في بيت لِهْيا ـ من غوطة دمشق ـ فإن لم أشترِ لها حُوَيجاتها من غُدوة ـ مبكراً ـ، ثم أُغلق وأجيء أعدو ـ أركض ـ، وإلا خشيت أن يفوتني معاشي، فقال له الوليد: لا أراك هاهنا مرة أخرى، فكان الوليد يذهب إلى بيت لِهْيا حتى يقرأ عليه المجلس في دكانه.

ورضي الله عن تلك النفوس الرضيَّة، أصحاب الأخلاق المحمدية.

---

(١) في «الجامع» (٣٦٣).

مراقبة الطالب هدي شيخه وسلوكه :

وطالب العلم في مسيرةِ صحبته الطويلة لأساتذته، قد ينقاد أول أمره لنصائحهم وإرشاداتهم تكلّفاً وتطبعاً، ثم لا يلبث أن ينقاد إليهم كَلَفاً لا تكلُّفاً، وطبعاً لا تطبعاً.

قال الإمام الغزالي[1] في الوظيفة الثالثة من وظائف وآداب المتعلم: «أن يُلقي المتعلم إلى المعلم زِمام أمره بالكلية في كل تفصيل، ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفِق الحاذق، وأن يتواضع لمعلمه، ويطلب الثواب والشرف بخدمته..، ولا يُنال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع، وليكن المتعلِّم لمعلمه كأرض دَمِثة نالت مطراً غزيراً، فتشرَّبت جميع أجزائها وأذعنت بالكلية لقبوله، ومهما أشار عليه المعلم بطريق في التعلم فليقلِّدْه وليدعْ رأيه، فإن خطأ مرشده أنفعُ له من صوابه في نفسه».

ومما قاله رحمه الله في هذا الصدد[2]: «أن يجلس ـ الطالب أو السالك ـ بين يدي شيخٍ بصيرٍ بعيوب النفس، مطلِّع على خفايا الآفات، ويحكِّمه في نفسه، ويتبع إشارته في مجاهدته، وهذا شأن المريد مع شيخه، والتلميذ مع أستاذه».

---

(١) في «الإحياء» ١ : ٥٠.

(٢) في «الإحياء» أيضاً: كتاب رياضة النفس ــ بيان الطريق الذي يَعرف به الإنسان عيوب نفسه ٣: ٦٤.

ومن النصائح الغالية التي أوصى بها الإمام الماوردي رحمه الله[١]: «وليكنْ مقتدياً بهم في رَضِيّ أخلاقهم، متشبِّهاً بهم في جميع أفعالهم، ليصير لهم آلفاً، وعليها ناشئاً، ولِمَا خالفها مجانباً»، فمن أحبّ قوماً تشبه بهم، و«من تشبه بقوم فهو منهم».

ثانياً: الأدب مع العلم:

أسند الخطيب[٢]: عن عليّ رضي الله عنه أنه قال: «إذا تعلمتم العلم فاكظِموا عليه ـ أي: حافظوا عليه ـ، ولا تخلِطوه بضحكٍ وباطل، فتمجَّه القلوب».

وقال هشام الدَّستَوائي لرجل ضحك في مجلس الحديث: «تضحك وأنت تطلب الحديث؟!». ورأى سفيان ـ الثوري أو ابن عيينة؟ ـ رجلاً يمازح آخر من بني شيبة عند البيت المعظَّم ويتبسَّم، فالتفت إليه سفيان وقال له: «تبتسم في هذا الموضع! إنْ كان الرجل ليسمع الحديث الواحد فيُرى عليه ثلاثةَ أيام سمته وهديه».

وفي «الآداب الشرعية»[٣]: عن أبي جعفر أحمد بن بُديل اليامي، من شيوخ الإمامين الترمذي وابن ماجه، وكانت وفاته سنة ٢٥٨ رحمه الله أنه قال: لقد رأيتُنا ونحن نكتب الحديث، فما يُسمع إلا صوتُ قلمٍ أو باكٍ!.

---

(١) في «أدب الدنيا والدين» ص١١٣.

(٢) في «الجامع» (٢١٣ـ٢١٧).

(٣) لابن مفلح رحمه الله ١: ١٦٢.

وروىٰ ابن المبارك[١] عن عبد الأعلىٰ التيمي قال: «من أُوتي من العلم ما لا يُبكيه، فليس بخليق أن يكون أُوتي علماً ينفعه، لأن الله تعالىٰ نَعَتَ العلماء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩.

وأهمّ أدب للطالب مع العلم الذي يتعلمه: أن يعمل به، ويتخلّق بأخلاقه، وبكمالات أهله.

روى الخطيب[٢] عن الإمام إبراهيم الحربي قوله: «ينبغي للرجل إذا سمع شيئاً من آداب النبي صلى الله عليه وسلم أن يتمسك به». وعن الحسن البصري قوله: «كان الرجل يطلب العلم، فلا يلبث أن يُرى ذلك في تخشُّعه، وهديه، ولسانه، وبصره، ويده».

ثم روى الخطيب عن أبي عصمة البيهقي قال: بتُّ ليلة عند أحمد بن حنبل، فجاء بالماء، فوضعه، فلما أصبح نظر إلى الماء فإذا هو كما كان، فقال: سبحان الله! رجل يطلب العلم، لا يكون له وِردٌ من الليل!.

وروى عقبه عن أبي عمرو محمد بن أبي جعفر أحمد بن حمدان، عن أبيه أبي جعفر (في حدود ٢٤٠ ـ ٣١١) رحمه الله، قال: كنت في مجلس

---

(١) في «الزهد» (١٢٥)، وعنه القاسم بن سلاَّم في «فضائل القرآن» ص٦٦، وهو في «مصنف» ابن أبي شيبة (٣٦٥٠٨) أيضاً.

(٢) في «الجامع» (١٧٦، ١٧٨، ١٨١، ١٨٢).

أبي عبد الله المروزي ـ ولعله الإمام محمد بن نصر المروزي (٢٠٢ ـ ٢٩٤) رحمه الله ـ، فحضرت صلاة الظهر، فأذّن أبو عبد الله، فخرجت من المسجد، فقال: يا أبا جعفر إلى أين؟ قلت: أتطهّر للصلاة، قال: كان ظني بك غيرَ هذا، يدخل عليك وقت الصلاة وأنت على غير طهارة!!.

ومن أخبار السادة المربّين المعاصرين: ما حدثني به فضيلة الشيخ الداعية الدكتور محمد عوض، أكبر تلامذة فضيلة العلامة الأصولي المربّي الكبير الشيخ عبد الكريم الرفاعي رحمهما الله تعالى: أنه صلى الضحى مرة في المسجد، وقام ومشى فور تسليمه من الصلاة، وشيخه يرمُقه ويلاحظه من خلفه، فناداه وقال له: يا شيخ محمد، كأنك استغنيتَ عن ربك؟! فسأله التلميذ بلهفة ووَجَل: خيراً إن شاء الله يا سيدي؟ قال له الشيخ: تمشي فور تسليمك من الصلاة ولا تدعو الله بشيء!!.

وهكذا تكون رعاية الربانيين لأصحابهم، أما من لم تكن له صلة بهم، ولا تلقَّى عنهم، فمن أين تحصل له هذه التوجيهات، ويستفيد هذه الرعايات، ليترقّى في الكمالات!!.

ومن أين يكتسب هذا الرقيَّ في التربية والسلوك من لم يتلقَّ العلم عن الشيوخ؟!، ومن أين يكتسبها من يأخذ الشهادات بالانتساب إلى الجامعات دون مواظبة وملازمة ومباحثة؟! بل مِن أين يَشَمُّ رائحتها من نال الشهادات العالية ـ بأسمائها وألقابها، لا بحقائقها ـ مَن أخذها مِن وراء شاشات الأجهزة الإلكترونية في الجامعات المفتوحة، والتعليم عند بُعْد؟!!.

الأجوبة عند المسئول لا السائل.

ثالثاً: الأدب مع كتب العلم:

ومن الكمالات المتعيّنة عند علمائنا، مع العلم: أن يكون الطالب ـ بَلْهَ الشيخ ـ على طهارة ووضوء حين اشتغاله بالعلم، حضوراً لدرسه أو قراءة من الكتاب، وأخبارهم كثيرة، أسرد بعضها سرداً:

١ ـ ذكر الإمام ابن رُشَيد رحمه الله[١] في ترجمة أبي ذر الهروي، وهو راوي «صحيح» البخاري عن محمد بن يوسف الفِرَبْري، عن الإمام البخاري رحمهم الله جميعاً: أن أبا إسماعيل الهروي الأنصاري قرأ على أبي ذر الهروي ـ جزءاً مفرداً في ـ حديث جابر رضي الله عنه الطويل في صفة حَجة النبي صلى الله عليه وسلم، قال أبو إسماعيل: وأومأت بالجزء إليه ليأخذه، فقال لي: ضعه، فلست على وضوء، ولم يَمَسَّه.

٢ ـ ونقل الحافظ ابن عساكر[٢] في ترجمة الإمام أبي عثمان الصابوني عنه قوله: «ما دخلت بيت الكتب قطّ إلا على طهارة، وما رويتُ الحديث، ولا عقدت المجلس، ولا قعدت للتدريس قط إلا على الطهارة».

وقال البرهان الزرنوجي رحمه الله[٣]: «ومن تعظيم العلم: تعظيم الكتاب، فينبغي لطالب العلم أن لا يأخذ الكتاب إلا بطهارة، وحكي عن الشيخ الإمام شمس الأئمة الحلواني أنه قال: إنما نلت هذا العلم بالتعظيم،

---

(١) في «إفادة النصيح» ص٤١.

(٢) في «تاريخه» ٩: ٩.

(٣) «تعليم المتعلم» صفحة ٥١.

فإني ما أخذت الكاغَد إلا بطهارة، والشيخ الإمام شمس الأئمة السرخسي كان مبطوناً، وكان يكرر في ليلة، فتوضأ في تلك الليلة سبع عشرة مرة، لأنه كان لا يكرر إلا بطهارة، وهذا لأن العلم نور، والوضوء نور، فيزداد نور العلم به.

«ومن التعظيم الواجب أن لا يمدّ الرِّجْل إلى الكتاب، وأن يضع كتب التفسير فوق سائر الكتب، ولا يضع على الكتاب شيئاً آخر من محبرة وغيرها».

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر: فقد جاء في ترجمة الإمام أبي الحسن علي بن إبراهيم القطان (٢٥٤ ـ ٣٤٥) رحمه الله، وهو راوية «سنن» ابن ماجه، عن الإمام ابن ماجه، جاء فيها في «التدوين في أخبار قزوين» لإمام الشافعية في عصره: أبي القاسم الرافعي[١]: أن أبا الحسن هذا «أصابه علة البطن، فتوضأ في يوم واحد أكثر من تسعين مرة، وقال: لألقى ملك الموت على الطهر»، و«شرب دواء أحوجه إلى نيف وثلاثين مجلساً ـ للخلاء ـ، فكان يتوضأ كل مرة وضوءه للصلاة».

وعقد ابن عبد البر في «جامعه»: «باب ذكر بعض من كان لا يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو على وضوء» وذكر تحته آثاراً[٢]، وكذلك الخطيب في «جامعه»[٣]: «يستحب للقارىء أن يقرأ من

(١) ٣: ٣٢١.

(٢) (٢٣٩٠ ـ ٢٣٩٧).

(٣) ١: ٤٦٦.

أصل المحدث، وأن لا يمسَّه إلا على طهارة»، وذكر تحته أثر قتادة ـ وهو تابعي ـ، وأثر الفضل بن موسى السِّيناني ـ وهو من أتباع التابعين ـ، وفيهما هذا المعنى، وهما عند ابن عبد البر، والمهم في خبر قتادة ـ وهو تابعي ـ قوله: كان يُستحب أن لا تُقرأ الأحاديث التي عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا على طهر.

وذكر السمعاني(١) أثر السِّيناني، وبعض أخبار الإمام مالك كذلك.

وحصل لي أمر يسرُّني حكاية طرفه الأول، ويسوؤني حكايةُ طرفه الثاني، وتخليدُه في هذه الصفحات، لكني سأحكيه، لألفت النظر من خلاله إلى أمر آخر مهم أرجو فائدته.

كنت أيام طلبي ـ وما زلت طالباً، والحمد لله ـ في ساحة المدرسة الشعبانية ـ أدام الله نفعها وعطاءَها ـ، بمدينة حلب حرسها الله وسائر بلاد الإسلام، ومعي كتابي، أحمله بيدي اليسرى، فجاءني فضيلة شيخنا العلامة، المتفنّن الذوّاقة، ذو الملكة العلمية النادرة، الفقيه الشافعي النَّحْوي، الأستاذ الشيخ أحمد قلاش، المتوفَّى بالمدينة المنورة، عن مئة عام (١٣٢٨ ـ ١٤٢٨) تغمده الله برحمته، فأخذ الكتاب من يدي اليسرى، ووضعه في يدي اليمنى وقال: اللهم آتني كتابي بيميني.

ومضت مدة ليست بالطويلة، ودخلت كلية الشريعة بجامعة دمشق، ونحن في آخر العام الدراسي الأول، ننتظر الاختبار الشفهي في مادة الفقه، وكان الكتاب المقرر علينا «تحفة الفقهاء» للإمام السمرقندي،

---

(١) في «أدب الإملاء» (١٢٠ ـ ١٢٣).

وطال الانتظار على أحد الطلبة، وتعب من الوقوف، فأراد الجلوس على درجة في الصالة، لكنها مغبرَّة ـ طبعاً ـ، وهو يلبس (البنطال) الأسود، والغبار يظهر عليه بشدة، فما كان منه إلا أن وضع الكتاب (تحفة الفقهاء) على الأرض وجلس عليه!!!.

إنه يسوؤني والله ـ أن أسجل هذا ـ ولكني أردت منه أمراً آخر، هو: أن يقف القارئ على مثال حيّ واقعي فيه الفرق الكبير بين التربية على أيدي علماء عاملين حريصين على اقتفاء السنة النبوية، وتلقينها عملياً لأبنائهم الطلبة، حتى في هذه الجزئية: حمل الكتاب باليد اليمنى لا اليسرى، وبين الدراسة في أروقة الجامعات الصمّ البُكْم ـ إلا ما رحم الله ـ.

وإن هذه البقية الباقية من أساتذة الجامعات الشرعية، الذين لهم صلة بالعلماء العاملين (المسجديين)، يصعب عليهم تعاملهم بهذه الآداب مع الطلبة، إما مراعاةً منهم لبعد الطلبة عن هذه المعاني، وإما مراعاةً (لأروقة الجامعات) البعيدة عن هذه الروح العلمية، ولكن بعدَ خلوّ الساحة من هذه البقية الصالحة ستُمحى هذه المعالم النورانية، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وأعود إلى ما كنت فيه، وهو الحديث عن خُلُق الأدب، وأهميته لطالب العلم لنجاحه وفلاحه فأقول:

إن من الكلمات الشائعة على ألسنة علمائنا المربِّين رحمهم الله تعالى:

ما فاز من فاز إلا بالأدب، وما سقط من سقط إلا بسوء الأدب[١].

وهذا هو المعنى الذي عبَّر عنه البرهان الزَّرْنوجي رحمه الله تعالى، بقوله[٢]: «ما وَصَل من وصل إلا بالحرمة، وما سقط من سقط إلا بترك الحرمة». وحكَى في هذا الفصل حكايات لا يُستغنى عنها. وانظر «تذكرةَ السامع والمتكلم» للإمام ابن جماعة، و«الجامعَ لآداب الراوي وأخلاق السامع» للخطيب البغدادي رحمهما الله تعالى، وجميعَ كتب علوم الحديث تحت عنوانِ: أدب الطالب والمحدِّث، ونحوِه. نسأل الله التوفيق لكل خير.

أما الجملة الثانية: فأوضح دليل عليها ما حكاه الله عز وجل عن موقف إبليس من أمر الله تعالى له بالسجود لسيدنا آدم عليه الصلاة والسلام، وما آل إليه أمره من الخِزي واللعنة إلى يوم الدين.

وأما الجملة الأولى: فدليلها حال سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وذلك في قصته المشهورة التي مجملها من روايات البخاري لها[٣] عن ابن عباس نفسه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل الخلاء وكان يومه ذاك عند السيدة ميمونة رضي الله عنها، فوضع له ابن عباس وَضوءاً، فلما خرج ورآه قال: «من وضع هذا؟»، قالت ميمونة: ابن عباس، فضمّه النبي صلى الله عليه وسلم إلى صدره ودعا له: «اللهم فقهه في الدين»،

---

(١) وانظر الدليل على صحة هذا القول فيما يأتي ص٢٤٥.

(٢) في «تعليم المتعلم» ص٤٦.

(٣) في «صحيحه» (٧٥، ١٤٣، ٣٧٥٦، ٧٢٧٠).

وفي لفظ: «اللهم علِّمه الحكمة»، وفي لفظ آخر: «اللهم علِّمه الكتاب»، وفي رواية ابن أبي شيبة[(١)]: «اللهم فقهه في الدين وعلِّمه التأويل»، وينظر تخريجه هناك.

وروى ابن أبي شيبة مختصراً، وأحمد مطوَّلاً[(٢)]، واللفظ له، عن ابن عباس قال: أتيت النبيَّ صلى الله عليه وسلم من آخر الليل، فصليت خلفه، فأخذ بيدي فجرَّني فجعلني حذاءه، فلما أقبل على صلاته خَنَسْتُ ـ أي: تأخرتُ ـ فلما انصرف قال لي: «ما شأني أجعلُك حذائي فتَخْنُس؟»، فقلت: أوَينبغي لأحد أن يصلي حذاءك وأنت رسول الله الذي أعطاك الله؟ قال: فأعجبتُه، فدعا اللهَ لي أن يزيدني علماً وفهماً.

فهما واقعتان، واقعةُ تقديمه الوَضوء، وواقعةُ تأخُّره عن محاذاة النبيِّ صلى الله عليه وسلم في صلاة الليل، وهذه الواقعة غيرُ الواقعة التي بات فيها عند خالته ميمونة، وقام يصلي من الليل مع النبي صلى الله عليه وسلم، فوقف عن يساره.

وروى الترمذي، والنسائي[(٣)] عنه أنه قال: دعا لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤتيني الله الحكمة مرتين، فهاتان هما، وهذا سببهما[(٤)]،

---

(١) (٣٢٨٨٧).

(٢) ابن أبي شيبة (٣٢٨٨٥)، وأحمد ١: ٣٣٠.

(٣) الترمذي (٣٨٢٣)، والنسائي (٨١٧٨).

(٤) وهذا أولى مما يفيده كلام الحافظ في «الفتح» ١: ١٧٠ (٧٥): «ولعل ذلك كان في الليلة التي بات...»، فإنه يفيد أنهما واقعة واحدة، والصواب أنهما واقعتان.

وواضح فيهما أنه دعا له لِمَا وُفِّق إليه من الخدمة في المرة الأولى، ومن الأدب والاحترام لمقام النبوة في الثانية، والخدمة من الأدب.

فكان من بركة هذا الدعاء: أنْ وصل إلى مقام رفيع جداً بين الصحابة الكبار سنّاً ومقاماً، بحيث قال فيه ابن مسعود: لو أدرك ابن عباس أسناننا ما عاشره منا رجل، أي: ما بلغ أحد منا عُشر علمه، وقال فيه أيضاً: نِعم تَرجمانُ القرآن ابنُ عباس، وقال ابن الحنفية يوم جنازة ابن عباس: اليوم مات ربانيّ العلم[1].

وقال فيه ابن عمر رضي الله عنهما: هو أعلم الناس بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم[2]. وكان يلقَّب: حبر الأمة وترجمان القرآن رضي الله عنه، وهذا تحقيقٌ لما قدمته: ما فاز من فاز إلا بالأدب ونسأل الله التوفيق.

* * * * *

(١) رواها ابن أبي شيبة (٣٢٨٨٢ ـ ٣٢٨٨٤).

(٢) رواه أبو زرعة الدمشقي في «تاريخه» (١٧٥٨).

المَعْلَم الثاني عشر

الصبر على الطلب وعدم الفتور

صبر الطالب على طلب العلم حتى يفتح الله تعالىٰ:

أ ـ أما إن على طالب العلم أن يتحلّى بالصبر حتى يأذن الله تعالى بالفتوح والفرج: فهذا مما يُنصح به الطالب، وأن يتذكر دائماً قول القائل[1]:

أَخْلِقْ بذي الصبر أن يَحْظى بحاجته ... ومُدمنِ القَرْعِ للأبواب أن يَلِجا

وروى الخطيب[2] عن إمام الكوفيين في العربية أبي العباس: أحمد ابن يحيى الشيباني (٢٠٠ ـ ٢٩١) رحمه الله، المعروف بلقبه: ثعلب، وهو أيضاً من حفاظ السنة الثقات، عن شيخ له اسمه: الفضل بن سعيد ابن سالم قال: كان رجل يطلب العلم، فلا يقدر عليه، فعزم على تركه، فمرّ بماء ينحدر من رأسِ جبلٍ على صخرة قد أثّر الماءُ فيها، فقال: الماء على لطافته، قد أثّر في صخرة على كثافتها، والله لأطلبنّ العلم،

---

(١) بيت من أربعة أبيات ذكرها الصفدي في «الوافي بالوَفَيَات» ٢: ٢٥١ لمحمد ابن بَشِير الحِميري البصري، وسمّى آخرون والده بـ: يَسِير، انظر «الأعلام» ومصادره، ترجمة محمد بن يسير.

(٢) في «الجامع» (١٥٩٥).

فطلب، فأدرك.

وأسند الخطيب في «الجامع» قبل هذا الخبر وبعده، كلمتين للإمام أبي القاسم الجنيد رحمه الله تعالى، هما: «ما طلب أحد شيئاً بجدّ وصدق إلا ناله، فإن لم ينله كلَّه نال بعضه»، و: «بابُ كل علمٍ نفيسٍ جليلٍ: مفتاحُه بذل المجهود». ثم أسند إلى الإمام الكبير أبي يعلى الموصلي، صاحب «المسند» الشهير رحمه الله، أربعة أبيات من الشعر، آخرها:

إني رأيت ـ وفي الأيام تَجرِبةٌ ـ للصبر عاقبةً محمودةَ الأثر
وقلَّ مَن جدّ في أمر يُطالبه واستصحبَ الصبرَ إلا فاز بالظَّفَر

ومما حفظناه من مشايخنا رحمهم الله جميعاً، في بداية الطلب:

اُطلبِ العلم ولا تضجَرَنْ فآفةُ الطالب أن يضجَرا
ألم ترَ الحبلَ بتكراره في الصخرة الصماء قد أثّرا

عدم الفتور في طلب العلم

ب ـ وأما أن يُصاحب الطالبُ علوَّ الهمة والاستمرارَ في الطلب دون تقصير ولا فتور عزم: فهذا أمر متعيِّن عليه، فكثيراً ما تكون عاقبة الفتور إلى انقطاع عن العلم، لا إلى تأخّر في الطلب، أو تأخر عن التقدم في العلم فقط.

وأذكّر أخي طالب العلم بالكلمة الغالية التي قدمتها[1] عن الإمام

(١) صفحة ٩٠ ـ ٩١.

البخاري رضي الله عنه، قالها لورّاقه: «لا أعلم شيئاً أنفع للحفظ من نَهْمة الرجل، ومداومة النظر».

وقال الزَّرنوجي[١]: ينبغي أن لا يكون لطالب العلم فترة، فإنها آفة، وكان أستاذنا الشيخ الإمام برهان الدين ـ المَرغيناني صاحب «الهداية» ـ رحمه الله يقول: «إنما غَلَبت على شركائي بأنْ لم تقع لي الفترةُ في التحصيل».

وكثيراً ما تحصل الفترة ثم الانقطاع، بسبب عمل دنيوي يزاوله الطالب في أيام إجازاته الطويلة، كأيام الصيف، فليحذر الطالب ـ أو أهلُه ـ هذه المناسبات القاطعة.

وإذا كنت أتحدَّث عن قواطع الطلبة، فإني أنتهز الفرصة والمناسبة، لأتحدَّث عن بعض قواطعِ مَن انتهى من مرحلة التحصيل، ووصل إلى مرحلة العطاء والتعليم، لكنه استُهلِك واستغرِق في العمل الإداري، فانقطع عن الإفادة والاستفادة، وما أكثر هؤلاء! ولا بدّ من الموازنة وتدارك الأمر.

والمنقطعون أكثر من المواصلين، والأيام شاهد صدق، والحكاية عن المنقطعين هي للاعتبار من حالهم، لا للاتكاء على أخبارهم، وتكون سُلواناً لمن انقطع عن الطلب.

---

(١) في كتابه «تعليم المتعلم» ص٨٠.

قال شعيب بن حرب ـ أحد الثقات من شيوخ الإمام البخاري ـ: كنا نطلب الحديث أربعة آلاف، فما أنجب منا إلا أربعة[١].

ثم رَوَىٰ عن الإمام شعبة بن الحجاج: أنه خرج يوماً من بيته، ونظر إلى أصحاب الحديث على باب بيته، فاتكأ على صاحبه الإمام أبي داود الطيالسي صاحب «المسند» المشهور وقال له: يا سليمان، تَرى هؤلاء كلَّهم يخرجون محدثين؟ قلت: لا، قال: صدقتَ، ولا خمسة! قلت: خمسة!! قال: نعم، يكتب أحدهم في صغره، ثم إذا كبر تركه، ويكتب أحدهم في صغره، ثم إذا كبر يشتغل بالفساد، قال أبو داود: فجعل يردِّد عليَّ، قال أبو داود: ثم نظرت بعدُ، فما خرج منهم خمسة!!.

وفي «الجامع» لابن عبد البر[٢] بغير إسناد: قيل للأعمش: لقد أحييتَ العلم بكثرة من يأخذه عنك، فقال: لا تَعجبوا، فإن ثلثاً منهم يموتون قبل أن يدركوا، وثلثاً يلزمون السلطان فهم شرّ من الموتى، ومن الثلث الثالث قلّ من يفلح.

وهذه الأخبار من الكتب، وغيرُها كثير في أخبار الناس، لا ينبغي أن تكون متكأً ومستنداً يَعتذر به من ينقطع عن العلم للدنيا وغيرها، لا، بل ينبغي أن يُنظر إليها بعين الاعتبار منها، من قِبَل الطلبة أنفسهم، وذلك بتجنُّب القواطع والعوائق، ومن قِبَل الآباء وأولياء الأمور، وذلك بأن

---

(١) رواه الخطيب في «الجامع» (٩٣).

(٢) (١١١٥) بغير إسناد ـ وهو مسند في «جامع» الخطيب (٩٦) ـ.

يقدِّموا من أبنائهم العددَ الكثير، لطلب العلم، ليسلَم لهم القليلُ منهم، ولينجُبَ القليلُ من هذا القليل، فيكونوا علماء مرجعيين في دين الأمة.

ومن أساليبهم رحمهم الله تعالى في المداومة على الطلب، لئلا يدخل الفتور يوماً مّا على نفوسهم وهممهم: ما حكاه أبو هلال العسكري[1] عن إمام الحنفية في عصره أبي الحسن الكرخي (٢٦٠ـ٣٤٠) رحمه الله: أنه كان يحضر درس شيخه أبي خازم عبد الحميد بن عبد العزيز القاضي الشهير (ت ٢٩٢) رحمه الله، كلَّ يوم، حتى يوم الجمعة، كان الكرخي يأتي حيثُ مجلسُ الدرس، ولم يكن للقاضي درس فيه، قال الكرخي: كنت أحضر مجلس أبي خازم يوم الجمعة بالغداة، من غير أن يكون درس، لئلا أنقض عادتي من الحضور.

وعلى هذا السَّنَن أدركت بعض علماء حلب ودمشق رحمهم الله تعالى، فمن علماء حلب فضيلة سيدي العالم العارف الشيخ عبد الجواد بوادقجي، مع شيخه العلامة الرباني الحجة فضيلة الشيخ محمد نجيب سراج الدين، ومن علماء دمشق فضيلة العلامة الورع الفقيه الشيخ عبد الوهاب دبس وزيت، مع شيخه العلامة الحجة الفقيه الشيخ عطاء الله الكَسْم، رحمهم الله جميعاً، كان كل منهما يحضرُ ميعاد درس شيخه حتى يوم الثلاثاء: يوم الإجازة الأسبوعية آنذاك، فيمسكُ حلْقة الباب، وهو مغلَق، ويرجع إلى بيته، وذلك صيفاً وشتاءً، لئلا يَفتر عن الحضور

(١) في «الحث على طلب العلم» ص٧٨.

والبكور يوم الأربعاء.

فرحمة الله عليهم، كانوا يداوون أمراض النفوس بمراقبتها، والحذر من فَتَراتها.

* * * * *

المَعْلَم الثالث عشر

أهمية تكرار الدرس ومطالعته

إن من واجبات الطالب والشيخ على السواء: مطالعةَ المقدار المقدَّر شرحه ودرسُه في هذا اليوم، قبل حضور الدرس، وهو ما كان يسمى قديماً: السَّبْق.

أمّا إنّ حقاً على الشيخ أن يقرأ الدرس لنفسه قبل حضوره وقراءته على الطلبة: فأحكي هذه القصة التي حصلت لنا في درس الفقه الحنفي في السنة الأولى، وكان أستاذنا وشيخنا فيه العالمَ الفقيهَ الصالح الناسك فضيلة الشيخ مصطفى مزراب رحمه الله تعالى وأجزل له الأجر والمثوبة.

شَعَر الشيخ أن طالباً لم يكن قد طالع درسه قبل حضوره، فعاتبه الشيخ بلطف ورفق ـ كعادته الكريمة ـ وقال لنا: يا أولادي، كان شيخنا الشيخ إبراهيم التُّرْمانيني (١٣٠٥ ـ ١٣٧٤) رحمه الله يقول لنا: يا أولادي، أنا دَرَست في الأزهر علوماً كثيرة، منها ستة وعشرون علماً لا أُسأل عن شيء منها، ومع ذلك فأنا لا آتي إلى الدرس إلا بعد مطالعته!.

وأما إن حقاً على الطالب أن يقرأ الدرس لنفسه قبل حضوره وقراءته على الشيخ: فهذا أمر مفروغ منه، ولهم في ذلك كلمات وأخبار.

فمن أقوالهم: ما حكاه الزَّرنوجي رحمه الله[١] قال: «قد قيل: السَّبْق حرف، والتكرار ألْف». يعني: أن يكون مقدار السبْق قليلاً قصيراً، أما تكراره قبل حضور الدرس فمراتٌ كثيرة: ألف مرة!.

ثم قال مبيناً أهمية ذلك لرسوخ الدرس في ذهن الطالب[٢]: «وينبغي لطالب العلم أن يُعِدَّ ويقدِّر لنفسه تقديراً في التكرار، فإنه لا يستقرُّ قلبه حتى يبلغ ذلك المبلغ».

ومن أخبارهم العجيبة: ما جاء في ترجمة الإمام أبي إسحاق الشيرازي رحمه الله[٣]: «يقال: إنه اشتهىٰ ثريداً بماء الباقِلاَء، قال: فما صحّ لي أكلُه، لاشتغالي بالدرس، وأخذي النَّوبة[٤]. وقال: كنت أعيد كل قياس ـ أي: كل درس ـ ألف مرة، فإذا فرغت منه أخذت قياساً آخر، وهكذا، وكنت أعيد كل درس ألف مرة، فإذا كان في المسألة بيت يُستشهَد به حفظت القصيدة!».

قلت: هكذا جاء لفظه عند السبكي: أُعيد كل درس ألف مرة، ومثلُه عند شيخه الذهبي[٥]. وانظر إلى أيّ مستوى رفيع تكون ثقافة هذا الإمام

---

(١) في «تعليم المتعلم» ص٦٩.

(٢) صفحة ٧٩.

(٣) في «طبقات الشافعية الكبرى» ٤ : ٢١٨.

(٤) يضاف هذا الخبر إلى قصة ابن أبي حاتم المتقدمة ص١٠٥.

(٥) في «السير» ٨ : ٤٥٨، وربما كان هو مصدرَ السبكي، لكن جاء في «صفة الصفوة» ٤ : ٦٦، و«تهذيب الأسماء واللغات» ٢ : ١٧٣، و«المجموع» ١ : ١٤ ذكر =

الفقيه، في الشعر والأدب!!.

ومن أخبارهم في تكرار الدرس والسَّبْق: خبر الإمام القفال الشاشي ـ الذي قدمته ـ أول طلبه العلم[(١)].

وفي «طبقات» السبكي أيضاً[(٢)] في ترجمة الإمام أبي الحسن إِلْكِيَا الهَرّاسي (٤٥٠ ـ ٥٠٤) من أقران الإمام الغزالي في التلمذة على إمام الحرمين، رحمهم الله جميعاً، قال: «كانت في مدرسة سَرْهَنْك بنيسابور قناة لها سبعون درجة، وكنت إذا حفظت الدرس أنزل القناة وأعيد الدرس في كل درجة مرة في الصعود والنزول. قال: وكذا كنت أفعل في كل درس حفظته.

«وفي بعض الكتب[(٣)]: أنه كان يكرر الدرس على كل مِرقاة من مراقي درج المدرسة النِّظامية بنيسابور سبع مرات، وأن المراقي كانت سبعين مرقاة»، فتكون مرات التكرار ٤٩٠ مرة!.

وترجم ابن الجوزي[(٤)] للإمام أبي الفضل بكر بن محمد الزَّرَنْجَري، المتوفىٰ سنة ٥١٢ من أئمة الحنفية المتقنين، ومن مشاهير تلامذة الإمام

تكرار الدرس مئة مرة، ولعله الأقرب.

(١) صفحة ١١١.

(٢) ٧: ٢٣٢.

(٣) هو «المنتظَم» لابن الجوزي ١٧: ١٢٢، والنقل ما يزال عن السبكي.

(٤) في «المنتظَم» أيضاً ١٧: ١٦٥.

السرخسي، وترجم له الإمام السمعاني بين شيوخه[١]، وزاد ابن الجوزي على السمعاني هذا الخبر قال: «سئل يوماً عن مسألة فقال: كررت هذه المسألة ليلة في برجٍ من حصن بخارىٰ أربع مئة مرة»، لذلك قال ابن الجوزي والسمعاني: إنه كان يُضرب به المثل في حفظ مذهب أبي حنيفة، ومتىٰ طلب المتفقِّه منه الدرس ألقىٰ عليه من أيّ موضع أراد، من غير مطالعة ولا مراجعة كتاب!!.

ونقل القاضي عياض[٢] عن بعضهم، في ترجمة الإمام أبي بكر الأبهري، إمام المالكية في وقته، المتوفى سنة ٣٧٥ رحمه الله: أنه قرأ «مختصر» ابن عبد الحكم خمس مئة مرة، و«الأسدية» خمساً وسبعين مرة، و«الموطأ» خمساً وأربعين مرة، و«مختصر» البرقي سبعين مرة، و«المبسوط» ثلاثين مرة.

وحكى عياض أيضاً[٣] في ترجمة شيخه الإمام الحافظ الناقد غالب بن عبد الرحمن ابن عطية الغَرْناطي (٤٤١ ـ ٥١٨) رحمه الله: أنه كرَّر قراءة «صحيح البخاري» سبع مئة مرة، وقد عُمِّر ٧٧ عاماً، فيكون ـ تقريباً ـ قد قرأ «الصحيح» في كل شهر مرة، على مدار ستين سنة.

وفي «غرر البهاء الضَّوِي»[٤] للعلامة محمد بن علي بن علوي خرد

---

(١) في «التحبير» ١:١٣٥.

(٢) في «ترتيب المدارك» ٣: ٢٢٠.

(٣) في مشيخته «الغُنْية» ص١٩٠، وانظر «التنويه والإشادة» للكتاني ص٦٠.

(٤) صفحة ٤٤٢.

التَّريمي، المتوفى سنة ٩٦٠، عن العلامة المحقق الضابط فضل بن عبد الله ابن أبي فضل العلوي التَّرِيمي، وهو من علماء صدر القرن التاسع: أنه قرأ «صحيح» البخاري ألف مرة، قال المؤلف: «ولم يُعرف لأحدٍ غيره على ما نعلم، والله أعلم». أفادنيه فضيلة العلامة الفقيه الشافعي الصالح المبارك الشريف زين آل سُميط حفظه الله تعالى بخير وعافية.

وجاء في «المنهاج السوي»[1] للإمام السيوطي في ترجمة الإمام النووي رحمهما الله تعالى، ما مفاده: أن النووي نقل في بعض مؤلفاته عن «الوسيط» للإمام الغزالي رحمه الله، فنُوزِع من قِبَل بعض علماء عصره، وغُلِّط في هذا النقل، فقال: «أَتُنازِعونني وقد طالعته أربع مئة مرة!!».

ومن هنا ندرك أمراً، هو: أن العلماء السابقين كانوا يطالعون ويكررون الدرس هذه المرات الكثيرة، فيحفظون الكتاب، وما كانوا يقرؤون على شيوخهم إلا الكتب المعتمدة الأصول، وهذا الحفظ سهّل عليهم بعد ذلك الكتابةَ والتأليفَ، فإنهم ينسبون هذه النقول إلى الكتب المحفوظة عندهم، وما كانوا يحتاجون إلى مراجعة كل جملة.

وكان أساتذتنا رحمهم الله تعالى يؤكدون علينا أمرين: مطالعةَ الدرس قبل حضوره على الشيخ، ومراجعتَه بعد الدرس، ففي الأول: يكون للطالب تهيؤ لما سيشرحه الشيخ، واستعداد لفهمه وحفظه، وفي الثاني: يكون استذكار من الطالب لما شرحه الشيخ، هل بقي شيءٌ لم يرسُخ في الذهن، ولم يتضح في الفهم أوْ لا.

---

(١) صفحة ٤٣

وقد نبّه الزرنوجي رحمه الله إلى أمرين في تكرار الدرس فقال[١]: «ينبغي أن يكرِّر سَبْقَ ـ أيْ: درسَ ـ الأمسِ: خمسَ مرات، ـ وهذه هي المراجعة ـ، وسبق اليوم الذي قبل الأمس: أربع مرات، والسبق الذي قبله: ثلاثاً، والذي قبله: اثنين، والذي قبله: واحداً، فهذا أدعى إلى التكرار والحفظ.

«وينبغي أن لا يعتاد المخافتةَ في التكرار، لأن الدرس والتكرار ينبغي أن يكون بقوة ونشاط، ولا يجهر جهراً يُجهِد نفسه، كيلا ينقطع عن التكرار، فخير الأمور أوساطها».

ونبَّه إلى هذا الأمر الثاني: أبو هلال العسكري فقال[٢]: «ينبغي للدارس أن يرفع صوته في درسه حتى يُسمِع نفسه، فإن ما سمعتْه الأُذُن رسخ في القلب..، وحُكي لي عن بعض المشايخ أنه قال: رأيت في بعض قرى النَّبَط فتىً فصيحَ اللهجة، حسن البيان، فسألته عن سبب فصاحته مع لُكْنة أهل جِلْدته؟ فقال: كنت أعمِد في كل يوم إلى خمسين ورقةً من كتب الجاحظ، فأرفع بها صوتي في قراءتها، فما مرّ لي إلا زمان قصير حتى صرت إلى ما ترى. وحُكي عن أبي حامد ـ الإسفَراييني، إمام الشافعية في وقته ـ: أنه كان يقول لأصحابه: إذا درستم فارفعوا أصواتكم، فإنه أثبتُ للحفظ، وأذهبُ للنوم».

أما أنا: فأؤكد على الطلبة هذا الأمر: القراءةَ الجهرية، لكن أؤكد

---

(١) صفحة ٨٠.

(٢) في «الحث على طلب العلم» ص٧٢.

عليهم الجهر بقراءة وردهم اليومي من القرآن الكريم، يضاف إليه مقدارٌ من كتاب مضبوطٍ بالشكل التام أو شبه التام، من كتب السنة النبوية المسندة، كـ«صحيح البخاري» مثلاً، أو غير المسندة كـ«رياض الصالحين»، ففيه اطلاع على السنة النبوية، وفيه تقويم اللسان على القراءة المضبوطة الصحيحة، فليس المهم القراءةَ فقط، بل المهم القراءةُ مع الضبط القويم.

فإذا اعتاد لسانهم السلامة قرؤوا صفحة أو صفحتين من كتاب «حياة الصحابة» رضي الله عنهم، للعلامة الداعية الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي رحمه الله تعالى، وأوصيهم بقراءة كتابين لكاتب الإسلام والعربية أديب العلماء وعالم الأدباء الأستاذ الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالى، هما: «رجال من التاريخ»، و«قصص من التاريخ» للاستفادة من أسلوبه في الكتابة والبيان، فإنه (السهل الممتنع).

وتوصية أخيرة أقولها وأحكي لها قصة:

أما التوصية: فأن ينهض الطالب بهمته، أو أن ينهض الشيخ بهمة الطالب، فيطالع درسه للغدِ في كتاب أعلى من كتاب درسه، لتتسع دائرة معارفه، وليشدَّ انتباهَ شيوخه إليه، فيكون محطَّ أنظارهم واهتمامهم، وهذا أمر مهم جداً، وله عوائد محمودة في مستقبله العلمي.

وأما القصة: فإن سيدي العلامة الأصولي الفقيه الحنفي التقي الورع الشيخ محمد السَّلقيني، عَرَض له سفر قصير، فأناب عنه في دروسه في المدرسة الخُسْروية (الثانوية الشرعية) بحلب، تلميذه سيدي العلامة الأستاذ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، رحمهما الله تعالى، فأعجبَ الطلبةَ

وأخذ انتباههم، فلما رجع فضيلة الشيخ محمد السلقيني إلى دروسه قال له الطلبة: يا أستاذ، الشيخ عبد الفتاح كان من طلابك؟ فقال لهم بتواضعه الجمّ المشهور: نعم، ولكني الآن أنا من طلابه، كنت أقرأ له متن «الآجرومية» في النحو، وكان هو يطالع درسه في «مغني اللبيب»!، وهذا مما جعل فضيلة سيدي الشيخ عبد الفتاح حجةً في علوم العربية، كما هو حجة في علوم الشريعة. رحمهم الله جميعاً.

* * * * *

المَعْلَم الرابع عشر

أهمية المذاكرة بالعلم

ومن مهمات الطالب: المذاكرةُ بالعلم مع نفسه، ومع أقرانه، ومع شيوخه، ومع أيّ كان، والمقصود بالمذاكرة: المباحثة بالعلم، والمساءلة، والمناقشة، والمناظرة، وعلى أي وجه كان، وبأي أسلوب، إلا المماراةَ والعصبية لقولٍ، أو لمدرسةٍ، ونحو ذلك.

فالاشتغال بالعلم: قد يكون على انفراد، كالمطالعة أو الكتابة، أما المذاكرة: فتقتضي المشاركة مع آخر، وفي هذه المشاركة يتولد الفهم وتتفتَّق القريحة عن وجوه وأجوبة واحتمالات للمسألة، ومما كان يجري على ألسنة مشايخنا رحمهم الله تعالى مَجرى المثل يقولون: ذُبح العلم بين اثنين، أي: تُحلُّ مشكلاته في مدارسة اثنين له.

وأُولى فوائد المذاكرة: أنها تحملك على أن تحفظ المسائل التي ستذاكر بها غيرك، وثانيتها: أنها ستكون سبباً في تثبيتِ حفظِ ما ذاكرتَ به، وثالثتها: أنك تضمّ إلى علمك علمَ الآخرين الذين تذاكرهم، وتضمّ إلى فهمك فهمهم، وهذا أمر ليس بالقليل، ولا بالهيِّن، لتزهد فيه.

ومما يَلفت النظرَ إلى أهمية المذاكرة: أنه نبَّه إلى أهميتها بأقوالهم وأفعالهم كبار الصحابة: عليّ، وابن مسعود، وابن عباس، وأبو سعيد الخدري، وكبار التابعين: علقمة، والنخعي، وابن شهاب، وعبد الرحمن

ابن أبي ليلى، وغيرهم رضي الله عنهم.

ودوّن أخبارهم كبار أئمة الحديث: ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٦٦٥٧ ـ ٢٦٦٦٤)، والدارمي في «سننه» (٥٩٥ ـ ٦٢٧)، ثم جاء القاضي الرامَهُرْمزي فأفرد له نوعاً في «المحدث الفاصل» (٧٢١ ـ ٧٣٢)، ثم الحاكم في «معرفة علوم الحديث»: النوع الثالث والثلاثين، ثم الخطيب في «آداب الفقيه» (٩٥٣ ـ ٩٥٧)، و«الجامع» (١٨٧٥، ١٩١٢)، وابن عبد البر في «الجامع» أيضاً (٩٤، ٦٢٣ ـ ٦٥١)، والبيهقي في «المدخل» (٤١٨ ـ ٤٥١)، واتفقوا على كثير مما ذكروه، وزاد بعضهم على بعض، وفيها كلِّها خير وحِكَم.

ومن أخبار الكبار في المذاكرة: ما رواه يعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ»[1]، عن فضيل بن غزوان أنه قال: «كان ابن شُبْرُمة، والمغيرة بن مِقْسَم الضبي، والحارث العُكْلي، والقعقاع بن يزيد، وغيرهم يَسْمُرون بالفقه، فربما لم يقوموا إلى النداء بالفجر».

وهؤلاء أئمة الفقه بالعراق في زمانهم، وكأنهم كانوا يرون في عملهم هذا أنه يعدل إحياءهم الليل بالصلاة والعبادة، وقد قدَّمتُ عن عمر وابن مسعود رضي الله عنهما: أنهما كان يريان مدارسة العلم كالصلاة[2].

---

(١) ٢: ٦١٤ ـ ومن طريقه الخطيب في «آداب الفقيه والمتفقه» (٩٥٦) ـ، وتنظر ترجمة الحارث العُكْلي في «طبقات» ابن سعد ٨: ٤٥٣.

(٢) صفحة ٤٨.

ويلفت النظرَ إلى أهمية المناظرة كلمةٌ أخرى، نقلها الإمام البُرْزُلي[١] قال: سئل أبو الحسن القابِسي القيرواني عمن يحفظ «المدونة»: هل تسوغ له الفتيا؟ فأجاب: «إنْ ذاكر الشيوخ فيها وتفقّه: جاز، وإن لم يذاكر فيها: فلا يفعل»، فانظر أهمية مذاكرة الطالب مع شيوخه في العلم الذي سيتصدر له.

وهذه المذاكرة جزء من التلقي عن الشيوخ، فأين مقام من لم يتلقَّ عن الشيوخ أبداً؟! وأين مقام من يجعل قدوته في العلم، هذا الذي لم يتلق العلم عن الشيوخ؟! إنهم عن العلم وفهمه والتحقق به لفي معزِل بعيد!.

ويلفت النظرَ إلى أهمية المذاكرة: موقف من إمام من أئمة العلم والدين والسنة، هو الإمام أحمد رحمه الله تعالى، وهو الخبر الذي تقدم[٢]، لما قدم أبو زرعة بغداد، ونزل ضيفاً على الإمام أحمد، يقول أحمد: ما صليت غير الفرض، استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي! وهو الذي كان يصلي في اليوم والليلة /٣٠٠/ ركعة، وبعد المحنة ضعُف بدنه فاقتصر على /١٥٠/ ركعة![٣].

ونقل الخطيب[٤] كلاماً طويلاً لم يسمَّ قائله، أَقتطِف منه هذه الأسطر،

---

(١) في «فتاويه» ١ : ٦٣.

(٢) صفحة ٤٨.

(٣) كما رواه أبو نعيم في «الحلية» ٩ : ١٨١.

(٤) في «آداب الفقيه والمتفقه» للخطيب ٢ : ١٠ (آخر ٦١٦).

قال: «العلم إذا لم يُستعمل ولم يُذاكَر به، كالمسك: إذا طال مُكثه في الوعاء، ذهب ريحه، وكالماء الصافي: إذا طال مكثه، نشّفتْه الأوعية وغيَّرته، وذهبتْ بأكثره أو بكلّه، وتغيّر ريحه وطعمه، وكالبئر تُحتفر فتجري فيها عين، فإن حصل له طريق حتى ينتشر صار نهراً وكثُر ونفع وعاش به الجيران، وإن حُبس وتُرك قلّ نفعه، وربما غار، فكذلك العلم، إذا لم يُذاكَر به ولم يبحث عنه، وإذا ذاكرتَ بالعلم ونشرتَه صار كالنهر الجاري دائمَ النفع، غزيرَ الماء، إن قلَّ لعارضٍ زاد أخرى، وإن تكدّر لعلة صفا في ثانٍ، وتحيا به الأرض والزرع والحيوان».

ومن النصائح المهمة في المذاكرة: ما أجملَه الزَّرْنوجي رحمه الله[١] بقوله: «لا بد لطالب العلم من المذاكرة والمناظرة والمطارحة، فينبغي أن يكون بالإنصاف والتأني والتأمل، ويحترز عن الشغب والغضب، فإن المناظرة والمذاكرة مشاورة، والمشاورة إنما تكون لاستخراج الصواب، وذلك إنما يحصل بالتأمل والتأني والإنصاف، فإن كانت نيته إلزامَ الخصم وقهرَه فلا يحلّ ذلك، وإنما يحل ذلك لإظهار الحق...

وفائدة المطارحة والمناظرة أقوى من فائدة مجرد التكرار، لأن فيه تكراراً وزيادة، وقيل: مطارحة ساعة خير من تكرار شهر، وإياك والمذاكرةَ مع متعنّت غيرِ مستقيم الطبع، فإن الطبيعة سرّاقة متغيرة، والأخلاق متعدية، والمجاورة مؤثّرة».

---

(١) في «تعليم المتعلم» ص٧٢.

وأوجه المذاكرة: أنها تكون بين الإنسانِ ونفسهِ وحافظته، والإنسانِ ونفسهِ بالقراءة والمطالعة، والإنسانِ مع مَن فوقه، ومن هو مثلُه، ومن هو دونَه، وقد ذكر هذه الوجوه الخطيب(١) بدءاً من سيدنا أبي هريرة فمن بعده، رضي الله عنهم، وافتتح الأخبارَ بقول أبي هريرة: «جزّأتُ الليل ثلاثة أجزاء: ثلثاً أصلي، وثلثاً أنام، وثلثاً أذكر فيه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم»، ثم أسند مثلَه عن عمرو بن دينار، ونحوَه عن الإمام الثوري.

ومما يدخل في أخبار المذاكرة وأثرها: ما يأتي قريباً جداً عن الإمام أبي حنيفة، وعن زائر الخليفة عبد الملك بن مروان، كيف بلغت بصاحبها مبلغاً رفيعاً من العلم.

وجاء في ترجمة الإمام ابن أبي حاتم الرازي(٢): «كان من منّة الله على عبد الرحمن ـ ابن أبي حاتم ـ: أنه ولد بين قَمَاطر العلم والروايات، وتربّى بالمذاكرات مع أبيه وأبي زرعة، فكانا يزقّانه كما يُزَقّ الفرخ الصغير، ويُعنيان به».

ومذاكرة العالم ـ كالإمام ابن شهاب الزهري ـ حديثَه مع الأعرابِ، ومع الجاريةِ الخادمِ، وكإسماعيل بن رجاء الزُّبيدي، مع صبيان الكُتّاب: تدل على عظم مكانة العلم عندهم، وعلى خشية نسيانهم له، أو عدم

---

(١) في «جامعه» (١٨٦٩ فما بعده).

(٢) في «تاريخ» ابن عساكر ٣٥: ٣٦٠.

ضبطهم له، كي لا يُختلف عليهم كلمةٌ بكلمة، أو حرفٌ بحرف. فرضي الله عنهم ما أحرصَهم وما أشدَّ أمانتَهم على دين الله تعالى.

وللإمام النووي رحمه الله كلمة في أهمية المذاكرة، زاد فيها ـ على ما تقدم ـ التنبيه إلى نكتة مهمة، فأنقل كلامه من أجلها، قال وهو يرسم طريق تحصيل علم الحديث[1]: «المراد من هذا العلم: الاعتناء بتحقيقه، والبحث عن خفيّ معاني المتون والأسانيد..، ثم يديم مطالعة ما كتبه، ويذاكر بمحفوظاته من ذلك من يشتغل بهذا الفن، سواء كان مثلَه في المرتبة، أو فوقه، أو تحته، فإن بالمذاكرة يَثبت المحفوظ، ويتحرَّر ويتأكد ويتقرَّر ويزداد، بحسب كثرة المذاكرة، ومذاكرةُ حاذق في الفن ساعةً، أنفع من المطالعة والحفظ ساعات، بل أياماً، وليكن في مذاكراته متحرياً الإنصاف، قاصداً الاستفادة أو الإفادة، غيرَ مترفِّع على صاحبه بقلبه ولا بكلامه ولا بغير ذلك من حاله، مخاطباً له بالعبارة الجميلة اللينة، فبهذا ينمو علمه، وتزكو محفوظاته».

وأقول تنبيهاً لأحقيّة كلامه رحمه الله: إذا كانت المذاكرة مع حاذق أنفعَ من مطالعة الطالب منفرداً، لساعاتٍ وأيام، فكيف بنفع تلقي العلم عن أستاذ حاذق رشيد، وصحبته السنين الطوال!! وترقَّبْ كلمة الإمام ابن جماعة الآتية بعد صفحتين في عدم أخذ العلم عمن لم يُعرف بصحبة الحذّاق.

---

(١) في أول شرحه على مقدمة «صحيح» مسلم ١ : ٤٧ ـ ٤٨.

أما من (شَيَّخ) عليه الصحيفة، (وشيَّخَتْه) الصحف، فإلى أيّ مدى يكون بُعْده عن تحقيق العلم وعن التحقُّق به!! ولا سيما إذا انضم إلى ذلك اعتداده بنفسه، وأنه لم يَرَ متأهلاً للعلم، ليأخذه عنه!! نسأل الله العافية والسلامة، كما نسأله حسن التوفيق.

* * * * *

المَعْلَم الخامس عشر

أهمية اللسان السئول لطالب العلم

ومن مهامّ طالب العلم: أن يتخذ (السؤال) عما لا يعلم، وعما انغلق عليه من العلم: شعاراً له ودثاراً، واشتهر عن سيدنا الحِبر البحر ابن عباس رضي الله عنهما جوابُه لمن سأله: بم نِلتَ هذا العلم؟ فقال: بلسان سئول، وقلب عقول[1].

وهذا هو جواب دَغْفَلِ بن حنظلة الشيباني أحدِ المخضْرَمين لمعاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنهم، حين أكثر عليه معاويةُ الأسئلة من علوم العربية، والنَّسب، والنجوم، فرآه عالماً بها، فقال له: يا دَغْفَل، من أين حفظتَ هذا؟ قال: حفظتُ هذا بقلب عقول، ولسان سئول، وإن غائلة العلم النسيان. أي: آفته[2].

---

(١) رواه عنه: البيهقي في «المدخل» (٤٢٧) من رواية جرير، عن المغيرة، عنه، ورواه الرافعي في «التدوين» ٣: ٨٩ من طريق جرير، عن المغيرة، عن إبراهيم النخعي، وإبراهيم لم يلق ابن عباس، لكن مراسيله صحيحة، ويتعجَّل من يحكم على مراسيله بالضعف.

وذكره ابن القيم في «إعلام الموقعين» ١: ١٩ من رواية مكحول، عن ابن عباس أيضاً، وهو لم يلقه أيضاً.

(٢) رواه ابن عبد البر في «الجامع» (٥٣١)، و«الاستيعاب» ٢: ٤٦٢، والبيهقي =

وذلك: أن «العلم خزائن ومفاتيحها السؤال»[١]، وأن «شفاء العِيِّ السؤال»[٢]، لكن لا بدّ من حسن استعمال ذلك المفتاح، وذلك الدواء، وقد قال وهب بن منبِّه، وسليمان بن يسار، وميمون بن مهران: حسن المسألة نصف العلم[٣].

وأفاد الزَّرْنوجي فائدة تاريخية نادرة، أفاد أن السلف كانوا يلقّبون طالب العلم لقباً غريباً، فقال رحمه الله[٤]: «إنما سُمي طالب العلم «ما تقول»: لكثرة ما يقولون في الزمان الأول: ما تقولون في هذه المسألة؟».

فالمُسَاءَلة: ديدن طالب العلم وهِجِّيراه، وشعاره ودثاره، وهي أسلوب من أساليب المذاكرة بالعلم، التي يأتي القول فيها بعد قليل، وأن أئمة السلف من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم رضي الله عنهم حضّوا عليها، وأكّدوا على الاهتمام بها.

في «المدخل» (٤٢٨).

(١) طرف من حديث ضعيف تالف: رواه أبو نعيم في «الحلية» ٣: ١٩٢، واقتصر السخاوي في «المقاصد» (٧٠٤)، والزرقاني في مختصره (٦٥٤) على أنه: ضعيف.

(٢) طرف من حديث ثابت قوي رواه من حديث ابن عباس مرفوعاً: أبو داود (٣٣٧)، وابن ماجه (٥٧٢) وغيرهما كثير، ومراده بالعِيِّ هنا: الجهل.

(٣) «جامع» ابن عبد البر (٥٤٤)، و«آداب الفقيه والمتفقه» (٧٠٠)، وروي مرفوعاً، وينظر تخريجه في «المقاصد الحسنة» (١٤٠)، ولخّصه العلامة الزرقاني في «مختصر المقاصد» (١٢٦) بقوله: حسن لغيره. وينظر «أدب الدنيا والدين» ص١١٧.

(٤) في «تعليم المتعلم» ص٧٤ ـ ٧٥.

ومن نَهْمة الإمام ابن شهاب الزهري رحمه الله في تحصيل العلم: ما رواه عنه الرامهرمزي[١]: أنه كان «لا يُبقي في المجلس شاباً إلا ساءله، ولا كهلاً إلا ساءله، ولا فتىً إلا ساءله، ويأتي الدارَ من دور الأنصار فلا يُبقي فيها شاباً إلا ساءله، ولا كهلاً إلا ساءله، ولا فتىً إلا ساءله، ولا عجوزاً إلا ساءلها، ولا كهلة إلا ساءلها، حتى يحاول ربّات الحِجال»[٢].

وهذا الخبر عن ابن شهاب يتصل بهذا المَعْلَم الذي نحن فيه: اللسان السئول، ويتصل بالمَعْلَم الآتي أيضاً: أهمية المذاكرة، لأن صيغة (ساءله) صيغة مفاعلة ومشاركة، فتقتضي السؤال والجواب والحوار، والله أعلم.

هذا، ومن الأمر الطبيعي للطالب أن تكون أسئلته: عن عدم معرفة بالمسئول عنه، فهذا (سؤال جاهل)، أو: سؤال عن أمر شرعي يعرفه لكن لم يتضح له وجهه، أو عبارة مغلقة قرأها، فلم يتضح له حلُّها، فهذا (سؤال مسترشد مستفسر).

وهناك أسئلة تحمل معها شبهة من الطالب نفسه، أو من غيره ألقاها عليه مغرِض، وفي كل منهما ضرر على الطالب، يتعيَّن عليه المبادرة إلى من يثق به من شيوخه، حسب اختصاصه العلمي، ليزيل عن قلبه سموم

---

(١) في «المحدث الفاصل» (٣٠٧).

(٢) الحِجال: جمع حَجَلة، وهي بيت يُزيَّن بالستور للعروس، فربّات الحجال: هن الشابّات العرائس، وهنّ ممن يُتَحاشى القُرب منهن، والحديث معهن، أما العجائز والكهلات، فالقرب منهن والحديث إليهن مما يتسامح به، أما العرائس: فلا، ومع ذلك فكانت نَهمته رحمه الله تحمله على ذلك، وحياؤه يمنعه.

هذه الشبهة، ولا يجوز له البقاء على ما هو عليه دون حلّ وعلاج بعلم ودليل.

وكل دليل غير واضحِ المرادُ فيه، يسمى شبهة، لاشتباه الحق بالباطل، أو: الخطأ بالصواب، فتمييز أحدهما عن الآخر يفتقر إلى قوةِ بيان واستدلال واستنباط.

وهاهنا واجب على الأستاذ العالم المربّي نحو أبنائه الناشئة في العلم، هو أن يكون يقظاً لمسائلهم وإيراداتهم، فيعرف مصدرها ويعالجها.

وللشيخ الإمام ابن القيم رحمه الله كلام فيه طول[1]، عن الشبهات وأثرها، وضررها، وضرورة معالجتها، يهمني منه هذه النصيحة الذهبية ـ وكله مهم ـ، قال: «قال لي شيخ الإسلام رضي الله عنه ـ ابن تيمية ـ وقد جعلت أُورد عليه إيراداً بعد إيراد: لا تجْعل قلبك للإيرادات والشبهات كالسَّفِنجة، فيتشرَّبها، فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المُصْمَتَة ـ أي: كالقارورة المحكمة الإغلاق ـ تمرُّ الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أَشربتَ قلبك كلَّ شبهة تمرّ عليها، صار مقراً للشبهات، أو كما قال. فما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك». والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

* * * * *

(١) في كتابه «مفتاح دار السعادة» ١ : ١٤٠.

الباب الثالث

موقع الأستاذ المربي، وأثره

أما مهمة الأستاذ المربي :

فيقول العلماء الربانيون المربّون: الفاسق ضالّة كلِّ داعية إلى الله تعالى، وأقول مِثل هذا في العالم المعلِّم: الجاهلُ ضالةُ كل عالم معلِّم، عليه أن يبحث عن الجاهل، فكيف به إذا كان هذا الجاهل طالباً، وكان العالم مطلوباً، فإن الواجب عليه أن يتلقاه بكل صدر رحب، وحنان وإشفاق، وتلطُّف وتَرْحاب، يَهَبُه وقته وعلمه. وقد قال الإمام أبو حنيفة لتلميذه أبي يوسف، في وصيته الطويلة له[1]: «وأَقبِلْ على متفقِّهتك، كأنك اتخذتَ كل واحد منهم ابناً وولداً، لتزيدهم رغبة في العلم».

وعلى العالم أن ينظر إلى طالب العلم: أنه هبة إلهية ساقها الله تعالى إليه ـ لا سيما في هذا الزمان، وكلُّه صوارفُ عن العلم الشرعي ـ ليورِّثَه ما منَّ الله به عليه من علم ووراثة نبوية، وتتناقلَه من بعده الأجيال، وقد قال الإمام حافظ المغرب ابن عبد البر رحمه الله تعالى[2]: «لا يزال الناس بخير ما بقي الأول، حتى يتعلم منه الآخِر»، وتبقى سلسلة العلم متصلة لا

---

(١) وهي بتمامها في «مناقب الموفق المكي» ص٣٧٣.

(٢) في آخر مقدمة كتابه «جامع بيان العلم» ١ : ٢١ آخر رقم (١٣).

تنقطع إن شاء الله، مهما ضعفت الهمم، وتقاعست العزائم.

وقال الإمام البدر ابن جماعة رحمه الله تعالى[١]: «واعلم أن الطالب الصالح أَعْوَدُ على العالم بخير الدنيا والآخرة، من أعزّ الناس عليه، وأقرب أهله إليه، ولذلك كان علماء السلف الناصحون لله ودينه يُلقون شبك الاجتهاد لصيد طالب ينتفع الناس به، في حياتهم ومَن بعدهم، ولو لم يكن للعالم إلا طالب واحد ينتفع الناس بعلمه وعمله وهديه وإرشاده، لكفاه ذلك الطالب عند الله تعالى، فإنه لا يتصل شيء من علمه إلى أحد فينتفع به إلا كان له نصيب من الأجر».

فإذا منّ الله تعالى على عالم بطالب كهذا الطالب، كان من الواجب أن يقف منه كما وصف القاضي ابن العربي موقفَ الإمام الغزالي منه[٢]، وفيه شيء من الطول، فأكتفي بنقل هذه الجملة منه، ثم بالإحالة عليه، قال: «فكأنما فَرَغ لي، لأبلُغ منه أملي، وأباح لي مكانه ـ أي: دلَّه على مكان نزوله، وسمح له بالمجيء إليه ـ، فكنت ألقاه في الصباح والمساء، والظهيرة والعِشاء، كان في بَزَّته ـ أي: في ثوبه المعتاد ـ، أو في بَذْلته» أي: ثوبه القديم، كيفما اتفق، وهذا دليل على انفساح صدر الإمام الغزالي له تمام السعة والاستقبال.

وكل ما عندهم وعند غيرهم هو ـ في الحقيقة ـ مندرج تحت أمر واحد من أمرين تقدم ذكرهما:

---

(١) في «التذكرة» صفحة ٦٣.

(٢) في «قانون التأويل» ص٤٥٠ ـ ٤٥٢.

أولهما : أن يُشعِر قلبه أنه خليفة عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ثانيهما : أن يُشعِر نفسه، ويُشعِر طلابه: أنه بمنزلة الوالد الشفوق الناصح لكل واحد منهم، سواء بالتربية والرعاية، أم بالتصحيح والتقديم.

فكل ما يصدر عن أهل كلٍّ من هذين المقامين، ينبغي أن يتحقق به هذا المعلم المربي، وأن يتخلَّق به.

وأما أثر الأستاذ المربي :

فإنه مربِّي الأخلاق والروح في أفراد أمته، وهو قائدهم الأخلاقي، ومزكّيهم، والمقدَّم الفكريُّ فيهم، وهم أتباعه وجنوده، وهو صاحب السلطنة والهيمنة على قلوبهم وعقولهم، دون سلاح ولا مُلك.

هذا إذا استشعر بمسئوليته، وقام بواجبه حق القيام.

وكان فضيلة العلامة الداعية الرباني شيخنا الشيخ أبي الحسن النَّدْوي رحمه الله تعالى، ألقى محاضرة من نحو خمسين سنة، بعنوان «كيف تُوجَّه المعارف في الأقطار الإسلامية»، طبعَتْها دار الإفتاء بالمملكة العربية السعودية، قال الشيخ في آخرها مبيِّناً أثرَ المعلم وضرورةَ اختياره لهذا المنصب:

إن «مسألة اختيار المعلمين ليست بسيطة سهلة، كما يظن كثير من رجال المعارف، ليس أساسُه العلمَ وحده، والمقدرةَ التعليمية، والمؤهلاتِ العلميةَ فحسب، بل يجب أن تكون للسيرة والخُلُق والمبدأ والغاية، والإيمان والعقيدة، المكانةُ الأولى والأهمية الكبرى في اختيار المعلم.

«ويجب أن تكون هذه العقيدة متغلغلةً في الأحشاء، قد ملكت عليه فكره ومشاعره، وجعلت منه داعية لا يَمَلُّ ولا يكِلُّ، ومؤمناً لا يرتاب ولا يتشكك، وذلك مَثَل المعلم الكامل الذي يَسعد به نظام التعليم، ويؤدي مهمته بنجاح وسهولة.

«وإني لا أعرف أمانة أكبر مسئوليةً، وأشدَّ خطراً، وأعمق أثراً في مستقبل الأمة وحياتها، من المعارف، فزلَّة من زلاتها قد تُردي أمة بأسرها في هاوية، وقد تُوْدي بها إلى الاضمحلال والتفسُّخ والفوضى في الأخلاق والاجتماع، والسياسة والتعليم، واللادينية والإلحاد، كذلك يمكنها وحدها أن توجِّه العقول والنفوس توجيهاً صالحاً، وتنشىء الأمة نشأة جديدةً، وتبني لها مستقبلاً باهراً.

«وليس من الشرف والرجولة الفرارُ من المسئولية المشرِّفة، بل الشرف والرجولة وعلوّ الهمة: الاضطلاعُ بهذا العبء الذي ألقتْه الأمة على كاهلها، وأن تساهم في نهضة الأمة بالقسط الأكبر، بل تضع أساسها الذي سيقوم عليه بناء المجتمع».

ولكون المعلم بهذا المقام، وهذا الأثر، وهذه المسئولية: كان (العلماء) صنوان (الأمراء) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ النساء: ٥٩، فالعلماء باللسان، والأمراء بالسِّنان، ولا بدّ من كليهما.

وللعلماء كلام كثير وطويل في بيان واجباته، ليتم نفعه وأثره، سآتي على بعضها في المعلم اللاحق، وباختصار شديد.

* * * * *

المَعْلَم الأول

أهم مهمات الأستاذ المربي

أهم تلك الوظائف:

١ ـ إخلاصه في تعليمهم ونصحهم[١].

٢ ـ تطبيقه العملي لما يعلِّمهم إياه ويربِّيهم عليه.

وهذان الأمران ذكرهما بإجمالٍ الحافظ ابن رجب رحمه الله في شرح قوله عليه الصلاة والسلام: «إن العلماء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورَّثوا العلم»، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، الذي مطلعه: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً» فقال[٢]:

«فيه إشارة إلى أمرين، أحدهما: أن العالم الذي هو وارث للرسول حقيقةً، كما أنه ورِث علمَه، فينبغي أن يورِّثه كما ورَّث الرسولُ العلم، وتوريثُ العالم العلمَ هو أن يخلِّفه بعده بتعليم أو تصنيف، ونحو ذلك مما يُنتفع به.

---

(١) وقريب من الحديث عنه: الحديث عن إخلاص الطالب لله في طلب العلم، الذي تقدم الحديث عنه في المعلم الأول ص٦٥.

(٢) صفحة ٥٢.

«وفي «الصحيح»[١] عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

«فالعالم إذا علّم من يقوم به بعده، فقد خلَّف علماً نافعاً، وصدقة جارية، لأن تعليم العلم صدقة، والذين علَّمهم بمنزلة الأولاد الصالحين يدعون له، فيجتمع له بتخليف علمه هذه الخصال الثلاث.

«والأمر الثاني: أن مِن كمال ميراث العالم للرسول عليه السلام، أن لا يخلِّف الدنيا، كما لم يخلفها الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا من جملة الاقتداء بالرسول وبسنَّته في زهده في الدنيا، وتقلُّله منها، واجتزائه منها باليسير».

ثم أفاض رحمه الله ـ كعادته ـ في حكاية أقوال بعض السلف وأفعالهم في التقلّل من الدنيا.

٣ ـ وعليه وهو بهذا الشعور: أنه في مقام القدوة، أن يصحب ذلك منه الإخلاص، فيحاسب نفسه على أن يتوَّج قوله وفعله بالإخلاص لله رب العالمين، عالِم السرائر والخفيّات.

وأذكِّر هنا بقصة صاحب النَّقب التي تقدمت[٢].

وأذكُر ما رواه ابن أبي شيبة[١] عن ميمون بن أبي شبيب (٨٣هـ) رحمه

---

(١) أي: في الحديث الصحيح، وهو عند مسلم ٣: ١٢٥٥ (١٤).

(٢) ص٦٥.

الله تعالى أنه قال: «جلست مرة أكتب كتاباً، فعرض لي شيء إنْ أنا كتبتُه في كتابي، زيَّن كتابي، وكنتُ قد كذبتُ، وإنْ أنا تركته كان في كتابي بعضُ القبح، وكنت قد صدقتُ، فقلت مرة: أكتبه، وقلت مرة: لا أكتبه، قال: فاجتمع رأيي على تركه، فتركته، قال: فناداني منادٍ من جانب البيت ـ كأنه يريد، والله أعلم: من جانب القبلة ـ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾.» إبراهيم: ٢٧.

وقال الإمام الأكمل البابَرْتي في مقدمة شرحه «العناية على الهداية»، والإمام العيني في «البناية في شرح الهداية» رحمهما الله تعالى[٢]: «روي أن صاحب «الهداية» بقي في تصنيف الكتاب ثلاثَ عشْرة سنة، وكان صائماً في تلك المدة لا يُفطر أصلاً، وكان يجتهد أن لا يطلع على صومه أحد، فإذا أتى الخادم بطعام يقول: خَلِّهْ ورُحْ، فإذا راح كان يُطعمه أحدَ الطلبة أو غيرَهم، فكان ببركة زهده وورعه كتابُه مقبولاً بين العلماء».

وعلى الأستاذ المربي وهو في مجلس التعليم، أن يُشعر قلبَه بهذا المعنى: بأن يكون على ما كان عليه الإمام الرباني عبد الرحمن بن القاسم العُتَقي، تلميذ مالك وخليفته رضي الله عنهما، ففي «ترتيب المدارك»[٣]: أنه «كان طوال ما يُقرأ عليه، رافعاً إصبَعه مبتهلاً إلى الله تعالى في التوفيق والسلامة». التوفيق فيما يُعلِّم ويُقرأ عليه، والسلامة من الزلل فيه، له

---

(١) في «المصنف» (٥٤٤٥).

(٢) البابرتي ١: ٨، والعيني ١: ٥١.

(٣) ١: ٥٧٧.

ولهم، فإنه خليفة عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وليحذرِ المعلم كلَّ الحذر أن يُشعر نفسه أن التعليم مهنة كغيره من المهن!! بل هو عبادة من أعظم العبادات، قال الإمام النووي رحمه الله[١]: «اعلم أن التعليم هو الأصل الذي به قِوام الدين، وبه يُؤْمَن امِّحاقُ العلم، فهو من أهم أمور الدين، وأعظمِ العبادات، وآكدِ فروض الكفايات». وذكَر الدليلَ عليه من القرآن والسنة، إلى آخر كلامه المهم النفيس، وفي كل جملة منه درس وواجب.

٤ ـ وعليه وهو بهذا المقام ـ مقامِ التعليم ـ أن يُشعر قلبه أنه في مقام الخلافة عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، يبلِّغ الناس شرع الله ودينه، وسنة رسوله، وهو في فتواه لهم موقِّع عن الله تعالى، كما تقدم شرحه أول هذا البحث[٢].

٥ ـ وعليه وهو بهذا المقام: أن يشعر أنه في مقام القدوة أمام طلابه، ولسانُ حاله في كل حركة يتقلَّب فيها يقول لهم: هذا صحيح، وهذا غير صحيح، وهذا صواب، وهذا جائز، ونحو هذا، وهذا لا يتم إلا بالمحاسبة الدقيقة فيما يقول ويفعل، ويعلِّم ويلقِّن.

وليذكِّر نفسَه دائماً بحديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، مرفوعاً[٣]: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها

---

(١) في مقدمة «المجموع» ١ : ٣٠.

(٢) صفحة ٧٤.

(٣) الذي رواه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم ٤ : ٢٢٩٠ (٥١).

كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع عليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، قد كنت آمر بالمعروف، ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه».

٦ ـ ولْيتخذْ قول سيدنا أبي ذر الغفاري رضي الله عنه إماماً له في الحرص على تبليغ الناسِ عامة، وطلابِه القاصدين إلى الاستفادة منه خاصةً، وهو قوله[1]: «لو وضعتُم الصَّمْصامة على هذه ـ وأشار إلى قَفَاه ـ ثم ظننتُ أني أُنْفِذ كلمةً سمعتها من النبي صلى الله عليه وسلم، قبل أن تُجيزوا عليّ: لأَنْفذتُها».

ونقل ابن أبي العوام[2] عن الإمام أبي يوسف القاضي رحمه الله قوله لبعض أصحابه: «لو قَدَرتُ أن أقاسمكم ما عندي، وما في قلبي من العلم: لفعلت».

ونقل السبكي[3] عن الإمام الشافعي قوله لتلميذه الربيع بن سليمان المرادي: «لو أمكنني أن أُطعِمك العلم لأطعمتك».

وقال أسد بن الفرات[4]: «ما ودّعتُ ابن القاسم ـ لسفرٍ ـ قطُّ إلا قال لي: أوصيك بتقوى الله، والقرآن، ونشر هذا العلم».

---

(١) الذي علَّقه البخاري في أول «صحيحه» ١: ١٦٠ ـ الباب ١٠ من كتاب العلم.

(٢) في «مناقبه» ص٣١٢.

(٣) في «طبقاته» ٢: ١٣٤.

(٤) كما في «ترتيب المدارك» ١: ٦٠٩.

٧ ـ وليجتهدْ تمامَ الاجتهاد في تعليمهم وتبليغهم أكبرَ قدرٍ ينفعهم فيما هم فيه، من المادة العلمية، ومن المُكْنة العلمية، فالزيادة عن قدر عقولهم ومستواهم ضارّة لهم، كما أن انتقاصهم من حقهم عليه (تطفيف في المكيال) لا يجوز.

٨ ـ الدُّرْبة والمُكْنة التعليمية، فالأستاذ الذي مضى عليه في تدريس العلوم سنواتٌ، يمكنه أن يُوصل المعلومة الجديدة المتعسِّرة، إلى أفهام طلابه بيُسْر، بخلاف الأستاذ الجديد.

وقد أشار إلى هذه المزية في المعلِّم: الإمام أبو حنيفة، وهو يحكي أول لقائه بشيخه الإمام حماد بن أبي سليمان رحمهما الله تعالى، قال[1]: «أتيت حماد بن أبي سليمان، فإذا هو شيخ وقور حليم يَفهم ويُفهم، فلازمته، فوجدت عنده كل ما احتجت إليه، حتى قال لي يوماً: أنزفتَني يا أبا حنيفة».

٩ ـ وعلى الأستاذ أن يسعى لغرس المحبة المتبادلة بينه وبين طلابه، حتى تتم الفائدة المرجوَّة له ولهم، له: بالأجر والثواب، والصدقة الجارية، والذِّكر الحسن، ولهم: بمزيد الانتفاع، والتحصيل العلمي.

١٠ ـ ومن أسباب المحبة المتبادلة: أن لا يعنِّف، ولا يثبِّط همة طالب، بل ينهض بهمتهم، ويبشِّرهم بأنهم سيكونون رجال الأمة وعلماءها..، وما إلى ذلك.

---

(١) كما في «مناقب أبي حنيفة» للموفق المكي ص٥٨.

روى ابن أبي العوام[١] عن الحسن بن زياد اللؤلؤي قال: «كنت أختلف إلى زُفر[٢] وإلى أبي يوسف في الفقه، وكان أبو يوسف أوسعَ صدراً بالتعليم من زفر، فكنت أبدأ بزفر، فأسأله عن المسألة التي تُشكل عليّ، فيفسِّرها لي، فلا أفهمها، فإذا أعيَيْتُه قال: ويحك! ما لك صناعة؟ ما لك ضيعة؟[٣] ما أحسَبك تُفلح أبداً! قال: فأخرجُ من عنده وقد فترتُ واغتممتُ، فآتي أبا يوسف فيفسرها لي، فإذا لم أفهمها قال لي: أُرْفُق، ثم يقول لي: أنت الساعةَ مثلُك حين بدأت؟ فأقول له: لا، قد وقفت منها على أشياء، وإن كنت لم أستتمَّ ما أريد، فيقول لي: فليس من شيء ينقص إلا يوشك أن يبلغ غايته، اِصبِر، فإني أرجو أن تبلغ ما تريد. قال الحسن ابن زياد: فكنت أعجب من صبره».

وروى الحافظ أبو طاهر السِّلَفي[٤] بسنده إلى الإمام القدوري قال: «كان أبو جعفر الطحاوي يقرأ على المزني فقال له يوماً: والله لا أفلحتَ،

---

(١) في «مناقب الإمام أبي حنيفة» (٦٧٣).

(٢) «أختلف»: أي: أتردّد. وزُفر: هو الإمام زفر بن الهذيل العنبري، أحد أجلّة أصحاب الإمام أبي حنيفة رحمهم الله تعالىٰ.

ومن معاني زُفر في اللغة العربية: البحر. ذكر الإمام الفيروز آبادي في مقدمة كتابه «القاموس»: أنه أراد أن يختصر فيه كتابه الكبير «اللامع المُعْلَم العُجاب»، وقال: «جعلتُ ـ بتوفيق الله تعالىٰ ـ زُفَراً في زافر»، أي: إنه من شدة الاختصار جعل البحر في قِرْبة، وهي الزافر.

(٣) الضيعة: الأرض التي تُستغلُّ، أو التجارة.

(٤) في «معجم السفر» ص٥ (الترجمة: ٧).

فغضب وانتقل من عنده، وتفقه على مذهب أبي حنيفة، فصار إماماً، فكان إذا درَّس أوْ جَابَ في المشكلات[١] يقول: رحم الله أبا إبراهيم ـ المزني ـ لو كان حياً ورآني كفّر عن يمينه».

١١ ـ ومن أسباب غرس الأستاذ المحبة بينه وبين طلابه: سؤالُه عن الواحد منهم واهتمامه بأمره إذا غاب، وعيادتُه إذا مرض، وإظهار ذلك لهم، وتفقّدُه حاجتَه المادية المالية، ونحوَ ذلك من أموره الخاصة، أو أمورٍ من يتصل به اتصالاً وثيقاً، كوالديه وإخوته، عند المهمات.

ومن لطائف أخبار اهتمام الشيوخ بالنجباء من أصحابهم: ما حكاه القاضي محمد بن محمد بن الحسين بن محمد ابن أبي يعلى الفراء الحنبلي[٢] قال: «كان جدي الحسين بن محمد قد درس على أبي بكر الرازي مذهب أبي حنيفة، وغير خافٍ محلُّ أبي بكر الرازي، وأن المطيع لله، ومعزَّ الدولة خاطباه ليليَ قضاء القضاة فامتنع، وكان محلُّ جدّي أبي عبد الله منه: أنه مرض مئة يوم، فعاده أبو بكر الرازي خمسين يوماً، يعبر إليه من الجانب الغربي بالكرخ، من درب عَبْدة، إلى باب الطاق بالجانب الشرقي، فلما عوفي وحضر عنده في مجلسه قال له أبو بكر الرازي: يا أبا

---

(١) هكذا في «معجم السفر»، وفي المصادر الأخرى التي نقلتْ عنه، ومنها «الجواهر المضية» للقرشي ١: ١٩٢: أو أجاب، ومعنى ما أثبتُّ: بحث في المشكلات بحثاً واسعاً، وقطعها وأجهز على المشكل فيها، كما يقال: فلان جاب الأرض، أي: قطعها، وهذا أبلغ من: أجاب، والله أعلم بالصواب.

(٢) في «طبقاته» ٣: ٣٦٤ في ترجمة والده.

عبد الله مرضتَ مئة يوم فعُدناك خمسين يوماً، وذاك قليل في حقك»[١].

فرحم الله تلك النفوس الكريمة التي طهّرها الله بالإسلام، واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد يترتَّب أمر علمي على تفقد الأستاذ تلميذَه غير إشعاره باهتمامه به، فقد أسند الخطيب[٢] إلى المغيرة بن مِقْسَم الضبّي صاحب إبراهيم النخعي: «أن المغيرة تأخر يوماً عن إبراهيم، فقال له: يا مغيرة ما أبطأ بك؟ فقال له مغيرة: قدم علينا شيخ ـ أي: راوي للحديث ـ فكتبنا عنه أحاديث، فقال إبراهيم: لقد رأيتُنا وما نأخذ الأحاديث إلا ممن يعلم حلالها من حرامها، وحرامها من حلالها، وإنك لتجد الشيخ ـ أي: الراوي غير العالم ـ يحدث بالحديث فيحرِّف حلاله عن حرامه، وحرامه عن حلاله، وهو لا يشعر»، فمهَّد له ـ ولمن بعده ـ بهذه الكلمات درساً ومنهجاً علمياً عملياً في مستقبله العلمي طوال حياته.

ومن أخبارهم في ذلك ـ سوى عيادة المريض فإنها سنة نبوية ـ: قصة أبي حنيفة مع أبي يوسف، وتفقّده حاجته المادية.

روى الإمام الصَّيْمَري[٣] بسنده إلى أبي يوسف قال: «كنت أطلب الحديث والفقه، وأنا مُقِلّ رثُّ الحال، فجاء أبي يوماً، وأنا عند أبي

---

(١) وعلى هذا الخبر: فإن قول الإمام ابن عبد البر في «الاستغنا» ١ : ٥٧٢ «وعامة الحنبلية اليوم على ذمّه»: في محلّ التأمل.

(٢) في «الكفاية» ص١٦٩.

(٣) في «أخبار أبي حنيفة» ص٩٢، وعنه الخطيب في «تاريخه» ١٦ : ٣٦.

حنيفة، فانصرفت معه، فقال: يا بنيّ لا تمدنّ رجلك مع أبي حنيفة، فإن أبا حنيفة خبزه مَشْويّ، وأنت تحتاج إلى المعاش، فقصرت عن كثير من الطلب، وآثرت طاعة أبي، فتفقدني أبو حنيفة وسأل عني، فجعلت أتعاهد مجلسه، فلما كان أولُ يوم أتيتُه بعد تأخري عنه قال لي: ما شَغَلك عنا؟ قلت: الشغلُ بالمعاش وطاعةُ أبي، فجلست، فلما انصرف الناس دفع إليّ صرّة وقال: استمتعْ بهذه، فنظرت فإذا فيها مئة درهم، فقال لي: الزم الحلْقة، وإذا نفِدت هذه فأَعلِمني، فلزمتُ الحلْقة، فلما مضت مدة يسيرة دفع إليّ مئة أخرى، ثم كان يتعاهدني، وما أعلمتُه بخَلَّة قطُّ، ولا أخبرته بنَفَاد شيء، وكان كأنه يخبَر بنفادها، حتى استغنيت وتَموّلت».

ومن أخبار الإمام أسد بن الفرات في رحلته إلى العراق، ولقائه بالإمام محمد بن الحسن الشيباني، قوله(١): «ورآني ـ الإمام محمد ـ يوماً أشرب ماء السبيل فقال لي: تشربه؟! فقلت له: أنا ابن سبيل، فلما كان الليل بعث إليَّ بثمانين ديناراً وقال: ما عرفتُ أنك ابن سبيل إلا الآن، فلما أراد أسدٌ الانصرافَ إلى إفريقية لم يكن عنده ما يتحمّل به، فذكَر ذلك لمحمد بن الحسن، فقال له: أذكُر شأنك لوليّ العهد، فلقيه محمد بن الحسن وذاكره أمره» إلى آخر الخبر. وفيه: أن ولي العهد أمر لأسد بعشرة آلاف درهم.

ومن أخبارهم في تعهدهم لأصحابهم: القصةُ المشهورةُ عن إمام التابعين سعيد بن المسيَّب رضي الله عنهما مع صاحبه وتلميذ درسه: كثير

---

(١) كما في «ترتيب المدارك» ١: ٦١٠.

ابن المطلب بن أبي وداعة، قال كثير[١]: كنت أجالس سعيد بن المسيب، ففقدني أياماً فلما جئته قال: أين كنت، قال: توفيت أهلي فاشتغلت بها، فقال: ألا أخبرَتنا فشهدناها، قال: ثم أردت أن أقوم فقال: هل استحدثت امرأة، فقلت: يرحمك الله، ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟ فقال: أنا، فقلت: أو تفعل؟! قال: نعم، ثم حمد الله تعالى، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، وزوجني على درهمين ـ أو قال: ثلاثة ـ.

قال: فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح، فصرت إلى منزلي، وجعلت أتفكر ممن آخذ، وممن أستدين، فصليت المغرب وانصرفت إلى منزلي، واسترحت، وكنت وحدي صائماً، فقدَّمت عشائي أفطر، كان خبزاً وزيتاً، فإذا بآتٍ يقرع، فقلت: من هذا؟ قال: سعيد، قال: فأفكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيدَ بن المسيب، فإنه لم يُر أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد، فقمت، فخرجت، فإذا سعيد بن المسيب، فظننت أنه قد بدا له، فقلت: يا أبا محمد ألا أرسلتَ إليَّ فآتيَك؟ قال: لأنت أحقُّ أن تُؤتَى.

قال: قلت: فما تأمر؟ قال: إنك كنت رجلاً عَزَباً فتزوجتَ، فكرهت أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك، فإذا هي قائمة من خلفه في طوله، ثم أخذها بيدها فدفعها بالباب، وردّ الباب، فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب، ثم قدمتها إلى القصعة التي فيها الزيت والخبز، فوضعتها في ظل السراج لكي لا تراه.

---

(١) كما في «حلية الأولياء» ٢: ١٦٧ ـ ١٦٨.

ثم صعِدت إلى السطح، فرميت الجيران، فجاؤوني، فقالوا: ما شأنُك؟ قلت: ويحكم زوجني سعيد بن المسيب ابنته اليوم، وقد جاء بها على غفلة، فقالوا: سعيد بن المسيب زوّجك؟! قلت: نعم وها هي في الدار، قال: فنزلوا هم إليها، وبلغ أمي، فجاءت وقالت: وجهي من وجهك حرام إنْ مسِسْتَها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام، قال: فأقمت ثلاثة أيام، ثم دخلت بها، فإذا هي من أجمل الناس، وإذا هي أحفظ الناس لكتاب الله، وأعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعرفهم بحق الزوج.

وأخبارهم رضي الله عنهم كثيرة، ودروسها وعِبَرها أكثر وأكثر، فهم منارات الإسلام العملي، ومعالم الحق والصراط المستقيم.

* * * * *

ومن أقوال أرباب السلوك

في الوظائف الأخرى للمربي

ذكر الإمام الغزالي[١] وظائف المرشد المعلِّم نحو المتعلم، فبلغت ثماني وظائف، وأوصلها الإمام البدر ابن جماعة رحمهما الله تعالى[٢] إلى أربعة عشر أدباً، اتفقا على بعضها، وزاد كلّ على الآخر أموراً، وأطال وأطاب القول الإمام النووي[٣] وأنقلُ عناوين ما عند الإمام الغزالي.

قال رحمه الله:

«**الوظيفة الأولى**: الشفقة على المتعلمين، وأن يُجريهم مُجرى بنيه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد»[٤] بأن يقصد إنقاذه من نار الآخرة، وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدَهما من نار الدنيا.

الوظيفة الثانية: أن يقتدي بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه،

---

(١) في «الإحياء» ١: ٥٥ ـ ٥٨.

(٢) في «تذكرة السامع والمتكلم» ص٤٧ ـ ٦٦.

(٣) في «المجموع» ١: ٢٨ ـ ٣٥، وأهمها من ص٣٠ فما بعد، من قوله: «ومن آدابه: آداب تعليمه»، فلينظَر بتأنٍّ.

(٤) هذا طرف من حديث رواه أبو داود (٨)، والنسائي في «سننه» الصغرى (٤٠)، وابن ماجه (٣١٣)، وابن حبان (١٥٢٣) من «التقاسيم والأنواع»، وأحمد ٢: ٢٤٧، ٢٥٠، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأصله في «صحيح مسلم» ١: ٢٢٣ (٥٧).

فلا يطلب على إفادة العلم أجراً، ولا يقصد به جزاء ولا شكراً، بل يعلّم لوجه الله تعالى (وأطال رحمه الله).

الوظيفة الثالثة: أن لا يدع من نصح المتعلم شيئاً، وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبةٍ قبل استحقاقها، والتشاغلِ بعلم خفيّ قبل الفراغ من العلم الجليّ، ثم ينبهَه على أن الغرضَ بطلب العلوم القربُ إلى الله تعالى.

الوظيفة الرابعة: أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ.

الوظيفة الخامسة: أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي أن لا يقبِّح في نفس المتعلم العلومَ التي وراءه، كمعلِّم اللغة إذْ عادته تقبيح علم الفقه، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير.

الوظيفة السادسة: أن يقتصد بالمتعلم على قدر فهمه، فلا يُلقي إليه ما لا يبلغه عقله، فينفّره أو يخبِط عليه عقله، ولا ينبغي أن يُفشيَ العالم كلَّ ما يعلم إلى كل أحد.

الوظيفة السابعة: أن المتعلم القاصر ينبغي أن يُلقىٰ إليه الجليُّ اللائق به.

الوظيفة الثامنة: أن يكون المعلم عاملاً بعلمه، فلا يُكذب قولَه فعلُه، فإذا خالف العملُ العلمَ منع الرشد، وكل من تناولَ شيئاً وقال للناس: لا تتناولوه فإنه سمّ مهلك، سخِر الناس به، واتّهموه، وزاد حرصهم على ما نُهوا عنه، فيقولون: لولا أنه أطيب الأشياء وألذُّها، لما كان يَستأثر به».

وختم هذه الوظيفة وهذا الباب بقوله: «لذلك قال علي رضي الله عنه: قصم ظهري رجلان: عالم متهتك، وجاهل متنسّك، فالجاهل يغرُّ الناس

بتنسّكه، والعالم يغرُّهم بتهتكه».

وفي كلام الإمام الغزالي الذي طويتُه التقريرُ والبيان الشافي، وفي كلام الإمام ابن جماعة التنبيه إلى جزئيات تهمّ طالب العلم وتوقظُه من غفلته، وترشده لما يكون به عالماً يقظاً، فأنصح الأخ الطالب الحريص على الفائدة أن يقرأ ما عند كليهما.

وللإمام الماوردي رحمه الله تعالى كلماتٌ وتنبيهات أيضاً حول ما نحن بصدده، أقتطف منها جملاً، بعضُها يؤكد ما تقدم، وبعضها جديد، قال[1]: «ومن آداب العلماء: أن لا يبخلوا بتعليم ما يُحسنون، ولا يمتنعوا من إفادة ما يَعلَمون، فإن البخلَ به لؤم، والمنعَ منه حسد وإثم، وكيف يسوغ لهم البخل بما مُنِحوه جوداً من غير بخل، وأُوتوه عفواً من غير بذل؟! ولو استنَّ بذلك مَن تقدمهم، لما وصل العلم إليهم، ولانْقرضَ عنهم بانقراضهم..، وروي عن عليّ كرم الله وجهه أنه قال: ما أخذ الله العهد على أهل الجهل أن يتعلموا، حتى أخذ على أهل العلم أن يعلِّموا»[2].

---

(١) في «أدب الدنيا والدين» ص١٣٠.

(٢) أسند هذا القول إلى سيدنا علي رضي الله عنه الخطيبُ في «آداب الفقيه والمتفقه» (١٦٧) بلفظ: «ما أخذ الله ميثاقاً من أهل الجهل بطلب العلم، حتى أخذ من أهله ببيان العلم للجهّال، لأن العلم كان قبل الجهل»، وفي إسناده متروك متهم، لكن قال الخطيب نفسه في كتابه «الجامع» بعد عدَّة عناوين وأبواب: باب «ما لا يَفتقر كَتْبه إلى إسناد: ١٧٠٢ ـ كل ما تقدم ذكره يفتقر كَتْبه إلى الإسناد، فلو أُسقِطتْ أسانيده واقتُصر على ألفاظه ـ فسد أمره، ولم يثبت حكمه، لأن الأسانيد المتصلة شرط في صحته ولزوم العمل به».

=

ثم قال[١]: «وينبغي أن يكون للعالم فراسة يتوسَّم بها المتعلم، ليعرف مبلغ طاقته، وقدر استحقاقه، ليعطيه ما يتحمله بذكائه، أو يضعف عنه ببلادته، فإنه أروح للعالم، وأنجح للمتعلم،.. ومن كان كذلك: لم يَضِعْ له عَناء، ولم يَخِبْ على يديه صاحب».

ثم قال[٢]: «ومن آدابهم: نصحُ من علّموه، والرفقُ بهم، وتسهيل السبيل عليهم، وبذل المجهود في رِفدهم ومعونتهم، فإن ذلك أعظم لأجرهم، وأسنى لذكرهم، وأنشرُ لعلومهم، وأرسخ لمعلومهم.

ومن آدابهم: أن لا يعنفوا متعلِّماً، ولا يستصغروا مبتدِئاً، فإنه أدعى إليهم، وأعطف عليهم، وأحثُّ على الرغبة فيما لديهم..

ومن آدابهم: أن لا يمنعوا طالباً، ولا ينفِّروا راغباً، ولا يؤيسوا متعلماً، لما في ذلك من قطع الرغبة فيهم، والزهد فيما لديهم، واستمرارُ ذلك مُفْضٍ إلى انقراض العلم بانقراضهم».

* * * * *

ثم قال: «١٧٠٥ ـ: وأما أخبار الصالحين، وحكايات الزهاد والمتعبدين، ومواعظ البلغاء، وحِكَم الأدباء: فالأسانيد زينة لها، وليست شرطاً في تأديتها»، وانظر كلامه بعد قليل آخر رقم ١٧٠٧؛ ولهذا سوَّغ الخطيب ـ وهو الإمام الناقد ـ لنفسه ذكر هذا الأثر عن علي وغيره، مع علمه بحال أسانيدها، فدراستها ونقدها تنطّع من المعاصرين.

(١) ص١٣٤ ـ ١٣٥.

(٢) ص١٣٨ ـ ١٣٩.

المَعْلَم الثاني

حضُّ الشيخ الطلبةَ على حفظ ما ينفعهم علمياً

ومن مهام الشيخ في تكوين طالب العلم وتنشئته: حضُّه على حفظ ما ينفعه في مستقبله العلمي من القرآن الكريم، والسنة النبوية، والمتون العلمية، يحفظ متناً واحداً معتمداً في كل فنّ، وكذلك يحفظ ما ينفعه من الشواهد الأدبية، وتقدم[1] عن الإمام أبي إسحاق الشيرازي قوله: «إذا كان في المسألة بيت يُستشهد به حفظت القصيدة!».

وما تزال بقية باقية من طلاب العلم تحفظ القرآن الكريم، لكن ليس فيهم من يحفظ السنة النبوية، ولو كان «رياض الصالحين»! وهذه بلية نازلة فيهم، وأحضُّ وأخصُّ بالذكر السادة العلماء القائمين على إدارة المعاهد الشرعية ومناهجها: أن يوجهوا عناية طلابهم ـ عن طريق أساتذتهم المباشرين لتعليمهم ـ إلى حفظ أكبر قدر ممكن من السنة الشريفة، ولو في دورات متخصصة، في أوقات إجازاتهم الدراسية، مع سلوك طريق الترغيب والمكافآت لهم على الحفظ.

ولقد كانت وفاةُ سيدي العلامة القدوة الحافظ الشيخ عبد الله سراج الدين خسارةً فادحة للعلم، من وجوه كثيرة، منها: أنني لا أعرف له خَلَفاً

---

(١) صفحة ٢٥٦.

في حفظ السنة النبوية، تغمده الله برحمته، فإنه كان لا يفتأ عن حفظ أيّ حديث شريف يقف عليه، لم يكن حفظَه من قبلُ ـ على كثرة محفوظاته ـ، ولا يتوانى عن حفظ أيّ زيادةٍ دالةٍ على معنى جديد ولو كلمة، وعلى عادته التي درج عليها في كل محفوظاته: الإتيانُ بالرواية بألفاظها وزياداتها، وراويها من الصحابة، ومخرِّجها من الأئمة.

قال الخطيب رحمه الله[١]: «ينبغي للطالب أن يبدأ بحفظ كتاب الله عز وجل، إذْ كان أجلّ العلوم وأولها بالسبق والتقديم»، وروىٰ عن الإمام الأوزاعي، ويحيى بن يمان ما يؤكد هذا المعنى.

ثم قال[٢]: «ثم الذي يتلو القرآن من العلوم: أحاديثُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنتُه، فيجب على الناس طلبها، إذْ كانت أسَّ الشريعة وقاعدتَها».

ثم قال رحمه الله[٣]: «باب: حفظ الحديث ونفاذ البصيرة فيه، إذا استقرت بالطالب داره، وانقضَتْ من السفر والاغتراب أوطاره، فليأخذ نفسه بالنظر فيما كتب، والتدبر لعلمِ ما طلب».

ثم أسند[٤] إلى الإمام عبد الرزاق الصنعاني، وإلى الأصمعي قولهما: «كل علم لا يدخل مع صاحبه الحمّام، فلا تَعدَّه علماً»، يريدان: أن ما لم

(١) في «جامعه» (٧٩).
(٢) (٨٩).
(٣) (١٨١٣).
(٤) (١٨١٨، ١٨١٩).

يُحفظ فليس بعلم.

أما ابن عبد البر رحمه الله فكتب[١] كلاماً نفيساً، ورسم منهجاً قويماً لطالب العلم، يَستنُّ به في حياته العلمية، تحت عنوان: باب رتب الطلب، وكشف المذهب، قال أوله: «لا ينبغي تعدِّيها، ومن تعدّاها جملةً فقد تعدَّى سبيل السلف رحمهم الله، ومن تعدى سبيلهم عامداً ضلّ، ومن تعداها مجتهداً زلّ».

وأقول: رضي الله عن الإمام ابن عبد البر، فإن هذه الجملة تكفي طالبَ العلم منهجاً في مسيرته، يلتزمه ولا يحيد عنه.

ثم لخّص كلامه الطويل في قدر نصف صفحة، تلخيصاً يتعيّن على طالب العلم قراءته وفهمه وتدبّره[٢].

وقال الإمام البدر ابن جماعة رحمه الله[٣]: نصائحَ وتوجيهاتٍ لا بدّ لطالب العلم من الأخذ بها، أقتبس منها هذه الكلمات:

«أن يبتدأ أولاً بكتاب الله العزيز فيُتقنه، ولْيحذرْ من نسيانه، ثم يحفظ من كل فنّ مختصراً يجمع فيه بين طرفيه، من الحديث وعلومه، والأصولَيْن ـ أصول الدين (التوحيد) وأصول الفقه ـ والنحو والتصريف، ويشتغل بشرح تلك المحفوظات على المشايخ».

---

(١) في «جامعه» ٢: ١١٢٩ ـ ١١٣٩.

(٢) فلينظر آخر الفقرة (٢٢٣٧) من قوله: «فعليك يا أخي بحفظ الأصول والعناية بها» إلى آخره.

(٣) في «تذكرة السامع» ص ١١٢ ـ ١٢٠.

«وليحذر من الاعتماد في ذلك على الكتب أبداً، بل يعتمد في كل فنّ مِن الشيوخ مَن هو أحسنُ تعليماً له، وأكثر تحقيقاً فيه، وذلك بعد مراعاة الدين والصلاح،..، ويعطي الكتاب الذي يقرؤه، أو الفنّ الذي يأخذه كليّتَه حتى يتقنه».

«وكذلك يحذر التنقل من كتاب إلى كتاب من غير موجب، فإذا تحققتْ أهليته، وتأكدت معرفته فالأَولى أن لا يدع فناً من العلوم الشرعية إلا نظر فيه، ويعتني من كل علم بالأهم، ولا يغفلنّ عن العمل الذي هو المقصود بالعلم».

وقد كان الإمام ابن جماعة ذا مشاركة قوية في علوم كثيرة، على وَفْق نصيحته للطالب: «الأَوْلى أن لا يدع فناً من العلوم الشرعية إلا نظر فيه»، كما وصفه بهذا الإمام الذهبي[1]، فإنه قال بعد ثناء طويل عليه: «كان روضةَ معارف، يضرِب في كل فنّ بسهم».

ثم نبّه ابن جماعة إلى أمر مهم يتصل بما سبق فقال[2]: ينبغي «أن يصحح ما يقرؤه قبل حفظه تصحيحاً متقناً، إما على الشيخ، وإما على غيره مما يعينه، ثم يحفظَه بعد ذلك حفظاً محكماً، ثم يتعاهده، ولا يحفظ شيئاً قبل تصحيحه، لأنه يقع في التحريف والتصحيف، وقد تقدم[3]: ـ أن لا يكون الشيخ ممن أخذ عن بطون الأوراق، ولم يُعرف بصحبة الشيوخ

(١) في «ذيل تاريخ الإسلام» ص٣٦٧.

(٢) في «التذكرة» ص١٢١.

(٣) هناك في «التذكرة» ص٨٧.

الحُذَّاق ـ وأن العلم لا يؤخذ من الكتب، فإنه من أضرّ المفاسد».

وأعود إلى نصيحة البدر ابن جماعة بحفظ متن من كل فنّ وعلم، وأؤكد ذلك بنقلَيْن، أولهما: قوليٌّ نظري، وثانيهما: فعليٌّ واقعيّ.

أما الأول: فوصية الإمام ابن الجوزي رحمه الله بذلك لولده[1] إذ يقول له: «عليك بالحفظ، فإنه رأس المال، والتصرّف ربح»، ولا يلتفت القارئ الفَطِن إلى ما كُتِب عليه هناك تعليقاً، فإن لي واقعة مع ذاك المعلِّق تتصل بخطأ إنكاره أهميةَ الحفظ للعلم، فكان له موقف لا يغبط عليه، ولا أحبّ الإبعاد ـ بحكايتها ـ عما أنا بسبيله.

وما يزال بين أيدي طائفة من المشايخ وطلبة العلم مجلد يُعرف باسم «مجموع مهمات المتون»، له طبعات متعددة، تختلف في عدد المتون المجموعة فيه، جَمَع عدة متون معتمدة مهمة من كل فنّ، وزادت طبعاته الأخيرة على الستين متناً، كانت المعاهد الشرعية عامة، والمعاهد الأزهرية خاصة، تحرص على تحفيظ طلابها جملة من هذه المتون، وهذا (المجلد) يمثّل واقع (جيل المتون) كما سماه بذلك الأستاذ الدكتور المحقق محمود الطناحي رحمه الله تعالى[2].

وبلغني عن الإمام محمد أنور الكشميري رحمه الله تعالى: أنه كان يحفظ من المتون العلمية المنظومة /٢٥/ ألف بيت، سوى المتون المنثورة!.

---

(١) في «لفتة الكبِد» ص٢٠.

(٢) في «مقالاته» ١ : ١٤٠ فما بعدها، فانظرها.

ومن محفوظات بعض مشايخنا، وبعض طلبتهم، من السادة الشافعية: كتاب «البهجة الوردية» الذي نظم فيه الإمام ابن الوردي الفقيه الشافعي (ت ٧٤٩) كتاب «الحاوي الصغير» لابن يونس، رحمهم الله جميعاً، وعدد أبياتها (٥٢٨٦) بيتاً، مع حفظهم «ألفية العراقي» في السيرة النبوية، و«ألفيته» أو «ألفية السيوطي» في علم مصطلح الحديث، و«ألفية ابن مالك» في النحو، و«جوهرة التوحيد» أو «بدء الأمالي» في علم التوحيد، وغير هذا وذاك.

ثم دخل الدخيل على عقول أصحاب الدراسات الحديثة ـ وسَرَى منهم إلى عقول بعض طلاب العلم ـ أن الحفظ ضارّ في العلم، حسب النظريات التعليمية الجديدة، فضاع الحفظ، وضاع بعده الفهم!.

وأما الثاني: فالحادثة المشتهرة بين أهل العلم قديماً وحديثاً، أنقلها من أول ترجمة التاج السبكي[1] للإمام الغزالي رحمهما الله تعالى، قال: «قال الإمام أسعد المِيْهَني: سمعته ـ أي: الإمامَ الغزاليَّ ـ يقول: قُطِعت علينا الطريق، وأخذ العيّارون ـ قُطَاعُ الطريق ـ جميع ما معي، ومضوا، فتبعتُهم، فالتفتَ إليَّ مقدَّمهم وقال: ارجعْ ويحك، وإلا هلكتَ، فقلت: أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن تردّ عليَّ تعليقتي فقط، فما هي بشيء تنتفعون به. فقال لي: وما هي تعليقتُك؟ فقلت: كُتُب في تلك المِخلاة، هاجرتُ لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها، فضحك وقال: كيف تدّعي أنك عرفتَ علمها، وقد أخذناها منك فتجرَّدت عن معرفتها وبقيت بلا علم!

---

(١) في «طبقاته» ٦: ١٩٥.

ثم أمر بعض أصحابه، فسلَّم إليَّ المخلاة.

قال الغزالي: فقلت: هذا مستنطَق أنطقه الله ليرشدني به في أمري، فلما وافيت طوسَ، أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين، حتى حفظت جميع ما علَّقته، وصرتُ بحيث لو قُطِع عليّ الطريق لم أتجرَّد من علمي».

ومما يجري على ألسنة العلماء والشيوخ قديماً وحديثاً: من حفظ المتون، نال الفنون، ويقولون أيضاً: حفظُ حرفين، خير من سماع وِقْرين، وفهم حرفين خير من حفظ وِقرين، وحرفٌ في قلبك، خير من ألفٍ في كتبك ـ أي: دون حفظ لها ـ. وقالوا: لا خير في علم لا يَعْبُر معك الوادي، ولا يَعْمُر بك النادي[١].

وأما قولهم: «ما كُتِب قَرَّ، وما حفظ فَرّ»: فيريدون به: أن الحفظ ـ مع الأيام وكبر السنّ ـ عرضة للنسيان، فلا بدّ من تثبيته بالكتابة، ولا يريدون تهوين أمر الحفظ.

وخلاصة ذلك: أن الحفظ مع الفهم عماد العلم، وزاد العالم، أما وسيلةُ تخليد العلم وبقائه في الأمة على مدى القرون: فبكتابته وتدوينه.

ومما يناسب ذكره وحكايته عن اهتمام مشايخنا بحفظ أمهات المتون العلمية: ما يحكيه سماحة مفتي حلب، فضيلة العالم العامل الحكيم الدكتور الشيخ إبراهيم السلقيني (١٣٥٣ ـ ١٤٣٢) رحمه الله تعالى: أن

---

(١) الماوردي ص٩٨، والزرنوجي ص٧٠، و«بلوغ أقصى المرام» للطُّرُنْباطي الفاسي ص٤٥٣، والمراد بالنادي: المجالس العلمية، أي: لا خير في علم لا تستحضره في مجالسك العلمية، فتعمُرَ هذا المجلس بإفادتك الحاضرة في ذهنك.

جدّه العالم الورع الناسك سيدي الشيخ إبراهيم السلقيني (١٢٧٠ ـ أول عام ١٣٦٧) رحمه الله تعالى، كان يحفِّظه «ألفية ابن مالك» في النحو، والجدُّ قد جاوز التسعين، والحفيد كان في حدود العاشرة من عمره.

وكان في تلك الآونة، ومن علماء حلب، ومفتيها أيضاً، فضيلة العلامة الفقيه الشيخ أحمد الحَجِّي الكردي (١٢٩٩ ـ ١٣٧٣) رحمه الله تعالى، كان يدخل عليه الداخل المستفتي فيرى الشيخ وحده، وهو يذاكر محفوظاته من «ألفية ابن مالك» ونحوها.

وممن لقيتُه بمكة المكرمة ـ وهو من علماء الأزهر الشريف ـ فضيلة العلامة الصالح الفقيه مربّي الأجيال المعمَّر الشيخ محمود عبد الدائم (١٣١٤ ـ ١٤١٢) رحمه الله تعالى، كان يُقرئ طلاب الدراسات العليا النصَّ من الكتاب، فإذا لحن الطالب في قراءته، يصحِّح له، ويعربُ له الكلمة، ويأتيه بالشاهد على ذلك من «ألفية ابن مالك» أيضاً.

ورضي الله عن الإمام ابن مالك، كم كان مخلصاً في «ألفيته» حتى خلّد الله الاستفادة منها على مدى هذه القرون المتطاولة!!.

وكنت رغبت بتسمية كتبٍ من كل فنّ يلتزم طالب العلم المبتدئ بحفظها وقراءتها، كالتفصيل لما أجمله البدر ابن جماعة في كلامه السابق، ثم رأيت اختلاف البلدان وتعارف مشايخها على كتب، غيرِ ما تعارف عليه علماء البلدة الأخرى، فأمسكت عن ذلك.

لكني أؤكد النصيحة والتوصية بقراءة كتاب «الشمائل المحمدية» للإمام الترمذي رحمه الله، في سِنّ مبكرة من عُمر الطالب، فإنه مفيد جداً، لتكوين أخلاق طالب العلم، على هَدْي من الشمائل المحمدية،

فإنه في هذه السنّ مستعدّ لانطباع سجاياه وتكييفها على ما تُوجَّه وتكيَّف.

ولا بدّ من الإشارة إلى ما هو معلوم ومسلَّم به: أن كتب كل فنّ متفاوتةٌ إيجازاً وبسطاً، ومتفاوتة ـ من حيثُ الجملةُ ـ اعتماداً واستدراكاً.

أما إيجازاً وبسطاً: فهذا حاصل في كتب كل علم، وللإمام الغزالي رحمه الله في الفقه الشافعي: الوجيز، والوسيط، والبسيط. وقد تحدث ابن الأكفاني، المتوفَّىٰ سنة ٧٤٩ رحمه الله في كتابه «إرشاد القاصد» عن ثلاثة وستين علماً من العلوم الشرعية والعربية والطبيعية والرياضية والفلسفية، وما إلى ذلك، وذكر من كتبِ كلِّ علمٍ: المختصر، والمتوسط، والمبسوط.

وأما اعتماداً واستدراكاً: فهذا حاصل أيضاً، والاستدراك يتفاوت، بين ردّ وتضعيف لآراء مؤلفه، وبين استكمال لتعاريفه، وتقسيمات أنواعه، وتفصيل مُجمَله، وتوضيح مُغْلَقه. والله وليّ السداد والتوفيق.

* * * * *

المَعْلَم الثالث

انتهاجهم طريق التدرج في التعليم

إن الحديث عن تدرج العلماء في تلقينهم العلم لأبنائهم الطلبة، ذو شعب ثلاث، ولا بدّ من تمييزها عند الحديث عنها.

فأولها : أخذ الأستاذ أبناءه الطلبة بالأهم فالأهم من العلوم.

وثانيها : تدرجه معهم سنة بعد سنة، بعلم بعد علم.

وثالثها : أن يكون ذلك كله بصغار مسائل كل علم قبل كبارها.

وقبل حديثي عن هذه الشُّعَب الثلاث، أقدِّم بين يديها بكلمة فأقول:

إن التدرج في التعليم هو من المنهج الرباني الذي قوَّم الله تعالى به عباده المؤمنين، فيما أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم، فأسَّس لهم أولاً العقيدة الإسلامية، وما يتصل بها، في المرحلة المكية، ثم بدأ بإنزال التشريع لأركان الإسلام وشرائعه شيئاً فشيئاً، حسب المناسبات والحوادث، فما أنزل أحكام الصلاة كلها دفعة واحدة، ولا أحكام الزكاة كذلك، وحتى في الجهاد تدرّج تشريعه ـ دون تفصيل أحكامه ـ على ثلاث مراحل، وهكذا كانت أحكام الأسرة، والمعاملات، وما إلى ذلك.

وعلى هذا السَّنن جاء المنهج النبوي، ومن المواقف المشهورة، حديث ابن عباس في بَعْث معاذ بن جبل رضي الله عنهم إلى اليمن، وذلك

فيما رواه البخاري، ومسلم[١]، قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإنْ هم أطاعوا لذلك فأعلِمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلِمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ في فقرائهم».

ولا يلبث الطالب سنواتٍ قلائلَ إلا ويجد في صدره ـ بعون الله وفضله، مقروناً بإخلاصه وجدّه ـ ثروة كبيرة من العلم، يتحقق له فيها قول ابن النحاس الحلبي المصري (٦٢٧ ـ ٦٩٨) رحمه الله تعالى[٢]:

اليومَ شيءٌ وغداً مِثلُه ... من نُخَبِ العلم التي تُلْتَقطْ
يُحصِّل المرءُ بها حكمةً ... وإنما السَّيلُ اجتماعُ النُّقَطْ

وممن تحقَّق له، وفيه، هذه العاقبة الحسنة بأكملها: الإمام أبو حنيفة، فقد قال له شيخه حماد بن أبي سليمان لما ذهب إلى حلقته: «تعلَّم كل يوم ثلاث مسائل ولا تزد عليها شيئاً حتى ينفتق لك شيء من العلم، ففعل ولزم الحلقة حتى فَقُه، فكان الناس يشيرون إليه بالأصابع»[٣].

(١) البخاري في مواضع من «صحيحه» أولها (١٣٩٥)، ومسلم ١: ٥٠ (٢٩) واللفظ له.

(٢) له ترجمة عالية أول «بغية الوعاة» ١: ١٣.

(٣) رواه الصميري في «أخبار أبي حنيفة» ص٢٠، وعنه الخطيب في «آداب الفقيه والمتفقه» (٨٦٠).

أ ـ أما الحديث عن الشعبة الأولى: فأبدؤه بقول الإمام الماوردي[١]: «كل العلوم شريفة، ولكل علم منها فضيلة، والإحاطة بجميعها مُحال، وإذا لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيل، وجب صرف الاهتمام إلى معرفة أهمها، والعناية بأولها وأفضلها، وأَولى العلوم وأفضلُها علم الدين، لأن الناس بمعرفته يَرشُدون، وبجهله يَضِلّون».

ثم قال رحمه الله[٢]: «اعلم أن للعلوم أوائلَ تؤدي إلى آخرها، ومداخلَ تُفْضي إلى حقائقها، فليبتدئ طالب العلم بأوائلها، لينتهيَ إلى أواخرها، وبمداخلها ليفضي إلى حقائقها، ولا يطلب الآخِرَ قبل الأول، ولا الحقيقةَ قبل المدخل، فلا يدركُ الآخرَ، ولا يعرف الحقيقة، لأن البناء على غير أُسّ: لا يُبنىٰ، والثَّمَر من غير غرس: لا يُجنىٰ».

ولي وقفتان عند هذا الرسم والتأسيس لمنهج طالب العلم:

أولاهما: فيها خبر طريف عن إمام من أئمة السلف ربّى فيه تلميذه على دخول العلم من بابه وأوله. روى الرامهرمزي رحمه الله[٣]: «أن سائلاً سأل الإمام سفيان بن عيينة: كم سمعتَ من الزهري؟ فقال: أما مع الناس فما لا أحصي، وأما وحدي فحديث واحد، قلت: ما هو؟ قال: دخلت يوماً باب بني شيبة (في المسجد الحرام)، فإذا أنا به جالس إلى عمود من أساطين المسجد، فقلت ـ في نفسي ـ: هذا أبو بكر ـ كنية ابن شهاب

---

(١) في «أدب الدنيا والدين» ص٦٦ ـ ٦٧.

(٢) في «أدب الدنيا والدين» أيضاً ص٨٤.

(٣) في «المحدث الفاصل» (٧٢).

الزهري ـ، ولا أجده أخلى منه الساعة، فجلست إليه، فقلت: يا أبا بكر حدثني حديثاً أو حديثين: فقال: سلني عما شئت، قلت: حدثني حديث المخزومية التي قطع رسول الله صلى الله عليه وسلم يدها، قال: فضرب وجهي بالحصى، ثم قال: قم، لا أقامك الله! فما يزال عبد يقدم علينا بما نكره!.

قال: فقمت منكسراً نادماً، فجلست قريباً منه، فمرّ رجل في المسجد لابن شهاب إليه حاجة، فسبّح به فلم يسمع، فرماه بالحصى فلم يبلغه، فاضطر إليّ فقال: قم فادعه لي، فدعوته، فأتاه فقضى حاجته، وعدتُ إلى مجلسي، فنظر إليَّ فدعاني، فجئته، فقال: أخبرني سعيد بن المسيب وأبو سلمة بن عبد الرحمن، جميعاً عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «العجماء جُبَار، والبئر جُبَار، والمعدِن جبار، وفي الرِّكاز الخُمُس»[1]، هذا خير لك من الذي أردتَ»، ورضي الله عن أئمتنا يعلمون أصحابهم العلم، ويعلمونهم معه العقل والحكمة.

وثانيتهما: قوله آخر كلامه: الثَّمَر من غير غرس لا يُجنى، فهو تشبيه

---

(١) رواه البخاري (١٤٩٩)، ومسلم ٣: ١٣٣٤ (٤٥) من طريق الزهري، عن سعيد وأبي سلمة، عن أبي هريرة.

والعجماء: كل حيوان سوى الآدمي. وجُبَار: أي: هَدَر، والمعنى: لو أتلفت الدابة شيئاً نهاراً، أو كان ليلاً دون تفريط من مالكها: فهذا (هدر) غير مضمون. ومن حفر بئراً في ملكه، وتلف فيه إنسان: فلا ضمان على صاحب البئر. ومن حفر ليستخرج معدِناً فانهار عليه أو وقع فيه إنسان: فلا ضمان عليه. وأما الركاز: فهو الكنز المدفون. أو المعادن الأرضية عامة، فيها الخُمُس لبيت المال، والباقي لمن وجدها.

عظيم الأثر والنفع لمن تأمله، وأراد أن يطبقه على واقعنا، فكم من متشبِّع بما لم يُعط من متعالمي زماننا؟! رَقِي السطح من غير سلَّم؟! وتزبَّب ولم يُحصرم؟! وتموَّل وهو صَعْفوق مِفْلاق[١]؟! ذلك لأنه تربّى ولم يَرضَ أن يدعي الاجتهاد في دين الله: حديثياً وأصولياً وفقهياً، بل أقام نفسه حكَماً على الأئمة المجتهدين الأربعة وغيرهم، ويُخطِّئ ويصوِّب، بل تعدَّىٰ ليكتب في مقدمة الكتاب الذي يحققه!! دراسةً لعقيدة مؤلفه الإمام، الذي يعيش هو على فُتات مائدة كتابه، ويبدِّعه ويضلِّله!! ذلك لأنه تربَّى في مدرسة من لم يُعرف له أصل ولا فصل في طلب العلم!! فكان كثمرة من غير غراس؟! بل إنه أَبلغَ نفسَه الدرجةَ المئة في العلم، وهو بعدُ لم يرقَ الدرجة الأولى والثانية، ولا سيفَ للسلطان يُحرس به سياج العلم والدين!.

ثم قال رحمه الله[٢]: «ينبغي لطالب العلم أن يبتدئ من العلم بأوله، ويأتيَه من مدخله، ولا يتشاغلَ بطلب ما لا يضر جهلُه، فيمنعه ذلك من إدراك ما لا يسعه جهله، فإن لكل علم فضولاً مذهلة، وشذوراً مُشغِلة، إنْ صرف إليها نفسه، قطعته عما هو أهم منها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: العلم أكثر من أن يُحصى، فخذوا من كل شيء أحسنه».

وأول ما ينبغي لطالب العلم أن يشتغل به علمان اثنان: العربيةُ: نحوُها

(١) كلاهما بمعنى واحد، وهو المفلس يدخل السوق للتجارة، ولا مال عنده، وانظر «أدب الاختلاف» ص٥٦، ٥٧.

(٢) الماوردي في «أدب الدنيا والدين» صفحة ٨٨.

وصرفُها ولغتُها، وعلوم بلاغتها: المعاني، والبيان، والبديع، والفقه المذهبي، وذلك بالتدرج فيه، عن طريق دراسة المتون والمختصرات، وتركيزِها وتأسيسِها.

أما أهمية دراسة العلوم العربية: فينظر لها الآثار التي أخرجها الخطيب[١]، ومنها عن حماد بن سلمة أنه قال لإنسان: «إنْ لحنتَ في حديثي فقد كذبتَ عليَّ، فإني لا ألحن»، وهذا من أدلة قول الأصمعي تلميذ حماد، فيمن يلحن في الحديث النبوي: إنه يخشى عليه دخوله تحت قوله صلى الله عليه وسلم: «من كذب عليّ متعمِّداً فليتبوأ مقعده من النار».

ولندركَ أهميةَ تقويم اللسان على الوجه السليم، أذكر هذه الكلمة من كلام إمام من أئمة المسلمين، وهي من غرائب أحوال أئمتنا. جاء في «رياض النفوس» لأبي بكر المالكي، المتوفَّى في الربع الأخير من القرن الخامس، رحمه الله[٢]، عن الإمام سفيان الثوري رحمه الله تعالى قال: «إنه ربما قرأ عليّ القارئ فيلحن في قراءته، فأُحْرَم نومي وطعامي!!».

والذي أدركناه: أن علماءنا ومشايخنا هم مرجع اللغة العربية، والآن غفلوا عن حراسته فسُحب البساط من تحتهم!.

وأما الفقه: فهو الدين والإسلام، وهو أول ما يُحتاج إليه بعد الشهادتين وضروريات العقيدة، هو أول ما يَحتاج إليه الطالب لنفسه، وهو أول ما يُحتاج إليه من الطالب، إذ يُسأل من قِبَل العامة عن أمور الفقه من

---

(١) في «الجامع» (١٠٧٣، ١٠٩٧).

(٢) في ترجمة عبد الله بن عمر بن غانم ١: ٢١٦.

عبادات ومعاملات.

روى الخطيب[١] عن الإمام إبراهيم الحربي، أحد أجلاّء تلامذة الإمام أحمد رحمهما الله تعالى، قال: «من تكلّم في الفقه بغير لغة، تكلم بلسان قصير».

وللإمام ابن مفلح، الفقيه الحنبلي في كتابه النافع الماتع «الآداب الشرعية»[٢]: «فصل في فضل الجمع بين الحديث وفقهه»، أتى فيه بفوائد جمة، ومنها عن صاحب «المحيط» من الحنفية قوله: «أفضل العلوم عند الجمهور بعد معرفة أصل الدين وعلم اليقين: معرفة الفقه والأحكام الفاصلة بين الحلال والحرام».

ولأبي الفرج ابن الجوزي رحمه الله كلمة في أهمية علم الفقه[٣]، قالها تحت (الخاطرة ٣٣١) وعنوانها: ماذا يجب أن يدرس طالب العلم، وقال تحتها: «من كان ذا همة، ونَصَحَ نفسه، تشاغل بالمهم من كل علم، وجعل جلَّ شغله الفقه، فهو أعظم العلوم وأهمها».

وقال كلمةً موجَزة جامعة لأهمية هذين العلمين[٤]: «لابد للطالب من معرفةِ ما يقيم به لسانه من النحو، ومعرفةِ طرف مستعمل من اللغة، والفقهُ أصل العلوم».

---

(١) في «آداب الفقيه والمتفقه» (٦٦٣).

(٢) ٢: ١٢١.

(٣) في كتابه «صيد الخاطر» ص٣٦٦.

(٤) صفحة ١٠ من «لفتة الكبِد».

وقال النووي في مقدمة «المجموع»[١]: «وأول ما يبتدئ به الطالب حفظ القرآن العزيز..، وبعد حفظ القرآن يحفظ من كل فنّ مختصراً، ويبدأ بالأهم، ومن أهمها: الفقه والنحو، ثم الحديث والأصول، ثم الباقي على ما تيسّر».

وإن واقع المعاهد الشرعية يتمشّى مع هذا المنهج، في هذين العلمين، وغيرهما من العلوم الأخرى، أما كلامي فمع من لم يدرس العلم ويطلبْه في مدارسه.

وإنه بدراسة الطالب للعلم الشرعي في معاهده، متدرِّجاً فيها، تتسع معارفه للعلوم الشرعية، عاماً بعد عام، وتكون له حرية اختيار علم منها يتخصص فيه، وتكون له أيضاً ملكةُ المشاركةِ فيها والاطلاعِ على مجملاتها، بحيثُ يتمكن من الرجوع إلى أي مبحث فيها إذا احتاج إليه في مستقبله العلمي.

وحين احتياجه إلى مبحثٍ ما: يتوسع في مراجعته في مصادره الأصلية، وما تمضي عليه سنوات قليلة إلا وصل إلى رتبة المشاركة القوية في هذه الفنون، فإن علوم الشريعة كلَّها روافد لبعضها البعض، وكلُّها تحتاج إلى بعضها البعض، فلا بدّ من المشاركة القوية فيها جميعها، لتتسم أحكامه وكتاباته بالقوة والإحكام.

---

(١) ١ : ٣٨.

الاهتمام بالمقررات الدراسية :

وأقول بمناسبة ذكري للمقررات والمناهج المتعارف عليها في المعاهد الشرعية، والتي توارد على اعتمادها الأساتذة مع طلابهم، جيلاً بعد جيل: إن هذه المقررات فيها تأسيس العلوم الشرعية في ذهن الطالب، ولهذا: فإني أوصي إخواني طلاب العلم بالحفظ لها، والمحافظة على تكرارها، والاهتمام بها، وتأسيس معارفهم الشرعية بناء عليها، فهي زادهم الآن وللمستقبل، ولا يتهاونوا فيها، ولا يتطلَّعوا إلى القراءة والمطالعة في كتب أخرى، لئلا يكون أساسهم في المستقبل ضعيفاً.

ب ـ أما الحديث عن الشعبة الثانية: فقد قال القاضي ابن العربي المالكي رحمه الله[1]: «إنَّ العقول وإنْ كانت خُلقت مستعدّة لقبول المعارف، وتمييز الحقائق، فليس في الإمكان إحاطتها بجملتها[2]، فإن الإحاطة لا تكون إلا للمحيط، وذلك معلوم قطعاً،..، إلا أن المرء لا تمكنه الإحاطة بجميع العلوم، فإن العمر الطويل لا يتسع لها، فكيف أعمارُنا القاصرة، وإنما الممكن الاطلاع على جُمَل العلوم، والإشراف على مقاصدها، دون درك التفاصيل».

وفي «الحثّ على طلب العلم»[3] ـ ولعله من كلام النظّام ـ: «من أراد

---

(١) في «قانون التأويل» ص٥٠٤ ـ ٥٠٦.

(٢) نعم، بل قال أبو حيان الأندلسي رحمه الله تعالى: «قال العقلاء: ازدحام العلوم مضِلَّة للفهوم»، كما في «الآداب الشرعية» لابن مفلح ٢: ١٢٥.

(٣) لأبي هلال العسكري ص٦٩.

أن يعلم كل شيء فينبغي لأهله أن يداووه، فإن ذلك إنما تَصَوَّرَ له، لشيءٍ اعتراه» ـ يعنى: الجنون ـ.

لكنه قال بعد ورقة: «قال الزهري: إن الرجل ليطلب، وقلبه شِعْب من الشعاب ـ أي: صغير ضيّق ـ، ثم لا يلبث أن يصير وادياً، لا يوضع فيه شيء إلا التَهَمه».

وفسَّره العسكري بقوله: «قلنا: يريد أن أول الحفظ شديد يشُقّ على الإنسان، ثم إذا اعتاد سَهُل، ومصداق ذلك: ما أخبرنا به الشيخ أبو أحمد ـ العسكري ـ عن الصولي، عن الحارث بن [أبي] أسامة قال: كان العلماء يقولون: كلُّ وعاء أَفرغتَ فيه شيئاً فإنه يضيق، إلا القلبَ، فإنه كلما أُفرِغ فيه اتسع».

وعلى هذا الوجه من التفسير ينبغي أن تفسَّر وصية الإمام ابن شهاب أيضاً لتلميذه يونس بن يزيد الأيلي[1]: «يا يونس، لا تُكابر العلم، فإن العلم أودية، فأيُّها أخذتَ فيه قُطِع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذِ العلم جملة، فإن من رام أخذه جملةً، ذهب عنه جملةً، ولكنِ الشيءُ بعد الشيء مع الأيام والليالي».

جـ ـ وأما ثالثة الشُّعَب: فأن يكون تدريج الأستاذ لهم في المرحلة الأولى والثانية بتبليغهم صغار مسائل كل علم قبل كبارها، وكانوا ينظرون إلى أبنائهم الطلبة نظرة الأم الرَّؤوم إلى وليدها الجديد، كيف تتدرَّج معه في نموِّه وغذائه وحركاته، وكما أنه لا يجوز لها أن تُطعم وليدها الصغير

(١) وهي في «جامع بيان العلم» لابن عبد البر (٦٥٢).

لأيامٍ، مما تُطعم ولدها لسنة فأكثر، فكذلك لا يَسوغ للمعلِّم أن يلقِّن طالبه المبتدئ من مسائل العلم، وخلافياتها، وأدلتها، ما هو خاصٌّ بالمتمكِّن.

وهذا هو تفسير العالم الرباني عندهم :

قال الإمام البخاري في الباب العاشر من كتاب العلم، أولَ «صحيحه»: «يقال: الرباني: الذي يربّي الناسَ بصغار العلم قبل كباره».

وقال المجد ابن الأثير رحمه الله تعالى [(١)]: «الرباني: قيل: هو من الربِّ، بمعنى التربية، كانوا يربون المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها».

وقال الإمام البيضاوي في أول «تفسيره» المشهور: «أصل الربّ: بمعنى التربية، وهي: تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً». والأُستاذُ مربٍّ لتلميذه، لذلك يُبَلِّغه العلم شيئاً فشيئاً حتى يبلُغ به الكمالَ بعون الله تعالى [(٢)].

وأكَّد هذا المعنى الإمام الشاطبي رحمه الله [(٣)]، قال وهو يعدِّد أمثلةً لقوله: «ليس كلُّ ما يُعلَم مما هو حقٌّ يُطلَب نشره»: «ومنه: أن لا يُذكَر للمبتدئ من العلم ما هو حظُّ المنتهي، بل يُرَبَّىٰ بصغار العلم قبل كباره».

---

(١) «النهاية» ٢ : ١٨١.

(٢) وانظر لزاماً «آداب الفقيه والمتفقه» ١ : ١٨٤ (١٧٦).

(٣) «الموافقات» ٤ : ١٩٠.

وقال وهو يعدِّد أحوال العالم المتمكِّن[١]: «ويسمَّى صاحب هذه المرتبة: الرباني، والحكيم، والراسخ في العلم، والعالم، والفقيه، والعاقل، لأنه يُربِّي بصغار العلم قبل كباره، ويوفِّي كلَّ أحد حقَّه حسبما يليق به».

ومن هنا نشأت فكرة تصنيفهم للمختصرات العلمية، المسماة بـ«المتون»، فكانوا يقدِّمونها للمبتدئين[٢]، حتى إذا تمكنوا منها انتقلوا إلى غيرها أكبرَ وأوسع، ثم إلى أكبر وأوسع، وهكذا.

وما ألَّف أسلافنا المتون العلمية، والمختصرات، ليبتروا الأحكام عن أدلتها، ويعيشَ الناس في انفصام عن الكتاب والسنة.

وللغرض الذي قلته: نجد المتون العلمية يُقتَصر فيها على ما يسمونه (رؤوس المسائل) دون الفروعِ الكثيرة، والأقوالِ المختلِفة ضمن المذهب الواحد، والأقوالِ الأخرى للأئمة الآخرين، ودون تعرضٍ للدليل والمناقشة، وبعبارة سهلة واضحة.

فإذا تمكن الطالب منها انتقل إلى شرحها، وحينئذ يجد الأقوالَ والمقارناتِ، والأدلةَ والمناقشات، والعبارة القوية الرصينة.

ولقد كنا نظن أن الشروح للتوضيح، فنفزع إليها لتبسيط عبارة المتن، فنرى فيها الصعوبة والعُقَد، ذلك لأنها أُلِّفت لهذا الغرض: للفائدة

---

(١) ٤ : ٢٣٢.

(٢) انظر أواخر قصة ابن زرقون مع الأمير عبد المؤمن في التعليق على «أثر الحديث الشريف» ص١٩٠.

والدليل، ولنُقْلَة الطالب إلى ما هو أعلى وأكمل.

فائدة التدرج في العلوم والتعليم:

وإن تدريج العلماء تلامذتهم على هذا الهَدي في تلقين العلم هو أسُّ التمكُّنِ في العلم والاستيعاب له، والبَصَارة فيه، وهو مرتبط بما قدمت الحديثَ عنه: التلقي للعلم، فإذا ما يسَّرهما الله تعالى لطالب العلم، فهو المتمكِّن السالم بإذن الله، وإذا حُرِمَهما فهو على أساسِ جرفٍ هارٍ، مهما علا نجمه، وسما ذِكره، وارتفع صيته.

وإن هذا الشذوذ العلمي الذي يعجُّ عجًّاً في أيامنا، لَهو من نتائج بُعد المتكلمين في العلم عن هذين الخُلُقين: التلقي للعلم، والتدرج في تحصيله، وتدريج الشيوخ لهم فيه.

ذلك أنك تجد أول ما يُمسِكه الشابُّ المثقف المتديِّن، من كتب العلم: «سبل السلام»، وفي اليوم الثاني يرتقي إلى «نيل الأوطار»، وفي اليوم الثالث: إلى «المحلَّى»!! فماذا بقي عليه من العلم وأمهات مصادره؟!. ومن أين يأتيه الأدب مع المخالفين، وما من صفحة في «المحلَّى» إلا وفيها سبُّ الأئمة وشتمهم؟! بدعوى العمل بصريح الكتاب، وصحيح السنة!! ومن أين يتهيَّب الخروج عن مذاهب الأئمة الأربعة، أو الأربعين، وهو يقرأ تقريعَ الإجماعِ ومدَّعيه في «نيل الأوطار»؟! إلى غير ذلك من مناصرة للأقوال الشاذة في الكتب الثلاثة.

وللإمام الحِبْر البَحْر ترجمان القرآن، ذي الرأي الرشيد، والنظر النافذ السديد، عبد الله بن عباس رضي الله عنهما موقف حكيم وافقه عليه الخليفة الراشد الملهم المحدَّث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

روى عبد الرزاق في «مصنفه»[١]، تحت باب: الخصومة في القرآن، عن ابن عباس قال: «قدم على عمر رجل، فجعل عمر يسأله عن الناس، فقال: يا أمير المؤمنين، قد قرأ منهم القرآن كذا وكذا، فقال ابن عباس: فقلت: والله ما أحبُّ أن يتسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المسارعة! قال: فَزَبَرني عمر، ثم قال: مه! قال: فانطلقت إلى أهلي مكتئباً حزيناً، فقلت: قد كنت نزلت من هذا الرجل منزلة، فلا أُراني إلا قد سقطت من نفسه، قال: فرجعت إلى منزلي فاضطجعت على فراشي حتى عادني نسوةُ أهلي، وما بي وجع، وما هو إلا الذي تقبَّلني به عمر.

قال: فبينا أنا على ذلك أتاني رجل فقال: أجبْ أمير المؤمنين، قال: خرجت فإذا هو قائم ينتظرني، قال: فأخذ بيدي ثم خلا بي فقال: ما الذي كرهتَ مما قال الرجل آنفاً؟ قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، إن كنتُ أسأتُ فإني أستغفر الله وأتوب إليه، وأنزلُ حيث أحببتَ، قال: لتحدِّثَنِّي بالذي كرهتَ مما قال الرجل، فقلت: يا أمير المؤمنين متى ما تَسَارعوا هذه المسارعة: يحتقُّوا، ومتى ما يحتقُّوا: يختصموا، ومتى ما يختصموا:

---

(١) «مصنف عبد الرزاق» (٢٠٣٦٨)، والخبر في «المعرفة والتاريخ» ١: ٥١٦ ـ ٥١٧ بمثل إسناد عبد الرزاق، وهو في «المستدرك» ٣: ٥٤٠، ٥٤١ (٦٣٠١، ٦٣٠٢) من وجهين، صحّح الوجه الأول منهما على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، ورواه الذهبي في «السير» ٣: ٣٤٨ من طريق عبد الرزاق.

ومعنى «تقبَّلني به عمر»: أخذني، يريد: قابلني به وواجهني. ويحتقُّوا: أي: يدَّعي كل منهم أنه هو صاحب الحق!، ورضي الله عن عمر وابن عباس: ما أبعد نظرهما، فهذا الذي نشكوه.

يختلفوا، ومتى ما يختلفوا: يقتتلوا، فقال عمر: لله أبوك، لقد كنتُ أُكَاتمها الناسَ حتى جئتَ بها».

ورحم الله تعالى العالمَ العاملَ، المربِّي الفاضل، الشيخ عبد الكريم الرفاعي، المتوفَّى بدمشق سنة ١٣٩٣، إذ كان يقول: **غذاءُ الكبار سمٌّ للصغار.**

وحكى العلامة الشيخ محمد سعيد الباني الدمشقي، المتوفَّى سنة ١٣٥١، في «عمدة التحقيق»[1] قال: «سألت مرةً أستاذنا العلامة الشيخ عبد الحكيم الأفغاني نوَّر الله ضريحه، حينما كنت أتلقَّى منه أصول الفقه، عن فائدة هذا العلم؟ فأجابني على البداهة: إن فائدته الاجتهاد. فقلت: ألم يقولوا يا سيدي إن باب الاجتهاد مُقْفَل؟ فقال بحدَّة على سبيل الاستفهام الإنكاري: مَن أقفله؟ يصلح الله حالك، لكن طالب العلم في بلادكم يدَّعي الاجتهاد، وهو لمَّا يقرأ بعدُ «نور الإيضاح»..».

وأقول: رحم الله الشيخ! كيف لو رأى زماننا، إذ نجرِّئ الجهلة والصغار على الاجتهاد، وعلى الغضِّ من المجتهدين بحق وصدق، وعلى التطاول والطعن في أئمة السلف، تحت ستارٍ وشعارٍ ما أعزَّه وما أكرمه لو صَدَقنا فيه!: اتباع الكتاب والسنة والسلف الصالح.

عدم التواني عن تثبيت كل معلومة:

ومما يتصل بهذا التنبيه: تنبيه مهم جداً، هو على طالب العلم ـ وعلى

---

(١) صفحة ٦٣.

أستاذه أن يؤازره فيه ـ أن يقف أمام كل مسألة باهتمامين:

أولهما: ضبطه وحفظه لها من وجوهها المختلِفة، فإنْ كانت كلمة لغوية ضَبَطها لغوياً، أو كانت مصطلحاً فقهياً أو أصولياً ـ أو غير ذلك ـ فهمه من مصادره، أو كان اسمَ عَلَم ضبطه لينطق به على الصواب، وما إلى ذلك من أمور أخرى، وسواء كان اهتمامه هذا بالمُساءلة لأستاذه، أم ببحث منه.

ثانيهما: أن لا يتهاون بأي مسألة علمية، فيقول: هذه مسألة ثانوية، لا يُحتاج إليها، أو لا يُسأل عنها، أو نادرة الوقوع، وما إلى ذلك من تسويفات!.

بل عليه استيضاح المسألة المقرَّرة تماماً في تصوّره لها، وترسيخه لها في ذهنه وفهمه، بحيث لا يبقى فيها لَبْس ولا احتمال، وسيرى الطالب في مستقبله نتيجةَ ذلك: صفاءَ ذهنٍ وقريحة في مسائل العلم، وصحةً في موازينه ومناقشاته العلمية.

وقد قعَّد الإمام الشافعي رحمه الله تعالى لهذين الأمرين بكلمة وجيزة فقال: «من تعلم علماً فليدقِّقْ فيه، لئلا يضيع دقيقُ العلم»[1].

وأصل هذا التنبيه مستفاد من قصة الإمام أحمد مع ابن معين رضي الله عنهما. روى الخطيب[2]: أن أحمد رأى ابن معين بصنعاء في زاوية، وهو يكتب صحيفة: معمر، عن أبان، عن أنس، فإذا اطلع عليه إنسان كتمه،

---

(١) أسندها إليه البيهقي في «مناقبه» ٢: ١٤٢.

(٢) في «الجامع» (١٦٣٨).

فقال له أحمد: تكتب هذا وتعلم أنها صحيفة موضوعة؟! فقال له يحيى: رحمك الله يا أبا عبد الله، أكتب هذه الصحيفة فأحفظها كلَّها، وأعلم أنها موضوعة، حتى لا يجيء إنسان فيجعل بدل: أبانَ، ثابتاً، ويرويها عن معمر، عن ثابت، عن أنس، فأقول له: كذبتَ، إنما هي عن معمر، عن أبان.

ثم روى(١) عن قرينهما الإمام إسحاق بن راهويه أنه قال: أعرف مكانَ مئةِ ألفِ حديثٍ، كأني أنظر إليها، وأحفظ منها سبعين ألف حديث من ظهر قلبي صحيحة، وأحفظ أربعة آلاف حديث مزوّرة، فقيل له: ما معنى حفظ المزوّرة؟ قال: إذا مرّ بي منها حديث في الأحاديث الصحيحة فَلَيْتُه فَلْياً.

وعلى هذا: فينبغي للطالب الاعتناء والاهتمام بكل جزئية من جزئيات العلم، خشية الوقوع في مفاجآت خطيرة.

إرشاد الأستاذ طلابه إلى الكتب المفيدة:

وقبل أن أُنهي الكلام عن هذا المعلم الثاني في تدرج الشيخ مع طلابه في التعليم، أرى من الواجب أن أنبه إلى تدرج علمي آخر هو: تدرج الشيخ مع طلابه في تكوينه لهم مكتبة علمية منوَّعة الثقافة والمعارف، فأقول:

إن الكتاب لِطالب العلم جزء من خلايا جسدِه، ومصدر لنماء علمه

---

(١) (١٨٣٤).

وفكره وروحه، ولَبِنة أساسية في بناء صرحه العلمي للمستقبل القريب إن شاء الله، فلا بدّ له من أن يكون ارتياد المكتبات عادةً له بين الحين والآخر، لكنه في سنواته الأولى من حياته العلمية ـ أو: من عُمُره العلمي ـ، لا ينبغي أن يشتري كتاباً إلا من مقرَّراته الدراسية، أو بإرشاد من أحد شيوخه، أو باستشارته واحداً منهم، أما باستقلال منه، وهو بعدُ لم تتوسع دائرة معارفه بالكتب ومصادر العلم، فلا.

التحذير من وسائل الإعلام الحديثة:

وإن الحذر والتحذير لطالب العلم في أيامنا هذه أشد مما سبق من أن تمتد يده إلى مصادر ثقافية سواء من الكتب، أو من وسائل الإعلام الأخرى، وما أكثرها، وما أسوأها! فقد اندلعت علينا[1] وسائل إعلامية تحمل بلاء وخطراً أكثر بكثير من نفعها، والعياذ بالله، فليحذر الطالب الدخول عليها، كما ينبغي للمربِّين أن يحذّروا أبناءهم منها، بل ينبغي أن يكونوا على مراقبة لهم منها، من خلال أسئلتهم وإيراداتهم الشبهات ـ مثلاً ـ.

وإنْ آنَس الأستاذ من بعض طلبته حبَّ اقتناء الكتب، كان مرشداً له إلى ما ينفعه في مرحلته التي هو فيها، أو ما يفيده في مستقبله، يتدرج معهم في ذلك، حسب ما يراه ـ أو يختاره لهم ـ من علوم يتخصصون بها، وقد يكون ذلك بتوجيهه لهم، حسب ما يرى المصلحة للبلدة التي

---

(١) في «القاموس المحيط»: «اندلع السيف من غِمده: انْسَلَّ». وهكذا حال هذه الوسائل على غير المتمكنين المتحصنين بعلمهم وإيمانهم.

هو فيها.

ولا خير في طالب علم لا يتوجه إلى زاده العلمي والروحي، بالاقتناء له، والتزود وإرواء النَّهْمة منه، كما هو حال بعض من انتسب إلى دراسة العلم، وخرج ولا يملك الكتب المقرَّرة التي درسها!!.

وكيف يتسنَّى لهذا الطالب مراجعة دروسه ومطالعتها حقاً، إذا لم يكن بجانبه الكتب الأساسية الأولى في العلم عامة، وفي كل علم خاصة.

أقصد بالكتب الأساسية في العلم عامة: مثل «المصباح المنير»، و«القاموس المحيط»، إذا مرت به كلمة يحتاج إلى ضبطها، أو إلى معرفة معناها الدقيق في اللغة، أو في مصطلح الفقهاء.

وأقصد بالكتب الأساسية في كل علم خاصة: إذا مرتْ بالطالب صورة مسألة فقهية، كان في عبارة المؤلف ـ حسب فهم الطالب ـ غموض أو احتمال لأكثر من وجه، فكيف يحلُّها الطالب إذا لم يكن بجانبه شرح لهذا الكتاب المقرَّر، أو أيّ كتاب آخر يتصل بالكتاب المقرَّر. وهكذا وهكذا.

والحديث عن الكتاب: أهميته، وفائدته عامة، وعن أهميته وفائدته لطالب العلم، والترقي فيه خاصة: طويل لا ينتهي. والله وليُّ كلّ تيسير وتوفيق.

* * * * *

المَعْلَم الرابع

التنبيه إلى أهمية تقويم اللسان، وتهذيبه

إن مهمات من يُكرمه الله تعالى بمقام التربية والتعليم كثيرة، ومنها: تقويمه لسان الطالب، وتهذيبه له. فهذان أمران.

أما الأمر الأول: فهو: تنبيهه للطلبة إلى (عثرات اللسان)، فيقوِّم لسانهم من الأخطاء الشائعة في عباراتنا، وما أكثرها! ومع أن بعضها دخل على أقلام عدد من علمائنا السابقين، لكن المتقدمين والسابقين واللاحقين اهتموا بتصحيحها، وألّفوا فيها الكتب، بدءاً من الإمام ابن قتيبة في «أدب الكاتب» فمن بعده من معاصرينا، والإمامُ النووي رحمه الله كثير الاهتمام بهذه التنبيهات في كتبه، حتى إنه ألف «تهذيب اللغات» مع «الأسماء».

ويدخل تحت تقويم اللسان مهمتان، أولاهما: تقويمه من كلمات دارجة على ألسنة بعض العلماء من السابقين والمتأخرين والمعاصرين، لا تتفق واستعمالاتِ العرب لها.

ثانيتهما: تعريب كلمات دارجة على الألسنة، دخلت علينا من لغات غير عربية.

أما المهمة الأولى في تقويم اللسان: فأمثلتها: ما شاع على الألسنة من قولهم: فلان عالم نَحَوي: وصوابه بسكون الحاء، نسبة إلى علم النَّحْو،

وقولهم: فعلت كذا لأجل كذا، وصوابه: من أجل كذا، وقولهم: أجب على الأسئلة التالية، وصوابه: أجب عن الأسئلة. وقولهم: المتوفِّي، وصوابه: المتوفَّى[١]، وقول بعض المحققين للكتب في مقدمة التحقيق: قابلت الكتاب على مخطوطتين، وصوابه: قابلته بمخطوطتين. وقولهم: هنا في مخطوطة أ ـ مثلاً ـ: سَقْط، وصوابه: سَقَط. وقولهم: بل ولا بد من كذا، وصوابه حذف حرف العطف الثاني، لأنه لا يصح دخول حرف عطف على عطف مثله. واشتهر على الألسنة: الشئون القُرَوية، والمؤتمرات الدُّوَلية، وصوابه: الشئون القَرَوية، والمؤتمرات الدَّوْلية، نسبة إلى المفرد لا الجمع: قَرية ودَولة. وهكذا وهكذا.

أما المهمة الثانية مما يتعلق بتقويم اللسان: فإن من مهام الشيوخ تقويم ألسنتهم وألسنة أصحابهم، وذلك بتعريب الكلمات الأجنبية، على وَفْق موازين اللغة العربية، فإن اللغة من مقوِّمات الشخصية (الفردية)، فكيف

---

(١) هكذا عمَّ وشاع، وهو الذي لا ينبغي سواه، مع قول السخاوي في «الإعلان بالتوبيخ» ص٤٥٣ من طبعة مؤسسة الرسالة ضمن (علم التاريخ عند المسلمين)، وصفحة ٨٥ من طبعة دار الكتب العلمية، قال رحمه الله: الفائدة «الثانية: يقع في كلامهم: فلان المتوفّى، وأنت في فتح الفاء وكسرها بالخيار، والكسر موجَّه بـ: المستوفي لمدة حياته، ويشهد له قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ ـ سورة البقرة: الآية ٢٣٤ ـ، على قراءة عليّ رضي الله عنه في فتح الياء ـ من: يتوفون ـ، أي: يَستوفون آجالهم» وينظر تمام كلامه. ومثله في «روح المعاني» للآلوسي ٣: ٣٢٣، ونحوه في «البحر المحيط» لأبي حيان ٢: ٢٢٢ (أعلى الصفحة)، و٦: ٣٥٣ (أعلاها أيضاً) في تفسير الآية ٥ من سورة الحج، ومع ذلك فـ (المشهور خير من المهجور).

بالأمة مجتمعةً! ومن ذَوَبان شخصية الأمة: عدمُ تمسُّكها بلغتها، بل تتلقَّف لغة أجنبيةً عنها، وتفتخر بالنطق بها!! فمثلاً: أقول أمام طلابي: كتاب، بدلاً من أن أقول: بوك، وأقول: هاتف، بدلاً من: تليفون، وأقول: فَقْس، بدلاً من: فاكس، وأقول: جوّال، أو نقّال، بدلاً من: موبايل، وأقول: مِقْوَد، بدلاً من: كيدون، أو طارة، وأقول: سائق، بدلاً من: شوفير، وما إلى ذلك، ولا أسمح لهم لو قالوها، أو قالوا نحوها.

وأما الأمر الثاني من هذا المَعْلَم ـ وهو تهذيب اللسان ـ: فهو مراعاة الشيخ ألسنة الطلاب في مخاطباتهم، وفي ذكرهم أشياخَهم، وفي ذكرهم للعلماء السابقين حين حكاية أقوالهم، والنقل عنهم.

وأذكر في هذه المناسبة: ما جرى للمزني مع شيخه الإمام الشافعي رضي الله عنهما، قال المزني[(١)]: سمعني الشافعي يوماً وأنا أقول: فلان كذاب، فقال لي: يا أبا إبراهيم، أُكْسُ ألفاظك، أَحْسِنها، لا تقل: فلان كذاب، ولكن قل: حديثه ليس بشيء».

وليكرِّر على أسماعهم كلمة الإمام أحمد رحمه الله في أحد الرواة، واسمه إسحاق بن إسماعيل الطالْقاني، لما بلغ أحمدَ أنه يتكلم في الإمام عبد الرحمن بن مهدي، قال الإمام أحمد: ما لكَ أنت ـ ويلك ـ ولذِكْر الأئمة؟!»[(٢)].

---

(١) كما في «فتح المغيث» ٢: ٢٩٢.

(٢) كلمة «ويلك»: دعاء على المخاطب بالويل والهلاك، أما «ويحك»: فكلمة ترحّم وشفقة عليه.

وليؤدِّبهم دائماً بما رواه القاضي عياض[١]، عن شيخه الإمام أبي علي الصدَفي: أنه سمع شيخه الإمام أبا محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي الحنبلي (٤٠٠ ـ ٤٨٠) رحمهم الله تعالى، يقول: «يَقْبُح بكم أن تستفيدوا منا علماً، ثم تذكرونا ولا تترحَّموا علينا».

وتقدم[٢] في كلام الإمام النووي رحمه الله: أن شيوخ طالب العلم المباشرين، والعلماء السابقين هم آباؤه وأجداده في سلسلة العلم، فكيف لا يترحّم مسلم على آبائه وأجداده؟!.

وقد روى أبو داود، والنسائي[٣] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تَرَوْا أنكم قد كافأْتموه»، وهذا طرف من الحديث، وإسناده صحيح.

فإذا كان من أدب الإسلام: أن تكافئ من قدَّم إليك معروفاً دنيوياً بمعروف، ولو بالدعاء له، فكيف يكون واجبك مع من قدَّم إليك كل معروف في دينك ودنياك وآخرتك وأخلاقك وآدابك..

وإذا كان هذا مع شيوخك، فكيف بمن فوقهم، ومن فوقهم، الذين خلَّد الله بهم الإسلام إلى يوم الدين! وما هو واجبنا الأدبي مع نَقَلةِ الشريعة الأُوَل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورضي الله

---

(١) في «الإلماع» ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٢) صفحة ١٥٩.

(٣) أبو داود (١٦٦٩)، والنسائي (٢٣٤٨).

عنهم!! ثم ما هو واجبنا تُجاه المعلِّم الأول صلوات الله وسلاماته عليه، إنه لعظيم عظيم، جزاه الله عنا أفضل ما جزى نبياً عن أمته.

* * * * *

المَعْلَم الخامس

ضرورة البحث عن المعنى الدقيق للكلمة اللغوية

إن من مهام الأستاذ المعلِّم: أن يُنَشّئ طلابه على الدقة في البحث العلمي، ومن وظائفها ومظاهرها: أن يربِّي طلابه على البحث عن المعنى الدقيق في اللغة العربية، وخاصة للكلمة القرآنية، أو النبوية، وأن لا يقنع بمعناها المتبادر إلى الذهن حين سماعها، فإن ذلك لا يوصل الطالب إلى المعنى الصحيح للآية الكريمة، أو الحديث الشريف، أو الشاهد الشعري، أو غير ذلك.

وللعلماء خلاف كبير: هل في اللغة العربية ترادف، أو لا بدّ من وجود فرق جليّ أو خفيّ بين كلمة كذا وكلمة كذا، وأيّاً كان الراجح منهما، فإن مما يفيد الطالب أن يفترض وجود فرقٍ بين هاتين الكلمتين، فيبحث عن المعنى الدقيق لكل منهما، ليتذوّق المعنى الدقيق ـ أو المعنى الصحيح ـ لهذه الآية، أو لهذا الحديث.

أمثلة على عدم الترادف من كل وجه:

وعلى سبيل المثال: فإن معرفة المعنى الدقيق لكلمة «اللبّ» أنه: العقل الخالص من المؤثرات الخارجية، والشهوات العارضة للإنسان، تدلُّنا لماذا مدحهم الله تعالى بهذه الصفة: أولي الألباب، ولم يمدحهم بصفة: أولي العقول.

وكذلك معرفة المعنىٰ الدقيق لكلمة «الرَّيْب»، فجلٌّ من تسأله عن معناها يقول لك: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه، وحينئذٍ يُشكل عليه وعليك قوله تعالىٰ في ستة مواضع من القرآن الكريم، ومنها قوله عن موسىٰ عليه السلام في سورة هود، الآية ١١٠: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، ومؤدىٰ هذا من حيثُ المعنىٰ: لفي شك مشكِّك، أي: شك مُورِثٍ للشك، في حين أن الزمخشري أفاد المعنىٰ الدقيق للريب بقوله[1]: «حقيقة الريب: قلق النفس واضطرابها».

ولما قال صلى الله عليه وسلم: «آتي بابَ الجنة يوم القيامة فأستفتح»، ونعلم أن فعل: أتى، غير فعل: جاء، فالإتيان يكون على تمهّل وطمأنينة، فأفادنا صلى الله عليه وسلم أنه يأتي ليفتح باب الجنة لأهلها مجيء العظماء على تمهّل وترسّل، والمجيء قد يكون كذلك، وقد يكون على غير ذلك.

وكثيرٌ منا من يتبادر إلى فهمه حين يقرأ كلمة «صَنَع كذا» في آية أو حديث، أن معناها: فعل كذا، في حين أن «صنع» تفيد معنى فعل الشيء مع الإتقان له والجودة، فقوله تعالى عن سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ هود: ٣٨: معناه ـ والله أعلم بمراده ـ: أنه كان يصنع الفلك صنعاً متقناً، لأنه سيقاوم أمطاراً وسيولاً ستُغرِق الأرض كلها! وما إلى ذلك من أمثلة وشواهد كثيرة.

وأكثرُ من هؤلاء وهؤلاء مَن يفهم مِن قول الله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ

(١) في تفسير أول سورة البقرة ١: ١٩.

ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أدُّوا الصلاة، وحينئذٍ يقع هو وغيره في إشكال كبير: كيف يقول تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ العنكبوت: ٤٥، ونرىٰ كثرة كاثرة ممن يؤدون الصلاة واقعين في الفحشاء والمنكر!.

والجواب: أن الخطأ والإشكال في فهمنا لمعنىٰ الإقامة، لا في كون الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، فالإقامة: هي أداء الصلاة على وجه الكمال والتمام، في شروطها وأركانها وفرائضها وواجباتها ومستحباتها، وفي روحها الذي هو الخشوع، ومن الخشوع: تدبُّره لما يقرؤه هو، أو يسمعه من الإمام، ومن التدبُّر: أن يسعىٰ إلى تطبيق ما يُقرأ تطبيقاً عملياً خارج الصلاة، في حياته اليومية، في بيته وفي عمله، فمن كان على هذا الفهم والتطبيق سيصل عما قريب إلى الانتهاء عن الفحشاء والمنكر، ولا بدّ[١].

وأقربُ ما يُستعان به على هذا القصد من الكتب: «مفردات» الراغب الأصفهاني، و«النهاية» لابن الأثير، فهما الكتابان اللذان لا ينبغي لطالب العلم أن يفارقهما حِلاًّ وتَرْحالاً.

أهمية الضبط والإتقان فوراً:

ومن المهم أيضاً في هذا الباب: أن يتعوَّد الطالب ضبط الكلمة اللغوية، أو اسم العَلَم، فوراً، ولا يسوِّف ولا يمهل، فإذا تعوّد لسانه من

---

(١) وانظر لزاماً تعليق شيخنا رحمه الله على «رسالة المسترشدين» ص١٩٦.

أول الأمر على نطق الكلمة أو العَلَم على الوجه الصحيح، استقام لسانه على ذلك، مدى حياته، ولن يتلكأ فيها بعدُ.

ويقول الأئمة المحدثون في وصف الراوي المرتفع عن درجة الثقة: فلان ثَبْت، ومعناه ـ كما في «المصباح المنير» ـ: «رجل ثَبْت ـ ساكن الباء ـ متثبِّت في أموره»، وأمورُ كل إنسان: بحسبه، فالعالم: تثبُّته في أموره: أن يكون دائماً ضابطاً لعلمه، ومن ذلك: أن يتأكد من كل معلومة يحفظها، ثم يقولها أو يكتبها، والتأكد من المعلومة لتحفظ: أن تُحفظ متقنةً على الوجه الصحيح، ومن ذلك: ضبطها اللغوي، وضبط معناها، وضبط الحكم العلمي الراجح، سواء أكان حكماً فقهياً، أو أصولياً، أو حديثياً، ونحو ذلك.

ثم قد يعرِض لهذا العالم أو الطالب تردّد وشكّ في جزئية من هذه الجزئيات، فعليه بالمبادرة إلى الكتاب ـ فهو الأستاذ الصامت ـ ليتثبَّت، ويبقى وصف (الثبْت) عليه ثابتاً، ولو سوَّف لتعب بعدُ، ولبقي في صدره التردد والشك.

وأيضاً: إن تثبُّت الطالب فيما يقرأ: تأسيس لما يُبنى عليه من الحفظ والفهم، ثم التعليم والتلقين والتأليف والفتيا، وهذه أمور تدخل عند العلماء في باب ما يسمى عند عدم التثبت فيه بـ: التحريف والتصحيف، ولهم في ذلك حكايات هي نكتٌ وطرائف مضحكة[1]، منها:

---

(١) وينظر لزاماً ما كتبه الخطيب في «الجامع» عن أخبار من صحّف في الأسانيد ثم في المتون من (٦١٢ ـ ٦٤٩)، وختم ذلك بقوله: «يقال في المثل: الحديث ذو =

أن أصحاب السنن الأربعة، وابن أبي شيبة وابن خزيمة[١]: رووا: أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن التحلّق قبل الصلاة يوم الجمعة، وفي رواية ابن خزيمة الأولى: «نهى عن الحِلَق يوم الجمعة قبل الصلاة»، قال الإمام الخطابي[٢]: «كان بعض مشايخنا يرويه أنه نُهي عن الحَلْق، بسكون اللام، وأخبرني أنه بقي أربعين سنة لا يحلق رأسه قبل الصلاة يوم الجمعة!! فقلت له: إنما هو الحِلَق، جمع الحلْقة، ..، فقال: قد فرَّجتَ عني، وجزّاني خيراً ـ أي: قال له: جزاك الله خيراً ـ وكان من الصالحين، رحمه الله».

فبانَ أن هذه القصة التي كنا نسمعها من مشايخنا على سبيل التنكيت على من يتلقى علمه من الصُّحُف: بانَ أنها حقيقة واقعية قديمة، مضى عليها أكثر من ألف سنة، فما بالك في هذا الزمان؟!.

الاهتمام بقراءة العبارة وضبطها وتحريرها :

ويتصل بهذا الواجب على الأساتذة والشيوخ، واجب آخر لا يقلُّ عنه

شجون، وقد أخرجَنا هذا النوع من التصحيف إلى طريق القول الهزل، نسأل الله العفو عن الزلل، والتوفيق لصالح القول والعمل»، وهو يشترك في كثير من أخباره مع ما كتبه الإمام أبو أحمد العسكري في مقدمة «تصحيفات المحدثين»، فينظر أيضاً.

(١) أبو داود (١٠٧٢)، والترمذي (٣٢٢) وقال: حديث حسن، والنسائي (٧٩٣، ٧٩٤)، وابن ماجه (١١٣٣)، مطولاً ومختصراً، وهو في «مصنف» ابن أبي شيبة (٥٤٥٠) مختصر، وعند ابن خزيمة مطوَّل (١٠٣٤، ١٣٠٦).

(٢) في «معالم السنن» ١ : ٢٤٧.

أهمية، هو: تنشئة الواحد منهم طلابَه على إتقان قراءة العبارة لغوياً ونحوياً، وفهمها وحلِّها، بل تحليلها، وإعادة الضمائر التي فيها، وتعيين كل ضمير ورابطه، ثم تحقيق معنى العبارة كاملة.

ثم نُقلتهم إلى مرحلة أعلى هي: بيان ما في النص كاملاً من علوم: عربية، وبلاغية، ومنطق، وأصول فقه، وبيان ما فيه من مصطلحات تابعة لكل علم، وما إلى ذلك، حسب ما يقتضيه النص ويحتمله، وهذا ما كان يسمى عند علماء الأزهر بـ: التعيين.

وبهذا المنهج: قراءةِ النص، وتحليله، وفهم المصطلحات العلمية التي فيه: يتميز العالم عن غيره، ولقد أدركت من العوام ـ من لا يعرف القراءة ولا الكتابة ـ لكن كان له حضور وملازمة لبعض علماء عصره، وفهم وانتباه أثناء الدرس، فكان يحفظ الفقه والتفسير وشرح الأحاديث، أكثر من كثير من علماء عصره، لكنه لو قدِّر أنه غاب عنه حكم من الأحكام، لا يستطيع مراجعةَ كتاب يُسعفه، بخلاف أي عالم آخر، فإنه يستطيع ذلك.

* * * * *

المَعْلَم السادس

تربية الأستاذ طلبته على قول : لا أدري

ويتصل بخُلُق الإنصاف اتصالاً وثيقاً أمر آخر، وهو من مهمات الشيوخ تُجاه أصحابهم: هو أن يورِّثوهم ويعوِّدوهم إذا ذُكر أمامهم أمر ليس لهم به علم أن يقولوا: لا أدري، والله أعلم، لكن لا يكتفي قائل ذلك بهذا التخلُّص الأمين، ويتركُ الأمر معلَّقاً في نفسه، وفي نفس سائله، بل يعلِّم هذا الطالب ويُتابَع: أن يرجع إلى أساتذته ليفيدوه فيه، أو إلى مكتبته إنْ كان بلغ أهلية البحث بنفسه.

ونقلت في «أدب الاختلاف»[1]: أن الإمام أحمد روى عن الإمام الشافعي، عن الإمام مالك، عن التابعي الثقة محمد بن عجلان قوله: «إذا أخطأ العالم (لا أدري) أصيبت مقاتله». هكذا تسلسل الأئمة الثلاثة المجتهدون على روايته عن بعضهم، وقلت بعدها[2]: وفي استعمال العالم كلمة «لا أدري»: ترويضٌ لنفسه على خُلُق التواضع، وإيقافها عند حدودها، وفيه أيضاً: حثٌّ ضمني على التعلُّم والازدياد من العلم والبحث والتفتيش، فإنه إنْ أجاب الآن سائلَه بـ«لا أدري»، وحسُن منه هذا الجواب، بدلاً من أن يتَقَحَّمَ في النار إذا تكلم بغير علم: فإنه لا يَحْسُن به

(١) صفحة ١٩٨.

(٢) صفحة ١٩٩.

أن يجيبَ مرة ثانية عن السؤال نفسه بـ: لا أدري، لأن مهمة العالم جوابُ السائل بما يُنقذه من جهله أو ورطته[١]، وأما قول ياقوت الحَمَوي عن «لا أدري، وأنها نصف العلم»: إنه النصف المرذول: فهذا فيمن تحصَّن بها عند كل سؤال يوجَّه إليه، وهو متكاسل عن البحث عن جوابه. والله أعلم.

ومن منهجهم في التعليم ـ وهو ضروري في أدب الاختلاف ـ: أنهم كانوا ينظرون إلى اجتهادهم باحتمال الخطأ، ولا يجزمون ما لم يكن الدليلُ ناصعاً ناطقاً.

سُئل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رجل تزوَّج امرأة ولم يَفْرِض لها صداقاً، فتوفِّي عنها قبل أن يَدخل بها، وهذه المسألة تعرف بـ«المُفَوَّضة»[٢] فأفتى فيها ابن مسعود بأن لها مهرَ مثلها، لا زيادة ولا نقصان، ولها الميراثُ من الزوج المتوفَّى، وعليها العِدَّة.

والحديث رواه الترمذي[٣] وقال: حديث حسن صحيح.

والذي يهمني منه إحدى روايات أبي داود، وبعض روايات النسائي.

روى أبو داود: «أن عبد الله بن مسعود أُتي في رجل ـ بهذا الخبر ـ قال: فاختلفوا إليه شهراً ـ أو قال: مرات ـ قال: فإني أقول فيها: إن لها صَدَاقاً كصداق نسائها، لا وكْسَ ولا شَطَط، وإن لها الميراث، وعليها العِدَّة، فإن يَكُ صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله

(١) ولعل هذا يصلح توجيهاً لكلمة ابن مسعود وأبي الدرداء رضي الله عنهما.

(٢) بكسر الواو، على معنى: فوَّضت أمر مهرها لغيرها، من زوج أو وليّ، وبفتح الواو على معنى: أن الشارع فوَّض إليها أمر مهرها: إثباتاً وإسقاطاً.

(٣) كتاب النكاح ـ باب ما جاء في الرجل يتزوَّج المرأة فيموت عنها قبل أن يفرض لها ٤: ١١١ (١١٤٥).

ورسوله بريئان..» فَشَهدوا له: أن رسول الله ﷺ قضى بمثل ذلك في مثل هذه الحال، ففرح فرحاً شديداً [١].

وروى النسائي هذا الخبر[٢]، وأن ابن مسعود قال لهم أولاً: «سلوا هل تجدون فيها أثراً؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن ما نجد فيها، يعني: أثراً. قال: أقول فيها برأيي..».

ثم رواه بلفظ: «فاختلفوا إليه قريباً من شهر لا يفتيهم، ثم قال: أرى لها صداق نسائها..».

ثم رواه أخيراً بلفظ: «قال عبد الله: ما سُئلت منذ فارقت رسول الله ﷺ أشدَّ عليَّ من هذه، فأْتُوا غيري، فاختلفوا إليه فيها شهراً، ثم قالوا له في آخر ذلك: مَنْ نسألُ إن لم نسألك وأنت من جِلَّة أصحاب محمد ﷺ بهذا البلد، ولا نجد غيرك؟! قال: سأقول فيها بجَهْد رأيي، فإن كان صواباً فمن الله وحده لا شريك له، وإن كان خطأً فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه بُرَآء، أرى أن أجعل لها صداق نسائها..».

وكنت كتبت عن هذين الأمرين: خُلُق الإنصاف، وقول: لا أدري، في «أدب الاختلاف» صفحات، أنقل منها مقتطفات، وأُحيل القارئ الكريم على باقيها، ففيها فوائد إن شاء الله.

وأنبِّه إلى أمر آخر: إنه ينبغي للطالب أن يَحذَر بنفسه، وينبغي لأستاذه ومربيه أن يُحذِّره من الدخول في مناقشات علمية مع جلسائه وأقاربه، ومع

---

(١) كتاب النكاح ـ باب فيمن تزوَّج ولم يسمِّ صَدَاقاً حتى مات ٢: ٥٨٩ (٢١١٦).

(٢) كتاب النكاح ـ إباحة التزوج بغير صداق ٦: ١٢١ (٣٣٥٤ وما بعده).

أيّ كان، في أبواب من العلم والدين لم يسبق له دراستها واستيعاب النظر فيها، مما هو من مسائل دينية عقدية، اجتماعية، اقتصادية، سياسية، فكرية، ولا يستحيي من أن يقول: لا أعلم، لم يسبق لي دراسة لها، وإن بعض من دخل هذه المحاورات انزلق وانحرف وضلّ، على أمل أن ينقذ غيره فغرق! وما ذاك إلا لأنه تكلم فيما لا يُحسنه.

بل عليه أن يستحيي من الله تعالى أن يقتحم الولوج في دين الله، مما لا يُحسِن القولَ فيه بعلمٍ عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وعليه أيضاً: أن يستحيي من البقاء على جهله، بل يسأل من يثق به من شيوخه ممن يُحسن القول في هذه المسألة.

فأولاً : لا يجوز له الدخول في مناقشات لم يتقن بحثها.

وثانياً : لا يليق به أن يبقى على جهله في هذه المسألة.

وثالثاً : لا ينبغي له أن يسأل مدرس اللغة العربية عن مشكلة فقهية مالية اقتصادية، أو أن يسأل عن هذه المشكلة فقيهاً بعيدَ الخبرة عن الأمور المعاصرة، وهكذا، بل يضع الأمور مواضعها.

* * * * *

المَعْلَم السابع

ملاحظةُ الأستاذ لأصحابه وتربيتُه لهم

إن مما يتصل بأدب قول الطالب، والعالم ـ على السواء ـ: لا أدري، فيما يعرض له مما ليس به معرفة تامة يمكنه أن يتكلم بناءً عليها في دين الله تعالى، إن مما يتصل بهذا الأدب: أدباً آخر، يكبح به الأستاذُ المربي جِمَاح الطالب، وقد دخل عليه أولَ نشأته العلمية الاعتدادُ بنفسه، وظنّ أن العلم كله هو ما قرأه خلال سنواته الأولى، وأنه لا يُسأل عن شيء إلا وعنده علم يستطيع به تصدُّرَ المجالس، بل الظهورَ على شاشات القنوات الفضائية، ليتكلم على الملأ بما حصّل من علم ابتدائي في حقيقته، انتهائي في ظنه وحسبانه.

وهذا الوهم يعرض كثيراً لطالب العلم الناشئ، وقد يعرض لغيره ممن جاز مرحلة الطلب، لكنه لم يبلغ مبلغ الانقطاع عن شيوخه، والاستبداد بنفسه عنهم.

وأحكي خبرين في هذا المجال، فيهما تمام الموعظة والدرس، في دلالة الشيوخ المربِّين تلاميذَهم على علل نفوسهم وأمراضها:

أولهما: اشتهر عن الإمام أبي حنيفة قولُه لتلميذه أبي يوسف رضي الله عنهما ـ حتى صار كالمَثَل السائر ـ: تَزَبَّبْتَ قبل أن تُحَصْرِم.

وسببُه[١] أن أبا يوسف جلس للتدريس من غيرِ إعلامِ الإمامِ أبي حنيفة، فأرسل إليه أبو حنيفة رجلاً فسأله عن خمس مسائل:

الأولى: قصَّارٌ جَحَد ثوباً وجاء به مقصوراً، هل يستحقُّ الأجرَ أوْ لا؟.

الثانية: هل الدخولُ في الصلاة بالفرض أو بالسنَّة؟.

الثالثة: طيرٌ سَقَط في قِدْر على النار فيه لحم ومَرَق، هل يُؤْكَلان أو لا؟.

الرابعة: مسلم له زوجة ذميةٌ ماتتْ وهي حامل منه، تُدْفَن في أيِّ المقابر؟.

الخامسة: أمُّ ولدٍ لرجلٍ، تزوَّجت بغير إذن مولاها، فمات المولى، هل تجب العِدَّة من المولى؟.

وفي كلٍّ منها يجيبه أبو يوسف: نعم، فيخطِّئه الرجل، فيجيبه: لا، فيخطِّئه، فيتحيَّر، فيجيبه الرجل بما لقَّنه أبو حنيفة، قال: فعلم أبو يوسف تقصيره، فعاد إلى أبي حنيفة فقال له: تزبَّبْتَ قبل أن تُحَصْرِم.

وحصل بين أبي الفتح ابن جِنِّي وشيخه أبي عليّ الفارسي، كالذي حصل ـ تماماً ـ بين أبي يوسف وأبي حنيفة رحمهم الله جميعاً، فقال أبو علي لابن جني مقولة الإمام أبي حنيفة بلفظ: زَبَّبْتَ وأنت حِصْرِم[٢]، وصارت كالمَثَل.

---

(١) كما في أواخر «الأشباه والنظائر» لابن نُجَيم رحمه الله، أول فنِّ الحكايات ص ٥١٢.

(٢) جاء هذا أول ترجمة ابن جني عند ابن خلكان ٣: ٢٦٤.

أي: إنك قفزتَ من مرحلة البداية إلى مرحلة النهاية، دون التأهُّل لذلك. فالحِصرِم هو أول العِنَب، وبعد أن يَنْضَج تماماً تماماً يدخُل مرحلةَ صيرورتِه زبيباً، وهذا لم يُحَصْرِم بعدُ! فهذه هي حال المستعجلين!.

وفي «تاريخ بغداد»، و«آداب الفقيه والمتفقه»[1]: أن أبا يوسف «مرض مرضاً شديداً، فعاده أبو حنيفة مراراً، فصار إليه آخر مرة، فرآه ثقيلاً، فاسترجع، ثم قال: لقد كنتُ أُؤَمِّلُك بعدي للمسلمين، ولئن أُصيبَ الناس بك ليموتَنَّ معك علم كثير. ثم رُزِق العافية وخرج من العلَّة، فأُخبر أبو يوسف بقول أبي حنيفة، فارتفعت نفسه، وانصرفت وجوه الناس إليه، فَعَقَد لنفسه مجلساً في الفقه، وقصَّر عن لزوم مجلس أبي حنيفة، فسأل عنه؟ فأُخبِر أنه قد عقد لنفسه مجلساً، وأنه قد بلغه كلامك فيه.

فدعا رجلاً كان له عنده قَدْرٌ فقال: سِرْ إلى مجلس يعقوب فقل له: ما تقولُ في رجل دفع إلى قصار ثوباً ليقصِّره بدرهم، فصار إليه بعد أيام في طلب الثوب، فقال له القصار: مالك عندي شيء، وأنكره، ثم إن ربَّ الثوب رَجَع إليه فدفع إليه الثوب مقصوراً، أَلَه أجرةٌ؟ فإن قال: له أجرة، فقل أخطأتَ، وإن قال: لا أجرةَ له، فقل: أخطأتَ. فصار إليه فسأله، فقال أبو يوسف: له الأجرةُ، فقال: أخطأتَ، فنظر ساعة ثم قال: لا أجرةَ له، فقال: أخطأتَ!.

فقام أبو يوسف من ساعته فأتى أبا حنيفة، فقال له: ما جاء بك إلا مسألةُ القصار؟! قال: أجل، قال: سبحان الله، من قَعَد يفتي الناسَ

(١) «تاريخ بغداد» ٥: ٤٧٨، و«آداب الفقيه والمتفقه» (٧٢٢).

وعَقَد مجلساً يتكلَّم في دين الله، وهذا قدره، لا يُحْسِن أن يجيبَ في مسألة من الإجارات!! فقال: يا أبا حنيفة علِّمني، فقال: إن كان قَصَره بعدما غَصَبه فلا أجرة له، وإن كان قصره قبلَ أن يغصِبه فله الأجرة، لأنه قصره لصاحبه.

ثم قال[1]: من ظنَّ أنه يستغني عن التعلُّم فليبكِ على نفسه!».

وروى الرامَهُرْمُزي[2] هذا الخبر العجيب، عن الإمام علي ابن المديني رحمه الله.

قال ابن المديني: «قدمت الكوفة، فعُنِيت بحديث الأعمش فجمعته، فلما قدمت البصرة لقيت عبد الرحمن ـ ابن مهدي الإمام ـ، فسلَّمت عليه، فقال: هاتِ يا عليّ، ما عندك؟ فقلت: ما أحدٌ يفيدني عن الأعمش شيئاً! قال: فغضب، فقال: هذا كلام أهل العلم؟! ومن يضبط العلم؟! ومن يحيط به؟! مثلك يتكلم بهذا؟! معك شيء تكتب فيه؟ قلت: نعم، قال: اكتب، قلت: ذاكِرني، فلعله عندي! قال: اكتب: لستُ أملي عليك إلا ما ليس عندك، قال: فأملى عليّ ثلاثين حديثاً، لم أسمع منها حديثاً!! ثم قال: لا تعدْ، قلت: لا أعود.

قال علي: فلما كان بعد سنة جاء سليمان ـ الشاذَكُوني ـ إلى الباب، فقال: امضِ إلى عبد الرحمن ـ ابن مهدي ـ حتى أفضحه اليوم في

---

(١) المتبادر أن قائل هذه الكلمة الحكيمة هو الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى.

(٢) في كتابه الرائد «المحدث الفاصل» (١٥٩)، ومن طريقه الخطيب في «الجامع» (١٩٠٦).

المناسك!! قال عليّ: وكان سليمان من أعلم أصحابنا بالحج، قال: فذهبنا فدخلنا عليه، فسلمنا وجلسنا بين يديه، فقال: هاتا ما عندكما، وأظنك يا سليمان صاحبَ الخطبة ـ أي: أنت ستتكلم ـ قال: نعم، ما أحد يفيدنا في الحج شيئاً! فأقبل عليه بمثل ما أقبل عليٍّ، ثم قال: يا سليمان، ما تقول في رجل قضى المناسك كلها إلا الطواف بالبيت، فوقع على أهله؟ فاندفع سليمان فروى: يتفرقان حيث اجتمعا، ويجتمعان حيث تفرّقا، قال: اروِ متى يجتمعان، ومتى يفترقان؟ فسكت سليمان، فقال: اكتب، وأقبل يلقي عليه المسائل ويملي عليه، حتى كتبنا ثلاثين مسألة، في كل مسألة يروي الحديث والحديثين، ويقول: سألت مالكاً، وسألت سفيان، وعبيدالله بن الحسن ـ العَنْبري ـ.

قال ـ سليمان ـ: فلما قمت قال ـ ابن مهدي ـ: لا تعدْ ثانياً تقول ما قلتَ. فقمنا وخرجنا، قال ـ ابن المديني ـ: فأقبل عليٌّ سليمان قال: أَيْشٍ خرج علينا من صلب مهديّ هذا!! كأنه كان قاعداً معهم: سمعت مالكاً، وسفيان، وعبيد الله!!».

قلت: هذا خبر عجيب، كله دروس وعبر، ويحتاج إلى أن يُفرد بالشرح المسهَب.

وهذا من تأديب الشيوخ لتلامذتهم، وشأنهم في هذه الأخبار مقام الطبيب المعالِج لأدواء المرضى.

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فأحكي خبراً طريفاً جداً فيه تأديب الله عز وجل لعالم عن طريق أعرابي!! وهو يدلّ على رعاية الله تعالى لهذا العالم.

الإمام أبو الحسن الماوردي أحد أئمة السادة الشافعية في الفقه، وناهيك بمن يشهد له الإمام أبو إسحاق الشيرازي بأنه كان حافظاً للمذهب، وهو صاحب كتاب «الحاوي» المطبوع في ١٨ مجلداً، قال هذا الإمام(١): «قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تَعَلّمون منه، ليتواضعَ لكم من تعلِّمونه، وقال بعض السلف: من تكبَّر بعلمه وترفّع وضعه الله به، ومن تواضع بعلمه رفعه الله به، وعلة إعجابهم انصراف نظرهم إلى كثرة مَن دونهم مِن الجهال، وانصراف نظرهم عمن فوقهم من العلماء، فإنه ليس مُتَنَاهٍ في العلم إلا وسيجد من هو أعلم منه، إذِ العلم أكثر من أن يحيط به بشر».

ثم قال: «ومما أُنذِرك من حالي: أنني صنفت في البيوع كتاباً، جمعت ما استطعت من كتب الناس، وأجهدت فيه نفسي، وكَدَدْتُ فيه خاطري، حتى إذا تهذَّب واستكمل، وكدت أُعجب به، وتصوّرت أنني أشد الناس اضطلاعاً بعلمه، حضرني وأنا في مجلسي أعرابيان، فسألاني عن بيعٍ عقداه في البادية، على شروط تضمنت أربع مسائل، لم أعرف لواحدة منهن جواباً، فأطرقت مفكراً، وبحالي وحالهما معتبراً، فقالا: ما عندك فيما سألناك جواب، وأنت زعيم هذه الجماعة؟ فقلت: لا، فقالا: واهاً لك! وانصرفا.

ثم أَتَيا مَن يتقدمه في العلم كثيرٌ من أصحابي، فسألاه، فأجابهما

(١) في كتابه «أدب الدنيا والدين» ص١٢٠ ـ ١٢٢.

مسرعاً، بما أقنعهما، وانصرفا عنه راضيين بِجوابه، حامدَين لِعلمه، فبقيت مرتبكاً، وبحالهما وحالي معتبراً، وإني لعلىٰ ما كنت عليه ـ من عدم العلم بالجواب ـ في تلك المسائل إلى وقتي، فكان ذلك زاجرَ نصيحة، ونذيرَ عِظة، تَذَلَّلَ بهما قياد النفس، وانخفض لهما جناح العُجب، توفيقاً مُنِحته، ورشداً أُوتيته». فرحمه الله على ما أرشد وأدّب.

* * * * *

المَعْلَم الثامن

إرشاد الطلبة إلى الإنصاف في البحث

ومن مهامّ العالم المربي لأبنائه وتلامذته: أن يربيهم على الإنصاف في مسائل العلم، والرجوع إلى الحق والصواب، فيما زلّ فيه قلمه، أو سَبَق إليه لسانه، منه، أو من غيره من آحاد الناس.

وأخبار الأئمة في هذا كثيرة، وفي تتبُّعها عُسْر، ورائدهم في هذا الخُلُق: أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، في قصته الشهيرة، التي رواها أبو يعلى في «مسنده الكبير» ـ لا الصغيرِ المطبوع[1] ـ.

قال مسروق: ركب ـ أي: صعِد ـ عمر رضي الله عنه المنبر، منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: لا أعرفنَّ ما زاد الصداق على أربع مئة درهم، ثم نزل، فاعترضتْه امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين نهيتَ الناس أن يزيدوا في صَدُقاتهن على أربع مئة درهم؟ قال: نعم، قالت: أما سمعتَ الله تعالى يقول في القرآن: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ النساء: ٢٠، فقال: اللهم غَفْراً! كلُّ الناس أفقه من عمر، ثم رجع فركب المنبر فقال: أيها الناس، إني كنت نهيتكم أن تزيدوا في صَدُقاتهن على

---

(١) وأنقلها من «المطالب العالية» لابن حجر (١٥٦٦)، ومن «تفسير» ابن كثير عند تفسير الآية العشرين من سورة النساء.

أربع مئة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحبّ ـ أو: فمن طابت نفسه ـ فليفعل.

وفي إسناد الخبر: مجالد بن سعيد الهَمْداني، متكلم فيه، لذلك لم يصححه ابن كثير، بل قال: إسناده جيد قويّ. أنزله عن الصحة قليلاً لحال مجالد.

وانظر إلى تشديد الإمام ابن عبد البر على لزوم الإنصاف، وخسارة من فقده، فقال[١]: «من بركة العلم وآدابه: الإنصاف فيه، ومن لم ينصف: لم يفهم ولم يتفهَّم».

وخُلُق الإنصاف كغيره من مكارم الأخلاق الإسلامية يتناقص يوماً بعد يوم، وقد ذَكَر ابن عبد البر[٢] عن الإمام مالك رحمه الله قال: «ما في زماننا شيء أقلُّ من الإنصاف»!!.

ونقل الإمام القرطبي[٣] عند الآية ٣٢ من سورة البقرة، قول الإمام مالك هذا ـ وانظر تعليقه عليه ـ، ثم ذكر قصة سيدنا عمر الآنفةَ الذْكرِ من وجه آخر، ثم ذكر خبراً عن سيدنا علي رضي الله عنه[٤]: أن رجلاً سأله عن مسألة، فأجابه، فقال الرجل السائل: ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كذا

---

(١) في «جامعه» ١: ٥٣٠.

(٢) في «جامعه» (٨٦٦).

(٣) في «تفسيره» ١: ٢٨٦.

(٤) رواه ابن عبد البر في «جامعه» (٨٦٥)، وفي إسناده ضعف، لكن انظر ما علقته على ص ٢٣٥.

وكذا، فقال عليّ: «أصبتَ وأخطأتُ، وفوق كل ذي علم عليم».

ثم قال القرطبي: «وذكر أبو محمد قاسم بن أَصْبَغ قال: لما رحلت إلى المشرق نزلت القيروان، فأخذت على بكر بن حماد، حديث مسدَّد، ثم رحلت إلى بغداد ولقيت الناس، فلما انصرفت عدتُ إليه لتمام حديث مسدَّد، فقرأت عليه فيه يوماً حديثَ النبي صلى الله عليه وسلم: أنه قدم عليه قوم من مُضَر من مُجْتَابي النِّمار، فقال: إنما هو مجتابي الثمار، فقلت: إنما هو: مجتابي النمار، هكذا قرأته على كل من قرأته عليه بالأندلس والعراق، فقال لي: بدخولك العراق تُعارضنا وتَفْخَر علينا! ـ أو نحو هذا ـ.

ثم قال لي: قم بنا إلى ذلك الشيخ ـ لشيخ كان في المسجد ـ فإن له بمثل هذا علماً، فقمنا إليه فسألناه عن ذلك؟ فقال: إنما هو مجتابي النِّمار، كما قلتَ، وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشقَّقةً، جيوبُهم أمامَهم، والنمار: جمع نَمِرة. فقال بكر بن حماد ـ وأخذ بأنفه ـ: رغم أنفي للحق، رغم أنفي للحق، وانصرف».

وفي هذا الخبر فوائد غير ما سِيق له، منها: عدم رجوع العالم عن قوله إلا بعد التبيُّن والتثبُّت، أما رجوعه قبل ذلك فضعفٌ وخِفّة.

ومنها: الرجوع إلى أهل الاختصاص، وذلك في قوله: «فإن له بمثل هذا علماً».

وكنت عَرَضت لخُلُق الإنصاف في البحث العلمي، فيما كتبته في «أدب الاختلاف»، فأذكر منه جُمَلاً هنا[1]:

---

(١) من ص٩٥ ـ ١٠٠.

إن الإنصاف أهمّ خُلُق علمي يتحلَّى به طالب العلم بعد وقوفه عند حدود الأدبِ: ذاك الخُلُقِ العامِّ.

وقد عبَّر عن هذه الأهمية الإمامُ ابنُ عبد الهادي الحنبليُّ رحمه الله تعالى في «جزء الجهر بالبسملة» فقال: «وما تحلَّى طالب العلم بشيء أحسنَ من الإنصافِ وتركِ التعصُّب»(١).

ومعنى الإنصاف واستعمالاته تدور على معنى العدلِ وإعطاء الحق، وأخذِه، دون جَوْر أو زيادة أو نقص، والعدل هنا: العدل مع الحق والدين والعلم والمخالفين لك في الرأي، وما إلى ذلك.

وأصل هذا الخُلُق قولُ الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ النحل: ٩٠، وقولُه سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾..﴾ المائدة: ٨، أي: لا يَحملنَّكم الخلافُ والعداوة التي بينكم وبين غيركم على أن لا تعدلوا.

قال سيدنا وابن سيدنا: عمار بن ياسر رضي الله عنهما: «ثلاث من جمعهنَّ فقد جمع الإيمان: الإنصافُ من نفسك، وبذلُ السلامِ للعالم، والإنفاقُ من الإقتار» ذكره البخاري في «صحيحه» معلَّقاً عليه(٢)، وذكر

---

(١) نقله عنه الزيلعي في «نصب الراية» ١ : ٣٥٥، وهو من كلام ابن عبد الهادي الذي بدأ ١ : ٣٣٥ ـ ٣٥٨، وكثير من المعاصرين ينسبونه إلى الزيلعي.

(٢) تحت الباب ٢٠ من كتاب الإيمان ١ : ٨٢ من شرحه «فتح الباري».

الحافظ ابن حجر من رواه مرفوعاً أيضاً، وأعلَّه، والصحيحُ وَقْفُه.

ثم قال الحافظ بعد ما خرَّجه: «قال أبو الزناد ابن سِراج وغيره: إنما كان مَن جَمَع الثلاثَ مستكمِلاً للإيمان، لأن مداره عليها، لأن العبد إذا اتصف بالإنصاف لم يترك لمولاه حقاً واجباً إلا أداه. ولم يتركْ شيئاً مما نهاه عنه إلا اجتنبه، وهذا يجمع أركان الإيمان. وبذلُ السلام: يتضمنُ مكارمَ الأخلاق والتواضعَ وعدمَ الاحتقار، ويحصلُ به التآلف والتحابب. والإنفاقُ من الإقتار: يتضمن غاية الكرم، لأنه إذا أنفق مع الاحتياج كان مع التوسُّع أكثرَ إنفاقاً..، وكونُه من الإقتار يستلزمُ الوثوق بالله، والزهدَ في الدنيا، وقِصَرَ الأمل، وغير ذلك من مهمات الآخرة. وهذا التقرير يقوِّي أن يكون الحديثُ مرفوعاً، لأنه يُشبه أن يكون مِن كلام مَن أُوتي جوامع الكلام. والله أعلم».

قلت: وقوله «إن العبد إذا اتَّصف بالإنصاف لم يترك لمولاه حقاً إلا أداه»: يُزاد في توضيحه: وإن مِن حقوق مولاه عليه: أن يؤدِّيَ حقوقَ عباد الله، ومِن أدائه حقوقَهم: إنصافُهم بما لَهم وما عليهم. وإن من حقوق مولاه عليه: أن يوفِّي هذا العلمَ والدينَ حقَّه بأمانةٍ وصدق وإخلاص، ولو لم يكن من أهل العلم، فكيف إذا كان من أهله!.

وإن إنصاف العالم في مُبَاحثاته لهو أقربُ طريقٍ للوصول إلى الحق: له، ولمُباحِثيه، وسامعيه، وقارئي كلامه.

والإنصافُ يجنِّب صاحبَه عَثَراتِ اللسان والقلم، ويُبْعده عن الشَّغَب في العلم وعن المغالطات.

ومَنْ جانَبَ الإنصاف وجانَفَه: فقد مال إلى الهوى، وقد قال المعتصم

الخليفة العباسيُّ كلمته الحكيمة الرشيدة: «إذا نُصِر الهوى بَطَل الرأي»[١]. فنُصْرة الهوى تُفسِد الرأي السَّديد، والقول الرشيد.

ومن مظاهر الإنصاف: ما حكاه الذهبي[٢] في ترجمة عفان بن مسلم الصفار: «قال الفَلاَّس: رأيت يحيى (القطان) يوماً حدَّث بحديث، فقال له عفان: ليس هو هكذا، فلما كان من الغَدِ أتيت يحيى، فقال: هو كما قال عفان، ولقد سألت الله أن لا يكون عندي على خلاف ما قال عفان!.

قلت ـ هو الذهبي نفسه ـ: هكذا كان العلماء، فانظر يا مسكينُ كيف أنت عنهم بمعزِل!».

وإن من أوجب واجبات الإنصاف: أن لا يكتمَ العالمُ من الحقِّ الذي يعلمه شيئاً، فإن هذا شأن أهل البدع: يكتبون الذي لهم، ولا يكتبون الذي عليهم.

أسند الدارقطني[٣] إلى الإمام وكيع بن الجراح قوله: «أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم».

* * * * *

(١) «تاريخ بغداد» ٣: ٥٣٩ ترجمة ابن فَهُم ـ لا: ابن فَهْم ـ.

(٢) في «السِّيَر» ١٠: ٢٤٩.

(٣) في «سننه» (٣٦).

المَعْلَم التاسع

الالتزام بمنهج جماهير علماء الإسلام

والتحذير من الشذوذات العلمية

ومن مهامّ الشيخ العلمية: أن يوجِّه أصحابه دائماً إلى التزامهم في العلم والعمل والفتيا بمنهج جماهير علماء الإسلام، في الخطوط العريضة العلمية، وفي المسائل الجزئية، وأن يحذِّرهم من الشذوذات العلمية التي تُنقل عن بعض أئمة السلف، أو ما يسمَّى بنوادر العلماء.

وقد اشتهر عن الإمام عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله قوله الذي أسنده إليه ابن عبد البر[1]: «لا يكون إماماً في العلم من أخذ بالشاذّ من العلم، ولا يكون إماماً في العلم مَن روى عن كل أحد، ولا يكون إماماً في العلم من روى كل ما سمع».

أما الكلمة الأولى: فسيأتي الكلام عليها.

وأما الكلمة الثانية: فمراده رحمه الله: النهيُ عن الرواية عن كل أحد، لكنه لا ينهى عن التحمل عن كل أحد، ومن المعلوم عند المحدثين: أن

(١) في «الجامع» (١٥٣٩)، و«جامع» الخطيب أيضاً (١٣٦٢)، وتنظر مقدمة «صحيح مسلم» ١: ١١.

العلم تحمّل وسماع، وأداء ورواية، فهو لا ينهى عن التحمل عن كل أحد وأخذ العلم منه، إنما ينهى عن الرواية عن كل أحد، حتى يتبيَّن له أمره وأمر رواياته.

فمن الممكن لطالب العلم ـ وعالم المستقبل ـ أن يأخذ العلم عن كل أحد، أو أن يقرأ لكل أحد، أو أن يستمع لحديثِ كلِّ أحد، إذا كانت عنده أهلية التمييز بين الغثّ والسمين، والحق والباطل، وما أكثر غُثاءَ السيل، فيما يُطبع ويُذاع في وسائل الإعلام الكثيرة، في أيامنا هذه، وواجبُ الطالب أن يتحفّظ في هذه الأمور جداً، فلا يقرأ إلا باستشارة شيخه ومرجِعه البصيرِ الذي يعيش عصرَه، والعالمِ بهذه الثُّلَّة من الكتّاب المشوِّشين.

فالطالب المبتدئ يستهويه اسم كتاب «أضواء على السنة المحمدية»، فيسعى للبحث عنه ولقراءته، وهو لا يدري أنه من الكتب المضلِّلة!!، ويسمع باسم كتاب «فجر الإسلام»، أو «ضحى الإسلام»، أو «ظهر الإسلام»، أو «يوم الإسلام»، فيسعى لقراءتها، وهو لا يدري بعدُ ما فيها، وما يحمله مؤلفها من انحرافات، مع أنه تولّى القضاء الشرعي"!![1].

---

(١) بمناسبة ذكري لأسماء بعض الكتب والكتّاب المشوِّشين: أشير إلى أن بعض أهل العلم الموثوق بعلمهم ودينهم، عند معارفهم عامة، وعند تلامذتهم خاصة، قد ينقلون ـ لمناسبة علمية أُلجِئوا إليها ـ عن بعض هذا الصنف من العلماء أو الكتّاب، فيفهم القارئ من نقلهم أنه توثيق للكتاب ولصاحبه المنقول عنه، فيقع القارئ في حسن الظن بهم، ولو سأل التلميذ مثلاً أستاذَه عن نظرته العامة نحو الكتاب ومؤلفه لأفصح له وحذّره.

=

كما يستثيره ويشدُّه اسم كتاب «جناية البخاري على الحديث»، و«جناية الشافعي على الفقه»، و«جناية سيبويه على النحو»، فيتطلَّعُ إلى قراءتها، فيقرؤها، فيقع في شِباكها، وضلالاتها، وجناياتها على الإسلام كله!!.

فإنْ آنس من نفسه الأهلية، وجاوز مرحلة التأثّر بالبدع والأهواء المضلِّلة وأهلها: قرأ وسمع، فإن معرفة العالِمِ والمرجعِ بما على الساحة العلمية، أمر ضروري عليه، ليعايش الأفكار والمبادئ المعاصرة له، فيعالجها بالهدي المستقيم الذي تعلَّمه وتربّى عليه، فيحسِّن الحسن ويقوّيه، ويقبِّح القبيح ويوهّيه.

ولكنه لا يروي ولا يتحدث على الناس إلا بما تتحمّله عقولهم وأخلاقهم، حتى لو كان ما يتحدث به إليهم حقاً وصدقاً، ويتفق مع ما عليه جماهير علماء الإسلام، فكيف بالضلالات؟!!.

وقد قال الإمام البخاري رضي الله عنه[1]: «باب من خصَّ بالعلم قوماً

ولهذا فإني أرىٰ الحذر والتحذير من الوقوع في هذا الإيهام، لا سيما في البلاد المعافاة من داء هذه الكتب المشوِّشة وأصحابها.

ورحم الله الإمام الكوثري، فإن موقفه من الشوكاني وصديق حسن خان معروف، ولما اقتضىٰ البحث العلمي منه أن ينقل رأيهما في مسألة نزول عيسىٰ عليه الصلاة والسلام آخر الزمان ـ وهو موافق لما هو مجمع عليه بين العلماء ـ نقل عنهما في مقاله «الرسالة والأزهر» وقال: «نزلتُ في النقل إليهما لكونهما مرضيَّيْن عند صاحب تلك الفتيا»، لا أنه اعتماد منه عليهما.

(١) أوائل «صحيحه» في كتاب العلم ـ الباب ٤٩.

دون قوم، كراهيةَ أن لا يفهموا، وقال عليٌّ: حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتحبُّون أن يكذَّب الله ورسولُه؟!»، ثم ذكر سند هذا القول، وانظر لزاماً كلام الحافظ عليه في «الفتح».

وأما الكلمة الثالثة: فقد كان طالب العلم يرحل إلى أقصى الشرق وأقصى الغرب، ويرى ويسمع ويكتب عن كل من يلقاه، ولا شك أنه يلقى من الخير والعلم الصحيح والكمال، أكثر مما يلقاه من غير ذلك، ولكن الإمام عبد الرحمن بن مهدي يريد أن ينبِّه طالب العلم في هاتين الكلمتين إلى أمر مهم جداً في حياة العالم هو: أن يكون عاقلاً في علمه، ففي العلم غرائبُ إذا لم يتحكَّم بها عقل العالم، فقد يكون علمُه وبالاً عليه وعلى غيره.

ومن كلمات الثناء التي تُقال في كتب التراجم أحياناً قولهم: فلان عقلُه أكبر من علمه، ومن كلمات القدح قولهم: فلان علمه أكبر من عقله. وهذا من أهم ما يحتاجه العالم في حياته العامة.

وقد يرى هذا الطالب ـ أو العالم ـ نفسَه أنه لا يخرج في حديثه عن دائرة الكتاب والسنة، ولكنه لا يكون نافذ البصيرة ـ في هذا الموقف ـ إلى ما يؤثِّر حديثُه في نفوس سامعيه، وقد قال الإمام مالك: «لقد حدَّثتُ بأحاديث وددتُ أني ضُربت بكل حديث منها سوطين، ولم أحدث بها». روى عنه هذا القول الإمام الحاكم[1]، وعلَّق عليه بقوله: «فمالك بن أنس على تحرُّجه وقلة حديثه، يتّقي هذه التَّقِية، فكيف بغيره ممن يحدِّث بالطِّمِّ

---

(١) في «معرفة علوم الحديث» (١٠٨).

والرِّمِّ؟!» يعني: يحدث بما هبّ ودبّ.

أما كلمة الإمام ابن مهدي الأولى: لا يكون إماماً في العلم من أخذ بالشاذ من العلم، فأقول: إن هذا التحذير شامل للأخذ بالشاذ من العلم في نفس العالم أو الطالب، فيعمل به في خاصَّة نفسه، أو في غيره فيُفتيه به، وشامل للشذوذ الواحد، ولجملة من الأحكام الشاذة، وشامل لأبواب العلم: في العقيدة، والأحكام عامة، والسلوك، وما إليه.

والمراد: اجتناب شواذِّ العلم والعلماء، ليبقى العالِم دائماً على طريق السلامة، وصراط الاستقامة، لا سيما أنه في مَقام القدوة.

وسبق أن عَرَضت للتحذير من شواذ العلماء في «أثر الحديث الشريف»[(١)]، فأنقل منه هنا ما يتيسر، وأزيد عليه النقل عن «فتاوى البُرْزُلي»، و«معيد النعم»، و«مقالات» الكوثري، وابن المبارك، وللقارئ الكريم أن يرجع إلى تمامه هناك.

روى البيهقي[(٢)] عن إمام الشافعية في العراق: أبي العباس ابن سُريج، عن إمام المالكية في العراق أيضاً: القاضي إسماعيل بن إسحاق رحمهما الله تعالى أنه قال: «دخلت على المعتضد فدفع إليَّ كتاباً، فنظرت فيه، وكان قد جُمع له الرُّخَص من زَلَل العلماء[(٣)] ـ وما احتج به كلٌّ منهم لنفسه ـ

---

(١) ص١٣٦ ـ ١٤٤.

(٢) في «سننه» ١٠: ٢١١.

(٣) الزَّلَّة: الذنب أول الخطأ من غير قصد، وفي هذا التعبير أدب رفيع مع العلماء. ومؤلف هذا الكتاب ـ والله أعلم به ـ أخطأ من وجهين: جمعُه لها على صعيد =

فقلت له: يا أمير المؤمنين مصنِّف هذا الكتاب زنديق! فقال ـ المعتضد ـ: لم تصح هذه الأحاديث؟ قلت: الأحاديث على ما رُويت، ولكن من أباح المسكر ـ يريد: النبيذ ـ لم يُبِح المتعة، ومن أباح المتعة لم يُبح الغناء والمسكر، وما من عالم إلا وله زلّة، ومن جَمَع زلل العلماء ثم أخذ بها ذهب دينه! فأمر المعتضد فأحرق ذلك الكتاب».

ويؤكّد الضلال في هذا التسيُّب بالأخذ بالشذوذ والنوادر: ما حكاه البُرْزلي عن نفسه[1]، قال: «وأذكُر إذْ كنت مراهقاً للبلوغ بين يدي أستاذي وإمامي، وكان أول يوم من شهر رمضان، وبات الناس على غير نية الصيام، فقلت: لا أقضي هذا اليوم، على مذهب بعض أصحاب مالك، في رواية شاذة، فأخذ بأذني أستاذي فقال لي: إن قرأتَ العلم على هذا فلا تقرؤه، إن اتَّبعت منه بُنَيّات الطرق جاء منك زنديق. بهذا اللفظ». أي: هكذا قال لي، وبهذا اللفظ.

وأكّده أيضاً التاج السبكي في كلامه على (المثال السابع والأربعون) من «معيد النعم»: المفتي، الذي يسهّل أمر الشرع، ويرخِّص لبعض الأمراء ونحوهم ما لم يرخّص لغيرهم، وقال[2]: «هذا من علامات الاستهانة بدين الله»، وقال بعد كلام وأمثلة للرخص: «ومَن هذه حاله

واحد، وأخذُه بها، أو ببعضها، وهو يعلم أنها زَلَل. وانظر لزاماً كلام الشاطبي الآتي ص٣٦٣ ـ ٣٦٤.

(١) في «فتاويه» ١ : ٨٧.

(٢) صفحة ٨١.

يؤول ـ والعياذ بالله تعالى ـ إلى الزندقة».

وقال الإمام الكوثري في مقاله «اللامذهبية قنطرة اللادينية»: «أما تتبع الرُّخَص من أقوال كل إمام، والأخذ بما يوافق الهوى من آراء الأئمة، فليسا إلا تشهّياً محضاً، وليس عليهما مَسحة من الدين أصلاً، كائناً من كان مبيح ذلك».

ومن المجتهدين الذي حذّروا من اتباع أقوال العلماء بدافع التشهي مطلقاً، لا من الأخذ بزللهم ورُخَصهم: الإمام ابن المبارك، فيما رواه ابن أبي العوام في «فضائل أبي حنيفة»(١) عن علي بن الحسن بن شقيق قال: سألت عبد الله بن المبارك عن اختلاف أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم: أكلُّه صواب؟ قال: الصواب واحد، والخطأ موضوع عن القوم ـ أي: غير مآخذين به ـ، قلت: فمن أخذ بقولٍ من أقاويلهم فهو موضوع؟ قال: نعم، أرجو، إلا أن يكون رجلاً اختار قولاً ورآه الحقَّ، فنزل به أمر، فينتقل عنه إلى غيره، فذلك الذي لا يَسَعه».

وحكى عنه الشاطبي في «الموافقات»(٢) هذا الحوار الذي جرى لابن المبارك مع بعض أهل الكوفة، قال: «كنا في الكوفة، فناظروني في ذلك، يعني في النبيذ المختلَف فيه، فقلت لهم: تعالوا فليحتجَّ المحتجّ منكم عمن شاء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالرخصة، فإن لم نبيِّن الردّ عليه عن ذلك الرجل بشدَّةٍ صحَّتْ عنه، فاحتجوا.

---

(١) (٥٦٩).

(٢) ٤ : ١٢٣ تحت الفصل الأول من المسألة الثامنة من كتاب الاجتهاد.

فما جاؤوا عن واحد برخصة إلا جئناهم بشدة، فلما لم يبق في أحد منهم إلا عبد الله بن مسعود ـ وليس احتجاجهم عنه في رخصة النبيذ بشيء يصح عنه ـ، قال ابن المبارك: فقلت للمحتجّ عنه في الرخصة: يا أحمق، عدَّ أن ابن مسعود لو كان هاهنا جالساً فقال: هو لك حلال، وما وصفنا عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الشدة، كان ينبغي لك أن تحذر، أو تحيَّر، أو تخشى!! فقال قائلهم: يا أبا عبد الرحمن، فالنخعي والشعبي ـ وسمى عدَّة منهم ـ كانوا يشربون الحرام؟ فقلت لهم: دَعُوا عند الاحتجاج تسمية الرجال، فرُبَّ رجل في الإسلام مناقبه كذا وكذا، وعسى أن يكون منه زلة، أَفَلِأَحدٍ أن يحتج بهذا؟ فإن أبيتم فما قولكم في عطاء، وطاوس، وجابر بن زيد، وسعيد بن جبير، وعكرمة؟! قالوا: كانوا خياراً، قال: فقلت: فما قولكم في الدرهم بالدرهمين يداً بيد؟! فقالوا: حرام، فقال ابن المبارك: فإن هؤلاء رأوه حلالاً، فماتوا وهم يأكلون الحرام؟! فبقوا ـ أي: سكتوا حائرين ـ وانقطعت حجتهم».

قال الشاطبي: والحقّ ما قال ابن المبارك.

وأسند البيهقي[1] إلى الإمام الأوزاعي أنه قال: «يُجتنب ـ أو يترك ـ من قول أهل العراق خمسٌ، ومن قول أهل الحجاز خمسٌ..» وذكرها.

وقال أبو بكر الآجُريُّ[2]: «فإن احتجَّ محتجٌّ في الرخصة في اللعب بالشِّطرنج فقال: قد لعب بها قوم ممن يُشار إليهم بالعلم؟ قيل له: هذا

---

(١) في «سننه الكبرى» ١٠ : ٢١١.

(٢) في «تحريم النَّرد والشِّطْرَنج والملاهي» صفحة ١٧٠.

ـ أي: هذا الاحتجاجُ ـ قولُ مَن يتبَع هواه ويترك العلم، فليس ينبغي إذا زلَّ بعض من يُشار إليهم زلةً أن يُتَّبع على زَلَلِه، هذا قد نُهينا عنه، وقد خِيف علينا من زلل العلماء».

ثم أسند إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه من قوله: «ثلاثٌ مُضِلاتٌ: أئمةٌ مُضِلة، وجدالُ منافقٍ بالقرآن، وزَلَّة عالم».

بل لقد قال أبو علي الكرابيسي الإمامُ في علم الكلام والحديث والفقه، بعد أن حكى أقوالاً شاذة لبعض السلف: «فإن قال قائل: هؤلاء من أهل العلم! قيل له: إنما يهدِم الإسلامَ زلةُ عالم، ولا يهدمه زلة ألف جاهل»[1].

ولقد صَدَق والله وبَرَّ، لكن فيما إذا انتُصِر لهذه الزلَّة بجهل وحُمق حتى جُعلت هي الصوابَ والحقَّ، وما سواها فخطأ وباطل، أما إذا قُبرت بإهمالها أو بالردّ عليها: فلا.

وقال ابن عبد البر في «الجامع»[2]: «شبَّه الحكماء زلَّة العالم بانكسار السفينة، لأنها إذا غرقت غرق معها خلق كثير».

فإن قلتَ: فما علامةُ كونِ هذا القول زلةً وهفوةً؟.

قلتُ: روى أبو داود وغيره[3] خبراً عن معاذ بن جبل رضي الله عنه هو

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي ٢: ١٢٥.

(٢) (١٨٧٣)، وأسند الخطيب في «آداب الفقيه والمتفقِّه» (٦٤٦) هذا التشبيه إلى عبد الله بن المعتز.

(٣) «سنن أبي داود» كتاب السنة ٥: ١٨٦ (٤٥٩٦)، و«تاريخ» يعقوب بن
=

من أصدق القول وأحكمه: قال يزيد بن عَميرة أحد سادات التابعين ومن خاصة أصحاب معاذ: كان معاذ «يقول كلما جلس مجلسَ ذكر: الله حكَمٌ عَدْل. فقال يوماً في مجلسٍ جَلَسه: وراءكم فتنٌ يكثُر فيها المالُ، ويُفتح فيها القرآن، حتى يأخذَه المؤمنُ والمنافق، والحرُّ والعبد، والرجلُ والمرأة، والكبير والصغير[1]، فيوشكُ قائلٌ أن يقول: فما للناس لا يتَّبعوني وقد قرأتُ القرآن؟ والله ما هم بمتَّبعيَّ حتى أبتدعَ لهم غيره!.

«فإياكم وما ابتَدَع، فإن ما ابتَدَع ضلالةٌ، واحذروا زَيْغَةَ الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على فمِ الحكيم، وقد يقول المنافقُ كلمة الحق.

«قال ـ يزيد بن عَميرة ـ: قلت له: وما يُدريني ـ يرحمك الله ـ أن الحكيم يقول كلمة الضلالة، وأن المنافق يقول كلمة الحق؟.

قال ـ معاذ ـ: اجتنبْ من كلام الحكيم المشتَبِهاتِ التي تقول: ما هذه؟ ولا يُنْئِيَنَّك ذلك منه، فإنه لعله أن يراجع ويَلقىٰ الحق إذا سمعه، فإن على الحق نوراً».

سفيان ٢: ٣٢١، ومن طريقه البيهقي ١٠: ٢١٠، و«المدخل» له ص ٤٤٤، والحاكم ٤: ٤٦٠ (٨٤٢٢)، وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي، ثم في ٤: ٤٦٦ (٨٤٤٠) من وجه آخر وصححه على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي حسب المطبوع، وهو في «جامع بيان العلم» ـ الموضع السابق ـ.

وانظر مثالاً على زلة الحكيم في «مسند الشاميين» ٢: ٣٣٣ (١٤٤٣)، ونحوه عند يعقوب بن سفيان ٢: ٣٢٢.

(١) انظر خبر ابن عباس وعمر رضي الله عنهم المتقدم ص ٣١٦.

قال البيهقي: «فأخبر معاذ بن جبل: أن زَيْغَة الحكيم لا تُوجِبُ الإعراضَ عنه، ولكن يُترك من قوله ما ليس عليه نور، فإن على الحق نوراً. يعني ـ والله أعلم ـ دلالةً من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس على بعض هذا».

فنبَّه رضي الله عنه إلى طائفة مارقة من الإسلام تبتدع مبادىءَ خارجةً عنه بالكلية، ونبَّه إلى طائفة صالحة فيها إيمانٌ وحكمة، وتصدر عنها الزلَّة والهفوة، فلا يجوز للمتنطِّع أن يُلحِق هذه بتلك، بل يلزمُ هذه الطائفةَ فيما هي عليه من هَدْي وخير، ويتجنَّبُ ما يبدُر منها من شذوذ وهفوة.

ودلَّنا على علامة هَفْوتها: أنها كَدِرة عكِرةٌ، ليس عليها صفاءُ الحق ونَصاعته، وسماها «مشتبهات» تَستنكرُ بفطرتك أن تكون من الحق الناصع الخالص فتقول: «ما هذه؟!»[1].

أما الحقُّ الخالصُ فإن عليه نوراً ودليلاً يؤيده. والله أعلم.

وللإمام ابن القيم رحمه الله تعالى كلام نفيس في هذا الصدد[2]، تكلم فيه على لزوم تجنُّب زَلاَّت العلماء، أنقل منه أولَه، فقد شَرَح فيه المُواءَمةَ بين لزوم طريق الأئمة، وتجنُّب ما لا يؤخذ به من أقوالهم، فقال: «لا بدَّ من أمرين: أحدُهما أعظم من الآخر، وهو النصيحةُ لله ولرسوله وكتابه ودينه، وتنزيهُه عن الأقوال الباطلة المناقضة لما بَعَث الله به رسوله من

---

(١) يدل عليه رواية ابن عبد البر في «جامعه» (١٨٧٣): «قالوا: وكيف زَيْغَةُ الحكيم؟ قال: هي الكلمة تَروعكم وتُنكرونها وتقولون: ما هذه؟».

(٢) في «إعلام الموقعين» ٣: ٢٩٤ فما بعدها.

الهدى والبينات.

الثاني: معرفةُ فضل أئمة الإسلام ومقاديرهم وحقوقهم ومراتبهم، وأن فضلَهم وعلمَهم ونُصحَهم لله ورسوله لا يوجب قبول كلِّ ما قالوه، وما وقع في فتاويهم من المسائل التي خفي عليهم فيها ما جاء به الرسول ﷺ فقالوا بمبلغ علمهم، والحقُّ في خلافها: لا يوجبُ اطِّراحَ أقوالهم جملةً، وتنقُّصَهم والوقيعةَ فيهم، فهذان طرفان جائران عن القصد، وقصدُ السبيل بينهما، فلا نُؤَثِّم ولا نَعْصِم.. بل نسلُكُ مسلكهم أنفسِهم فيمن قبلهم من الصحابة،... ولا منافاةَ بين هذين الأمرين لمن شَرَح الله صدره للإسلام، وإنما يتنافيان عند أحدِ رجلين: جاهلٍ بحقيقة الشريعة التي بَعَث بها رسولَه، ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قَدَمٌ صالحٌ وآثار حسنة، وهو من الإسلام وأهله بمكان: قد تكون منه الهفوة والزَّلة هو فيها معذور، بل ومأجور لاجتهاده، فلا يجوز أن يُتَّبع فيها، ولا يجوز أن تُهْدَر مكانته وإمامته ومنزلته من قلوب المسلمين» إلى آخر كلامه النفيس.

وإنما أطلتُ في بيان هذه الملاحظة لكشفِ عُوارِ مَن يرقِّع واقعَه، أو واقع الناس وسلوكهم بآراء شاذة، أو أقوال ضعيفة، أو آراء فردية لأصحابها، خالفوا فيها جماهير أئمة العلماء من عصر الصحابة فمن بعدهم على توالي القرون.

فخشيةَ أن يحتجَّ هؤلاء الشُّذَّاذُ المرقِّعون للدنيا بالدين: بأن آراءَ علمائنا مستَمَدَّةٌ من الكتاب والسنة، ولها مكانتها واعتبارها، أطلتُ في بيانِ أنه قد تفرط لبعضهم نوادرُ وهَفَوات، لا يجوز تلمُّسها والأخذُ بها.

والله الهادي إلى الحق بإذنه.

وعلى ضوء هذا التفسير ـ أو التخصيص ـ نفسِّر قول الإمام سفيان الثوري رحمه الله تعالى: «إذا رأيتَ الرجلَ يعمل العمل الذي قد اختُلِف فيه وأنت ترى غيره: فلا تنهه».

أي: إذا كان الاختلاف فيه سائغاً معتبراً، ومن المشهور على ألسنة العلماء قولُ القائل:

فليس كلُّ خلافٍ جاءَ معتبَـراً إلا خلافٌ له حظٌّ من النظَر[1]

أما الخلافُ النادر الشاذُّ فلا يصح السكوتُ على فاعله أو قائله. وقد تقدم في كلام الإمام ابن حزم[2] أمثلة على الأقوال النادرة الشاذة ـ وإنْ كان هو قد ساقها للردِّ على من يجعل الاختلاف رحمة ـ.

بل إن بيانَ خطأِ هذا الخلافِ والمخالفِ واجبٌ ومعدودٌ من النصح لله وكتابه ورسوله وعامة المسلمين.

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله في كتابه النافع المبارك «جامع العلوم والحكم»[3]: «ومن أنواع النُّصحِ لله تعالى وكتابه ورسوله ـ وهو مما يختصُّ

(١) البيت للإمام أبي الحسن ابن الحَصّار المالكي، المتوفَّى سنة ٦١١ رحمه الله، وهو آخر بيت من قصيدة له، أبياتها اثنان وعشرون بيتاً في ذكر السُّوَر المكية والمدنيّة والمختلف فيها، وهي بتمامها في «الإتقان» للسيوطي رحمه الله ١ : ٤٥.

(٢) صفحة ١٢٢ من «أدب الاختلاف».

(٣) ١ : ٢٢٣ ـ ٢٢٤ من شرح الحديث السابع.

به العلماء[١] ـ ردُّ الأهواء المضلة بالكتاب والسنة، وبيانُ دلالتهما على ما يخالف الأهواءَ كلَّها، وكذلك ردُّ الأقوالِ الضعيفة من زلات العلماء، وبيانُ دلالة الكتاب والسنة على ردِّها».

وقال أيضاً[٢]: «والمنكَر الذي يجبُ إنكاره ما كان مجمَعاً عليه، فأما المختلَفُ فيه: فمن أصحابنا من قال: لا يجب إنكاره على من فعله مجتهِداً، أو مقلِّداً لمجتهِدٍ تقليداً سائغاً، استثنى القاضي في «الأحكام السلطانية»[٣] ما ضَعُف فيه الخلاف إن كان ذريعة إلى محظور متَّفق عليه، كالربا، وكنكاح المُتعة، فإنه ذريعةٌ إلى الزنا..، والمنصوصُ عن أحمد الإنكار على اللاعب بالشِّطرَنج، وتأوَّله القاضي على مَن لعب بها بغير اجتهاد أو تقليد سائغ..».

فما ضَعُف فيه الخلاف لدلالة النصوص على ردِّه: مُلحَق بشواذِّ العلماء ونوادرهم أيضاً. والله أعلم.

---

(١) تأمَّلْ هذا التقييد ما أهمَّه: مما يختصُّ به العلماء، فبيان الحق والمعروف، والتحذير من المنكر والأهواء المضلَّة وظيفة العلماء وواجبهم، ولا يجوز لغيرهم أن يتطاول إلى هذا المقام، وما أكثر هؤلاء المتطاولين الذين يجعلون أنفسهم أوصياء على دين الله وشرعه!! ومن الأخطاء الدارجة على ألسن الناس في هذه المناسبة قولهم: ليس في الإسلام رجال دين أو كهنوت، يريدون أن الكلام في الدين من حقّ كل مسلم، وهذا حق، لكنه سِيق مساقاً خاطئاً.

(٢) ٢: ٢٥٤.

(٣) لأبي يعلى الفراء ص٢٩٧.

وعَقَد الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى[١] المسألة الثامنة لبيان سبب زلَّة العالم، ونَقَل حديثَ عمر، ومعاذ، وكلمةَ سليمان التيميِّ، ثم قال[٢]: «فصل:.. إن زلَّة العالم لا يصح اعتمادها من جهة، ولا الأخذُ بها تقليداً له، وذلك لأنها موضوعة ـ أي: معتبرة منا ـ على المخالفة للشرع، ولذلك عُدَّت زلةً، وإلا فلو كانت معتَداً بها لم يُـجعَل لها هذه الرتبة، ولا نُسِب إلى صاحبها الزللُ فيها، كما أنه لا ينبغي أن يُنسَبَ صاحبها إلى التقصير، ولا أن يُشَنَّعَ عليه بها، ولا يُنْتَقَصَ من أجلها، أو يُعْتَقَدَ فيه الإقدامُ على المخالفة بحتاً، فإن هذا كلَّه خلاف ما تقتضي رتبتُه في الدين.

«فصل: ولا يصحُّ اعتمادُها ـ أي: الزلَّةِ ـ خلافاً في المسائل الشرعية، لأنها لم تصدر في الحقيقة عن اجتهاد، ولا هي من مسائل الاجتهاد، وإن حَصَل من صاحبها فهو لم يُصادِف فيها محلاً، فصارت في نسبتها إلى الشرع كأقوال غيرِ المجتهد، وإنما يُعدُّ في الخلاف الأقوالُ الصادرةُ عن أدلةٍ معتبرةٍ في الشريعة، كانت مما يَقْوَى أو يَضْعُف. . .

فإن قيل: فهل لغير المجتهد من المتفقهين في ذلك ـ أي: في تمييز ما كان خلافاً معتبراً مما هو غير معتبر ـ ضابطٌ يَعتمده أم لا؟.

فالجواب: أن له ضابطاً تقريبياً، وهو أن ما كان معدوداً في الأقوال غلطاً وزَلَلاً قليل جداً في الشريعة، وغالبُ الأمر أن أصحابها منفردون بها، قلَّما يُساعدهم عليها مجتهد آخر، فإذا انفرد صاحبُ قولٍ عن عامةِ

---

(١) في «الموافقات» ٤: ١٦٨.

(٢) ٤: ١٧٠ ـ ١٧٣.

الأمة فليكنْ اعتقادُك أن الحقَّ مع السواد الأعظم من المجتهدين، لا من المقلِّدين».

وأنت ترى أن هذا الكلام وكلام ابن القيم وابن رجب من مشكاة واحدة، وحول معنى واحد. رحمهم الله تعالى.

ومن مهام الشيخ المعلِّم: أن يُنَشِّئ طلابه على هذه الخصال العلمية الجزئية في ذاتها، الكبيرة الأثر في مستقبلها.

وليحذر الطالب أن يَتَجوَّه عليه متجوِّه ويقول له عن هذا القول الشاذ: إنه قول ابن عباس حبر الأمة، أو هذا قول ابن عمر، وتمسُّكه واتباعه معروف، أو هذا قول سعيد بن المسيب إمام التابعين، أو هذا قول شُريح أعظم قضاة المسلمين، وما شاكل هذا!.

فإنه إنْ قال لنا هذا، قلنا له: وأين أنت عن عشرات من الصحابة، ومئات من التابعين، ومئات ومئات أمثالهم من أتباع التابعين، وآلاف مؤلفة من العلماء بعدهم، انصرفوا عن هذا القول، وتركوه، وفيهم من الجلالة في العلم والدين أمثال ما تذكره ممن تتمسك بقوله وشذوذه، وهو مأجور لاجتهاده، ولكنك مأزور لتشهّيك وترخّصك!.

* * * * *

المَعْلَم العاشر

إقرار أهل كل بلد على ما هم عليه من العلم والعمل

ومن مهمات الشيخ الحكيم أن يورِّث أصحابه الحكمة في تعاملهم مع الناس أهلِ بلدهم، سواء في تلقينهم العلم في دروسهم الخاصة، أو مجالس وعظهم العامة، وسواء في فتاويهم وأقضيتهم، فإنه يتركهم ما داموا على خير وعمل صالح، يتفق مع توجّه إسلامي معتبر عند جمهرة علماء المسلمين، ولا ينبغي لهم أبداً أن يشوِّشوا عليهم فينقلوهم إلى قول أو حكم غير ما هم عليه، وإن كانوا ينقلونهم في فتاويهم وأقضيتهم إلى أحكام يرونها أرجح مما كانوا عليه.

وهذا ما يحصل لكثير من طلبة العلم الذين يدرسون الفقه في بلد منفتح على المذاهب، ثم يرجع هذا الطالب إلى بلده، وأهلُه على مذهب واحد من المذاهب، لا يعرف إلا مذهباً واحداً، فيقع في التشويش على أهل بلده، ولا يسلك معهم طريق التعقُّل، فيكون طلبُ العلم وبالاً عليه وعلى أهل بلده! يضلِّلهم ويضلِّلونه!.

وقولي: إن عليه أن يتركهم على ما هم عليه، ما داموا على خير، ويتفق مع توجّه إسلامي معتبر: قولي هذا ليس بدْعاً في الدين، ولا رِقَّة في التمسُّك، ولا...، بل هو ما عليه هدي السلف الصالح. وقد كتبت في هذا المعنى عدة صفحات في «أدب الاختلاف»، أنقل منها ما هو واضح في

هذا المعنى[١].

وأخصّ بالنقل موقف إمامين مجتهدين، كان لهما موقف حميد إزاء حمل الناس على اجتهاد واحد.

أما الأول: روى الدارمي في «سننه»[٢]: أن حميداً الطويل قال للخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز: «لو جمعتَ الناس على شيء! فقال: ما يسرُّني أنهم لم يختلفوا. قال: ثم كتب إلى الآفاق ـ أو إلى الأمصار ـ: ليقضِ كل قوم بما اجتمع عليه فقهاؤهم».

وروى أبو زرعة الدمشقي رحمه الله[٣] عن سليمان بن حبيب المحاربي التابعي الثقة القاضي بدمشق أنه قال: «أراد عمر بن عبد العزيز أن يجعلَ أحكامَ الناس والأجناد حكماً واحداً، ثم قال: إنه قد كان في كل مصرٍ من أمصار المسلمين وجندٍ من أجناده ناسٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، وكانت فيهم قُضاةٌ قَضَوا بأقضيةٍ أجازَها أصحاب رسول الله ﷺ ورَضُوا بها، وأمضاها أهل المصر، كالصلح بينهم، فهم على ما كانوا عليه من ذلك». فترك عمر ما كان أراده، وكان حريصاً جداً على أن لا يغيِّر من واقع الأمة شيئاً مألوفاً عندهم، ما دام على وِجهة شرعية. وانتظِر خبرَه الدالَّ على ذلك، الآتي قريباً تعليقاً.

وأما الموقف الثاني: فهو موقف الإمام مالك من مثيل هذه الفكرة

---

(١) من صفحة ٣٩ فما بعدها.

(٢) باب اختلاف الفقهاء ١ : ١٥١.

(٣) من «تاريخ أبي زرعة الدمشقي» ١ : ٢٠٢.

والخاطرة، لما عُرِض عليه حَمل الناس على «موطئه». وتعددت الروايات في من عَرَض عليه هذا الأمر، وفي أجوبته لهم، ولكنها كلَّها تدور حول محور واحد: رَفْضه حملَ الناس على مذهب واحد، حباً في التوسعة عليهم.

قال ابن أبي حاتم[1]: «قال مالك: ثم قال لي ـ أبو جعفر المنصور ـ: قد أردتُ أن أجعلَ هذا العلم علماً واحداً، فأكتبَ به إلى أمراء الأجناد وإلى القضاة فيعملون به، فمن خالف ضربتُ عنقه!. فقلت له: يا أمير المؤمنين أوَ غيرَ ذلك. قلت: إن النبي ﷺ كان في هذه الأمة، وكان يبعث السرايا، وكان يخرج، فلم يفتح من البلاد كثيراً حتى قبضه الله عز وجل، ثم قام أبو بكر رضي الله عنه بعده فلم يفتح من البلاد كثيراً، ثم قام عمر رضي الله عنه بعدهما ففتحت البلادُ على يديه، فلم يجد بُدّاً من أن يبعثَ أصحابَ محمد ﷺ معلِّمين، فلم يزلْ يُؤخَذ عنهم كابراً عن كابر، إلى يومهم هذا، فإن ذهبتَ تحوِّلُهم مما يعرفون إلى ما لا يعرفون رأوا ذلك كفراً[2]، ولكنْ أَقِرَّ أهلَ كلِّ بلدة على ما فيها من العلم، خذْ هذا العلم

---

(١) «تقدمة الجرح والتعديل» ص ٢٩.

(٢) هذا كان في عصر التابعين وأتباعهم، فما الفرق بينه وبين التزام المسلمين بعدهم مذهباً يتعبَّدون الله تعالى على وَفْقه، ويتمسَّكون به، دون بغضاءَ ولا إثارةِ فتن؟!. وهذا المعنى الذي يشير إليه الإمام مالك هنا، وفي الخبر الآتي هو الذي كان عمر بن عبد العزيز يتحاشاه، ما دام الناس على شرع ودليل.

فقد جاء في كتاب الليث بن سعد إلى مالك رضي الله عنهما ـ وهو كتاب مشهور ـ ما نصه: «ومن ذلك: القضاء بشهادة شاهدٍ ويمينِ صاحب الحق، وقد عرفتَ ـ الخطاب لمالك ـ أنه لم يَزَل يُقْضَى بالمدينةً به، ولم يَقْضِ به أصحاب

=

لنفسك. فقال لي: ما أبعدتَ القول، اكتب هذا العلم لمحمد». يعني ولده المهديَّ الخليفةَ من بعده.

وفي رواية ابن سعد في «القسم المتمم»[١] عن شيخه الواقدي ـ وهو كما قال الذهبي[٢]: «وإن كان لا نزاع في ضعفه فهو صادق اللسان كبير القدر» ـ قال الواقدي: «سمعتُ مالك بن أنس يقول: لما حجَّ أبو جعفرٍ المنصورُ دعاني فدخلت عليه فحادثته، وسألني فأجبتُه فقال: إني قد عزمت أن آمُرَ بكتبك هذه التي وضعتَها ـ يعني: «الموطأ»[٣] ـ فتنسخَ

رسول الله ﷺ بالشام، ولا بحمص، ولا بمصر، ولا بالعراق، ولم يكتب به إليهم الخلفاء الراشدون: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي.

ثم وَلِيَ عمر بن عبد العزيز ـ وكان كما قد علمتَ في إحياء السُّنَن والجِدِّ في إقامة الدين والإصابة في الرأي، والعلم بما مضى من أمر الناس ـ فكتب إليه رُزَيقُ بن حُكَيم: إنك كنتَ تقضي بالمدينة بشهادة الشاهد الواحد ويمين صاحب الحق، فكتب إليه عمر بن عبد العزيز: إنا كنا نقضي بذلك بالمدينة، فوجدنا أهل الشام على غير ذلك، فلا نقضي إلا بشهادة رجلين عدلين، أو رجلٍ وامرأتين». انظر هذا في «إعلام الموقعين» ٣: ٩٧ لابن القيم رحمه الله تعالى.

وانظر كلام ابن عبد البر في «التمهيد» ١: ١٠ في سبب اختياره لرواية يحيى الليثي ليشرحها دون غيرها من الروايات. وسيأتي نقله ص ٣٧٣.

(١) «طبقات ابن سعد» ص٤٤٠، و«الانتقاء» ص٨٠.

(٢) «السِّيَر» ٧: ١٤٢.

(٣) ينظر هذا التفسير ممن هو، فإن أبا جعفر توفي قبل فراغ مالك من تأليف «الموطأ» كما في «ترتيب المدارك» ١: ٢١٦، أو يقال: أراد أبواب «الموطأ» التي فرغ منها. وهو واضح من النص، وانظر التعليق على «الانتقاء».

نسخاً، ثم أبعثَ إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها بنسخة، وآمرهم أن يعملوا بما فيها لا يتعدَّوه إلى غيره، ويَدَعوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدَث، فإني رأيت أصل العلم رواية المدينة وعلمهم.

قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، لا تفعل هذا، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، وَرَوواْ روايات، وأخذ كلُّ قومٍ بما سَبق إليهم وعَمِلوا به، ودانوا به من اختلاف الناس وغيرهم، وإنّ ردَّهم عما اعتقدوه شديد، فدعِ الناسَ وما هم عليه، وما اختار كلُّ أهل بلد منهم لأنفسهم.

فقال: لَعَمْري لو طاوَعْتني على ذلك لأمرتُ به».

وفي رواية الزبير بن بكار[١]: أن مالكاً قال لأبي جعفر: «قد رسخ في قلوب أهل كل بلدٍ ما اعتقدوه وعملوا به، وَرَدُّ العامة عن مثل هذا عسير». وانظر تعليق العلامة الكوثري رحمه الله هناك.

وفي «ترتيب المدارك»[٢]: أن الخليفة المهديَّ قال للإمام مالك: «ضَعْ يا أبا عبد الله كتاباً أحمل الأمة عليه، فقال له مالك: أما هذا الصُّقْع ـ يعني: المغربَ ـ فقد كُفِيتَه، وأما الشام: ففيه الأوزاعي، وأما أهل العراق فهم أهل العراق». وكان قد انتشر أصحابه في المغرب، فلذا قال له: قد كُفِيتَه، وأما أهل الشام: ففيهم إمام مجتهد رِضيً، فلا ينبغي أن يُزاحَم أو يعكَّر عليه، بل يُقَرَّ أهل بلده على التمذهب له.

---

(١) نقلها ابن عبد البر في «الانتقاء» ص ٨١.

(٢) ١ : ٢١٨، ومثله في «سِيَر أعلام النبلاء» ٨: ٧٨.

وفي «الحلية»[1]: «شاورني الرشيد في ثلاثة ـ فذكرها ـ ومنها: أن يعلِّق «الموطأ» ويحملَ الناس على ما فيه، فقال له: إن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع، وتفرَّقوا في الآفاق، وكلٌّ عند نفسه مصيبٌ»[2].

وفي «الرواة عن مالك» للخطيب: قال الرشيد: «يا أبا عبد الله، نكتبُ هذه الكتب ونفرِّقُها في آفاق الإسلام لنحملَ عليها الأمة! قال مالكٌ: يا أمير المؤمنين، إن اختلاف العلماء رحمة من الله على هذه الأمة، كلٌّ يتبع ما صح عنده، وكلٌّ على هدى، وكلٌّ يريد الله»[3].

وفي «الحلية»[4]: «سأل المأمونُ مالكَ بنَ أنس:.. قال له: تعالَ معنا، فإني عزمت أن أحملَ الناس على «الموطأ» كما حَمَل عثمانُ الناس على القرآن، فقال له: ما لكَ إلى ذلك سبيلٌ، وذلك أن أصحاب النبي ﷺ افترقوا بعده في الأمصار فحدَّثوا، فعند كلِّ أهلِ مصرٍ علمٌ».

لكن قال عياض[5]: «لم يدركْ مالك أيام المأمون، توفِّي قبلها،

---

(١) ٦ : ٣٢٢.

(٢) ولفظه عند السيوطي في «جزيل المواهب»: «وكلٌّ مصيب». وقال الذهبي في «السِيَر» ٨: ٩٨: «إسناد حسن، لكن لعل الراوي وَهِم في قوله: هارون». قلت: لعل صوابه: المهدي، فنحو هذه القصة في «ترتيب المدارك» ١ : ٢٥٠ عن المهدي، على أن ابن تيمية قد ذكر هذه القصة في موضعين على أنها بين مالك والرشيد، انظر «مجموع الفتاوى» ٣٠: ٧٩، و«الفتاوى الكبرى» ٥ : ١٨.

(٣) «كشف الخفاء» للعجلوني ١ : ٦٥ (١٥٣).

(٤) ٦ : ٣٣١.

(٥) في «ترتيب المدارك» ١ : ٢٤٣.

وذِكْرُ المأمون هنا وَهَم». قال ذلك في نقد خبر آخر، وصحَّح أنه الرشيد لا المأمون، فلعله يقال في الخبر الذي نحن بصدده ما قيل في ذاك، على أنه ولا مانع من تكرار الطلب عليه من أبي جعفر وولده المهدي، ثم الرشيد.

والقدْر المشترك في الروايات كلِّها: إقرارُ الإمام مالك اختلافَ الصحابةِ والأمةِ من بعدهم على ما اختلفوا فيه، ورفضُه حملَ الناس على مذهب واحد. وانظر قوله في رواية الخطيب: «إن اختلاف العلماء رحمة من الله على هذه الأمة». وقوله في رواية «الحلية»: «كلٌّ عند نفسه مصيب».

وفيه أيضاً: احترامُه لآراءِ الأئمة الآخرين، مع أنه إمام مجتهد، ما يقول ما يقول إلا بعد بذلِ الجهد، واستفراغِ الوُسْع، وتَرَجُّحِ أنه هو الصواب لا غيره، ومع ذلك أقرَّ المخالفين وأتباعَهم على ما هم عليه، وما رضي بحمل الخليفة لهم على قوله ومذهبه.

وفيه أيضاً تنبيه إلى أدب من آداب العلماء: هو ترك الناس على ما هم عليه ما داموا على صواب ووجه شرعي، وعدم تشويش واقعهم عليهم. انظر إلى قول الإمام مالك الذي رواه ابن أبي حاتم: «إنْ ذهبتَ تُحوِّلهم مما يعرفون إلى ما لا يعرفون رأوا ذلك كفراً»!! مع أن الخليفة سيحولهم إلى ما رواه ودوَّنه هو نفسه في «موطئه». أعني: إلى ما هو أرجح في نظره وأصوب!.

وهذا التشدُّد من العامة لم يُزعج خاطر مالك ولم يره ضلالاً، ولا أنه ينبغي مقاومتهم وقهرهم على إقلاعهم عنه، ولا..، ولا..، بل لم يصفهم

بـ: التعصب، والتقليد الأعمى، وما شاكل هذا النبز بالألقاب، الذي صكَّ آذاننا في هذه الأيام من كثرة تكرار المتكلمين والكاتبين له!![١].

ولقد ورث هذا الأدبَ عن الإمام مالك ـ تركَ الناس على ما هم عليه ما داموا على صواب ـ ورثه عنه رجال مذهبه الأبرار. ومما وقفت عليه في هذا الصدد: ما حكاه الإمام ابن عبد البر في «الاستذكار»[٢]: أن شيخه «أبا عمر أحمد بن عبد الله ـ كذا، وصوابه: عبد الملك ـ بن هاشم كان يقول: كان أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم يرفع يديه كلما خفض ورفع، على حديث ابن عمر في «الموطأ»، وكان أفضلَ من رأيت وأفقهَهم وأصحَّهم علماً. فقلت ـ القائل ابن عبد البر ـ: لمَ لا ترفعُ فنقتديَ بك؟ قال: لا أخالف رواية ابن القاسم، لأن الجماعة عندنا اليوم عليها، ومخالفةُ الجماعة فيما قد أبيح لنا: ليست من شيَم الأئمة».

وقال ابن عبد البر أيضاً في «التمهيد»[٣]: «إنما اعتمدت على رواية يحيى بن يحيى ـ المذكورة ـ خاصةً لموضعه عند أهل بلدنا من الثقة والدين والفضل والعلم والفهم، ولكثرة استعمالهم لروايته، وراثةً عن شيوخهم وعلمائهم..، فكل قوم ينبغي لهم امتثالُ طريق سلفهم فيما سبق إليهم من الخير، وسلوكُ منهاجهم فيما احتملوه عليه من البِر، وإن كان

(١) انظر لزاماً التعليق على ص١١٣ ـ ١١٤ من «أثر الحديث الشريف» من أجل معنى التعصب وحكمه.
(٢) ٤: ١٥٢.
(٣) ١: ١٠.

غيره مباحاً مرغوباً فيه».

بل لقد قال الإمام ابن تيمية رحمه الله[1] فيما يقرب من هذه المناسبة وأعمَّ منها: «يستحب للرجل أن يقصد إلى تأليف القلوب بترك هذه المستحبات، لأن مصلحة التأليف في الدين أعظم من مصلحة فعل مثل هذا». وسيأتي تمام كلامه.

فانظر وتأملْ هذا الواقع المبارك الهادئ، وانظر وتأمل ما نحن فيه من واقع يَعَجُّ عَجّاً بالفوضى المؤلمة! وتذكَّر صنيع من يدّعي الانتساب إلى هذا السلف الصالح حينما قاموا بطباعة ترجمة الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه من «تاريخ بغداد»، تلك الترجمة الظالمة المظلمة، وفي حينها طبعوا أيضاً فصلاً وحيداً من «مصنف ابن أبي شيبة»، ذلك الديوانِ العظيمِ لفقه السلف، تخيّروا منه الفصل الذي ذكر فيه ١٢٥ مسألة خالف فيها ـ في رأيه واجتهاده ـ الإمامُ أبو حنيفة السنةَ، وعَنْوَنه بـ: كتاب الردّ على أبي حنيفة[2].

طبعوا هذه الترجمة وهذا الفصل، ونشروهما بلا ثمن في بلاد الهند ـ على طولها وعرضها ـ، يوم كانت الهند لا تعرف إلا الدَّيْنُونةَ لله تعالى بمذهب الإمام أبي حنيفة!!.

وبعد هذا أعود إلى ما كنت فيه، فأقول: إن إقرار الأئمة لمخالفة

---

(١) في «مجموع الفتاوى» ٢٢: ٤٠٦ ـ ٤٠٧.

(٢) وانظر لزاماً المقدمة التي كتبتُها للمجلد العشرين من «مصنف» ابن أبي شيبة بتحقيقي، والحمد لله.

غيرهم لهم في اجتهاداتهم كما رأيناه عند الإمام مالك: أمر مستفيض عنهم، وهذا قولُ إمامٍ مجتهدٍ آخر يزيد هذا المعنى تأكيداً.

ففي «آداب الفقيه والمتفقه»[١] للخطيب، عن الإمام سفيان الثوري رضي الله عنه أنه قال: «إذا رأيتَ الرجلَ يعمل العمل الذي قد اختُلِف فيه وأنت ترى غيره: فلا تَنْهَهُ».

وقال أبو داود: سمعت أحمد وسئل عن الركعتين قبل المغرب؟ قال: أنا لا أفعله، فإن فعله فلا بأس به. قال أبو داود: وقد سمعته قبل ذلك بزمان يستحسنه ويراه»[٢].

وقريبٌ منه قولُ إمامٍ مجتهدٍ آخر، هو قول الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، الذي رواه الخطيب[٣]: «قولُنا هذا رأيٌ، وهو أحسنُ ما قَدَرنا عليه، فمن جاءنا بأحسنَ من قولنا، فهو أولى بالصواب منا». بل في «الانتقاء»[٤] من قوله رضي الله عنه: «هذا الذي نحن فيه رأي، لا نجبر أحداً عليه، ولا نقول: يجب على أحد قبوله بكراهية، فمن كان عنده شيء أحسنُ منه فليأتِ به».

ومثلُه قول إمام مجتهد آخر، هو الإمام أحمد رضي الله عنه، ففي

---

(١) (٧٦٠، ٧٦١).

(٢) «مسائل الإمام أحمد» الفقهية لأبي داود ص٧٢.

(٣) «تاريخ بغداد» ١٣ : ٣٥٢.

(٤) ص ١٤٠.

«سِيَر أعلام النبلاء»[١]: «قال أحمد: لم يعبُر الجسرَ إلى خراسان مثلُ إسحاق، وإن كان يخالفُنا في أشياءَ، فإن الناس لم يَزَلْ يخالفُ بعضهم بعضاً».

وما أجلَّ كلمةَ ابن المبارك ـ وهو من أئمة الاجتهاد ـ: «إني لأسمع الحديث فأكتبه، وما من رأيي أن أعمل به، ولا أن أحدث به، ولكنْ أتخذه عُدَّة لبعض أصحابي إن عمل به أقول: عمل بالحديث»[٢] فإنها تحمل المعنى الذي نحن فيه، وتزيد على ما تقدم أنها منبثقة عن كرم نفس وطيب عنصر مع أصحابه، رضي الله عنه وأرضاه.

وقال في «التمهيد»[٣]: «قال الأوزاعي في الذي يقبِّل امرأته: إنْ جاء يسألني قلت: يتوضأ، وإنْ لم يتوضأ لم أَعِبْ عليه!». والأوزاعي من الأئمة المجتهدين.

وفي «التمهيد» أيضاً[٤] عن الأثرم قال: «سمعت أبا عبد الله ـ يعني: أحمد بن حنبل ـ يقول فيمن تأوّل: إنه لا بأس أن يصلَّى خلفه إذا كان لتأويله وجه في السنة».

وقد جاء على هذا المسلك أتباعهم، وشرحُ حالهم يطول، وأَجِدُني

---

(١) ١١ : ٣٧١ ترجمة الإمام إسحاق بن راهُويَه.

(٢) «الكفاية» للخطيب ص ٤٠٢.

(٣) ٢١ : ١٧٢، ونحوه في «الاستذكار» ١ : ٣٢٣، و٣: ٥٠ من طبعة الدكتور قلعجي.

(٤) ١١ : ١٣٩.

في غُنْية عن شرحه والإفاضة فيه.

ولا يفوتني بعد هذا أن أنبه إلى أمر مهم، هو: أن على طالب العلم، بل على كل مسلم، حينما يعمل عملاً في صلاته، وزكاته، وصومه، وعباداته كلها، ومعاملاته كلها، وفي كل تصرف يُؤدّيه: أن يعرف حق الله والشرع فيه، فلا يُقْدم على عمل إلا بعلم وتشرُّع، فلو قيل له: إن أبا حنيفة رحمه الله يرى ذلك، فعمل هذا المصلِّي ـ مثلاً ـ بقول أبي حنيفة، أقول: عليه أن يعمل بهذا على أنه فهم أبي حنيفة ـ مثلاً ـ في هذا الحكم، أما شعوره القلبي فينبغي أن يكون مرتبطاً بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، مُسْتَنّاً بسنته، مهتدياً بهديه، مؤتمِراً بأمره، منتهياً بنهيه.

لكن لما كان جماهير المسلمين عاجزين عن استيعاب ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعاجزين عن الفهم لما جاء عنه، تواطأ المسلمون ـ دون سابقة ولا تمهيد ـ على بروز أربعة مذاهب، تواضع العلماء على تحرير مذاهبهم وتدوينها وإفتاء الناس بما فيها، وصاروا يقولون: حنفي، شافعي، مالكي، حنبلي، والحق: أن المسلم محمديّ في قدوته، وحنفي، شافعي،.. في فهمه عن قدوته.

* * * * *

المَعْلَم الحادي عشر

ضرورة تحري الأخبار والأحكام الثابتة

ومن مهمات الشيخ وواجباته، في نفسه وفي أصحابه، بل هو من مهمات كل طالب وعالم: أن يتحرّى الأخبار والأحكام القوية الثبوت، البعيدة عن المعاني التالفة، والغرائب المستنكرة، حتى لو أنه خرج عن دائرة الصحة، خرج عنها بعلم وعقل وحكمة، فمن الأخبار الضعيفة ما هو ضعيف بسنده المذكور المشار إليه، كقولك ـ وأنت تروي على الناس حديثاً ما ـ: رواه الدارقطني، لكنه قوي بشواهده من الكتاب الكريم والسنة النبوية الأخرى، فهذا لا بأس بذكره، إن كان مناسباً للموقف الذي أنت فيه.

كما يتحرى القويّ من الأقوال في تفسير كتاب الله تعالى، والمعتَمَد من الأحكام الشرعية عامة: فقهية كانت أو غير فقهية، ولا يليق بالعالم أن يكون مصدر ما يُستغرب ويستنكر في دين الله.

وهذا من فوائد المشاركة في دراسة العلوم الشرعية، فإن دراسته لعلم مصطلح الحديث، وعلمِ أصول الفقه، تفتِّح آفاق معرفته، وتنقِّح معلوماته، وتصحح أخباره، وتنوِّر أفكاره، فإن في هذين العلمين ميزاناً للمنقول وللمعقول.

وكثير من أخبار الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، يعتمد عليها

الوعاظ في مجالسهم العامة والخاصة، فإذا ما سئلوا أو سئل غيرهم عنها، ظهر أنها ضعيفة تالفة أو موضوعة ساقطة، فيكون هذا السامع قد شُحِن أولاً شحنة إيمانية بما سمع، فإذا ما عرف النتيجة الحقَّة (المُرّة): أُسقِط في يده، وبردت شُحنته الإيمانية، وفقد الثقة بهذا الواعظ، وقد ينسحب ذيل هذه الحقيقة على غيره وغيره، فلا تتحرك همته الإيمانية بعدُ حتى لو كان ما يسمعه صحيحاً.

وخطرُ هذه النتيجة كبير جداً إذا ما كان الحديث عن جناب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: من معجزات وخصائص، وفضائل، ودلائل نبوة، فإذا تبيّن للسامع ضعفها وَوَهاؤها، ضعف منه ما كان قد قوي، حباً وشوقاً، وإعظاماً وإكباراً، للجناب المحمدي، وهذا موقف خطير، ينبغي للعالم أن يَحذَره، كما ينبغي للسامع أن يراقب قلبه وإيمانه، ولْيعلم أنه إنْ أساء فلان في هذا الموقف، بذكره هذه التوالف المنكرة، فإن إساءته لا تنسحب على غيره، بل لا يجوز أن تتعدى حدود فلان وفلان، ومقامُ الجناب المحمدي محفوظ مكرَّم.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

المَعْلَم الثاني عشر

تربيتهم على مراجعة النقول من المصادر الأصلية

ومن أهم مهامِّ الشيخ العلمية نحوَ أصحابه: أن يدرِّجهم ويربِّيَهم على خُلُق علمي لا بدّ منه، هو: مراجعة النقول من مصادرها الأصلية، فلو أن الشيخ كلّف أحد طلابه بكتابة بحث أو تحقيق جزء ما، كان عليه أن يلزمه بتخريج نقوله كلها من مصادرها الأولىٰ.

ولأضربْ على ذلك مثلاً: لو رأيتُ نقلاً عن «ميزان الاعتدال» للذهبي ـ ونحوه ـ في توثيق رجل أو تجريحه، فعليّ أن أرجع إلى مصادره، فمثلاً: رأيته ينقل توثيقه عن ابن معين وأحمد وأبي حاتم وأبي زرعة، فعليّ أن أرجع إلى أقوالهم في كتبهم الأولىٰ، ما دمتُ أجد إلى الوصول إليها سبيلاً، ولا أكتفي بالكتابة تعليقاً لرقم الجزء والصفحة ورقم الترجمة في «ميزان الاعتدال»، وأرىٰ أن هذا هو التحقيق المثالي، وقد قمت به! لا، بل عليّ أن أعتبر هذه الكتب المتأخرة خزائنَ للعلم، تدلُّني على مصادره الأولى، وليست هي المصادرَ الأولى، كما يظنّه كثير من طلاب العلم اليوم.

وكذلك هو اعتباري اليومَ للبرامج الحاسوبية، إنما هي للدلالة على المصادر لا غير، لا للاعتمادِ عليها، وبناءِ النتائج العلمية عليها.

وافتراضٌ آخر: نقل الإمام ابن حجر الهيتمي حكماً فقهياً عن الإمام

النووي، فراجعته في «المجموع» فوجدته، لكنه ينقله عن «البيان» للعُمراني، فلا ينبغي لي أن أكتفي بالرجوع إلى «المجموع»، بل أرجع إلى «البيان»، فرجعت إليه ووجدته ينقله عن «مختصر» المزني، فعليّ أن أرجع إلى «مختصر» المزني، وهكذا إلى أن أصل إلى المصدر الأول الأصلي.

التثبت من صحة عزو النقول :

ومما ينبغي أن ينبَّه إليه كل باحث: ضرورةُ التثبُّت مما ينقله كل عالم عن غير مذهبه، فحينما ينقل أبو بكر الجصاص الحنفي في كتابه «أحكام القرآن» حكماً عن غير مذهبه: فلا بد من التثبُّت من صحة هذا النقل من كتب المذهب نفسه.

وهكذا يقال في نقل إلْكِيا الهَرَّاسي الشافعي في «أحكام القرآن» عن غير الشافعية، ويقال مثله في نقول أبي بكر ابن العربي المالكي.

وهذه الملاحظة تنسحب على كتب العلوم كلها: الفقه والأصول، وشروح الحديث، وما إلى ذلك: لا بد من أخذ أحكام كل مذهب من كتبه الخاصة به، بل كان مشايخنا يؤكدون علينا تأكيداً آخر هو: أن يؤخذ حكم كل مسألة من كتب المذهب الخاصة، ومن الباب نفسه، فالحكم الذي يتصل بالصلاة يؤخذ من كتاب الصلاة، فلو جاء ذكره عَرَضاً في كتاب الحج، لا يؤخذ ويعتمد، بل قد يكون له قيد واحتراز يُذكر في محله في كتاب الصلاة، فلا بدّ من الرجوع إليه هناك ليؤخذ ويعتمد عليه باطمئنان.

وعليَّ في كل عمل، وكل بحث ومراجعة، أن أكتب على حاشية الكتاب الأول: رقم الجزء والصفحة من الكتاب الذي أراجعه، حتى إذا

احتجتُ إليه ثانيةً أجدُ بغيتي دون عناء جديد.

فإذا وجدت النص في مصدره المنقول عنه: أكون قد فرغت من المرحلة الأولى، وهي: صحة العزو.

وأنتقل إلى المرحلة الثانية، وهي: مقابلة النص المنقول، بمصدره المنقول عنه، ذلك لأن أئمتنا رضي الله عنهم يختصرون في النقل، والاختصارُ يوقع أحياناً في خللٍ في المعنى، فكما أنه لا بدّ من التأكدِ من صحة العزو، لا بدّ من التأكد من صحةِ المعنى المراد، ومحلِّ الشاهد فيه.

وإذا كان النص المطبوع الذي أقرؤه صحيحاً، فإني أحتمل وقوع خلل في المعنى، بسبب اختصار المؤلف للنص، أو تصرفه فيه، فكيف وأنا أمامَ عقبة كؤود، هي الأخطاء المطبعية التي لا تُحصى في الأكثر الأغلب حتىٰ في الكتب المحقَّقة!!.

ثم تأتي المرحلة الثالثة، وهي: فهمي واعتمادي لهذه النقول، وتقويمي لها، وخبرتي السابقة، واعتماد الخلاصة ونقد ما لا أراه صواباً، وهذه مرحلة خطيرة، لا يقوم بها إلا من سدَّده الله ووفقه، بعد سنين وسنين في العلم المتوارث عن الشيوخ، لا العلم المأخوذ من الصحف.

هذا المنهج له معوّقاته وله دوافعه:

وهذا المنهج الذي ينبغي للعالم أن يقوِّم أصحابه عليه، إذا وصلوا إليه: له معوِّقاته، وله دوافعه.

أما معوِّقاته: فالتعب والجهد، واستهلاك الوقت والمال، فالطالب الباحث يبقى ساعاتٍ يبحث وراء الكلمة الواحدة الصحيحة، مع استعانته

بالبرامج الجديدة، وقد يصل إلى قول باتّ، وقد لا يصل، وهو بحاجة إلى أن يشتري كل كتاب يرىٰ ويتوقع أن يحلّ له مشكلته، أو أن يشتري عدة طبعات للكتاب الواحد، وقد يحمله الأمر على أن يرجع إلى بعض مخطوطاته، ليصل إلى ما يُطمئنه.

وأما دوافعه: فهي الثمرة العظيمة من تحقيق الحق والصواب في المسألة العلمية التي تنبني على هذه الكلمة أو الجملة، ولا سيما إذا كان الأمر متعلقاً بخطأٍ مطبعيٍّ فيه سقوط حرف النفي مثلاً: يصح، وصوابه: لا يصح، ونحو ذلك.

أو إثباتِ نسبةِ حديث شريف إلى مصدر، ليس في المطبوع منه، أو نحو ذلك.

ولأضربْ مثالاً افتراضياً على ذلك: لو أنني أردت أن أحقق جزءاً صغيراً فيه مئة نقل، والتزمت تخريج هذه النقول من مصادرها، فإن وجدت المئة كما هي: صحةَ عزوٍ، وشاهدٍ، فَبِها ونعمتْ، وأكون قد قمت بواجب العلم والدين عليّ كما ينبغي، وقمت بواجب المؤلف الإمام عليّ، وبواجب القارىء عليّ أيضاً: أني أفدتُه صحةَ وثبوتَ ما يقرأ.

وإن وجدتُ تسعة وتسعين نقلاً صحيحة العزو والاستشهاد، ونقلاً واحداً فقط ليس كما ينبغي، فأكون قد قمت بواجب العلم والدين عليّ في التسعة والتسعين، وقمت بواجبهما عليّ في هذا الواحد أكثر وأكثر: أنني صححت ما حصل فيه وهْم، وخدمت المؤلف الإمام بتصحيح ما وهِمَ فيه، فيفرح بذلك وهو في عالم البرزخ إن شاء الله.

من مهمات هذا التحقيق :

ولا بدّ لي من التنبيه هنا إلى أمرين مهمين:

أولهما : أن يكون هذا التنبيه والاستدراك بأدب ولطف، لا باستعلاء وزُهُوّ، ولئن كان المصنّف وَهِم في المثال الذي افترضتُه، وهماً واحداً من مئة، فهل أنا ضامنٌ لنفسي الصحة في كل ما كتبته! ومن الواجب المتعيِّن عليك أن تحفظ قلبك ـ قبل أن تحفظ لسانك ـ من أن تشعر بكِبْر فيه، وغضّ من مقام أي عالم، سواء هذا الذي تستدرك عليه، أم غيره، فإن مقامَ أئمتنا أئمةِ الإسلام محفوظٌ، وهذا الاستدراك الواحد ـ أو الأكثر ـ مغمور في بحار نقولاتهم الصحيحة.

وهذا معنى ما نقله ابن عبد البر[1] عن الإمام مالك، عن إمام التابعين سعيد بن المسيب رضي الله عنهم جميعاً، قال: «ليس من عالم ولا شريف ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكنْ من كان فضلُه أكثرَ من نقصه، ذهب نقصه ـ أي: اغتُفِر ـ لفضله، كما أن من غلب عليه نقصانُه، ذهب فضله».

ثم نقل عن غيره قوله: «لا يسلم العالم من الخطأ، فمن أخطأ قليلاً وأصاب كثيراً: فهو عالم، ومن أصاب قليلاً وأخطأ كثيراً: فهو جاهل».

وهذا ميزان لا يتوقف فيه عاقل، لكن بشرط أن يكون هذا الذي غلب صوابه، ممن سلك الطريق عن منهجية وعلم وخبرة ودُرْبة، لنغتفر له خطأه، وإن قلَّ أو كثُر، وإلا فلا، وصوابه يكون من قَبيل: رَمْيَةٌ من غير

(١) في «جامعه» (١٥٤٠).

رامٍ، لأنه سلك الطريق من غير مرشد ودليل له.

ثانيهما: أن يتحفظ هذا الباحث في استدراكه، لا سيما في حال النفي، أما في حال الإثبات فالأمر سهل، أما إذا عزا المؤلف حديثاً إلى «صحيح البخاري» مثلاً، وبحث الباحث عنه فلم يجده فيه، فليقل ما علَّمنا إياه علماؤنا، إذ يقولون عن الحديث أو عن الراوي: لا أعرفه، أو: لا يُعرف، ويقولون عن الحديث: لم أجد له أصلاً، أو: لا أصل له، وفرق كبير جداً بين العبارتين، وهو درس علمي عملي لنا.

وأضرب على ذلك مثالاً عملياً.

روى البخاري أول حديث في «صحيحه»: «إنما الأعمال بالنيّات» من طريق الإمام مالك، وهو في «موطئه» رواية الإمام محمد بن الحسن الشيباني[(١)]، وعزاه إلى «الموطأ»: ابنُ دِحية، فتعقبه ابن حجر[(٢)] بنفيه عن «الموطأ»، فتعقب السيوطيُّ الحافظَ ابن حجر[(٣)] بأنه في «الموطأ»، في رواية محمد بن الحسن، وأنه قُبيل كتاب النوادر بثلاث ورقات.

ضرورة الحذر والتأني في النفي:

وهذا درس وموعظة: أن يصيب ابن دحية في عزو حديث إلى «الموطأ»، ويخطئ فيه ابن حجر! وكما قلت: إن الأمر في حال الإثبات

---

(١) ٣: ٥١٣ (٩٨٢) من شرحه «التعليق الممجّد».

(٢) في «فتح الباري» ١: ١١، و«التلخيص الحبير» ١: ٥٥.

(٣) في «تنويرِ الحوالك» ١: ١٠ ـ وغيرِه ـ.

سهل، لكن النفي صعب جداً، فإنه يحتاج إلى تتبّعٍ واستقراء طويل، ممن هو من أهل التتبع والاستقراء في فنِّه، وهذا الإمام ابن حجر - وهو مَن هو - ومع ذلك فقد وقع فيما هو إمام فيه! رحمه الله تعالى وسائر علماء الإسلام.

والنفي: قد يكون صريحاً، كالمثال الذي ذكرته عن ابن دِحية وابن حجر، وقد يكون نفياً ضمنياً غير صريح، ومثاله: قولك: حديثُ كذا ضعيف، فهذا نفي ضمني غير صريح، كأنك تقول: ليس لهذا الحديث إسناد آخر صحيح أو حسن أو ضعيف مثله يتقوى به ويصير حديثاً حسناً لغيره.

ومثله قولك: هذا الحديث غريب، أي: له سند واحد، أو عزيز، أي: له سندان، فهذا نفي ضمني عن الحديث أن يكون له سند آخر يجعل الغريب عزيزاً، ويجعل العزيز مشهوراً.

وهذا النفي الضمني يحتاج أيضاً إلى إمام من أهل التتبع والاستقراء التام في فنّه، ليُقبل منه، وعلى حذر أيضاً، فقد يستدرك الخالف على السالف، كما هو مقرَّر بأمثلته الكثيرة في «دراسات الكاشف»[1] فما بعدها، والأَناةُ والحذرُ شعاران ضروريان لطالب العلم، لا بدّ له منهما، والله الموفق.

* * * * *

---

(١) صفحة ١٠٥.

المَعْلَم الثالث عشر

إعداد جيل للفتوىٰ وتدريبهم تحت أنظار أساتذتهم

وبعد هذه المسيرة الطويلة علمياً وتربوياً بين الشيخ وأصحابه: أَصِل إلى الحديث عن أمر، هو من نَتاج مسيرة الطالب مع شيوخه، أن يوصلوه إلى رتبة الفتوىٰ في دين الله وشريعته، وأعرِض لكلمات عامة، لها صلة بالفتوىٰ الفقهية وغيرها من أمور الشريعة، فأقول:

إن الأمر العارض، أو المسئول عنه، أو ما يسمى أحياناً بالنازلة أو الواقعة: يكون في كثير من الأحيان أمراً عادياً، فالجواب عنه سهل، ويكون في كثير من الأحيان أمراً معقَّداً له مشكلاته، أو كما يقال: له خلفياته، فلا يكفي فيه المفتيَ أن يقرأ الكلمات المرفوعة إليه بقُصاصة الورقة، أو أن يسمع كلام المستفتي مشافهة، أو على الهاتف، لا، بل لا بدّ من التبصّر في الأمر، وأن يقرأ المفتي ما وراء السطور، أو أن يتسمّع ما وراء الأخبار، أو أن يطلب المستفتي إليه، وأن يُحضِره أمامه ويتفرَّس فيه.

وقد يكون السؤال عن طريقة معقدة من طرق التعامل الاقتصادي، الذي يفرضه علينا الكافرون في طرقهم المستحدَثة، والمفتي بعيد عن هذا، أو هو قريب، لكنها طريقة حديثة لم يَسبق له نظر في مثلها، فيستدعي خبراء ماليِّين يشرحون له ما لهذه الطريقة وما عليها من محاذير.

وفي مثل هذه الحال: ينبغي أن يكون له معرفة وأُنْس بمذاهب الأئمة عامة، إذا كانت المسألة مما يحتاج إليها عامة المسلمين، وقد لا ينبغي له البتُّ فيها بفتواه وحده، فينبغي أن يُرجَع فيها إلى اجتهاد جماعي، يشترك فيه جماعة من كبار أهل العلم، ذوي علم وخبرة بالوضع العالمي.

وواجب الشيخ المربي أن يتدرج مع أصحابه في طرق الفتوى شيئاً فشيئاً، ويسلك معهم مسلك العالم الربّاني: الذي يربي أصحابه على صغار مسائل العلم قبل كبارها.

ومما يذكر على سبيل المديح والإعجاب: ما عليه علماء الهند ـ وما والاها ـ رحم الله من انتقل منهم إلى دار كرامته، وحفظ الأحياء منهم وبارك فيهم: أنهم ينقلون خِريجي مدارسهم إلى قسم الفتوى التابع للمدرسة أو الجامعة التي تخرجوا فيها، فيتدرب هذا الطالب تحت يد شيخ من شيوخه على الفتوى سنتين دراسيتين، بعد انتهائه من المرحلة الدراسية كاملة، والشيخ يجيز بعد ذلك للفتوى مَن آنس منه التأهل لها.

وبعض جامعاتهم الكبيرة يعدل قسمُ الفتوى فيها ـ من حيثُ السعةُ وعددُ الشيوخ والطلبة ـ يعدل كلية من كليات الشريعة في البلاد العربية، إذ يبلغ عدد الشيوخ المدرِّبين على الفتوى ستين شيخاً، وتحت يد كل شيخ عددٌ كبير من الطلبة المتدربين، ويا ليت المعاهد الشرعية في البلاد العربية تقتدي بتلك المعاهد، فتنشىء قسماً للتدريب على الفتيا.

وأقول أيضاً: يا ليتهم يفتتحون أقساماً للتدريب على تخريج السنة النبوية، وعلى النظر في الرجال جرحاً وتعديلاً، تحت إشراف ذوي خبرة تامة بالحكم على الرجال، بالإنصاف والتأني، وعلى الأسانيد اتصالاً

وانقطاعاً، وعلى المتون تصحيحاً لها وتضعيفاً، بتأنّ وتبصّر، بحيث يرجع الحقُّ إلى نصابه، ولو بعد حين.

وللفتوى شروطٌ ومهامٌّ كثيرة سوى اشتراط العلم في المفتي، منها: مراقبة الله عز وجل، والشعور بالمسئولية والأمانة على دين الله، والثقة بالله والتوكل عليه، ثم: المعرفة والخبرة التامة بالأمور المعاصرة، ثم: الفراسة في المستفتي. والحديثُ عن هذا كلِّه، وعن غيره: طويلٌ طويلٌ.

ولا بدّ لي من إفادتين:

أولاهما: التنبيه بكلمات يسيرة جداً إلى أهمية فراسة المفتي في المستفتي، وهذا يدعوني إلى الحديث عن التحذير من التسرع في الفتيا، ولا سيما بالطريقة التي شاعت وانتشرت كثيراً، تلك هي الفتيا عن طريق الاتصال بالعالِم عن طريق القنوات الفضائية.

فهذه الطريقة قد يحصل ـ أو أقول: قد حصل فيها، كثيراً أو قليلاً ـ تسرع في الفتيا في بعض الأمور العامة أو الخاصة، ومعلوم أن الخطابَ فيها ليس قاصراً على المستفتي، ليكون التسرع فيها قاصراً ضررُه على شخصه، أو: معه خصمه، أو خصومه، لا، بل يسمعها الآلاف، أو عشرات الآلاف، وروّاد بعض القنوات والمستمعون إليها بضعة ملايين!! فالضرر في فتواها (المتَسَرَّع فيها) عامّ وطامّ!.

وقد يكون مراد المفتي في هذه المسألة علاجاً قاصراً خاصاً، لكن جاء نشره وجوابه عاماً جداً، وقد، وقد، فهذا مما يجب الحذر منه كلَّ الحذر.

وكثير من المستمعين متربِّص مترقِّب لفتيا يتخذها ذريعة لغرض فاسد

له، ولو علم المفتي بذلك لكان له موقف آخر، أو تحذير، أو تخصيص لفتواه، وما إلى ذلك من ظروف خاصة.

هذا إذا سلم المفتي من زلة لسانٍ، أو زلة ذهنٍ في استحضاره للحكم الشرعي، أو سبقِ فهمٍ لكلام السائل، ونحو هذه الهفوات من الاحتمالات.

وهذا التنبيه يتبعه تنبيه مهم جداً، هو ضرورة فراسة المفتي في المستفتي. فالمستفتي من وراء الهاتف، ومن دولة أخرى، أو يرسل قُصاصة ورق والمفتي لا يرى وجهه، والجوابُ السديد قد يتصل بشخصه، أو بتقاسيم وجهه، أو بمعرفة تاريخ بلده، وما إلى ذلك، كما سأذكر بعض الشواهد عليه.

روى مالك في «الموطأ»[١]: أن ابن عباس سئل عن القُبلة للصائم، فأرخَصَ فيها للشيخ، وكرهها للشاب.

ونحوه عند عبد الرزاق عن ابن عباس، وعن عمر[٢]، وعند ابن أبي شيبة عن مكحول، وعن ابن عمر رضي الله عنهما[٣].

وروى ابن أبي شيبة[٤]: أن رجلاً جاء إلى ابن عباس يسأله: هل لمن قتل مؤمناً توبة؟ قال: لا، إلى النار، فلما ذهب الرجل، قال له جلساؤه:

---

(١) ١: ٢٩٣ (١٩).

(٢) (٧٤١٨، ٧٤٢٠).

(٣) (٩٥١١، ٩٥٢٧).

(٤) في «المصنف» (٢٨٣٢٦).

ما هكذا كنت تُفتينا! فقال لهم: إني أحسبه رجلاً مغضَباً يريد أن يقتل مؤمناً. قال: فبعثوا في أَثَره فوجدوه كذلك.

وروى البخاري، والترمذي ـ واللفظ له[1] ـ: أن رجلاً من أهل العراق سأل ابن عمر عن دم البعوض يصيب الثوب؟ فقال ابن عمر: انظروا إلى هذا يسأل عن دم البعوض، وقد قتلوا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم! وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الحسن والحسين هما ريحانتايَ من الدنيا». وفي رواية البخاري: أن ابن عمر سأل الرجلَ: ممن أنت؟ وذلك لمّا رأى سؤاله غريباً.

وقال في «تحفة الأحوذي»[2]: «أورد ابن عمر هذا ـ الحديث ـ متعجباً من حرص أهل العراق على السؤال عن الشيء اليسير، وتفريطهم في الشيء الجليل»، لكن إنما أورد ابن عمر هذا بعد ما نظر في السائل، وسأله ممن أنت.

وقال الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله[3]: «قيل: جاءت أخت بشر الحافي إلى أحمد بن حنبل وقالت له: إنا نغزل على سطوحنا فتمرّ بنا مشاعل الطاهرية (شرطة ولاة بني طاهر) ويقع الشعاع علينا، أفيجوز لنا الغزل في شعاعها؟ فقال أحمد لها: من أنتِ عافاك الله؟ قالت: أخت بشر

---

(١) البخاري (٣٧٥٣، ٥٩٩٤)، والترمذي (٣٧٧٠).

(٢) ١٠: ٢٧٥.

(٣) في «الرسالة القشيرية» ٢: ١٥٩ بشرح القاضي زكريا، مع حاشية العروسي، وينظر «تاريخ بغداد» ١٦: ٦٢٤.

الحافي، فبكى أحمد وقال لها: من بيتكم يخرج الورع الصادق، لا تغزلي في شعاعها».

وهذه الأخبار ـ وغيرها كثير ـ من واقع السلف والخلف تلفت النظر إلى ضرورة التأني والبحث وراء السؤال والسائل، ليكون الجواب سديداً، مطابقاً للغرض.

وللعلماء المعاصرين المتصدّرين للإفتاءات المحليّة والعالَمية جهود مشكورة في فتاويهم، وبعضها يسدِّد بعضها الآخر، وحُسْن النية شفيع إن شاء الله للمتأهِّل، إن زلّ، ولا بدّ من ضوابط لها.

أما الإفادة الثانية: فإن من واجب من يتصدر لهذه المهمة الإسلامية أن يُتْقن دراسة الآداب المتعيِّنة عليه، من أربعة كتب لأئمة سابقين: الخطيب في «آداب الفقيه والمتفقه» (١٠٣٢ ـ ١٢٢٠)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٥٠٠ ـ ٢٤١٣) وجلُّ هذه الفقرات مفيد فيما أريده، و«أدب المفتي والمستفتي» لابن الصلاح، وما لخّصه منه ومن غيره: النووي في مقدمة «المجموع» ١: ٤٠ ـ ٥٨.

ومن كتب العلماء المعاصرين: فضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي، له «الفتوى بين الانضباط والتسيُّب»، وغيره.

ومعالي فضيلة الشيخ عبد الله ابن بَيَّة (الموريتاني الأصل)، له «صناعة الفتوى وفقه الأقليات»، وكلٌّ منهما خبير بالواقع المعاصر، وبالحاجات الإسلامية لمن يعيش بين غير المسلمين، جزاهما الله خيراً.

* * * * *

المَعْلَم الرابع عشر

ضرورة معايشة طالب العلم عصره

ومن مهامّ الشيخ الأساسية ـ وهو يتدرج في تكوين طالب العلم، وعالم المستقبل ـ: أن ينبِّه طلابه وأبناءه إلى معايشة عصرهم، في نواحيه العامة دون استثناء، إذ لا ينبغي أبداً أن يكون في طالب العلم غفلة عن واقع حياته، لكنْ من غير إيغال فيها يقطعه أو يَعُوقه ويؤخره عن توجّهه العلمي الذي هو بسبيله، وقد كان من هديه صلى الله عليه وسلم المأثور في حديث هند بن أبي هالة الطويل: أنه صلى الله عليه وسلم كان يسأل الناس عما في الناس، وفي هذا الهدي فوائد:

منها: أن العامة يشعرون بخلُق إسلامي كريم في هذا العالم، أنه يهتم بهم ويسأل عن أحوالهم، ويعيش معهم بآمالهم وآلامهم، وليست مهمته الدينية أن يصعد المنبر كل أسبوع آمراً وناهياً.

ومنها: أن العالم ـ بهذا الاهتمام ـ يوجِد محبةً ووحدة ولُحمة بينه وبين الناس: أهلِ مَحَلته القريبين، أو أهل بلده البعيدين.

ومنها: أن تكون أقواله وفتاواه مُحْكمة مسدَّدة، لأنه يتكلم عن معرفة وخبرة للواقع والحياة، كطبيب يصف الدواء لعلّة سبقت معرفته بها، فيكون دواؤه ناجعاً، ومن هذا القبيل ما ذُكر عن الإمام محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله: أنه كان يذهب إلى الصبَّاغين ويسأل عن معاملاتهم،

وما يديرونها بينهم. وهذا من كمال فقهه وورعه في دين الله، يريد «التعرُّف إلى وجوه التعامل بين أرباب الصناعات، ومعرفة وجوه الفَرْق بين العرف القديم، والعرف الحديث الطارئ، حتىٰ يسلم كلامه من الخطأ في أي ناحية من نواحي تبيين أحكام الشرع»[1].

ومنها فائدة أخرى تنتج عن هذه الفائدة، هي: أن هذا العالم البصير لا يُتَغفَّل من قِبَل بعض الناس، ذوي الرعونات النفسية، أو الأهواء المنحرفة، فيستفتي الشيخَ فيفتيه وهو غافل عما وراء استفتائه من مقاصد سيئة، يتذرَّع بفتوى الشيخ للوصول إليها. وهذا كان في الناس قليلاً، وصار في الناس كثيراً.

ولقد عايشتُ في المدينة المنورة أكثر من خمس وعشرين سنة، عالماً صالحاً مباركاً، من المجاورين فيها، كنت أرجو دعاءه وبركته، لو سأله سائل عن دقائق علمية في عدد من العلوم، وخاصةً في فقهه المذهبي، وعلوم العربية: لأتاه بالجواب الكافي الشافي، لكنه لا يعرف شيئاً من عصره هذا ـ الثلث الأول من القرن الخامس عشر الهجري ـ!.

وكلما اتسع أُفُق هذا العالم في معايشته ومعاصرته لأحوال أمته، كلما ازداد خيره ونفعه، حتى يكون عالِماً عالَمياً للأمة كلها.

وكلما اتسع أفق هذا العالم في معايشته ومعاصرته لأفكار أمته، ولأفكار أهل زمانه عامة، كلما ازداد خيره ونفعه، واتسع نطاق دعوته الإسلامية عن علم وهُدى وبصيرة.

---

(١) قاله الكوثري رحمه الله في «بلوغ الأماني» ص ٤٤.

وهذا ـ والله أعلم ـ من معاني قول الله تعالى في أول سورة إبراهيم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾، والبيان: لا يتم إلا بمخاطبة كل قوم بلغتهم الأصلية في مخاطباتهم، ـ العربية، مثلاً ـ وبلغتهم العلمية ومصطلحاتها، ليتم البيان والإبلاغ، وليتم كشفه للشبهات، إذ كيف يكشفها وهو لا يعرفها!!.

وأنا أعلم أن هذه الأمور الكثيرة المهمة المتشعِّبة التي أشير إليها إشارة، لا يمكن تحققها في شخص واحد، فكيف بغيرها وغيرها مما لم أُشِر إليه، لا سيما وأن المسلمين لا يقدِّمون النوابغ من أبنائهم إلى طلب العلم، ولذلك فلا بدّ من تخصصات، ولا بد من تضافر الجهود، ولا بد من أمور وأمور.

وأعود إلى ما كنت فيه فأقول: إنه لا مكان لطالب العلم (المغفّل) في أيامنا هذه، وعلى الشيوخ (صُنّاع طلاب العلم) و(صنّاع علماء المستقبل) أن يهتموا بهذا الجانب في طلابهم: جانب اليقظة والوعي والمعاصرة، كلَّ الاهتمام، ليتمَّ عطاؤهم للأمة على أكمل وجه، إن شاء الله تعالى.

* * * * *

المَعْلَم الخامس عشر

تربية المَلَكة النقدية الأدبية في طالب العلم

ومن مهام الشيخ المعلِّم المربي: أن يتدرَّج مع أصحابه في تربية الملكة النقدية عندهم، في كل ما يقرؤون ويسمعون، وهذا يستدعي أن يُنَمّي فيهم اليقظة والنباهة واستحضار المعلومات، بحيث يستخدم الطالبُ ـ الآن ـ والعالمُ ـ في المستقبل ـ معلوماته الثابتةَ، في تقويم ما يقرؤه أو يسمعه، صحة وخطأً، قوة وضعفاً، ولا ينوِّمُ الطالبُ عقلَه، ويَتَّهم علمه أمام كل ما يَرِد عليه من معلومات جديدة!!.

وأذكر على هذا بعضَ الأمثلة مما سمعناه في مبتدأ الطلب.

قيل لنا في سياق المديح لـ «الحِكَم العطائية» للإمام ابن عطاء الله الإسكندري رحمه الله تعالى: قالت السيدة الناسكة رابعة العدوية رضي الله عنها: لو جازت الصلاة بغير القرآن، لقرأت فيها حكم ابن عطاء الله.

ثم تبيَّن لنا أن ابن عطاء الله توفي سنة ٧٠٩، في حينِ أن وفاة السيدة رابعة سنة ١٣٥، وقيل سنة ١٨٥، فكيف تصح نسبة هذا القول إليها!!.

ثم رأيت طبعة قديمة لـ «الحكم» كتب طابعها على وجه الكتاب وفوق اسمه، بيتين من الشعر ضمَّنهما صاحبُهما هذا المعنى، ولعلهما منسوبان إلى رجل اسمه: (فلان) الملّاح؟.

ومثال آخر: قرأت في يوم من أيام الطلب: أن سبب إخراج علماء

سمرقند للإمام البخاري رضي الله عنه من سمرقند: أنه سُئل عن ولدين رَضَعا من بقرة واحدة، فهل تثبت بينهما حرمة الرضاع؟ فقال: نعم، فقام عليه علماء سمرقند وأخرجوه منها.

قرأت هذا الخبر، وذهبت في اليوم الثاني ـ من أيام العام الدراسي ١٣٧٨هـ ـ إلى درس الفقه الحنفي، وكان شيخنا فيه سيدي فضيلة العلامة الأجل الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله تعالى، وأنا أظن أنني أحمل علماً لا يُقدر قدره! فذكرته لفضيلة الشيخ، فقال لي تغمده الله برضوانه هذه الكلمات بحروفها، لا زيادة ولا نقصان: لا تصدِّق كل ما تقرأ. فكانت لي درساً عظيماً، ومنهجاً قوياً قويماً، لا يُقدر قدره أيضاً، وما أحوجَ كلَّ إنسان إليه: أن لا يصدِّق كل ما يقرأ وكل ما يسمع، بل إذا صدّق، صدّق بعلم، وإذا نفىٰ، نفىٰ بعلم.

وبمناسبة هذه القصة: أقول: ينبغي للشيخ الرباني أن ينتهز مثل هذه الفُرَص والمناسبات، ليقعِّد في جوابه الوجيز خلاصة ومنهجاً لأصحابه، يكون نفعه عاماً ودائماً.

وقد أذكرتني هذه القصة وأنا أكتبها الآن بما حصل من الإمام الشافعي مع تلميذه محمد بن عبد الله بن عبد الحكم رحمهما الله تعالى.

وخلاصتها من «مناقب الشافعي» للبيهقي[1]: أن ابن عبد الحكم نقل عن الشافعي كلمة، فبلغه خبرها، فأنكرها، فبلغ إنكارُ الشافعيِّ لها إلى الوالد: عبد الله بن عبد الحكم، فاغتمّ جداً، لاعتقاده خطأ ولده فيما نقل،

(١) ٢: ٢١٦.

ولجلالة الشافعي عنده، فبلَّغ ولدَه إنكارَ الشافعي لها، فراح الابنُ إليه وصار يذكّره بالزمان والمكان والمناسبة، فتذكَّر، فقعَّد له الشافعي رحمه الله درساً في حياته العلمية وغيرها بقوله: «يا محمد! لا تحدِّث عن حيّ، فإن الحيَّ لا يُؤمن عليه النسيان»، وحينئذ يقع الناقل الصادق الواثق من نقله في الحرج، وقد يترتب على ذلك حقوق مادية ومعنوية كبيرة[(١)].

ومن الملكة النقدية التي ينبغي أن ينشّأ عليها طالب العلم: فهمُه حرفيَّة النصّ، والوقوفُ عند ما يفيده، على وَفْق الطريقة التي يتعامل فيها علماؤنا وأشياخنا مع نصوص العلماء السابقين، ومع نصوص الكتاب والسنة، لا جموداً عند ظاهرها، كما يقال: ظاهريةٌ ولا ابن حزم لها، ولا تأويلاً وتعطيلاً إلى الحدّ الذي يوصل إلى ما كان يقوله أشياخنا: التأويل دِهْليز الإلحاد، فلا يجمد عند النص وحرفيته، ولا يلوي النصّ ليتمشّى مع فهمه.

ويتْبع ذلك الحديثُ عن أمر آخر يتصل بهذا، هو: الملكة النقدية في تقليب وجوه النظر والفهم للنص، على افتراض صحته، فإن لم يستقم: فعليه تقليب النظر فيه على افتراض خطأ مطبعي فيه، وهذا أمر مهم لطالب العلم في أيامنا وقبل عقود من الزمن، كثُر فيه المتاجرة بطباعة الكتب الدينية، من غير وازع شرعي في نفوسهم، فامتلأت مكتبات العلماء بالكتب غير المصححة المنقَّحة، وهم يعتمدون عليها، فإذا لم ينشَّأ هذا العالم من أيام طلبه على تقويم النصوص التي يقرؤها، فإنه سوف يقع في

(١) ومع ذلك فهو ضابط لا يطّرد.

التحريفات الشنيعة، وهو لا يدري، فيقرأ خطأ، ويفهم خطأ، ويحفظ خطأ، ويعلِّم خطأ، فيصير (العلم) عنده (أعجمياً بعدّة لغات)!!، ويذكّر بما كان بعض الأساتذة ينشده في مثل هذه المناسبة:

أقول له: زيد، فيسمعه عمرُو ... وينطِقه خالدْ، ويكتبه بكرُ

وقد ذكرت فيما سبق[1] أن البلوى كانت في المخطوطات، ولذلك حذّر العلماء من أخذ العلم من الصحف، لما فيها من تحريفات، تؤدي إلى فساد الطالب الذي يتلقي علمه من الصحف، أو من صَحَفي، وذكرت أن بلوانا في زمننا أشدّ مما سبق، فالكتاب الذي فيه تحريف مهما كثُرت نسخه فلن تصلَ في العدد إلى عددِ نسخِ كتابٍ، يُطبع أقلُّ ما يطبع منه في زماننا: ثلاثة آلاف نسخة، لطبعة واحدة.

فعلى طالب العلم أن يُنشَّأ على هاتين المرحلتين: الأولى: محاولة فهم النص، وتقليب وجوه النظر لفهمه على ما هو عليه، والبحث عن المسألة في كتب أخرى، لعله ينفتح عليه ما أُغلق، فإن لم يمكن انتقل إلى المرحلة الثانية: تصحيح النص مطبعياً، فهما مرحلتان: اتهموا فهمكم، ثم اتهموا المطبعة.

ومما يعين الطالبَ على تقويم النصوص المحرَّفة: أن يعتنيَ بقراءة الكتب المحققة المتقنة، ويقفَ عند ما يشير إليه المحقق من اختلاف النسخ الخطية ومغايراتها، فيستفيد الطالب النبيه كيف يقع التحريف وسَبْق

(١) صفحة ١٨٠.

النظر عند النساخ السابقين، فتكون له ملكة ودُرْبة على ذلك، يستفيدها من غيره، دون أن يقع هو فيها.

ولو أحصى باحث جادّ يعمل في يومه بضع ساعات في البحث العلمي، لو أحصى الأخطاء المطبعية التي تمرّ به على مدى شهر مثلاً، لأتى بذخيرة علمية نافعة له ولمن بعده، فكيف لو كان على مدى سنة!.

وآخر ما مرَّ بي من الأخطاء المطبعية ـ اليوم ـ وأنا أكتب هذه الصفحات: ما جاء في «الأدب المفرد»[١] للإمام البخاري رضي الله عنه قال: «حدثنا مَخْلَد بن مالك قال: حدثنا حجاج بن محمد قال: أخبرنا ابن المبارك، عن بكر بن عبد الله المزني.. ».

فتوقفت في صحة كون ابن المبارك، راوياً عن بكر المزني، فراجعت أولاً: «تهذيب الكمال» فلم يذكر بينهما رواية، فراجعت التواريخ، فكانت ولادة ابن المبارك سنة ١١٨، ووفاة بكر المزني ١٠٦، أو ١٠٨، فأنَّى لابن المبارك أن يروي عنه! لكن كيف يكون تقويم النص! أو: هل في السند انقطاع بين ابن المبارك وبكر؟.

رأيت الخبر في «مصنف» ابن أبي شيبة[٢] وفيه: مبارك بن فضالة، عن بكر المزني، فهو إما أن يكون بين ابن فضالة، وبين ابن المبارك متابعة، وإما أن (ابن) مقحمة في مطبوعة «الأدب المفرد»، والإسراع إلى هذا الحكم صعب.

---

(١) برقم (٧٦١).

(٢) (٣٦٨٥٣).

ثم، وثم، وقفت على رواية البخاري نفسه للخبر بإسناده الذي في «الأدب المفرد»، وذلك في «تاريخه الكبير»، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه»[(١)]، وفيهما: المبارك بن فضالة، عن بكر المزني، والخبر في «الزهد» للإمام أحمد: المبارك، عن بكر بن عبد الله.

فصحَّتْ دعوى إقحام (ابن) في طبعات «الأدب المفرد»، وأن الصواب حذفها، فيصحح فيها وفي طبعات شرحه «فضل الله الصمد»[(٢)].

ولا ينبغي لطالب العلم الأخذُ بالتسليم لكل ما يقرؤه.

لكن ينبغي للشيخ المربي لطلابه على الملكة النقدية: أن يربيهم على خُلُق آخر معها هو: الأدب، وينبغي أن يكون (النقد مع الحذَر) في كِفَّة، و(الأدب مع الاعتدال) في الكِفَّة الأخرىٰ، على وجه متكافئ تماماً تماماً، لا تَرجَح إحدى الكفتين على الأخرى أبداً، فإذا رجحت كفة النقد زلّ طالب العلم وخرج عن حدود الأدب، وإذا رجحت كِفَّة الأدب، زلّ وخرج عن حقّ العلم المتوجِّب عليه تحقيقُه وتمحيصه، ووقع في الخطأ.

وأذكر لأخي طالب العلم هذه الواقعة لي مع فضيلة سيدي العمدة المربي الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى، كانت في عام ١٣٧٨هـ، ولها بعض المناسبة مع ما أنا في سبيله.

كنت في غرفتي بالمدرسة السيَّافية ـ وهي له في الأصل ـ في حيّ

---

(١) «التاريخ الكبير» ٢ (١٦٧٩)، وابن عساكر ٨: ١٦، و«الزهد» لأحمد ص٢٥٤.

(٢) ٢: ٢٣٠، أو ٢: ١٩٦ من طبعته الجديدة سنة ١٤٣٢هـ.

الفرافرة، ـ الحيّ العريق المليء بالمدارس الشرعية ـ بمدينة حلب حرسها الله وسائر بلاد الإسلام، فجاء الشيخ وسألني: هل عندكم «شرح العزيزي على الجامع الصغير»؟ فقلت: نعم، وناولته الجزء الذي يريده، فقرأ فيه نصاً، وأعاد قراءته مرة ثانية، وأعاد الكتاب إليَّ وقال: هكذا يقول الشيخ، هكذا، نحن لا نحسن الفهم عنهم.

وبعد نحوٍ من ثلاثين سنة، كنت مع فضيلته تغمده الله برضوانه في المدينة المنورة، وجاء الحديث عن «مسند» الإمام أحمد رضي الله عنه، وعن خدمة الأستاذ العلامة أحمد شاكر له، رحمه الله، وعن تكملة الدكتور الحسيني عبد المجيد هاشم، رحمه الله، فنقده سيدي الشيخ بقوله: كيف ينقل عن العزيزي في تعليقه على «المسند»؟! يريد الشيخ: أن «المسند» كتاب أصيل من كتب السنة، فلا يحسُن أن ينقل في تحقيقه وشرحه إلا عن فحول الكتب والعلماء.

فهكذا يكون التدرج في التربية العلمية، في الموقف الأول: قال لي: هكذا يقول الشيخ، هكذا، نحن لا نفهم مراده، قال لي هذا وأنا في أوائل سنوات طلب العلم، والشيخ عندي ملء السمع والبصر، وبعد ثلاثين سنة، وكنت قد دخلت في خدمة بعض الكتب وطباعتها ـ بإذنه وبأمره ـ قال لي الكلمة الثانية.

وفي هاتين الكلمتين فوائد ودروس. منها : التدرج في التربية العلمية. ومنها : الأدب مع العلماء مع النقد واليقظة. ومنها : درس في علم تحقيق الكتب التراثية، وإعطاء كل كتاب حقه من المنزلة العلمية.

ومما يحسن ذكره مثالاً من واقع علمائنا وأئمتنا رحمهم الله تعالى،

وهو مثال عامٌ جداً، لا مثال جزئي: موقف علمائنا في كتب تخريجهم لأحاديثِ كتبِ غيرهم، كتخريج «الإحياء»، وتخريج كتب الفقه: «نصب الراية»، و«الدراية»، و«البدر المنير»، و«التلخيص الحبير»، وتخريج كتب الأصول، والتفسير، ونحوها.

نرى الحفاظ: الزيلعي، وابن كثير، والعراقيَّ، وابن الملقن، وابن حجر، وغيرَهم، يقولون عن حديثٍ كذا: ضعيف، والحديثِ الآخر: موضوع، وغيرِه: باطل، وغيرِه: لا أصل له، ونحو ذلك، فحقّ العلم والدين عليهم أن يقولوا هذا بناء على ما وصلوا إليه، فهذا جانب (النقد)، ولكنك لا تجد ـ ولن تجد ـ في ثنايا كتبهم هذه ـ على كثرتها ـ كلمةً نابية خارجة عن حدود الأدبِ، وحفظِ كرامة أولئك العلماء.

ولما شطّ قلم ابن طاهر المقدسي ـ وهو من كبار الحفاظ[1] ـ فأساء الأدب مع إمام الحرمين: نَقَد الحافظُ ابن حجر ابنَ طاهر، فقال[2] في كلامه على حديث سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه في الاجتهاد: قال ابن طاهر: «وأقبحُ ما رأيت فيه قولُ إمام الحرمين في كتاب أصول الفقه[3]:

---

(١) مع ملاحظة أنه من مدرسة ابن حزم، فهو تلميذ أبي عبد الله الحميدي صاحب «الجمع بين الصحيحين»، والحميدي تلميذ ابن حزم، الذي لسانُه شقيقُ سيفِ الحجاج، رحمهم الله جميعاً.

(٢) في «التلخيص الحبير» ٤ : ١٨٣.

(٣) هو «البرهان» ٢ : ٥٠٥ (٧٢٠). وممن نَقَد إمام الحرمين لقوله هذا: الذهبي في «السِّيَر» ١٨ : ٤٧١، فشدّ عليه السبكي في «الطبقات» ٥ : ١٨٧ بكلمات قاسية، وكان موقف ابن حجر ودفاعه ألطف، ومما فيه، وهو يتصل بالقصد الذي أريده، قال =

والعمدة في هذا الباب على حديث معاذ، قال ـ ابن طاهر ـ: ولو كان عالماً بالنقل لما ارتكب هذه الجهالة، قلت ـ ابن حجر ـ: أساء الأدب على إمام الحرمين، وكان يمكنه أن يعبِّر بألين من هذه العبارة..».

وتمام كلام ابن حجر واضح منه أنه مقرٌّ بما حكم به ابن طاهر على الحديث، بل لابن حجر نفسه كلامٌ سابق في إمام الحرمين[1]، لكنه (ألين)، ولما كانت عبارة ابن طاهر فِجَّة فَظَّة وصفه ابن حجر بسوء الأدب.

وهذا درس ومنهج، وتقويم لاعوجاج (ضغابيس) المنتسبين إلى طلب العلم في زماننا، مع أئمتنا السابقين، فماذا يقول الإمام الحافظ ابن حجر رحمه الله وسائرَ علماء المسلمين لو وقف على كلام من يتهم بعض الأئمة الفقهاء في دينه وعلمه، بأنه يتصرف في الحديث ليسوِّيه على وَفْق مذهبه!! أو يتطاول على الإمام الغزالي لِمَا في كتابه «الإحياء» من أحاديث لا أصل لها، وهكذا.

ورضي الله عن الأدب وأهله، فقد ماتوا قبل أن تموت المروءةُ وأهلُها:

مررتُ على المُروءة وهي تبكي فقلت: علىـ مَ تنتحبُ الفتاةُ؟

السبكي ٥: ١٨٨: «وما هذا الحديث وحده ادّعى الإمام صحته، وليس بصحيح، بل قد ادعى ذلك في أحاديثَ غيرِه، ولم يوجب ذلك الغضَّ منه، ولا إنزالَه عن مرتبته الصاعدة فوق آفاق السماء». وقول السبكي عن حديث معاذ «ليس بصحيح»: في محل النظر الشديد، ينظر له ـ لزاماً ـ المقال العاشر من «مقالات الكوثري» رحمه الله.

(١) في «التلخيص الحبير» ١: ٢٥٦.

فقالت: كيـف لا أبكـي وأهلـي جميعاً ـ دون خلق الله ـ مـاتوا!

والكلام على ضرورة تكوين (الملكة النقدية) في طالب العلم، وعلى ضرورة التزامه للأدب، وعلى ضرورة تكوين الطالب وتنشئته على هذين الخُلُقين، وأن يكونا متكافئين: الكلام على هذه الأركان الأربعة طويل، ولا بدّ من هذه الإلمامة.

* * * * *

الباب الرابع

معالم تربوية خاصة بالأستاذ المربي مع أبنائه الطلبة

المَعْلَم الأول

التدرج مع الطلبة في التربية والسلوك

إن تدرج الشيخ مع الطلبة في التربية والسلوك، لا يقلُّ أهمية عن تدرجه معهم في تلقين العلم، الذي تقدم الحديث عنه[١]، وقد قال النووي رحمه الله[٢] ما أقتطف منه هذه الزهرات:

«ينبغي ـ للمعلِّم ـ أن يؤدب المتعلم على التدريج بالآداب السنية، والشِّيَم المرضية، ورياضة نفسه بالآداب والدقائق الخفية، وتعوّده الصيانة في جميع أموره الكامنة والجلية، فأوّل ذلك: أن يحرِّضه بأقواله وأحواله المتكررات على الإخلاص والصدق وحسن النيات، ومراقبة الله تعالى في جميع اللحظات، ويعرِّفه أن بذلك تنفتح عليه أبواب المعارف، وينشرح صدره، وتتفجَّر من قلبه ينابيع الحكم واللطائف، ويزهّده في الدنيا، ويذكِّره أنها فانية، والآخرة آتية باقية.

---

(١) صفحة ٣٠٣، وتنظر قصتي ص٤٠١ ـ ٤٠٢ مع فضيلة شيخنا في التدرج في التربية العلمية.

(٢) في «المجموع» ١ : ٣٠.

«وينبغي أن يرغّبه في العلم، ويذكِّره بفضائله وفضائل العلماء، ولا رتبة في الوجود أعلى من هذه» إلى آخر كلامه النفيس، رحمه الله تعالى.

وتدرّج الأستاذ المربّي مع تلامذته فيما أشار إليه الإمام النووي، يستلزم منه مراقبةً دائمةً لهم ودقيقة، كمراقبة الأم لطفلها الصغير، وسيأتي شيء من البيان في الصفحات التالية إن شاء الله.

وزاد الإمام الكوثري رحمه الله أمثلة من الواقع، في مقاله الأخير عن «إحياء علوم السنة بالأزهر» فقال: «إن المربي الفاضل لايفتأ يسهر على أحوال الطلبة في أكلهم وشربهم ونظافتهم وأزيائهم ومخاطباتهم ومعاملاتهم ولهجاتهم، وكيفية سيرهم في الطرقات، وأحوالهم ليلاً ونهاراً، سيراً خاصاً ليتمكن من تخريج هُداة مهذَّبين حقاً».

ووصفُ هذا الأستاذ المعلم بـ (المربي): يقتضي منه أن يلاحظ في قيامه بمهمته أمرين: التدرج، والشمولية، التدرج: في الارتقاء بهم من حسن إلى أحسن، والشمولية: أن يلاحظهم في أحوالهم كلها. وعليه أن يسأل الله العون والسداد له، ولهم.

* * * * *

المَعْلَم الثاني

تربية الطلبة على آداب العلم وعلى العمل به

إن مما يتعين على الشيخ المربّي ملاحظته في أصحابه: أن يأخذهم بآداب العلم، والعمل به، وبكمالاته، ويذكِّرهم ويحكي لهم أخبار السلف والعلماء العاملين بعلمهم، فيترقّىٰ بهم، وينهض بعزائمهم نحو المعالي، وهذا مما يقرِّب أصحابه إليه بقلوبهم، إذْ يَرون بهذا الاعتناءِ اهتمامَ الشيخ بهم، فيزدادون له حباً وتعلّقاً.

والأصل في هذا الباب: عشرات الأحاديث المرفوعة، ومئات الآثار الموقوفة على السلف، التي فيها حضٌّ على العمل بالعلم، ومحاسبة النفس على الأقوال والأفعال وأعمال القلوب، ومراعاةِ الكمال في السلوك والهَدْي، وتطبيقِ آداب السلف في جميع شئون العالِم.

ومما يقرِّب هذه الأدلة والشواهد إلى طالب العلم: أن يقرأ كتاب الإمام الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى «اقتضاء العلمِ العملَ»، وأن يتصفّح تصفّحاً سريعاً بعض المطوَّلات من كتب تراجم العلماء، مثل «حلية الأولياء» لأبي نعيم، أو مختصرِه «صفة الصفوة» لابن الجوزي، أو «سير أعلام النبلاء» للذهبي، ونحوها.

ومما يقرِّب ذلك أيضاً: أن يستعرض الطالب في قلبه استعراضاً سريعاً

للأحاديث الشريفة التي فيها توصياتُ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه المخاطَبين بها، ومِن ورائهم الأمة كلها: بالتقوى عامة، وبمواقفَ خاصةٍ آمراً فيها بكذا وكذا من الأمور الصالحة: القولية أو الفعلية، وناهياً فيها عن كذا وكذا من الأمور الرديّة: القولية والفعلية.

ولكل مقام مقال، ولكل إنسان مقامه الذي يحاسب عليه، وما كلُّ صحابي يُؤاخذ بما يؤاخذ عليه رؤساء الصحابة وعلماؤهم رضي الله عنهم جميعاً، وبعد أنْ نزل أول سورة الحجرات كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يكلِّمان النبي صلى الله عليه وسلم كأخي السِّرار[1]، فأين منهما ذاك الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «لاتُزْرِموه»؟!.

ومما ينبغي للشيخ المربي أن يذكُره ويكرره على طلاب العلم، من هدي الأئمة السابقين رضي الله عنهم: أخبارهم في عملهم بالعلم، بل بالمبادرة السريعة للعمل والتطبيق، وأكرر هنا نقل ما قدمته[2]:

روى الخطيب[3] عن الإمام إبراهيم الحربي قوله: «ينبغي للرجل إذا سمع شيئاً من آداب النبي صلى الله عليه وسلم أن يتمسك به». وعن الحسن البصري قوله: «كان الرجل يطلب العلم، فلا يلبث أن يُرى ذلك في تخشُّعه وهديه، ولسانه وبصره ويده».

---

(١) كما في رواية البخاري (٤٨٤٥)، مع رواية ابن المنذر التي في «الفتح» ٨: ٥٩١.

(٢) ص٢٤١.

(٣) في «الجامع» (١٧٦، ١٧٨، ١٨١، ١٨٢).

ثم روى الخطيب عن أبي عصمة البيهقي قال: بتُّ ليلة عند أحمد بن حنبل، فجاء بالماء، فوضعه، فلما أصبح نظر إلى الماء فإذا هو كما كان، فقال: سبحان الله! رجل يطلب العلم، لا يكون له وِردٌ من الليل!.

وروى عَقِبه عن أبي عمرو محمد بن أبي جعفر أحمد بن حمدان، عن أبيه أبي جعفر (في حدود ٢٤٠ ـ ٣١١) رحمه الله، قال: كنت في مجلس أبي عبد الله المروزي ـ ولعله الإمام محمد بن نصر المروزي (٢٠٢ ـ ٢٩٤) رحمه الله ـ، فحضرت صلاة الظهر، فأذّن أبو عبد الله، فخرجت من المسجد، فقال: يا أبا جعفر إلى أين؟ قلت: أتطهّر للصلاة، قال: كان ظني بك غيرَ هذا، يدخل عليك وقت الصلاة وأنت على غير طهارة!!.

وقد علَّق على نحو هذا الخبر، بعبارة رائعة رائقة سيدي الذائق البصير الشيخ عبد الفتاح أبو غدة تغمده الله برضوانه، فقال في تعليقه على «رسالة المسترشدين»[1]: «قلت: هذا في غاية المراقبة، إذ من الحقّ على المملوك أن يكون بين يدي مالكه قبل أن يدعوه، لا أن يدعوه فيحضُر».

وأزيد على ما قدمته: قصة الإمام أبي داود السجستاني صاحب «السنن» رحمه الله، قال الحافظ[2]: «أخرج ابن عبد البر بسند جيد عن أبي داود صاحب «السنن»: أنه كان في سفينة، فسمع عاطساً على الشطّ حَمِد، فاكترى قارباً بدرهم حتى جاء إلى العاطس، فشمَّته ثم رجع، فسئل عن ذلك؟ فقال: لعله يكون مجاب الدعوة، فلما رَقَدوا سمعوا قائلاً يقول: يا

---

(١) صفحة ٢٤٥.

(٢) في «الفتح» ١٠: ٦١٠ ـ ٦١١ (٦٢٢٥).

أهل السفينة، إن أبا داود اشترى الجنة من الله بدرهم!».

وخبر الإمام الزاهد أبي عثمان سعيد بن إسماعيل الحيري، الذي رواه الخطيب[1]، وخلاصته: أن أبا جعفر أحمد بن حمدان الحيري عمل «مستخرجاً على صحيح مسلم»، فكان يقرؤه على الناس في المسجد بين المغرب والعشاء، وممن يحضر هذا المجلس أبو عثمان الحيري، وفي آخر المجلس وبعد الصلاة كان يأتي أبو عمرو محمد ابن أبي جعفر بن حمدان ليصحب أباه من المسجد إلى البيت، فجاء يوماً ورأى أبا عثمان قد دخل لصلاة العشاء «وعليه إزار ورداء، فصلّى بنا، ثم دخل داره، ورجعت مع أبي إلى البيت، فقلت لأبي: يا أبةِ أبو عثمان قد أحرم؟ فقال: لا، ولكنه ... إذا سمع بسنَّة لم يكن استعملها فيما مضى أحبّ أن يستعملها في يومه وليلته، وإنه سمع من جملة ما قرئ عليَّ: أن النبي صلى الله عليه وسلم صلّى في إزار ورداء، فأحبّ أن يستَعمل تلك السنَّة قبل أن يصبح».

ومن غرائب التزامهم للهَدْي النبوي: ما حكاه أبو نعيم، وابن أبي يعلى في ترجمة إبراهيم بن هانئ النيسابوري[2]، قال إبراهيم: «اختفى عندي أحمد بن حنبل ثلاثة أيام ثم قال: اطلب لي موضعاً حتى أتحول إليه، قلت: لا آمن عليك يا أبا عبد الله، فقال لي: إذا فعلتَ أفدتك، فطلبت له موضعاً، فلما خرج قال لي: اختفى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار ثلاثة أيام ثم تحوّل، وليس ينبغي أن نتّبع رسول الله صلى

---

(١) في «الجامع» (١٨٨).

(٢) أبو نعيم في «الحلية» ٩: ١٨٠، وابن أبي يعلى في «طبقاته» ١: ٢٥٢.

الله عليه وسلم في الرخاء، ونتركه في الشدة». رضي الله عنه وأرضاه[١].

ويُوقِفهم عند كل خبر منها ومما شابهها، ولا سيما ما كان منها كهذه النوادر.

فأين هذه الرعاية العالية مما حكاه الكوثري وشكاه إلى شيخ الأزهر آنذاك الشيخ مصطفى عبد الرازق، وكانت مشيخته للأزهر خلال عامي ١٣٦٥ ـ ١٣٦٦، وذلك قوله رحمه الله في آخر مقالة من «مقالاته»: «إنا نرى استمرار الدراسة في الأقسام النظامية عندما يؤذن المؤذن للصلاة، ويجيب المسلمون داعي الله، ويقومون إلى الصلاة في جنبهم على مرأى منهم ومسمع، من غير أن يحرِّك هؤلاء السادة القادة ساكناً في الإجابة لهذه الدعوة الإلهية».

وأعيدُ هنا حكاية ما قدَّمته[٢] من نماذج رفيعة معاصرة، وذلك ما حدثني به فضيلة الشيخ الداعية الدكتور محمد عوض، أكبر تلامذة فضيلة العلامة الأصولي المربّي الكبير الشيخ عبد الكريم الرفاعي رحمهما الله تعالى: أنه صلى الضحى مرة في المسجد، وقام ومشى فور تسليمه من الصلاة، وشيخه يرمُقه ويلاحظه من خلفه، فناداه وقال له: يا شيخ محمد، كأنك استغنيتَ عن ربك؟! فسأله التلميذ بلهفة ووَجَل: خيراً إن شاء الله يا سيدي؟ قال له الشيخ: تمشي فور تسليمك من الصلاة ولا تدعو الله بشيء!!.

وهكذا تكون رعاية الربانيين لأصحابهم، أما من لم تكن له صلة بهم،

---

(١) وانظر خبر عمر بن عبد العزيز المتقدم صفحة ٢٠٨.

(٢) صفحة ٢٤١.

ولا تلقَّى عنهم، فمن أين تحصل له هذه التوجيهات، ويستفيد هذه الرعايات، ليترقَّى في الكمالات!!.

ومن أين يكتسب هذا الرقيَّ في التربية والسلوك من لم يتلقَّ العلم عن الشيوخ؟! ومن أين يكتسبها من يأخذ الشهادات بالانتساب إلى الجامعات دون مواظبة وملازمة ومباحثة؟ بل من أين يَشَمُّ رائحتها من نال الشهادات العالية ـ بأسمائها وألقابها، لا بحقائقها ـ مَن أخذها مِن وراء شاشات الأجهزة الإلكترونية في الجامعات المفتوحة، والتعليم عن بُعد؟!!.

الأجوبة عند المسئول لا السائل.

ولهذه التربيةِ وأَخْذِ الشيخ أصحابَه بالعزائم، أثرُها العاجل في سلوك الطالب، كما رأينا ذلك في كلمة الحسن البصري رحمه الله.

وروى الخطيب[1] عن الإمام مالك قوله: «إن حقاً على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، وأن يكون متَّبعاً لأثرِ مَن مضى قبله».

أما من اتخذ العلمَ صناعةً ووظيفة، ومصدرَ رزقٍ وعيشٍ وكسب: فلا خير فيه: لا خير في علمه، ولا خير في طلبه.

وكذلك: من جعل العلم وسيلةً للردود والمناقشات، والتجريح والتشريح لفلان وفلان، وتصنيف فلان من مدرسة فلان، أما فلان فمن مدرسة فلان الآخر: فكذلك لا خير فيه، ولا في علمه، ولا في كتاباته.

---

(١) في «جامعه» (٢١٢).

إنما التعلم للعمل، ولتعليم الأمة، ولتصحيح مساره ومسارها في الفكر والمعتقد، ولتقويم عملِه وعملِها على وَفْق مراد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، على ما فهمه الأئمة من السلف الصالح، ومن سار على نهجهم، رضي الله عنهم.

والعمل: تخلية وتحلية، فالتخلية: تكون بترك المعاصي والمنهيات، والتحلية: تكون بفعل المأمورات والمكرمات.

وتقدم[1] عن الإمام ابن الحاج (ت ٧٣٧) رحمه الله: أنه حكى[2] عن بعض علماء زمانه ـ أوائل القرن الثامن ـ ما لا يليق بحال أهل الكمال والعلم، ثم قال: «ولهذا كان سيدي أبو محمد ـ ابن أبي جمرة (٦٩٩هـ) ـ رحمه الله إذا ذُكر له واحد من علماء وقته ممن يُنسب إلى طَرَف مما ذُكر ويُثْنىٰ عليه إذْ ذاك بفضيلة العلم، يقول: ناقل، ناقل، خوفاً منه رحمه الله على منصب العلم أن يُنسب إلى غير أهله، وخوفاً من أن يكون ذلك كذباً أيضاً، لأن الناقل ليس بعالم في الحقيقة، وإنما هو صانع من الصنَّاع».

فانظر إلى قوله: «خوفاً من أن يكون ذلك كذباً»: فتسمية غير العامل عالماً ـ في نظره ـ كذب!!.

وقد أوصى عدد من أئمة الإسلام بترك المعاصي، وسيلةً لحفظ العلم، منهم: مالك بن أنس، وبِشر الحافيْ، ووكيع بن الجراح،

---

(١) صفحة ٢١.

(٢) في «المدخل» ١ : ١٧.

والصحابي العظيم الشأن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم جميعاً[1].

ومن كلام مالك في هذا الصدد: قوله للشافعي رضي الله عنهما أولَ ما اتصل به وبدأ بقراءة «الموطأ» عليه، قال له: «يا محمد، اتَّقِ الله، واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأن من الشأن»[2]. ثم أسند عقبها قول مالك للشافعي أيضاً: «إن الله عز وجل قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تطفئه بالمعصية».

وفي أخبار الإمام الأعظم أبي حنيفة رحمه الله: أنه «كان إذا أشكلتْ عليه مسألة قال لأصحابه: ما هذا إلا لذنب أحدثته، وكان يستغفر، وربما قام وصلّى، فتنكشف له ويقول: رجوتُ أنه تِيْبَ عليّ، فبلغ ذلك الفضيل ابن عياض، فبكى بكاء شديداً، ثم قال: ذلك لقلة ذنبه، فأما غيره فلا ينتبه له»[3].

هذا شأنه رحمه الله فيما استغلق عليه فهمه وحلّه، وكان له شأن آخر ووسيلة أخرى للازدياد من العلم، فقد قال ـ فيما حكاه الزرنوجي ـ[4]: «إنما أدركت العلم بالحمد والشكر، فكلما فهمت ووقفت على فقه

---

(١) وتنظر أقوالهم في «الجامع» للخطيب (١٨٤٦) فما بعده.

(٢) والقصة طويلة، تُنظر بتمامها في «مناقب الشافعي» للبيهقي ١: ١٠٢.

(٣) نقله شيخنا في تعليقاته على «رسالة المسترشدين» للمحاسبي ص٢١٨، عن «طبقات الحنفية» للإمام علي القاري ٢: ٤٨٧ المطبوع آخر «الجواهر المضية» للقرشي، طبعة الهند ـ حيدر آباد.

(٤) صفحة ٧٥.

وحكمة، فقلت: الحمد لله تعالى: ازداد علمي». أخذاً من قوله تعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ إبراهيم: ٧، وهذا فقه في كتاب الله تعالى.

وكون المعاصي تؤثر على طالب العلم، وتعرقل سيره: هذا أمر مسلَّم به، يتصل بما تقدم أول هذا البحث، وأن العلم نور ووراثة محمدية، والنور والظلمة لا يجتمعان في قلب واحد.

وشؤم المعصية، ووباؤها ووبالها، ليس قاصراً على هذا فقط، بل ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ الأنفال: ٢٥.

وأخيراً: قال الإمام القدوة الحافظ الزاهد علي بن أحمد بن محمد الحسيني البغدادي، المتوفىٰ سنة ٥٧٥ رحمه الله: «اجعل النوافل كالفرائض، والمعاصي كالكفر»[1]، النوافل كالفرائض في التزامها، والمعاصي كالكفر في اجتنابها، فجاءت نصيحةً ـ لكل مسلم وطالب علم ـ غالية جامعة للتحلّي والتخلّي.

* * * * *

---

(١) «تذكرة الحفاظ» ٤: ١٣٦٢، و«طبقات» السبكي ٧: ٢١٣.

المَعْلَم الثالث

أن يرفع من همتهم في كل مناسبة تعرض

على المعلم المربي أن يرفع من همة أبنائه الطلبة في كل مناسبة تعرِض، كأن يقدِّم الواحدَ منهم لإمامة، أو حديث وموعظة، أو ينقل عنه في كتاب، أو يروي عنه حديثاً أو مسألة علمية، أو أن ينوِّه بذكره أمام العامة، أو أمام أقرانه، وأخبارُهم رحمهم الله تعالى في هذه المعاني كثيرة، تنظر من حيث الإجمال في كتب علوم الحديث المطوَّلة، في نوع: رواية الأكابر عن الأصاغر، ورواية الآباء عن الأبناء، والمدبَّج، والسابق واللاحق.

ومن ذلك: رواية الإمام البخاري (١٩٤ ـ ٢٥٦) عن تلميذيه: ابن خزيمة صاحب «الصحيح» (٢٢٣ ـ ٣١١)، قال الذهبي[1]: «حدث عنه البخاري ومسلم في غير الصحيحين». وعن أبي العباس السرّاج (٢١٦ ـ ٣١٣)، وقال السخاوي[2]: روى البخاري عن أبي العباس السراج أشياء في «تاريخه» وغيره.

وأما تلميذه الآخر: الإمام أبو عيسىٰ الترمذي، فلم أرَ نصاً على رواية

(١) في «السير» ١٤: ٣٦٦.

(٢) في «فتح المغيث» ٤: ١٧٣.

البخاري عنه، لكن صرّح الترمذي نفسه في «السنن» بسماع البخاري منه ـ لا بروايته عنه ـ[١].

وذكر الذهبي[٢] في ترجمة الحافظ عبد الغني بن سعيد الأزدي قصته مع شيخه الإمام الدارقطني رحمهما الله: «ابتدأت بعمل كتاب «المؤتلِف والمختلِف»، فقدِم علينا الدارقطني، فأخذت عنه أشياءَ كثيرةً منه، فلما فرغت من تصنيفه سألني أن أقرأه عليه ليسمعه مني، فقلت: عنك أخذت أكثره! قال: لا تقل هكذا، فإنك أخذته عني مفرَّقاً، وقد أوردتَه فيه مجموعاً، وفيه أشياءُ كثيرة أخذتَها من شيوخك، قال: فقرأته عليه».

وكثيراً ما يقول المزي في «تهذيب الكمال» في ترجمة الراوي: روى عنه فلان، وهو من شيوخه.

وقد أشاد الحافظ ابن حجر[٣] في ترجمة الإمام أبي حيان الأندلسي، بهذا الخلق العلمي والتربوي، فقال: «كان له إقبال على أذكياء الطلبة، يعظمهم ويُنوِّه بقدرهم».

وهذه مواقف وحوادث فردية، ولا ريب في أثرها الكبير على نفوس أصحابها الطلبة.

والقدوة في هذا الخُلُق: إرشاد النبي ﷺ أصحابه إلى ما تميَّز به

---

(١) وذلك عقب حديث (٣٣٠٠، ٣٧٢٧)، ونحوه في آخر «العلل الصغير» الذي في آخر «سننه» قبل نهاية الكتاب بصفحتين.

(٢) في «السير» ١٧ : ٢٧٠.

(٣) في «الدرر الكامنة» ٤ : ٣٠٣.

بعضهم من صفة نبيلة، على غيره، وذلك فيما رواه أنس رضي الله عنه[١]، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدُّهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ ابن جبل، وأفرضُهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبيّ، ولكلِّ أمة أمين، وأمينُ هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

وروى أحمد[٢]، من حديث حذيفة رضي الله عنه: «اقتدُوا باللَّذينِ من بعدي: أبي بكر وعمر، وتمسّكوا بعهد عمار، وما حدثكم ابن مسعود فصدِّقوه».

وبهذين الحديثين استدل الخطيب[٣] على قوله رحمه الله: «يستحبُّ للفقيه أن ينبه على مراتب أصحابه في العلم، ويذكرُ فضلهم، ويبيِّن مقاديرهم، ليفزَعَ الناس في النوازل بعده إليهم، ويأخذوا عنهم»، وزاد عليهما الرواية عن عمر: أنه قال لابن عباس: لقد علمتَ علماً ما علمناه.

ولهذا التنبيه على خصائص الرجال جميل العوائد على الرجل نفسه، وعلى الأمة من بعده، إذْ فيه دعوةٌ من المتكلم إلى الناس عامةً، ليستفيدوا من كل رجل ما فيه من خَصِيصة، وإلى طلاب العلم خاصة أن يستفيدوا

---

(١) الترمذي (٣٧٩٠، ٣٧٩١) وقال: حسن صحيح، والنسائي (٨٢٤٢)، وابن ماجه (١٥٤)، والطرف الأخير منه عند البخاري (٣٧٤٤)، ومسلم ٤: ١٨٨١ (٥٣) عن أنس أيضاً.

(٢) في «المسند» ٥: ٣٨٥، وأوله عند الترمذي (٣٦٦٢ وقال: حسن، ٣٦٦٣).

(٣) في «آداب الفقيه والمتفقه» ٢: ٢٩٠.

من هذا العالم العلمَ المتميِّز به عن أقرانه.

ومع هذا كله: لا ينبغي أن يفوت الأستاذ المربي أن هذا التعامل مع الطلبة ينبغي أن يكون بمنزلة الدواء، يوضع في موضعه، وبمقدار لا زيادة فيه ولا نقصان.

* * * * *

المَعْلَم الرابع

توكيده على الطلبة قراءة سير العلماء الأقدمين

إن من المتأكِّد على المعلم المربي أن يشدّ انتباه طلبته، ويؤكد عليهم: قراءة سيَر العلماء الأقدمين، وأخبارهم العلمية والعملية، إلى أن يصير ذلك خُلُقاً راسخاً في نفوسهم. وقد نبَّه الإمام ابن الجوزي إلى هذا الأمر في مواضع، منها قوله رحمه الله[1]: «كانت همم القدماء من العلماء عليّة، تدل عليها تصانيفهم التي هي زُبدة أعمارهم، إلا أن أكثر تصانيفهم دُثرت، لأن همم الطلاب ضعفت، فصاروا يطلبون المختصرات، فسبيلُ طالب الكمال في طلب العلم، الاطلاعُ على الكتب التي قد تخلّفت من المصنفات، فليكثر من المطالعة، فإنه يرى من علوم القوم، وعلوّ هممهم ما يشحذ خاطره، ويحرِّك عزيمته للجِدّ، وما يخلو كتاب من فائدة، وأعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم، لا نرى فيهم ذا همة عالية، فيقتدي بهم المبتدئ، ولا صاحبَ ورع فيستفيد منه الزاهد. فالله الله! عليكم بملاحظة سِير السلف، ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم».

وهذه لفتة من عالم ذي بصيرة نافذة، يحضُّ على مطالعة أخبار العلماء السابقين، فإن في قراءة سِيَرهم معايشةً لهم، وبها تسري أحوالهم

(١) في «صيد الخاطر» ص٣٧٥ (٣٣٧)، وينظر أيضاً «لفتة الكبد» له ص٢٠.

في أرواح قارئيها سَرَيان الماء في العود الأخضر، فيشتدُّ وَيقْوى ويُثمر.

وأنصح أخي طالب العلم بقراءة قسم التراجم أول «الرسالة القشيرية» للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (٣٧٦ ـ ٤٦٥) رحمه الله تعالى، الذي قال فيه أبو سعد السمعاني في مادة (القشيري) من كتابه «الأنساب»: أحد مشاهير الدنيا بالفضل والعلم والزهد، ونَقَل الذهبي[١] عن السمعاني نفسه قوله في القشيري: لم يَرَ مثل نفسه في كماله وبراعته، جمع بين الشريعة والحقيقة، ونَقَل ابن عساكر[٢] عن الباخَرْزي ـ ووافقه عليه ابن عساكر ـ قوله: كان خارجاً في إحاطته بالعلوم عن الحدّ البشري!.

وفي «طبقات السبكي»[٣] عن الإمام السمعاني أيضاً نقْل طويل، محل الشاهد منه: أن الإمام القشيري حجّ مرة، وكان في ذاك العام أربعُ مئة نفس من قضاة المسلمين وأئمتهم، وأرادوا أن يتكلم واحد منهم في بيت الله الحرام، فاتفق الكلُّ عن أن يتكلم أبو القاسم القشيري، فتكلم، وهذا مقامٌ قلّ نظيره في تراجم الأئمة!.

هذا عن المؤلِّف، أما المؤلَّف (الكتاب): فشهرته واعتماد العلماء عليه خلال هذه القرون العشرة (تقريباً) تغني عن الإفاضة في الثناء عليه، حتى صار صاحبُها ومؤلفها الإمام القشيري يعرَّف بها، فيقال

(١) في «السير» ١٨ : ٢٣٠.

(٢) في «تبيين كذب المفتري» ص٢٧٤.

(٣) ٥ : ١٥٨.

في كتب التراجم في صدر ترجمته: هو أبو القاسم عبد الكريم.. صاحب «الرسالة»[١].

فمن كان بهذا المقام العلمي، وما كان بهذا التلقي بالقبول من العلماء على تطاول القرون: كان حقيقاً وجديراً بالاهتمام به، وبالاستفادة منه.

وأنصح بقراءة كتاب آخر: هو كتاب «سير أعلام النبلاء» للإمام الحافظ الناقد الذهبي رحمه الله، فإنه كتاب قدوة، فيه العلم، وفيه العمل، وفيه السلوك، وفيه هَدْي السلف ومن تبعهم بإحسان من العلماء السائرين على نهجهم، رحمهم الله تعالى، ودَعْ عنك ما في بعض التعليقات عليه من نَكَد ويُبْس.

* * * * *

(١) كما تجده في «السير» للذهبي ١٨ : ٢٢٧، والتاج السبكي في «الطبقات» ٥ : ١٥٣.

المَعْلَم الخامس

الترفع عن حطام الدنيا وأهلها

ومما ينبغي للشيخ المربي أن يتعهده في أصحابه وتلامذته: تربيتُه لهم على الترفعِ عن حطام الدنيا وأهلها، وعزوفِ النفس والقلب عن زخارفها وبهارجها، وما أكرمَ وأشرفَ طالب العلم ـ بَلْهَ العالمَ ـ أن يكون مطلوباً لا طالباً، ومقصوداً لا قاصداً، ومرغوباً إليه لا راغباً!!.

والرضا بالقليل من الدنيا والكفاف، خير وسيلة للعزوف والانكفاف.

وفي رواة الحديث الشريف، ومن شيوخ الإمام البخاري ـ رحمهم الله جميعاً ـ قَبيصة بن عقبة السُّوَائي، ترجمه ابن أبي حاتم(١)، وحكى قصة، خلاصتها: أن رجلاً من آل الخلفاء العباسيين جاء إلى قَبيصة وسأله أن يعقد له مجلسَ حديثٍ خاصاً به، فقال له قبيصة: بل تحضُرُ المجلس مع الجماعة، أي: إنه ما أراد أن يخصَّه بمجلس، فقال له العباسي: أنت لا تعرف لبني هاشم حقاً، ـ كأنه يهدده ـ، فقام قبيصة ودخل البيت وأخرج رغيفاً وعليه شيء من الملح وقال له: مَن رضي مِن الدنيا بهذا، يهون عليه كلامك!.

---

(١) في «الجرح والتعديل» ٧ (٧٢٢).

ومثل هذا ما حصل للقاضي العظيم شَريك بن عبد الله النخعي[١]، إذ جاءه رجل من أولاد الخليفة المهدي العباسي، فاستند إلى الحائط وسأله عن حديث، فلم يلتفت إليه، فأعاد السؤال، فلم يلتفت إليه، فقال له: كأنك تستخفّ بأولاد الخلفاء؟! قال: لا، ولكن العلم أزينُ عند أهله من أن يضيعوه، فَجَثَا هذا العباسي على ركبتيه ثم سأله، فقال شريك: هكذا يطلب العلم.

وفي «الجواهر المضية في طبقات الحنفية»[٢] في ترجمة أبي الحسن علي بن الحسن الصَّنْدلي، المتوفَّى سنة ٤٨٤ رحمه الله تعالى: أن السلطان قال له: لمَ لا تجيء إليّ؟ فقال له: أردتُ أن تكون من خير الملوك، حيثُ تزور العلماء، ولا أكون من شر العلماء، حيثُ أزور الملوك.

وليحذر طالب العلمِ الشريف، والوراثةِ المحمدية: أن ينطبق عليه كلام الإمام حجة الإسلام الغزالي رحمه الله تعالى[٣]، تحت كلامه عن الوظيفة الثانية من وظائف المرشد المعلِّم: «من طلب بالعلم المالَ كان كمن مسح أسفلَ مداسِه بوجهه لينظِّفه، فجعل المخدومَ خادماً، والخادم مخدوماً».

ولقد كنا نخاف على العامة الزيغَ فنوصيهم أن يحافظوا على ما كان

---

(١) كما رواه الخطيب في «الجامع» (٣٤٦).

(٢) للحافظ القرشي ٢: ٥٥٤.

(٣) في «الإحياء» ١: ٥٦.

عليه سيدنا الصديق الأكبر رضي الله عنه[١]، كان يدعو في الركعة الثالثة من صلاة المغرب، بعد الفاتحة وقبل الركوع بـ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ آل عمران: ٨، فصار الخوف الآن على المُتزَيين بزِيّ طلبة العلم أكثر، لكثرة مَن يأكل منهم الدنيا بالدين، ويلتمسُ الشهرة بطلب العلم، ويتلاعب في دين الله إرضاءً لذوي الجاه والسلطان والمال، وينطبق عليه قول القائل:

يوماً يمانٍ إذا لاقيتَ ذا يَمَنٍ ... وإنْ لقيتَ مَعَدِّيّاً فعدناني

أو قولُ الآخر:

تزندق مُعْلِناً ليقول قوم ... من الأدباء زنديق ظريفُ

فقد بقي التزندق فيه وصفاً ... وما قيل الظريف ولا الخفيف

فهؤلاء أحقّ وأوجب بهذه الوصية وتطبيقها، فهم القادة والسادة، و«إذا انطمست النجوم أوْشَكَ أن تَضِلّ الهُداة».

ولا تجد لأحدهم توجّهاً صادقاً لإرضاء الله تعالى، وكأنه لم يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ التوبة: ٦٢، بل توجُّهه توجُّه ذاك الذي يُحاول إرضاءه واسترضاءه، يشرِّق إذا شرَّق، ويغرِّب إذا غرَّب!! فأين شعار الإسلام الذي على رأسه؟! أو أين شعار السنّة الذي على وجهه؟!.

---

(١) فيما رواه عنه مالك في «الموطأ» ١ : ٧٩ (٢٥).

ولقد أدركنا من الشيوخ - رضي الله عنهم وأرضاهم - من كان لا يملك قوتَ عياله ليومه، وهو يشمخ بأنفه على أهل الدنيا كلهم، اعتزازاً بعلمه، وإكراماً لتاج الإسلام الذي على رأسه، وما هم منا ببعيدي العهد والزمن، بل هم من خاصة شيوخنا الذين نعتزّ بالانتساب إليهم، والتلمذة عليهم، تغمّدهم الله بالرضا والرضوان.

* * * * *

المَعْلَم السادس

أهمية تحسين الحسن وتقبيح القبيح علمياً وتربوياً

ومن مهمات الشيخ مع أصحابه: مهمة من المهمات العلمية والأخلاقية، وتتصل بالتربية العامة الاجتماعية، وهي مهمة مذكورة في شمائل النبي صلى الله عليه وسلم، الواردة في الحديث المشهور الطويل، حديثِ هندِ بن أبي هالةَ رضي الله عنه، الذي رواه الترمذي مفرَّقاً في كتابه «الشمائل»، وقد جاء فيه قول هند: كان صلى الله عليه وسلم يتفقّد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسِّن الحسن ويقوِّيه، ويقبِّح القبيح ويوهِّيه[١].

وأنا في حديثي عن الأستاذ المعلم والشيخ المربي، مع أصحابه المتعلمين منه العلمَ والعملَ، أَقصر كلامي على ما يناسب المقام، فأقول: ينبغي للشيخ أن يهتدي بهذا الهدي النبوي العظيم مع أصحابه، فهو أولاً: يتفقدهم، في حضورهم وغيابهم، ويتفقدهم بسبب غيابهم، ويعالج ذلك

(١) رواه الترمذي في «الشمائل المحمدية» (٨، ٢٢٥، ٣٣٦، ٣٥١)، والجملة المذكورة في الموضع الثالث منه، ورواه كثير من طريقه، وفي إسناده أكثر من راو ضعيف، وأشدّهم ضعفاً جُمَيع بن عمير العجلي، اتهمه ابن حبان في «المجروحين» ١ : ٢١٨ بالوضع، مع أنه ذكره في «الثقات» ٨: ١٦٦؟!، لكن لم يتأخر جُلُّ العلماء الذين كتبوا في الشمائل ونحوها، عن ذكره واعتماده، وشواهد مفرداته كثيرة.

منهم، ومعهم، ويعايشهم في سرّائهم وضرّائهم، ويواسي كلاًّ بما يناسبه.

ويسألهم عن الناس، ليكون العالم طبيباً ناجعَ الدواء والمعالجة، لأنه يتعرف علىٰ أمراض الناس بهذه الأسئلة، فإذا عالج: عالج ببصيرة، وصار يعيش عصره وبيئته، فلا يعيش مع أبناء القرن الخامس عشر الهجري، بعقليّة أبناء القرن العاشر مثلاً.

ففي هذا الخُلُق من الهدي الكريم فائدتان: معايشة العالم لأبناء عصره، ومعالجته لعللهم على بصيرة.

ثم الأمر الأهم لعلاقة الشيخ بأصحابه: أنه يحسّن الحسن فيهم، فإذا رأى نجابة من طالب في علم أو خُلُق، حسَّنه منه، وشجّعه على الاستمرار عليه، وفي هذا تشجيعٌ لزملائه الآخرين، ومدعاةٌ لهذا الطالب أن يزداد نبوغاً ونباهة، وكذلك إذا رأى أو ذُكر له أمر مكروه قبّحه وذمه، وقبّح فاعله وذمه عليه، تلميحاً أو تصريحاً، سراً وبرفق، ليكون تربية لهم جميعاً على استهجان هذا القول أو الفعل.

ومن أمثلة ذلك ما تقدم ذكره قريباً، ونقلته عن «مناقب الشافعي» للبيهقي(١) حين رأىٰ الأمامُ مالك فصاحة الشافعي ونجابته رحمهما الله تعالى، سأله عن اسمه فقال: محمد، فقال له: «يا محمد، اتَّقِ الله، واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأن من الشأن».

وهذه المقولة «يحسّن الحسن ويقوّيه، ويقبّح القبيح ويوهّيه»: أعتبرها

---

(١) ١: ١٠٢.

من جوامع الكلم في باب التربية والتسليك والتأديب، بلسان الحال والمقال، وهي كلمة جامعة ومستخلَصة من مواقفَ كثيرة للنبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، يحسّن فيها ما كان حسناً، ويقبّح ويوهّي منها ما كان غير ذلك، وهي مبدأ ونبراس لكل مسئول مع من هو في مسئوليته وتحت رعايته، فلا يضيِّعَه، بإهماله له، وعدم تقويمه لاعوجاجه، فـ«الدين النصيحة».

* * * * *

الخاتمة

وبعد: فإن المعالم المطلوبة لإرشاد طالب العلم، وإنارةِ دربه العلمي: كثيرة، وما هذه الصفحات إلا لشقّ الطريق في الكتابة عنها، والأمل بالله عز وجل أن أكون قد وفِّقتُ في عرض ما قصدت إليه، وأن ينفعني وأولادي وأصحابي والقرَّاءَ بها، وأن يكرمني ويوفقَني إلى استدراك ما غاب عني من مهمات (صناعة طالب علم اليوم) و(عالم الغدِ) إن شاء الله تعالىٰ.

هذا، وقد طبع الدكتور محمد بن عَزّوز جزاه الله خيراً جزءاً لطيفاً فيه «مختارات من وصايا أندلسية مغربية» كلها نافعة ماتعة، استحسنت منها وصية العلامة المتفنن، من عيون علماء المغاربة في القرن الحادي عشر أبي حامد محمد العربي بن يوسف الفاسيّ (٩٨٨ ـ ١٠٥٢) رحمه الله تعالىٰ، أوصىٰ بها أولاده حين قدِموا فاس لطلب العلم بها، استحسنتها لوجازتها وجمعها لمهمات الطالب، ولرسمها منهجاً دراسياً له.

وأنا أنقل نصَّها من هذه «المختارات»[1] بعد أن عرَّف الدكتور ابن عزوز بها وبكاتبها وبمن كُتبت له، فقال رحمه الله مخاطباً أبناءه[2]:

---

(١) ص ١٤١ ـ ١٤٧.

(٢) ورد أثناء الوصية أسماء أعلام ومؤلَّفات مشهورة في تلك الديار المغربية والأندلسية، وهي غير مشهورة متداولة في بلادنا المشرقية، فينظر التعريف بها هناك تعليقاً.

«أولُ ما أوصيكم به تقوىٰ الله العظيم في السر والعلانية، والإقبالُ على ما يعني، وملازمةَ الصلوات في الجماعة، والاشتغال بالعلم، والاستكثار منه ما استطعتم.

وليكن جلُّ عنايتكم بالأهم فالأهم، والعلمُ كلُّه مهم، والأهم علم الشريعة، ولا تؤخروا تعلُّم مسألة لغدٍ وهو يمكنكم اليوم، ولا تَحقِروا شيئاً من العلوم: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ الزمر: ٩.

فخذوا في علم النحو واجتهدوا في تحصيل مهمات قواعده، و«الألفية» كافية في ذلك، فأتقنوها حفظاً وفهماً، فإن النحو مفتاح علم هذه الأمة العربية، ويلتحق به علم التصريف[١]، ومن توابعه: علم العروض والقافية، للاحتياج في بعض مسائله إليه.

وحصِّلوا علم العقائد فإنه أصل هذا الدين وأساسه، ثم إن تبين لكم شيخ محقِّق فاقرؤوا عليه علم الكلام، وإن أمكن تحقيق الفلسفة الإسلامية

---

(١) من بين الوصايا التي في المجلَّد الذي أنقل منه هذه الوصية، واسمه كما ذكرتُ: «مختارات من وصايا أندلسية مغربية»، من بينها وصية عبد الرحمن بن عُذرة الأنصاري، المتوفى سنة ٦٠٦، لأبنائه يحضُّهم فيها على الجدّ في تحصيل العلم، ومما قال لهم في آخرها: «اشتغلوا ـ مع مطالعة النحو ـ بدرس اللغة، ولا تتكلموا إلا على المحفوظ منها ظاهراً، واعلموا أن النحو واللغة رضيعا لِبانٍ، وبهما يتميز الإنسان عن جنس الحيوان، وهما أسُّ علوم الشريعة والطبيعة، وقطب المعارف الجليلة الرفيعة، فخذوا بحظكم منهما، وكلُّ علم يسهل ـ إن شاء الله ـ بعدهما».

فلا بأس، فإنها تكسب العقل نفوذاً، والفكرة قوة، والكلام سعة، والعبارة ضبطاً، والنظر سداداً، والناظر جرأة، وهي خادم للناظر في أي علم، وأهمُّ ما فيه علم المنطق، وقد قال الشيخ ابن عرفة: «من لم يعرف المنطق لا يوثق بعلمه»، وهو علم متداول يتيسر طلبه، فاعتنوا به.

وخذوا من علم الحساب القدْر الذي لا بد منه في الفرائض والهيئة وغيرهما، وكُتب القَلَصادي[1] كافية في ذلك، وهو مقصود لغيره، فلا تطلبوا منه إلا القدر المحتاج إليه في غيره، ولا تجعلوه مقصوداً في نفسه فتوغلوا فيه إيغالاً، فيشغلَكم عما هو أهم منه.

وخذوا من علم النجوم القدر الذي يحتاج إليه في المواقيت والقبلة من العبادات، وفي فصول السنة من العادات، والمتداول في ذلك «رجز» أبي مقرع، فإن أمكنكم قراءته وقراءة «روضة» الجاري فافعلوا، ولا عليكم حينئذ في فهم «يسارة» ابن البناء إن تيسر لكم، وقد قضيتم منه غاية الأرب، ولم يبق بعد ذلك إلا ما تَرْكه أولى وأوجب.

أما علم الطب: فـ«أرجوزة» ابن سينا كافية في ذلك، فلا أظنكم تجدون من تقرؤونه عليه.

ومن المهمات إتقان حفظ كتاب الله تعالى، وتحقيق أدائه ورسمه وضبطه، وأخذ ذلك عن أمثل من تمكنكم القراءة عليه، وفهم «كتاب»

(١) هو أبو الحسن علي بن محمد القَلَصادي الأندلسي الأصيل، التونسي الوفاة، توفي سنة ٨٩١ رحمه الله، وكتبه كثيرة في علم الحساب، ترجمه السخاوي في «الضوء اللامع» ٥: ١٤، ومن كتبه «شرح على رجز أبي مقرع» الآتي بعد أسطر.

الخراز، وابن بَرِّي في الضبط والرسم.

ولا تشغلكم الصفراء والحمراء عن تحصيل ما هو أهم من إعرابه، وتفسيره، وأحكامه، فإن تيسر لكم حضور تفسيره على شيخنا وإمامنا السيد عبد الرحمن[1] فتلك الغنيمة إن شاء الله تعالى، ومن أحسن التفاسير التي أحبُّ لكم مطالعتها وتفهُّمَها «تفسير» ابن جُزَيّ[2]، ولا أقبل قول من يخالف في ذلك.

ولا بد من معرفة علمي المعاني والبيان وتوابعهما، فبذلك يُطَّلع على أسرار الكتاب المنزل، وحديث النبي المرسل، و«تلخيص» القَزْويني فيه الشفاء، لا سيما بشرحه للشيخ سعد الدين[3]، واطلبوا الإجازة من شيخنا سيدي عبد الرحمن فيما أجازه فيه شيخنا القصَّار[4] وفيما له هو من تأليف ونظم ونثر، وإن قدِّر لكم أن تسمعوا عليه صحيحي البخاري ومسلم فَبَخٍ بخٍ.

ولتجعلوا الفقه ـ مع ذلك كله ـ جلَّ بضاعتكم، صارفين إليه أعظم

---

(١) هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الفاسي، المتوفى سنة ١٠٣٦ رحمه الله.

(٢) هو تفسير «التسهيل» المطبوع مراراً، وهو قريب من «تفسير» البيضاوي والنسفي، والاستفادةُ منه أيسر من الاستفادة منهما، لكن يحتاج الناظر فيه أن يكون حافظاً لكتاب الله تعالى.

(٣) «التلخيص» للقَزْويني، لخَّص فيه «مفتاح العلوم» للسَّكاكي، وللسَّعْد التفتازاني شرح على كل منهما.

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن القاسم القصار، المتوفى سنة ١٠١٢ رحمه الله.

اهتمامكم، فلا بد من حفظ «الرسالة» و«المختصر»[١] وفهمها إن شاء الله تعالى، فإن وقع إشكال في مسألة أو انغلق عليكم فهمها، فلا يكون حظكم فيها الاقتصار عنها وتوليتُها ما تولَّت، بل تتَّبعوها بسؤال من له معرفة بالفن، ومطالعة الدواوين والكتب حتى يقع الشفاء، ولا تحتقرن من تسأل، فبذلك أوصانا شيخنا إمام وقته السيد محمد القصار رضوان الله عليه.

ثم لا يكن بحثكم ذلك شاغلاً عن تحصيلِ أحسنِ ما يسلكه الطالب ـ إن كانت له أهلية النظر، وقابلية الفهم، وحصل له استعداد ـ: معرفةِ أدلة المسائل من الكتاب والسنة والإجماع، ومأخذها من هذه الأصول، حتى يلحق الفرع بالأصل، بحكم الربط والوصل.

ومعرفة قواعد إمامه التي بنى عليها أصوله وفروعه، وحينئذ لا بد له من معرفة أصول الفقه، و«جمعُ الجوامع» لابن السبكي محصِّل لما فيه الكفاية منه، ومن معرفة القواعد المذهبية، وفي «إيضاح المسالك» للوَنْشَرِيسي من ذلك ما يكفي، وقد نظمه ابنُه سيدي عبد الواحد في «أرجوزة» مقيدة وزاد عليه[٢]، ونظم القواعد أيضاً:

---

(١) «الرسالة» للإمام ابن أبي زيد القيرواني المالكي، المتوفى سنة ٣٨٦ رحمه الله، وكان يقال له: مالك الصغير، وتلقى الناس كتابه هذا بالقبول جداً، وتنافسوا في اقتنائه، حتى إنهم كتبوه بالذهب.

أما «المختصر» فهو مختصر الإمام خليل بن إسحاق الجندي، المتوفى سنة ٧٧٦، وهو أشهر متأخري المالكية، وكتابه هذا أشهر كتبهم.

(٢) الفقيه المفتي عبد الواحد بن أحمد بن يحيى الوَنْشَرِيسي، أرّخ وفاته =

الزَّقّاق[١]، ومن قصد إلى ذلك يتتبع مظانه: كـ «قواعد» القرافي والمَقَّري وغيرهما.

ثم ليكن قصدكم في ذلك التقربَ إلى الله تعالى مخلصين له، ولا تدنِّسوا صَفْوَ قصدكم بشَوْب غرضٍ دنيوي، فإن الدنيا أحقر من أن تقصد بأشرف المطالب، وفائدة العلم العمل، وليس فيما سوى الله تعالى للعاقل أمل، و«إنما الأعمال بالنيات...» إلى آخره، فأصلحوا نيتكم ما استطعتم، والتزموا التقوى وعمل البر، فإن ذلك ذخر ونجاة في الدنيا والآخرة.

وتحلُّوا بحلل الأخيار جهدكم، فتخلَّقوا بتعظيم ما عظمه الله تعالى، والتواضع، والحياء، والوقار، والسكينة، وكرم النفس والأعضاء، والصفح، وغضّ البصر عما لا يليق النظر إليه، والعفاف، وحسن العشرة، ولين الجانب، ونزاهة النفس، والتنزه عن سفساف الأمور وما يُخلّ بالمروءة، واكتساب الصفات الحميدة ما أمكن.

وإياكم والكِبْرَ، وأضرُّه: في التعلم، والبطشَ، واتباع الشهوات، ومن أضرِّ الأشياء صديقُ السوء، فإن صديق السوء يُردي، والطباع تَسرق الطباع، وقالت العامة: كن مع من تكون، فمثله، ومع من رأيتك شَبَّهتك، وإياك أن تَرضَى بصحبة ساقط.

«ولا تصحب من لا يُنهضك حالُه، ولا يدلُّك على الله تعالى

التُّنْبكتي في «نيل الابتهاج» ص٢٨٩: سنة ٩٥٥ رحمه الله، وكلمة «مقيـدة» هكـذا في المطبوع الذي أنقل منه، وتحتمل أن تكون: مفيدة، بالفاء.

(١) العلامة أبو الحسن علي بن محمد الزقّاق التجيبي، المتوفى سنة ٩١٢ رحمه الله.

مقاله»[1]، فإن كنتَ في قوم فصاحبْ خيارهم، وإذا صحبتم الأخيار فالزموا الأدب والوقار، وإياكم والاستغراقَ في البسط والاعتماد على الدالّة، فإن ذلك يزرع الضغائن، ويثير الكمائن، ومَن مازح الناس استخفّوا به، وكان محمولاً على خفته، والطبيعةُ داعية للمزاح، فليكن في الكلام بقدر الملح من الطعام.

وعُدُّوا كلامكم من عملكم، وأصلحوا من عملكم ما استطعتم، وانشغلوا بما يَعنيكم، فـ«مِن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، واعرفوا حقَّ أهل محبة آبائكم، فإن برَّ الرجل إكرامُه أهلَ ودِّ أبيه»، انتهت الوصيّة. وبها يتمّ الكتاب.

وأسأل الله تعالى التوفيق والإخلاص والقبول والنفع به، وهو أكرم الأكرمين، والرجاء من الله تعالى ـ وهو أرحم الراحمين ـ أن يمنَّ على الأمة المحمدية بالفرج والنصر واللطف، والعزة والكرامة، في الأحوال كلها.

وصلى الله وسلَّم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

المدينة المنورة ٩/ ٢/ ١٤٣٤هـ محمد عوّامة

---

(١) تقدم ص١٥٥ أن هذه حكمة من حكم ابن عطاء الإسكندري رحمه الله.

فهرس الآيات القرآنية

سورة الفاتحة

سورة البقرة

سورة آل عمران

سورة النساء

سورة المائدة

سورة الأنفال

سورة التوبة

سورة هود

سورة إبراهيم

سورة الحجر

سورة النحل

سورة فصلت

سورة الأحقاف

سورة محمد

سورة ق

سورة الحديد

سورة الجمعة

سورة تبارك

سورة المطففين

سورة الشرح

* * * * *

فهرس الأحاديث والآثار

* * * * *

فهرس الأشعار

أ

ب

ت

ج

ر

* * * * *

فهرس الأعلام

حرف الألف

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الشين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف النون

* * * * *

فهرس المصادر والمراجع

١ ـ إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، للبوصيري، طبعة عادل بن سعد، والسيد بن محمود بن إسماعيل، مكتبة الرشد، الرياض، الأولى، ١٤١٩.

٢ ـ الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصورة المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٨.

٣ ـ أثر الحديث الشريف في اختلاف الأئمة الفقهاء، لمحمد عوامة، دار اليسر، ودار المنهاج، جدة، الخامسة، ١٤٢٨.

٤ ـ الأحكام السلطانية، لأبي يعلى الفراء، تصحيح محمد حامد الفقي، مصورة دار الكتب العلمية، ١٤٠٣.

٥ ـ أحكام القرآن، لابن العربي، طبعة محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤٠٨.

٦ ـ إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، مصورة دار الريّان للتراث، القاهرة.

٧ ـ أخبار أبي حنيفة وأصحابه، للصَّيْمَري، تصحيح أبي الوفا الأفغاني، نشر دائرة المعارف العثمانية، في حيدر آباد الدكن.

٨ ـ الآداب الشرعية، لابن مفلح، إشراف شعيب الأرناؤوط، وعمر القيام، الرسالة، ١٤١٩.

٩ ـ آداب الفقيه والمتفقه، للخطيب، تحقيق عادل بن يوسف العزازي، ابن الجوزي، الدمام، الأولى، ١٤١٧.

١٠ ـ أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين، لمحمد عوامة، دار اليسر، ودار المنهاج، جدة، الثالثة، ١٤٢٨.

١١ ـ أدب الإملاء والاستملاء، لأبي سعد السمعاني، تحقيق أحمد محمد محمود، المحمودية، الأولى، ١٤١٤.

١٢ ـ أدب الدنيا والدين، للماوردي، تحقيق مصطفى السقا، تصوير مكتبة

الرياض الحديثة بالرياض.

١٣ ـ أدب المتعلم تجاه العلم، لعبد الحكيم الأنيس، دائرة الشئون الإسلامية، دبي، الأولى، ١٤٢٩.

١٤ ـ أدب المفتي والمستفتي، لابن الصلاح، تحقيق موفق عبد الله عبد القادر، مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة، الأولى، ١٤٠٧.

١٥ ـ الأدب المفرد، للبخاري، طبعة محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الثالثة، ١٤٠٩.

١٦ ـ الاستذكار لمذاهب فقهاء الأمصار، لابن عبد البر، تصحيح عبد المعطي قلعجي، دار قتيبة، دمشق، ودار الوعي، حلب، الأولى، ١٤١٤.

١٧ ـ الاستغنا في معرفة المشهورين من حَمَلة العلم بالكنى، لابن عبد البر، تحقيق عبد الله مرحول السوالمة، دار ابن تيمية ، الرياض، الأولى، ١٤٠٥.

١٨ ـ الاستيعاب لأسماء الأصحاب، لابن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، مصورة دار الجيل، بيروت، الأولى، ١٤١٢.

١٩ ـ أُسْد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير، تحقيق محمد إبراهيم البنا وزملائه، طبعة الشعب.

٢٠ ـ إسعاف المبطأ في معرفة رجال الموطأ، للسيوطي، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، ١٣٥٣.

٢١ ـ الأشباه والنظائر، لابن نجيم، تحقيق محمد مطيع الحافظ، تصوير دار الفكر بدمشق.

٢٢ ـ الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، مصورة دار صادر لطبعة السلطان عبد الحفيظ، ١٣٢٨.

٢٣ ـ الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الثامنة، ١٩٨٩م.

٢٤ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة دار السعادة.

٢٥ ـ إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، لمحمد راغب الطباخ، تصحيح محمد

كمال، دار القلم العربي، حلب، الثانية، ١٤٠٩.

٢٦ ـ الإعلان بالتوبيخ، للسخاوي، تحقيق روزنثال، طبعة مؤسسة الرسالة، الثانية، ١٤٠٣، ومصورة دار الكتب العلمية.

٢٧ ـ الإفادات والإنشادات، لأبي إسحاق الشاطبي، تحقيق محمد أبو الأجفان، مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٤٠٣.

٢٨ ـ إفادة النصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح، لابن رشيد، تحقيق محمد الحبيب الخوجة، الدار التونسية.

٢٩ ـ اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، دار الأرقم، الكويت.

٣٠ ـ إكمال المُعْلِم بفوائد مسلم، للقاضي عياض، تحقيق يحيى إسماعيل، مكتبة الرشد، الرياض، الأولى، ١٤١٩.

٣١ ـ الإلماع، للقاضي عياض، تحقيق السيد أحمد صقر، طبعة دار التراث والمكتبة العتيقة، ١٣٨٩.

٣٢ ـ الأمالي، لأبي علي القالي، مصورة دار الحديث ببيروت، الثانية، ١٤٠٤.

٣٣ ـ الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء، لابن عبد البر، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، الأولى، ١٤١٦.

٣٤ ـ أيها الولد، للغزالي، تحقيق علي محيي الدين قره داغي، دار البشائر الإسلامية، الثانية ١٤٠٥.

٣٥ ـ البحر الذي زخر في شرح ألفية الأثر، للسيوطي، تحقيق أنيس بن أحمد الأندنوسي، مكتبة الغرباء الأثرية، بالمدينة المنورة، الأولى، ١٤٢٠.

٣٦ ـ البحر الزخار، للبزار، تحقيق محفوظ الرحمن، نشر مؤسسة علوم القرآن، ومكتبة العلوم والحكم، الأولى، ١٤٠٩.

٣٧ ـ البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي النحوي، دار الفكر، بيروت، الثانية، ١٤٠٣.

٣٨ ـ البداية والنهاية، لابن كثير، تحقيق عبد الله التركي، دار الكتب العلمية،

بيروت، الأولى، ١٤٠٥.

٣٩ ـ البدر المنير، لابن الملقن، تحقيق جمال محمد السيد، وآخرين، دار العاصمة، الرياض، الأولى، ١٤٣٠.

٤٠ ـ البرهان في أصول الفقه، لإمام الحرمين، تحقيق عبد العظيم محمود الديب، دار الوفاء بالمنصورة، الأولى ١٤١٢.

٤١ ـ بغية الطلب في تاريخ حلب، لابن العديم، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت.

٤٢ ـ بغية الوعاة، للسيوطي، مصورة طبعة محمد أبو الفضل إبراهيم.

٤٣ ـ بلوغ أقصىٰ المرام في شرف العلم وما يتعلق به من الأحكام، لأبي عبد الله محمد بن مسعود الطرنباطي الفاسي، تحقيق عبد الله رمضاني، مركز الدراسات والأبحاث، الرباط، الأولى ١٤٢٩.

٤٤ ـ بلوغ الأماني في سيرة الإمام محمد بن الحسن الشيباني، للكوثري، طبعة الخانجي.

٤٥ ـ البناية في شرح الهداية، للعيني، تحقيق فيض أحمد الملتاني، المكتبة الحقّانية، الأولى.

٤٦ ـ تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر، تحقيق عمر العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥.

٤٧ ـ تاريخ أبي زرعة الدمشقي، تحقيق شكر الله قوجاني، الأولى، من منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق.

* ـ تاريخ أصبهان = ذكر أخبار أصبهان.

٤٨ ـ التاريخ الكبير، لابن أبي خيثمة (مخطوط)، وطبعة صلاح فتحي هلل، الفاروق الحديثة، الأولى، ١٤٢٤.

٤٩ ـ التاريخ الكبير، للبخاري، مصورة المكتبة الإسلامية، تركيا، لطبعة حيدرآباد، ١٣٦١.

٥٠ ـ التاريخ الأوسط، للبخاري، تحقيق تيسير أبو حيمد ويحيى الثمالي، مكتبة

الرشد، الرياض، الأولى، ١٤٢٦.

٥١ ـ تاريخ بغداد، تحقيق بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، الأولى، ١٤٢٢.

* ـ تاريخ يعقوب بن سفيان = المعرفة والتاريخ.

٥٢ ـ تبيين كذب المفتري، لابن عساكر، تحقيق الكوثري، مطبعة التوفيق، دمشق، ١٣٤٧.

٥٣ ـ التحبير في المعجم الكبير، لأبي سعد السمعاني، تحقيق منيرة ناجي سالم، مطبعة بغداد.

٥٤ ـ تحريم النَّرْد والشِّطرنج والملاهي، للآجري، تحقيق محمد سعيد إدريس، الأولى، ١٤٠٢.

٥٥ ـ تحفة الأحوذي شرح الترمذي، للمباركفوري، طبعة عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة.

٥٦ ـ تحفة الأخيار بإحياء سنة سيد الأبرار، للكنوي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الأولى.

* ـ تخريج الإحياء = المغني عن حمل الأسفار.

٥٧ ـ التدوين في أخبار قزوين، للرافعي، ضبطه عزيز الله العطاردي، توزيع دار الباز بمكة المكرمة، ١٤٠٨.

٥٨ ـ تذكرة الحفاظ، للذهبي، تحقيق المعلِّمي، مصورة دار الكتب العلمية.

٥٩ ـ تذكرة السامع والمتكلم، للبدر ابن جماعة، تحقيق السيد محمد هاشم الندوي، مصورة دار الكتب العلمية، لطبعة دائرة المعارف العثمانية، بالهند.

٦٠ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك، للقاضي عياض، تحقيق علي عمر، دار الثقافة الدينية، الأولى، ١٤٣٠.

٦١ ـ الترغيب والترهيب، للمنذري، طبعة مصطفى محمد عمارة، نشر إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر.

٦٢ ـ تصحيفات المحدِّثين، لأبي أحمد العسكري، تحقيق محمود ميرة، المطبعة العربية الحديثة، مصر، الأولى، ١٤٠٢.

٦٣ ـ التعليق الممجَّد، لعبد الحي اللكنوي، تحقيق تقي الدين الندوي، دار السنة والسيرة، بومباي، دار القلم، دمشق، الأولى، ١٤١٢.

٦٤ ـ تعليم المتعلم في طريق التعلّم، للبرهان الزرنوجي، تحقيق صلاح الخيمي، ونذير حمدان، دار ابن كثير، دمشق، الأولى، ١٤٠٦.

٦٥ ـ تفسير ابن كثير، تحقيق محمد إبراهيم البنا، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، الأولى، ١٤١٩.

٦٦ ـ تفسير التحرير والتنوير، للطاهر ابن عاشور، مصورة مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.

٦٧ ـ تفسير الفخر الرازي، مصورة دار الفكر، بيروت، الثالثة، ١٤٠٥.

* ـ تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن.

٦٨ ـ التقاسيم والأنواع، لابن حبان، تحقيق محمد علي سونمر، وخالص آي دمير، إصدار وزارة الأوقاف القطرية، الأولى، ١٤٣٣.

٦٩ ـ تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، مع حاشية البصري والميرغني، تحقيق محمد عوامة، دار اليسر، الطبعة الثالثة من الإخراج الجديد، ١٤٣٣.

٧٠ ـ التلخيص الحبير، لابن حجر، طبعة عبد الله هاشم اليماني، ١٣٨٤.

٧١ ـ التمهيد، لابن عبد البر، تحقيق مصطفى العلوي وآخرين، ١٣٨٧.

٧٢ ـ التنويه والإشادة، بمقام رواية ابن سعادة، لعبد الحي الكتاني، تحقيق عبد المجيد خِيّالي، مركز نجيبويه، الأولى، ١٤٢٩.

٧٣ ـ تهذيب الأسماء واللغات، للنووي، مصورة دار الكتب العلمية، بيروت، للطبعة المنيرية بالقاهرة.

٧٤ ـ تهذيب التهذيب، لابن حجر، تصوير دار صادر، بيروت، لطبعة حيدر آباد الدكن.

٧٥ ـ تهذيب الكمال، للمزي، تحقيق بشار عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الخامسة، ١٤١٣.

٧٦ ـ التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، تحقيق محمد رضوان الداية،

دار الفكر، دمشق، الأولى، ١٤١٠.

٧٧ ـ الثقات، لابن حبان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الأولى، ١٣٩٧.

٧٨ ـ جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، تحقيق إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الخامسة، ١٤١٤.

٧٩ ـ جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، تحقيق سمير الزهيري، دار ابن الجوزي، الدمام، الثانية، ١٤١٦.

٨٠ ـ الجامع، لابن البيطار، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٢.

٨١ ـ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، مصورة بيروت عن الطبعة الثانية بدار الكتب المصرية.

٨٢ ـ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب، تحقيق محمد عجاج الخطيب، مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٤١٢.

٨٣ ـ الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم، مصورة دار الأمم، بيروت، لطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ١٣٧١.

٨٤ ـ الجواهر المضية في طبقات الحنفية، للقرشي، تحقيق عبد الفتاح الحلو، مصورة دار الرياض لطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٩٨.

٨٥ ـ الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، للسخاوي، تحقيق إبراهيم باجس عبد الحميد، دار ابن حزم، بيروت، الأولى، ١٤١٩.

٨٦ ـ الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، لأبي هلال العسكري، تحقيق مروان قباني، المكتب الإسلامي، الأولى، ١٤٠٦.

٨٧ ـ حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني، مصورة دار الريان للتراث، ودار الكتاب العربي، بيروت، الخامسة، ١٤٠٧.

٨٨ ـ الدرر الكامنة، لابن حجر العسقلاني، مصورة دار الجيل لطبعة حيدر آباد الدكن، بيروت، ١٤١٤.

٨٩ ـ الديباج المُذْهب في معرفة علماء أعيان المذهب، لابن فرحون، تحقيق

الأحمدي أبو النور، دار التراث، الثانية، ١٤٢٦.

٩٠ ـ ديوان حافظ إبراهيم، نشر دار العودة، بيروت.

٩١ ـ ذيل تاريخ الإسلام، للذهبي، اعتناء مازن باوزير، دار المغني، الرياض، الأولى، ١٤١٩.

٩٢ ـ ذيل تاريخ بغداد، لابن النجار، طبع دائرة المعارف النعمانية، حيدر آباد، الدكن، الأولى، ١٣٩٨.

٩٣ ـ ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب، تحقيق عبد الرحمن العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، الأولى، ١٤٢٥.

٩٤ ـ الرحلة في طلب الحديث، للخطيب، تحقيق نور الدين عتر، مصورة دار الكتب العلمية، للطبعة الأولى ١٣٩٥.

٩٥ ـ رد المحتار على الدر المختار، لابن عابدين، تصوير دار إحياء التراث العربي، بيروت، لطبعة بولاق، الثانية، ١٤٠٧.

٩٦ ـ الرسالة، للقشيري، بشرح زكريا الأنصاري، مصورة عبد الوكيل الدروبي وياسين عرفة بدمشق.

٩٧ ـ رسالة المسترشدين، للمحاسبي، تحقيق وشرح عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الثامنة، ١٤١٦.

٩٨ ـ الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين، للقابسي، تحقيق أحمد خالد، الشركة التونسية، الأولى، ١٩٨٦.

٩٩ ـ رسائل الإصلاح، لمحمد الخضر حسين، مطبعة الهداية الإسلامية، ١٣٥٨.

١٠٠ ـ روح المعاني، للآلوسي، تحقيق ماهر حبوش وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولى، ١٤٣١.

١٠١ ـ رياض النفوس في تراجم علماء القيروان، لأبي بكر المالكي، تحقيق بشير البكّوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣.

١٠٢ ـ الزهد، لابن المبارك، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، مصورة دار

الكتب العلمية، بيروت.

١٠٣ ـ الزهد، لأحمد بن حنبل، دار الريان، القاهرة، الأولى، ١٤٠٨.

١٠٤ ـ سمط اللآلئ، للبكري، تحقيق عبد العزيز الميمني، مصورة دار الحديث، بيروت، الثانية، ١٤٠٤.

١٠٥ ـ سنن ابن ماجه، طبعة محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة.

١٠٦ ـ سنن أبي داود، تحقيق محمد عوامة، دار اليسر، ودار المنهاج، جدة، الثالثة، ١٤٣١.

١٠٧ ـ سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤٠٨.

١٠٨ ـ سنن الدارقطني، طبعة عبد الله هاشم يماني، المدينة المنورة، ١٣٨٦.

١٠٩ ـ سنن الدارمي، تصحيح فواز زمرلي وخالد العلمي، دار الريان، القاهرة، الأولى، ١٤٠٧.

١١٠ ـ السنن الصغرى، للنسائي، اعتناء وترقيم عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الثانية، ١٤٠٩.

١١١ ـ السنن الكبرى، للبيهقي، مصورة دار الفكر، بيروت، لطبعة حيدر آباد الدكن.

١١٢ ـ سير أعلام النبلاء، للذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وزملائه، مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولى، ١٤٠٢.

١١٣ ـ شرف أصحاب الحديث، للخطيب، تحقيق محمد سعيد خطيب أوغلو، مطبعة جامعة أنقرة، الأولى، ١٩٧١.

١١٤ ـ شرح الإلمام، لابن دقيق العيد، تحقيق محمد خلوف العبد الله، دار النوادر، دمشق، الثانية، ١٤٣٠.

١١٥ ـ شرح حديث أبي الدرداء، لابن رجب، تحقيق طلعت الحلواني، دار الفاروق الحديثة، القاهرة، الأولى، ١٤٢٣.

١١٦ ـ شرح صحيح مسلم، للنووي، مصورة المطبعة المصرية ومكتبتها.

١١٧ ـ شرح مختصر الروضة، للطوفي، تحقيق عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولى، ١٤٠٩.

١١٨ ـ الشمائل المحمدية، للترمذي، بشرح الباجوري، اعتناء محمد عوامة، دار اليسر، ودار المنهاج، جدة، الثانية، ١٤٢٨.

١١٩ ـ الصحاح، للجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور العطار، الثانية، ١٤٠٢.

* ـ صحيح ابن حبان = التقاسيم والأنواع.

١٢٠ ـ صحيح ابن خزيمة، اعتناء محمد مصطفى الأعظمي، مكتبة الأعظمي، الرياض، الثالثة، ١٤٣٠.

١٢١ ـ صحيح البخاري، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي = فتح الباري.

١٢٢ ـ صحيح مسلم، طبعة محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

١٢٣ ـ صفة الصفوة، لابن الجوزي، تحقيق محمود فاخوري، ومحمد رواس قلعجي، دار المعرفة، بيروت، الرابعة، ١٤٠٦.

١٢٤ ـ صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، لعبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، الخامسة، ١٤١٨.

١٢٥ ـ الصلة، لابن بَشْكُوال، تحقيق بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، الأولى، ٢٠١٠م.

١٢٦ ـ صيد الخاطر، لابن الجوزي، تقديم وتعليق علي الطنطاوي، دار المنارة، جدة، الخامسة، ١٤١٢.

١٢٧ ـ الضوء اللامع، للسخاوي، مصورة دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، لطبعة القدسي.

١٢٨ ـ طبقات الشافعية، لابن الصلاح والنووي والمزي، تحقيق محيي الدين نجيب، دار البشائر الإسلامية، الأولى، ١٤١٣.

١٢٩ ـ طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى، تصحيح محمد حامد الفقي، مصورة دار المعرفة، بيروت.

* ـ طبقات الحنفية = الجواهر المضية.

١٣٠ ـ طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، الأولى، ١٣٨٣.

١٣١ ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد، تحقيق علي عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الأولى، ١٤٢١.

١٣٢ ـ العقد الفريد، لابن عبد ربه، مصورة دار الكتاب العربي، لطبعة دار الكتب المصرية، ١٤٠٣.

١٣٣ ـ عقود الجمان في مناقب أبي حنيفة النعمان، للصالحي، تحقيق أبو الوفاء الأفغاني، نشر إحياء المعارف النعمانية في حيدر آباد، ١٣٩٤.

١٣٤ ـ العلل ومعرفة الرجال، لعبد الله بن الإمام أحمد، تحقيق وصي الله عباس، المكتب الإسلامي، بيروت، الأولى، ١٤٠٨.

١٣٥ ـ عمدة التحقيق في التقليد والتلفيق، لمحمد سعيد الباني، تصوير المكتب الإسلامي بدمشق، ١٤٠١.

١٣٦ ـ العناية على الهداية، للبابرتي، على حاشية: فتح القدير، لابن الهمام، مصورة دار إحياء التراث العربي، للطبعة الميمنية، ١٣١٩.

١٣٧ ـ عيون الأخبار، لابن قتيبة، مصورة دار الكتاب العربي لطبعة دار الكتب المصرية.

١٣٨ ـ غرر البهاء الضوي، لمحمد بن علي باعلوي، الطبعة الأولى، طبعة أحفاد المؤلف.

١٣٩ ـ غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلاّم، مصورة دار الكتاب العربي، بيروت، لطبعة حيدر آباد الدكن، ١٣٩٦.

١٤٠ ـ الغنية، فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق ماهر جرار، دار الفجر الإسلامي، الأولى، ١٤٠٢.

١٤١ ـ فتاوى البرزلي، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، الأولى، ٢٠٠٢.

١٤٢ ـ الفتاوى السراجية، لسراج الدين الأوشي، تحقيق محمد عثمان البستوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٣٢.

١٤٣ ـ الفتاوى الكبرى، لابن تيمية، تصحيح حسنين محمد مخلوف، مصورة دار المعرفة.

١٤٤ ـ الفتاوىٰ الحديثية، لابن حجر المكي، مصورة دار المعرفة، لطبعة عيسى البابي الحلبي.

١٤٥ ـ فتح الباري، لابن حجر، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، وتصحيح محب الدين الخطيب، مصورة دار الفكر، بيروت، للطبعة السلفية بمصر.

١٤٦ ـ فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي، للسخاوي، تحقيق عبد الكريم الخضير، ومحمد عبد الله آل فهيد، دار المنهاج، الرياض، الثانية، ١٤٢٨.

١٤٧ ـ الفتوى الحَمَوية الكبرى، لابن تيمية.

١٤٨ ـ فضائل أبي حنيفة، لابن أبي العوام، اعتناء لطيف الرحمن البهرائجي، المكتبة الإمدادية، مكة المكرمة، الأولى، ١٤٣١.

١٤٩ ـ فضائل القرآن، لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق وهبي سليمان غاوجي، الأولى، ١٤١١.

١٥٠ ـ فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد، لفضل الله الجيلاني، المكتبة السلفية، القاهرة، الثالثة، ١٤٠٧.

١٥١ ـ فهرس الفهارس، لعبد الحي الكتاني، عناية إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الثانية، ١٤٠٢.

١٥٢ ـ فيض القدير، للمناوي، مصورة دار المعرفة، بيروت، الثانية، ١٣٩١.

١٥٣ ـ القاموس المحيط، للفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة ودار الريان، بيروت، الثانية، ١٤٠٧.

١٥٤ ـ قانون التأويل، لابن العربي المالكي، تحقيق محمد السليماني، دار القبلة، جدة، الأولى، ١٤٠٦.

١٥٥ ـ قِصر الأمل، لابن أبي الدنيا، تحقيق محمد خير رمضان، دار ابن حزم،

بيروت، الثانية، ١٤١٧.

١٥٦ ـ الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، للذهبي، تحقيق ودراسة محمد عوامة وأحمد الخطيب، دار اليسر، ودار المنهاج، جدة، الثانية، ١٤٣٠.

١٥٧ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل، للزمخشري، مصورة دار المعرفة، بيروت.

١٥٨ ـ الكفاية، للخطيب البغدادي، طبعة حيدر آباد الدكن، ١٣٥٧.

١٥٩ ـ الكليات، لأبي البقاء الكَفَوي، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، دمشق، ١٩٨١.

١٦٠ ـ كنز العمال، للمتقي الهندي، تصحيح صفوت السقا وبكري حياني، تصوير مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩، لطبعة مكتبة التراث الإسلامي بحلب.

١٦١ ـ لسان العرب، لابن منظور، مصورة دار صادر، بيروت.

١٦٢ ـ لسان الميزان، لابن حجر، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، الأولى، ١٤٢٣.

١٦٣ ـ لطائف المعارف، لابن رجب، تحقيق ياسين السواس، دار ابن كثير، دمشق، الرابعة، ١٤١٩.

١٦٤ ـ لفتة الكبد إلى نصيحة الولد، لابن الجوزي، تقديم وتعليق محمد ناصر الدين الألباني، ومحمود مهدي الاستانبولي، مطبعة الترقي بدمشق، ١٣٧٤.

١٦٥ ـ المجروحون من المحدثين والضعفاء والمتروكين، لابن حبان، تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب، الأولى، ١٣٩٦.

١٦٦ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي، طبعة مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٢.

١٦٧ ـ مجموع الفتاوى، لابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم وولده محمد، الثانية، ١٣٩٨.

١٦٨ ـ المجموع شرح المهذب، للنووي، مصورة دار الفكر للطبعة المنيرية، ومعه: فتح العزيز للرافعي.

١٦٩ ـ المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، للرامهرمزي، تحقيق محمد

عجاج الخطيب، دار الفكر، دمشق، الأولى، ١٣٩١.

١٧٠ ـ المحصول من علم الأصول، للفخر الرازي، تحقيق طه جابر العلواني، الأولى، ١٣٩٩.

١٧١ ـ مختارات من وصايا أندلسية مغربية، جمعها محمد بن عزوز، دار ابن حزم، الأولى، ١٤٢٤.

١٧٢ ـ المدخل إلى السنن الكبرى، للبيهقي، تحقيق ضياء الرحمن الأعظمي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت.

١٧٣ ـ المدخل، لابن الحاج، مصورة دار الفكر.

١٧٤ ـ مسائل أبي داود لأحمد بن حنبل (الفقهية)، تحقيق محمد رشيد رضا، ومحمد بهجة البيطار، مصورة دار المعرفة، بيروت.

١٧٥ ـ المستدرك، للحاكم، طبعة مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١١.

* ـ المستفاد من ذيل تاريخ بغداد = ذيل تاريخ بغداد.

١٧٦ ـ مسند أبي يعلى، تحقيق حسين أسد، طبعة دار المأمون، دمشق، الأولى، ١٤٠٤.

١٧٧ ـ مسند أحمد بن حنبل، مصورة دار صادر، بيروت، للطبعة الميمنية، ١٣٨٩.

* ـ مسند البزار = البحر الزخار.

١٧٨ ـ مسند الشاميين، للطبراني، تصحيح حمدي عبد المجيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولى، ١٤٠٩.

* ـ مسند عبد بن حميد = المنتخب من مسند عبد بن حميد.

١٧٩ ـ مسند عمر بن عبد العزيز، للباغندي، تحقيق محمد عوامة، دار اليسر، ودار المنهاج، جدة، الرابعة، ١٤٣٠.

١٨٠ ـ المصنف، لعبد الرزاق، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، طبع المجلس العلمي، جوهانسبرغ، جنوب إفريقيا، الثانية، ١٤٠٣.

١٨١ ـ المصنف، لأبي بكر بن أبي شيبة، تحقيق محمد عوامة، دار القبلة، جدة، الأولى، ١٤٢٧هـ.

١٨٢ ـ المطالب العالية، لابن حجر، تحقيق عبد الله التويجري وزملائه، تنسيق سعد الشثري، دار العاصمة، الرياض، الأولى، ١٤١٩.

١٨٣ ـ معالم التنزيل، للبغوي، تحقيق محمد عبد الله النمر، وآخرين، دار طيبة، الرياض، الأولى، ١٤٠٩.

١٨٤ ـ معالم السنن، للخطابي، تحقيق محمد راغب الطباخ، مصورة طبعة المكتبة العلمية، بحلب، الثانية ١٤٠١.

١٨٥ ـ معيد النعم ومبيد النقم، للتاج السبكي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الأولى، ١٤٠٧.

١٨٦ ـ المعتمد في الأدوية المفردة، للملك المظفر، تصحيح مصطفى السقا، دار القلم، بيروت.

١٨٧ ـ معجم الأدباء، لياقوت الحموي، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، الأولى، ١٣٩٣.

١٨٨ ـ المعجم الأوسط، للطبراني، طبعة طارق عوض الله، وعبد المحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥.

١٨٩ ـ معجم البلدان، لياقوت الحموي، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٠.

١٩٠ ـ معجم السفر، لأبي طاهر السِّلَفي، تحقيق شير زمان، مجمع البحوث الإسلامية، إسلام أباد، الأولى، ١٩٨٨.

١٩١ ـ المعجم الصغير، للطبراني، طبعة محمود شكور الحاج أمرير، المكتب الإسلامي، بيروت، دار عمّار، عمّان، الأولى، ١٤٠٥.

١٩٢ ـ المعجم الكبير، للطبراني، تصحيح حمدي عبد المجيد، وزارة الأوقاف والشئون الدينية، العراق، الثانية.

١٩٣ ـ معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار

الكتب العلمية، إيران، ، قُمّ.

١٩٤ ـ معرفة علوم الحديث، للحاكم، تحقيق أحمد فارس سلّوم، دار ابن حزم، بيروت، الأولى، ١٤٢٤.

١٩٥ ـ معرفة الصحابة، لأبي نعيم، تحقيق عادل العزازي، دار الوطن، الرياض، الأولى، ١٤١٩.

١٩٦ ـ المعرفة والتاريخ، ليعقوب بن سفيان الفَسَوي، تحقيق أكرم ضياء العمري، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الأولى، ١٤١٠.

١٩٧ ـ المعيد في أدب المفيد والمستفيد، للعَلْموي، تصحيح أحمد عبيد، الدار العربية بدمشق، الأولى.

١٩٨ ـ مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، الأولى، ١٤١٢.

١٩٩ ـ المقاصد الحسنة، للسخاوي، تحقيق عبد الله الصديق الغماري، مصورة دار الهجرة، بيروت، ١٤٠٦.

٢٠٠ ـ مقالات محمود الطناحي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الأولى، ١٤٢٢.

٢٠١ ـ المقدِّمات الممهِّدات، لابن رشد الجدّ، تحقيق محمد الحجي، دار الغرب الإسلامي، الأولى، ١٤٠٨.

٢٠٢ ـ مقدمة علوم الحديث، لابن الصلاح، تحقيق نور الدين عتر، مطبعة الأصيل، حلب، الأولى، ١٣٨٦.

٢٠٣ ـ المقفَّى الكبير، للمقريزي، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، الأولى، ١٤١١.

٢٠٤ ـ المكافأة، لأحمد بن يوسف البغدادي المصري الكاتب، تحقيق أحمد أمين وعلي الجارم، طبعة بولاق، ١٩٤١.

٢٠٥ ـ من أدب المحدثين في التربية والتعليم، لأحمد محمد نور سيف، دار البحوث والدراسات الإسلامية، دبيّ، الثانية، ١٤١٨.

٢٠٦ ـ مناقب أبي حنيفة، للموفق المكي، مصورة دار الكتاب العربي، ١٤٠١.

٢٠٧ ـ مناقب الشافعي، للبيهقي، تحقيق السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، الأولى، ١٣٩١.

٢٠٨ ـ المنتخب من مسند عبد بن حميد، طبعة مكتبة السنة، القاهرة، الأولى، ١٤٠٨.

٢٠٩ ـ المنتظَم في تاريخ الأمم والملوك، لابن الجوزي، طبعة محمد ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤١٢.

٢١٠ ـ المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي، للسيوطي، تحقيق أحمد شفيق دمج، دار ابن حزم، بيروت، الأولى، ١٤٠٨.

٢١١ ـ الموافقات، للشاطبي، تعليق عبد الله دراز وولده محمد، مصورة دار الفكر العربي.

٢١٢ ـ الموطأ، لمالك بن أنس، تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

٢١٣ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للذهبي، تحقيق رضوان العرقسوسي وآخرين، الرسالة العالمية، الأولى، ١٤٣٠.

٢١٤ ـ نصب الراية لأحاديث الهداية، للزيلعي، تصحيح محمد عوامة، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، الأولى، ١٤١٨، تصوير لطبعة دار المأمون، القاهرة، ١٣٥٧.

٢١٥ ـ نفح الطِّيب، للمقَّري، تحقيق إحسان عباس، مصورة دار صادر، بيروت، ١٣٨٨.

٢١٦ ـ النكت الوفية بما في شرح الألفية للعراقي، للبقاعي، تحقيق ماهر الفحل، دار الرشد، الرياض، الأولى، ١٤٢٨.

٢١٧ ـ النكت على ابن الصلاح، للزركشي، تحقيق زين العابدين بلافريج، أضواء السلف، الأولى، ١٤٢٩.

٢١٨ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد

الزاوي ومحمود محمد الطَّنَاحي، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٣هـ.

٢١٩ ـ نيل الابتهاج بتطريز الديباج، للتُّنْبُكتي، إشراف عبد الحميد الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، الأولى، ١٤٠٩.

٢٢٠ ـ الوافي بالوَفَيات، للصفدي، اعتناء هلموت ريتر وآخرين، نشر دار فرانز شتايز، شتوكغارت، الثانية، ١٤١٢.

٢٢١ ـ وفيات الأعيان، لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر.

* * * * *

فهرس الموضوعات

* * * * *

صدر للأستاذ محمد عوامة

١ ـ أثر الحديث الشريف في اختلاف الأئمة الفقهاء رضي الله عنهم، بقلم محمد عوامة، الطبعة السادسة.

٢ ـ مسند أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، للباغَنْدي، تخريج وشرح لأحاديثه، وتكملة لمروياته، الطبعة الرابعة.

٣ ـ دراسة حديثية مقارنة لنصب الراية، وفتح القدير، ومنية الألمعي، مع مقابلة نصب الراية بمخطوطتين، وتصحيح لأكثر من ألف خطأ مطبعي فيه.

٤ ـ الأنساب، للسمعاني، من أول حرف الشين إلى آخر حرف العين. (تحقيق)

٥ ـ تقريب التهذيب، للحافظ ابن حجر، مع مقابلته بأصل مؤلفه ودراسة وافية عنه، الطبعة السادسة، دون الحاشيتين الآتي ذكرهما.

٦ ـ تقريب التهذيب، للحافظ ابن حجر، بحاشيتي العلامة عبد الله بن سالم البصري وتلميذه الميرغني، مقابلة بأصول مؤلفيها الثلاثة، مع زيادات على الإخراج السابق في التصحيح والتعليق، الطبعة الثالثة.

٧ ـ أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين، بقلم محمد عوامة، الطبعة الرابعة.

٨ ـ الكاشف، للذهبي، مع حاشية سبط ابن العجمي، مع مقدمات وافية، ودراسة نقدية لكثير من تراجمه، وساعده في مقابلتهما بأصل مؤلفيهما وبتخريج نصوصهما الدكتور أحمد محمد نمر الخطيب، الطبعة الثانية.

٩ ـ من صحاح الأحاديث القدسية، مئة حديث قدسي مع شرحها، بقلم محمد عوامة، الطبعة الخامسة.

١٠ ـ المختار من فرائد النقول والأخبار، ثلاثة أقسام في مجلد واحد، اختيار

وجمع محمد عوامة، الطبعة الثالثة.

١١ ـ مجالس في تفسير قوله تعالى «لقد منَّ الله على المؤمنين..»، للحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي، مقابلة بأصل مؤلفها، مع تخريج نصوصها والتعليق عليها، الطبعة الثانية.

١٢ ـ القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع ﷺ، للسخاوي، مقابلاً بأصل مؤلفه وأربعة أصول أخرى، فجاء أكمل نصّ للكتاب، الطبعة الثالثة.

١٣ ـ السنن، للإمام أبي داود السجستاني، حققه وضبطه وعلَّق عليه وقابله بأصل الحافظ ابن حجر وسبعة أصول أخرى، الطبعة الثالثة.

١٤ ـ الشمائل المحمدية، للإمام الترمذي، بشرح الباجوري، الطبعة الثالثة.

١٥ ـ المصنف، للإمام الحافظ أبي بكر ابن أبي شيبة، مع تخريج أحاديثه وتقويم نصوصه ومقابلته بعدَّة نسخ خطية، الطبعة الأولى.

١٦ ـ حجية أفعال رسول الله ﷺ أصولياً وحديثياً، وفيه: عصمته من الخطإ والخطيئة، بقلم محمد عوامة، الطبعة الأولى.

* * * * *

